إهداء

لا يوجد شيءٌ بالنسبة للكاتب - إذا ما أهدى أحدًا شيئًا - أغلى عليه بالتأكيد من كلماته
لذا فقد تقررين قراءة روايتي البسيطة في نسخة صالح الورقية
لكن ستظل هذه هي نسختك الخاصة، وهديتك التي أتشرف بإهدائك إياها
فإذا ما كانت أية رواية على قلب كاتبها غالية، فصداقة من مثلك لا تقل مكانة ؛

حسام

نداءُ الملِك

فانتازيا من التراث الشعبي

حسام عادل

نِداءُ الملِك

لله أولًا وآخرًا...

صاحب الملكوت، وواهب الإشارات التي أتمنى أن أكون أحسنت استقبالها.

- تقول الروائية الأمريكية (توني موريسن)، الحائزة على جائزة نوبل للآداب: «إذا كان ثمّ كتابٌ تتوق حقًا لقراءته، ولكنه لم يوجد بعد، فعليك أن تكتبه بنفسك». حسنٌ، هذه الرواية بأحداثها وشخصياتها، على بساطتها، هي ما كنت أتوق منذ زمنٍ لقراءته، لذا أتمنى صادقًا أن يروقك اختياري.

- البلاد والممالك المذكورة في الرواية خيالية، ولا تمُتّ للأعلام الحقيقية بأدنى صلة.

- الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال تم تجاوزه تمامًا في الأحداث، لذا فأيَّة معلومة، أو مقولة، أو شخصية لا تتبعها إشارة تُخبرك أنها حقيقية وذات أصلٍ تاريخي، لا تعتمد عليها أو تصدقها.

- هذه الرواية مُهداة إلى أول من علمني كيف أحب التراث الشعبي وحكاياته الساحرة، دون أن أجد نفسي منجرفًا إلى عوالم أخرى غربية الطابع، لا أجد فيها شيئًا من نفسي أو هويتي.

إلى روح الكاتب بسيط الشهرة، عظيم المقام: فاروق خورشيد.

تقديم

هذه رواية كُتِبَت لتُحفظ في خانة الأعمال المُبشرة، التي سنعود إليها لاحقا عندما يُصبح حسام عادل اسمًا كبيرًا في عالم الأدب، لنتذكر كيف حملت البدايات ما يُنبيء بميلاد كاتب واعد منذ أولى رواياته.

في (نداء الملك) عوالم ساحرة، حَطَّ فيها القلم على الكثير من العصور والحقب التاريخية، ليستخلص من رحيقها عسلًا أدبيًا مُمتعًا، أُضيفت إلى نكهته حلاوة الفانتازيا، وروعة المسارات البديلة لما ذهبت إليه الأمور في عالمنا.

ستتلاشى الحواجز بين الواقع والخيال من الصفحة الأولى، التي ما أن تمر فوق سطورها الأعين، حتى يجد القاريء نفسه أسيرًا لرحلة مثيرة ومذهلة، تحمل غبار الصحراء، وآثار الخيل، وصليل السيوف، بأصواتِ شخوصٍ بعضها حقيقي لكننا نتعرف عليها بشكل مُختلف، وأخرى نتمنى لو خُلقت حقًا، من فرط فتنتها وجاذبيتها.

هلموا هلموا.. الآن يبدأ الحكي..

شريف عبد الهادي.

سِيرَةُ مَا قَبْلَ البِدَايَة

(١)

كان الصمت مهيبًا، والفجر يسكب ضوءه من وراء النافذة المُشرعة على الأرض، فيبدد بعض الظلمة الجاثمة في صحن الدار. دنا (ابن الزبير) منها ببطء وركع. همس وهو يعانق كفّها:

- يا أمّه، خذلني الناس حتى ولديَّ وأهلي. لم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، وأولئك القوم سيعطونني ما أردتُ من الدنيا، فما رأيكِ؟

رنت إلى العتمة مليًا ولم تجب. كان قلبها ينخلع. في النهاية فتحت شفتيها وتمتمت بجَلَد:

- أنت والله يابني أعلم بنفسك. إن كنتَ تعلم أنك على الحق، وإليه تدعو، فامض له، فقد قُتِلَ عليه أصحابك. وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا، فبئس العبد أنت، أهلكتَ نفسك وأهلكتَ من قُتل معك. وإن قُلتَ: كنتُ على حقٍ فلما وَهِنَ أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس من فِعل الأحرار ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا؟ إنما القتل أحسن.

هز رأسه وتبسَّم. مال مقبِّلًا رأسها:

- هذا والله رأيي. والذي قمتُ به داعيًا إلى يومي هذا يا أمَّاه، ما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحلَّ حُرَمَه، ولكني أحببتُ أن أعلم رأيكِ، فزدتِني بصيرةً مع بصيرتي.

وسكت برهة، ثم إنه تنهَّد بحرارة:

- انظري يا أمّه، فإني مقتولٌ من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلِّمي الأمر لله. ابنكِ لم يتعمَّد منكرًا، ولا عملَ بفاحشة، ولم يَجُرْ في الله، ولم يغدر في أمانٍ، ولم يكن شيءٌ عنده آثر من رضى ربه.

ورفع رأسه للسماء فهمس:

- اللهم إني لا أقول هذا تزكيةً لنفسي، ولكني أقوله تعزيةً لأمي كي تسلو عني.

كان بصرها قد غَرُبَ ضياؤه قبل زمن، فتحسسته بكفيها تتشرَّب ملامحه. تشمَّم عبقهما وتحسَّر. قالت من بين دموعها:

- امض يا ولدي على بصيرتك، وادنْ مني حتى أودعك.

فدنا منها، وعانقها وقبَّلها. غادر، ولم تلقه (أسماء) ثانيةً.

(٢)

حين انتهى القتال، خرجت النساء يبحثن بين القتلى، كلٌّ تُمنّي نفسها ألا تجد رجُلها بين الجثث والأشلاء، كلٌّ تبتهل لله لو سمعت به بين الأسرى.

لكن، يا زوجي ويا حبيبي، من لي بمالٍ لأفتديك إن كنتَ أسيرًا؟ ليس لي بعد الله إلاك. البيت خاوٍ كما تركته، والرضيع على صدري يبكي، يبحث في حنايا ثديي عن قطرة لبن فلا يجد. بم سأفديك، وأثمن ما عندي رخيصٌ عند أعدائك؟ أتراك لم تزل حيًا؟ أجبني يا حبيب، أين أجدك؟ أين أرضك اليوم؟

لكنَّ (زينب) لم تعثر عليه، ككل يومٍ سبق هذا. تدور وتدور يغطيها التراب، ثم تعود آخر اليوم منهكة، يثقلها الوجع والجوع والخوف من عيون رجال (الحجاج) وزبانيته.. ذئابٌ متعطشة لدفء الجسد، وحَار الأنفاس في الليالي الباردة. وهمست لنفسها بمقت:

- قتلهم الله، يذبحون رجالنا، ويُجوّعون أطفالنا، واليوم يبغون العَرْض والشرف، فمن يحميني بعدك يا زين الفرسان؟

تمرُّ أمام الكعبة المتهدِّمة، فلا تعرف أيُّهما أجدر بالرثاء: أتبكي أطلال قدس الأقداس، أم ضياع الزوج بين المفقودين؟ لأيامٍ وجيش (الحجاج)

يقصف مكة بالمنجنيق حتى أحال الليل جحيمًا، وأجرى في أرض الله الحرام دماء أشرف الخلائق في ذلك الزمن.

حين كرَّت عائدة لبيتها عند أطراف البلد، كانت تصكُّ آذانها صرخات الثكلى، وبكاء الأطفال على آبائهم. يمزقها مشهد (أسماء)، المستوية على دابتها، تسرح بعينين بيضاوين إلى جسد ابنها المصلوب في ساحة المدينة. لا تراه، لكنها تشم عرقه الذي تعرفه من بين ألف ريح، مخلوطًا بالمِسْك الذي أقسم الجميع على انبعاثه من جسده يوم سقط بينهم مثخنًا بالجراح. غير أن العُقبان والنسور لم تأبه لمسْكٍ، ولا ردعتها هيبةُ الجثمان الشريف.

رحم الله ابنكِ يا بنت الصدِّيق، قاتل رجلًا، ومات رجلًا، لكن أي وبالٍ تجلبه الرجولة على صاحبها في زمن أذناب الكلاب؟

تبحث (زينب) في بيتها كالمحمومة، عن كسرة خبز، عن زيتٍ أو خلٍ، أو حتى شربة ماءٍ باقية. أي شيء شيء يغذيها لتسدَّ الصغير الباكي، لكنها لا تجد. تلقمه ثديًا متحجِّرًا كصحراء جفَّ نبعها، يتلهَّى بحلمته فيعتصرها، أحشاؤه تتقطَّع، يضغط ويضغط فلا يقابله ما يبلُّ ريقه، ثم إنه يكلُّ في الأخير وينام منهكًا.

يقدم الليل، ويقدم معه الخوف والعتمة. تتجلّى القفار التي أصبحت عليها زينة المدائن (مكة). ترمق الطرقات الخاوية من الكوّة، شوارع ميتة يلفها الصمت وتجوس بها الأشباح. توصد الأبواب، تضم وليدها بقوة، تنام وهي ترتعش، وتتمتم لنفسها: دعني أجده غدًا يارب.. دعني أجده غدًا.

(٣)

يجري.. ويجري..

تشقق نعلٌ، والآخر سقط منه على الرمال قبل مسافة لم يعد يذكرها.

يحسب نفسه يعدو، يُمعن في الفرار، يبتعد أكثر، لكن من يُبصره من بعيد يراه لا يتحرك أبعد من عَدْوة طفلٍ أو حَبْوَه.

نفدت طاقته، ووعيه يكاد يلحق بها. كان منهكًا، محطمًا، والدم يشخب من جراح فخذيه وصدره وخصره. كان يدرك أنه سيموت.

تضطرم مكة من بعيد بأنوار المشاعل والحرب، والنيران التي تعلقت ذيولها بأستار الكعبة. يهذي، يسبُّ (الحجاج) و(ابن مروان) وكل من خان (ابن الزبير). يرتقي ربوة، يُبصر مكة مجددًا، يبكي، ويمسح لعابه الذي اختلط بعَبَراته.

يواصل الركض.

* * *

ما بين عامي ٧٢ و٧٣ هجرية، جرت وقائع تلك الأحداث المروِّعة.

كان (معاوية بن أبي سفيان)، مؤسس الدولة الأموية، قد تولى خلافة المسلمين بالإجماع قبل سنوات، وبدأ مُلكه في الشام، تُظلل عرشه غلالة

من التأييد والنفاق والحب وصمت المقموعين. حين دنا الأجل، قرر نقل المُلك ليد ابنه (يزيد)، وبدأ في جمع المبايعات له.

ضد (يزيد) قامت ثورات عدة، تناهض حكمه، وتعترض على التوريث الذي تم عن غير إرادة الكثيرين، أشهرها ثورة (الحسين بن علي بن أبي طالب) والتي انتهت باستشهاده، غير أن هذا ليس حديثنا اليوم. ما يعنينا هنا ثورة رجل اسمه (عبد الله بن الزبير بن العوام).

استطاع (ابن الزبير) السيطرة برجاله على الحجاز والعراق، ونصَّب نفسه خليفة المسلمين. وعلى مدى سنوات، دار قتالٌ سجال بينه وبين بني أمية الذين استقر حكمهم في الشام، وتناقلوا أمر المسلمين، خليفةً بعد آخر، حتى وصل إلى العرش (عبد الملك بن مروان)، والذي قرر أن تلك اللعبة السخيفة قد طالت وأرهقت الدولة الإسلامية لفترة كافية. كان الخليفة الجديد قويًا شديد الدهاء، ولأول مرة شعر (عبد الله) بالتهديد حقًا. بعد قتالٍ مرير، انسلَّ العراق من بين يدي (عبد الله) ليعود إلى حظيرة الدولة الأموية، ولم يعد باقيًا سوى الحجاز، آخر المعاقل التي تحصَّن بها (ابن الزبير) وأتباعه.

أعدَّ (عبد الملك) جيشًا محدودًا من ألفي رجل، وأيَّدهم بعد أيامٍ بخمسة آلاف آخرين، وعيَّن على كل هذا رجلًا يعرِّفه التاريخ بأحد أشرس وأغرب الشخصيات التاريخية قاطبةً: الحجاج بن يوسف الثقفي.

متقدمًا الركب، زحف (الحجاج) بجيشه نحو هدفٍ واحد: مكة.

* * *

يتعثر، يقع، ينهض ثانيةً..

يختلط ريقه الجاف برمال الصحراء التي ملأت فمه..

الليلة سوداء حالكة، والقمر محاق، لكن لشد ما تتبدَّى الصحراء أمام عينيه صفحة مُنيرة لأي راكب أو راجل. سيعثر عليه رجال (الحجاج) حتمًا.

لم يحسب نفسه يومًا ذا حظٍ حسن، لكنه حتى الآن استطاع النجاة، أتُراه يفلت بروحه للنهاية؟

يترامى إليه عواء ذئبٍ من بعيد، يردُّ عليه آخر، ثم آخر.. معزوفة الليل والبيداء الخالدة. يرتجف قلبه، ويتحسس الغمد الفارغ المعلَّق في حزامه بأصابعٍ مضطربة. «لو كان معي سيفي!».يغمغم بهذيان. «أين سيفي؟ قُتل (ابن الزبير).. ويلي من نقمة الله!.. تركناه وحده.. الذئاب.. الذئاب القذرة.. أين سيفي؟ لأذبحنّكم بيديّ هاتين.. اللعنة عليك وعلى من تبعك يا (حجاج) إلى يوم الدين».

حلقه يزداد تشققًا، يحتك ببعضه كقطعتين من صوفٍ خشن.

يبكي انفعالًا، يبكي غضبًا، يبكي على الرجل الذي قاتل جنبه كتفًا بكتف، لكنه سقط وحده. مات، ونجا هو ليفرَّ بحياته إلى الصحراء، فأي عار!

وطاف برأسه وجهٌ حبيب، فتوقف مترددًا...

هل يعود إليها؟ لكنَّ (الحجاج) يطلب رأسه فيمن هرب، فكيف يعود؟ ستمزقه سيوف رجاله قبل أن تطأ قدمه أرض المدينة، وربما دفنوها ورضيعهما أمام عينيه أحياءً قبل أن يقصفوا رأسه.

يعض شفتيه بحرقة. لكنها (زينب)، كيف يترك (زينب) وحدها بمكة؟!

يزداد كمدًا وقهرًا. سيعود حتمًا لأجلهما، لكن ليس اليوم، ليس اليوم، فصبرًا. يصرخ في أعماقه أن تبًا للحكم، وكرسي العرش، والملوك أجمعين، تبًا لبني البشر كلهم.

رغمًا عنه يواصل الركض.

* * *

حاصر (الحجاج) مكة. نصَّب خمسة من المجانيق العملاقة، وألهب ظهر أرض الله الحرام بقصفٍ متواصل لم يهدأ. يومًا بعد آخر والحصار يشتد، المؤونة تنفد، والرجال ينفضّون من حول (عبد الله)، لاجئين للحجاج وأمنه الذي وعدهم به، حتى كان من بين الهاربين ابنا القائد الثائر نفسه!

واستمسك (ابن الزبير)، الذي عُرف في ذلك الوقت بـ(العائذ بالله)، بمكة والحرم الشريف، لكن لا الحجاج ولا رجاله كانوا يبصرون، أو يعقلون ما ترتكبه أيديهم من كارثة مروِّعة. لم يبق مع المناضل الذي تجاوز السبعين من عمره، سوى فرقة من الرجال، عاهدوه على افتدائه بدمائهم، والثبات معه للنهاية. قُتل خلقٌ كثير.

كانت الحجارة تتطاير كالشهب، ترتطم بجدران الكعبة فتصدِّعها، و(الحجاج) يصرخ في جنوده: الله الله في الطاعة! يقول رفاق (ابن الزبير) له: ألا تكلمهم في الصلح؟ فيرد عليهم: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعًا، والله لا أسألهم صلحًا أبدًا.

كانت حكمته تستقي نورها من الله. قبل أن يموت، زار أمه (أسماء بنت أبي بكر) مودِّعًا. لبث بحضنها برهة، تدعو له، وتستجلب اللعنات على رأس (الحجاج) ومن والاه، ومن أرسله. غادرها وكلاهما يعلم أنه ميتٌ في أيام.

قاتل (عبد الله) ببسالة. الدم المصفود من رسول الله، الذي شربه قديمًا من فرط حبه له، كان يسري في عروقه، فيقطِّر عليه قطراتٍ من حميم، تزيده حماسة وقوة. كان شيخًا طاعنًا في السبعين، غير أنه كان يحمل على رجال (الحجاج) وقت البأس، كأنه فرقة كاملة: يبادلهم الضربة بضربة، يطعن ويجندل ويصرع، ثم ينسحب في لحظة ظافرًا. كان رجلًا بألف.

لكن، وكمصير كل المناضلين الذين يحاربون قوة عاتية أقوى منهم، ولأن سنّة الله في كونه أن تغلب الكثرة الشجاعة، سقط (ابن الزبير) أخيرًا بعدما أنهك جيش (الحجاج) بأكمله، وأبعده حتى شفا الانسحاب، بخمسمائة رجلًا فحسب!

سقط المناضل، وبدأ رجاله يتساقطون من بعده، قُتل من قُتل، وفرَّ من فرَّ. وارتجَّت مكة بالبكاء.

* * *

كاد قلبه يثب من مكمنه، لم يزل يركض لكنَّ سرعته تبخرت، تثاقلت قدماه، تخدَّرتا وتصلَّب الدم في عروقهما.

لا فائدة، ليس مجنونًا ليحسب أن يقطع الصحراء راجلًا، وهو مصاب، ويأمل في النجاة. لم تمر قافلة قبل زمن، مذ حُوصِرَت مكة وفُرض عليها سوارٌ محكم. ليس ثمَّة فرصة اليوم لتنقذه واحدة.

يتحرك جسده المنهك بخطوة أخيرة واهية، قبل أن يتوقف تمامًا.

ربما سيموت مكانه، لكن على الأقل لن يُقتل بسيف (الحجاج)، لن ينعم عليه بنعمة التذلل له أو التوسل لحياته، لن يريه تلك اللحظة أبدًا.

«أتسمعني يا (حجاج)؟». يصرخ بجنون في جوف الليل. «لن تراني مهزومًا أبدًا.. لن أموت عند قدميك».

يلهث بعنف، يستنزف الصراخ والانفعال آخر بقايا وعيه. خيوط الضوء الأخيرة في عقله تتسابق على الرحيل، تنطبق السماء على الأرض أمام عينيه، وتُظلِم الدنيا كحجرةٍ ذوِيَ فتيل قنديلها بغتة.

يسقط أرضًا في مكانه وهو يبتسم بتشف.

«لن تنالني يا (حجاج)، لن تنالني أبدًا». يهمس بلهاثٍ لم يعد هو نفسه يسمعه.

من بين جفنين في طريقهما للإنطباق، يلمح خيالًا يعدو نحوه مُسرعًا.

«أتُراه الـ.....؟!».

لكنَّ الظلام يسبقه فيفنى كل شيء.

(٤)

بغتة، ارتدَّت الروح لصدره.

بعد أيام لم يُحرِّك فيها بمرقده أنملة، استفاق أخيرًا. لم يكن يشعر بعظامه، سرى الخدر في بدنه كله، وأوهن أطرافه التي تململت بجواره، لكنه من عجب كان سليمًا معافى. تحسس جروحه ببطء، وجدها مُضمَّدة بعناية، تكسوها ثيابٌ جديدة.

أخذ يشرع عينيه ويغلقهما حاسبًا نفسه يهذي. كان في خيمة فقيرة، يتسلل إليها من الباب القماشي نصف المنسدل، سنا شمس العصر في استحياء. متاعها مهذب ونظيف، ورائحتها طيبة. لم تكن ببداوة الرجال، هنالك لمسة أنثى واضحة.

اعتدل في رقدته، وتنحنح بصوتٍ عال. لم يأته رد. نادى بقدر ما وصل إليه صوته الواهن:

- يا إخوة العرب.

مرَّت هنيهة، ثم أتاه من الخارج طفلٌ صغير، وقف على باب الخيمة يرمقه بفضول صامت للحظات، قبل أن يستدير راكضًا، ويغيب قليلًا ثم يعود بصحبة شيخٍ طاعن في السن.

تقدَّم الشيخ نحوه فجفل. ربتَّ على كتفه مهدِّئًا، وأراحه من جديد على الفراش. تحسس جراحه، والأعشاب التي وضعها بعناية بين الضمادات، تأكد أن الجراح قد برئت من النزيف، وأنها لم تتلوث بعد.

تمتم حامدًا الله بصوتٍ خفيض.

ثم إنه رفع عقيرته آمرًا بالطعام، أمام نظرات الرجل الراقد، الذي كان يتابع ما يجري دون أن ينبس. كان قلبه ينبض متوجسًا. بلى، كان يحمل دَيْن أولئك الغرباء في عنقه، ولا يعلم أي معجزة ألقته في طريق هذا الشيخ، لكنه لم يكن يأمن الغدر في دنيا بات الدينار يحكمها، والسيف يكسر هامات رجالها.

ما بين الترقب والوجل، بادره العجوز بهدوء وقد قرأ عينيه القلقتين:

- لا تخش شيئًا يا ولدي، أنت هنا بأمان.

- اغفرها لي يا شيخنا، ولكن...

تبسَّم:

- أعلم فيم تفكر. لا تخف، لسنا من الموالين (للحجاج) ولا طريقنا يمر عبر نفوذه.

استرخى في رقدته:

- تلك الحرب اللعينة أنهكتني وألهبت أعصابي.

- أعرف أيها الشاب، قد شهدتُ كثيرًا في حياتي، ولا أحد مثلي يخبرك عن بشاعة الحرب وأهوالها.

ثم أطرق أرضًا وتنهد:

- لله درّك يا (ابن الزبير). فليرحمك الله يا ابن حوَّاري رسول الله.

سأله بخفوت:

- هل وصلتكم الأخبار؟

- الرمال تنطق بما جرى يا ولدي، في كل زمانٍ ستجد رمال العرب شاهدةً على ما جرى للعرب، تحفظ السر، وتكتم الخبر، ووحده من يعرف يستنطقها سيسمع هولًا من أخبارها.

توقف برهة يُقلِّب الكلمات في ذهنه، لكن حين غاب عنه مقصده، سأل من جديد:

- ماذا فعل (الحجاج) بـ(ابن الزبير)؟

عبث الشيخ بطرف عصاه على رمال الأرض. غمغم:

- قطع رأسه، وأرسله فيما أرسل من رؤوس المعارضين، إلى الخليفة في الشام. لولا شفاعة (عبد الله بن عمر) لظل جسده مصلوبًا إلى يوم الدين.

هتف:

- صلبوه؟ أهذا مصير ابن الأكرمين؟ ألا قبَّحك الله يا (حجاج) وأذل ناصيتك!

- كنتَ من رجاله، أليس كذلك؟

أومأ برأسه وهو يعض شفتيه:

- كنت في النفر القليل الذي تبقى معه بعد أن انفضَّ الجمع.

وشرد ببصره:

- يوم مات، كان قلبي يحدثني أني ميتٌ معه، فازدادت لهفتي للقتال. صلى بنا الفجر ليلتذاك، وخرجنا كالحمم نقاتل بلا صبر على الشهادة، أجبرنا جيش (الحجاج) أن يتقهقر، وكدنا نقسم ظهورهم، لولا أن أصابه حجرٌ شجَّ رأسه، وتكالبت بعدها علينا السيوف.

وتوقف لحظة، ثم أردف في مرارة:

- كان الصراخ يصمُّ أذنيَّ، والدماء تعميني، لم أشعر إلا وأنا بين قومٍ يتفرقون شتاتًا عبر دروب الجبل. كنتُ أصرخ لأعود إليه، لم أرد أن أتركه يسقط، لكن خانتني قدماي، ووجدت نفسي أهرب مذعورًا من الموت. كنتُ متيقنًا أني سأفديه بروحي، فكيف...

قاطعه بإشفاق:

- لأن لكل أجلٍ كتاب يا ولدي. ما أشك لحظة في إخلاصك، غير أنه غلبتك فطرة الحياة التي تدفع الغريق لقشةٍ يتوهمها ترفعه فوق الماء، قشة تُبقيه حيًا.

وأضاف ناظرًا في عينيه:

- لقد جُبلنا على حب الدنيا، وحب الحياة، لا نتركها راضين إلا لما هو أثمن وأبقى، لكن لو أُشْرِعَ أمامنا بابٌ لننجو، مهما بدا ضيقًا، فسندخله. تلك هي فطرة الإنسان، ولا حيلة له معها.

لاحت في عينه دمعة، كتمها بالكاد:

- صدقت. كنتُ أركض في الصحراء وكأن قدميَّ تعدوان وحدهما دون إرادة مني، ولولاك لما كنتُ أتنفس الآن بعد.

- إنها معية الله التي تحفظ عباده. شاء ربك أن أكون هناك في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة.. قدرك، فاحمد الله عليه لا إياي.

لهج لسانه بالحمد خافتًا. ودلفت لحظتئذ امرأة ذات خمارٍ مُسدل. تنحنحت عند الباب، وقالت بصوتٍ خفيض:

- الطعام يا أبي.

أشار لها العجوز سامحًا، ثم استدار للراقد قائلًا بابتسامة:

- أعددنا لك بعض طعامٍ ليكون لنا معك خير الزاد.

- أدام الله فضلك وأبقاك.

ثم بحياء:

- ثقُل حِملي وأبطأتُ رَحْلكم، فسامحني.

- لا تَهِن من أكرم وفادتك أيها الشاب. أنت ضيفنا، وعلينا حق إكرامك إلى أن تملَّ صحبتنا.

- حاشاك يا عمي، لم أقصد. جزاك الله عني خير جزاء.

ثم سأله سؤالًا كان يبغيه قبل برهة:

- لكني لم أعرف من أنتم عباد الله، ولا اسم محدِّثي الجليل.

تبسَّم الشيخ:

- اسمي (عُمير بن سعد)، وتلك أسرتي. نحن رعاة من ديار غالب، وكنا في طريقنا لليمن عند أقرباءٍ لنا، لولا أن استوقفتنا عاصفة تنذر بالاقتراب.

لاك الكلمة في ذهنه:

- اليمن!

ثم اعتدل وقال:

- كم نبعد عن مكة؟

- مسيرة يومين وليلة، لِمه؟

ردد في حياء:

- والله يا سيدي (عُمير) ما كنتُ لأزيدك رَهَقا وقد أكرمتني وداويتني، لكن تبقَّى لي مطلبٌ أخير، أناشدك إلا أن تسمح لي به.

أجاب باخلاص:

- سلْ تُعطه.

- زوجتي وابني، إنهما بعد بمكة، وأخاف عليهما الجوع ورجال (الحجاج)، ولا أهل لهما أو صاحب، فلئن بعثتَ من يردُّهما إليَّ، لأكونن لصنيعك حافظًا ما دمتُ حيًا.

أخذته المفاجأة. ردد بحرج:

- ذلك.. ذلك عسير يا ولدي. تعلم ما يدور في مكة و...

فأسرع:

- أعرف يا شيخنا، لكنَّ الحجاج ورجاله يحتاجون كل مؤونة متاحة، ولن يردَّ تاجرًا بالزاد، فلئن ارتحل بعض رجالك بقليل متاعٍ وطعام يتاجرون به في البلدة، يُمكنهم أن يعثروا على (زينب) وتتسلل بينهم هاربة.

بدا في وجه (ابن سعد) تردد، فأردف الشاب مُشفقًا:

- الأمر ليس بسيطًا، أعي هذا، لكني لا أريد أن أثقل كاهلك بما يزيدك عُسرًا. إن ناء بك طلبي، فما عليك إلا أن تمدّني ببعض الزاد وسأعود وحدي لمكة.

- ورجال (الحجاج) يا ولدي؟! إن طالتك سيوفهم فلن تُبقيك حيًا ساعة.

قلب كفّيه وتنهد:

- للعمر ربٌ يقضي في أمره، لكنَّ (زينب) وابني لا مُعين لهما سواي.

أطرق الشيخ مفكرًا، ولوهلة بدا وكأنه سيرفض طلبه العسير في تلك الظروف، غير أنه في الأخير رفع عينيه مُربِّتًا على كتفه:

- يدبِّر الأمر إذن من لا يغفل عن الحق يا ولدي. سنأكل الآن معًا، ولك عهدي أن أفعل ما بوسعي إلى أن يكونا بين ظهرانينا قبل الرحيل بإذن الله.

لم يجد الشاب شيئًا يقوله، كان امتنانه أكبر من أية كلمات. نهض (عُمير بن سعد) متكئًا على عصاه ليغادر، تشيعه نظرات الشاب غير المصدقة.

قبل أن يغيب خياله عن باب الخيمة، استدار له سائلًا:

- اغفر لي يا بني، ولكني لم أعرف بعد اسم محدِّثي الجليل.

أضاءت ابتسامة الشاب محيّاه.

لسببٍ لا يفهمه استراح قلبه لوعد الشيخ، ووثق دون مبرر في تنفيذه. أخيرًا، ولأول مرة منذ فترة طويلة، كان بمقدوره أن يشعر بالاطمئنان.

أجاب:

- اسمي (الصارم).. (الصارم بن النعمان).[١]

* * *

بعد أيام، وحين أمر (عُمير بن سعد) بشدِّ الرحال من جديد، كانت قافلته الصغيرة تضم تلك المرة أعضاءً جددا: فارسًا وزوجه، وابنهما الرضيع.

في الرحلة قضى (الصارم) أيامًا مديدة، شهد فيها نبل الشيخ وعراقة نسبه، وازداد حبًا له ولعائلته لمَّا تكشَّف له حسن خصالهم وأخلاقهم.

---

[١] باستثناء شخصية الصارم بن النعمان وحكايته، فكل ما ورد من أحداث في حرب ابن الزبير والحجاج، وأقوال أبطالها، هي وقائع حقيقية.

وحين تراءت اليمن من بعيد كان الفراق قد حتم. افترق الطريقان على وعدٍ بالالتقاء يومًا إن أراد مُجمِّعُ الأشتات.

رحل (الصارم) بأسرته حافظًا تلك الأيام في قلبه، وكان آخر ما بلغه من أخبار مكة أن (عبد الملك بن مروان) قد منح (الحجاج) ولاية الحجاز، فأساء معاملة أهلها، وازدادوا له مقتًا على مقت. لكنَّ الطامة التى سمعها قبل أن تغادر السفينة به وأسرته ساحل اليمن، أن حجاجًا هدَمَ الكعبة بزعم إصلاح بنيانها وإعادتها لما كانت عليه قديمًا، فأطلق ذلك الخبر أطنانًا من الحزن بقلبه، ولبث طوال الطريق صامتًا مغمومًا، لا يكاد يأكل أو يطيب له مرقد.

لا بيت، ولا أرض، ولا ملاذ يحجُّ إليه بعد اليوم. كانت كل خيوطه التي تربطه بأرض الحجاز قد تقطَّعت إلى الأبد.

رست بهم السفينة على ضفاف أرضٍ بعيدة، استقر بها لفترة، عَمِلَ وتاجر، وجمع مقدارًا من المال، لم يلبث أن غادر به من جديد بعد عامين، قاصدًا مع أهله بلادا أخرى، يبحث فيها عن بغية منشودة لا يعرفها سواه: عدلٍ مأمول، ورزقٍ وفير، وأناسٍ لا تطوي صدورهم إلا الخير. كان يبحث عن أرضٍ فاضلة، عازمًا إن لم يجدها فلسوف يصنعها بيده.

تلك كانت بداية التغريبة..

تغريبة (الصارم بن النعمان) التي سجلَّها بنفسه في سبع مجلدات، وفيها ذِكر رحلته العجيبة في بلاد الأهوال، وخوضه مع رفاق الرحلة الذين صادفهم، أراضٍ لم يطأها إنسٌ قبلهم ولا جان.

بحَثَ طويلًا عن الأمان والعدل، بعيدًا عن شهوة الدم وسطوة المال وحدّ السيف. قابل بشرًا غرباء: شيوخًا وفرسانًا وسحرة، وصادف مخلوقات أغرب، إلى أن وجد يومًا بُغيته، وما سعى ورفاقه إليه، في أرضٍ بعيدة، شيدًّ معهم عليها أساس مملكتهم، وأغلقوا عليهم أبوابها، مملكة صارت تُعرف باسم (أنطاكيا).

كيف اهتدوا لتلك الأرض؟

كيف اِلتَقَى المؤسسون معًا؟ وما الأهوال التي لاقوها؟

تلك حكاية أخرى قد أحكيها لكم غدًا، أو بعد عام، أو قد تموت معي أنا الشيخ الفاني آخر من يحفظ سيرة (أنطاكيا).

لكن اليوم وحتى حين، فسأقصُّ عليكم حكايتي الأولى.

هلمّوا، دعوني أحكي لكم حكاية (أنطاكيا)، وما جرى فيها لـ(سلام بنت جواد).

«لَن تَسْتَطِيعي أَنْ تَجِدِي الشَّمْسَ في حجُرَةٍ مُغْلقَة..!».[٢]

الحكاية الأولى

أَنطاكيا

[٢] غسان كنفاني.

الفصل الأول

تِلْكَ البِدَايَاتُ الهَادِئَة

(١)

في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان..

في بلادٍ بعيدة بعيدة، خارج حدود ما نعرف عن الزمان والمكان، كانت هناك مملكة عظيمة، أقام قواعدها خمسة من حكماء الزمان وأجسر فرسانه، فجمعت في ذاتها وفي نسل شعبها بين الحكمة والقوة والنُبل والفروسية.

وتوارد على تلك المملكة سلسالٌ من الملوك الشداد، حكموها بالعدل والإحسان والخير، أحبوا شعبهم فأحبهم الشعب بدورهم.

غير أن مملكتنا، (أنطاكيا)[٣]، كانت مملكة متفرِّدة، شاء الله بحكمته التي أجراها على يد مؤسسيها، أن تُرسى دعائمها في مكانٍ يبعد أراضٍ ومسافات عن أقرب الممالك، وكأن المؤسسين أرادوا بهذا لأنفسهم وشعبهم، أن يُفصلوا عن كافة الشعوب الأخرى، فلا يقربهم أحد ولا يغادرون لأحد.

---

[٣] أنطاكيا: مدينة تاريخية بالقرب من البحر المتوسط. كانت عاصمة سورية قبل الفتح الإسلامي، وهي أول مدينة يُطلق فيها على أتباع المسيح اسم المسيحيين. فتحها المسلمون في ٦٣٦ ميلادي على يد أبو عبيدة بن الجراح. بعد الحرب العالمية الأولى أصبحت من نصيب الانتداب الفرنسي على سوريا، قبل أن تتنازل فرنسا عنها، من بين مدن وقرى أخرى، لتركيا عام ١٩٣٩.

وكانت المملكة مقامة على ربوة عالية خضراء، ومساحة شاهقة، تحيط بها الغابات والتلال من كل الجهات، لا يفصلها عن العالم إلا نهرٌ عريض يطوِّقها كالسوار، وكان في الأصل يحدَّ الشمال والغرب، قبل أن يشقَّ المؤسسون طريقه، فيتمم دائرة كاملة حول المملكة، ومنه استسقى الناس لأنفسهم وحيواناتهم، ورووا بمائه أرضهم. ولأنهم ألفوا العزلة، لم يحتاجوا يومًا للخروج من أرض المملكة، ولم يفكر أحد منهم في بناء جسرٍ يعبرون عليه النهر إلى العالم الخارجي. «ولم الخروج!». كانوا يقولون. «غذاؤنا تزرعه أيدينا، والماء متوافر، يحيطنا ليلًا ونهارًا. أمواتنا ندفنهم بين أسوارنا، ولا ينقصنا شيء، ولا نحتاج لسلعة لا تتوافر في أسواقنا، ففيم الخروج للعالم الغامض، الذى تخضِّبه الدماء، وترتع فيه الوحوش واللعنات؟».

كانوا يخافون. برغم شجاعة قلوبهم، كانت تنتابهم خشية مجهولة ومبهمة من ذاك العالم الصارخ، الذي لطالما سمعوا عنه جيلًا وراء جيل، وحَمَاهم منه جنودهم القابعون على الأسوار المنيعة للمملكة، لا يسمحون بمرورٍ أو عبور. كانت (أنطاكيا) هي الأمان والحماية والسكن، على هذا عاشوا، وعلى هذا قضوا حياتهم يلقِّنون الأبناء والأحفاد التعاليم المقدسة حتى الممات.

(٢)

وكان لـ(أنطاكيا) حاكمٌ عادل، مهابٌ بعباءته الفضفاضة وعمامته البسيطة، نبيل الرأس مرفوعه على الدوام. كثيرًا ما كان يراه شعبه يستكشف الأحوال في السوق، أو يمر على الحوانيت والدكاكين متفقدًا الأسعار والمعيشة وأحوال الناس. يوقفهم فيسألهم بنفسه عن حياتهم وما يضايقهم، يستمع لمشاكلهم ويرفع عن كواهلهم وطأة الظلم إن وُجد.

كان رجلًا رقيق القلب، يلاهي الأطفال ويلاعبهم متى قابلهم يلهون في الطرقات. يراه شعبه في مكانٍ فيهرعون إليه، يحسبهم قادمين للشكوى من شيء، فتنتابه رعدة ويستغفر الله مقدمًا طالبًا الرحمة، حتى يلقونه متهللي الوجه، منفرجي الأسارير، يهتفون بحياته وحياة أسرته الصغيرة،ويطلبون من الله له دوام الصحة وخير الحال ورغد العيش.

لم يره أحد يومًا يحمله فرس أو يعقبه حارس، لا تظلله مظلة عن الشمس، ولا يقيه البردَ دثارٌ من الفراء أغلى ولو بدرهمٍ واحد عما يقدر عليه أحدٌ من شعبه. على هذا عاش المظفر (جواد بن أرسلان) تثقله المسؤولية التي وقعت على كتفيه ولم يطلبها، ويسترشد بالله وبمن سبقه كي يتم حكمه، حتى الممات، بنفس السيرة العطرة التي كانت حياته عليها.

(٣)

وكان للمملكة، لمئات السنين، نفرٌ من الجان، عاشوا يخدمون شعب (أنطاكيا) وملوكها دون استثناء، بدءًا من المؤسسين الأوائل وحتى اعتلى الملك (المظفر) عرشه. يجوبون الطرقات إذا ما غاب الملك نهارًا في قصره لمتابعة الأحوال وتفقُّد الشؤون. وفي الليل يجوسون للاطمئنان على الأمن، والتأكد من منعة الجنود وصلابة الأسوار.

كانوا شاهقي القامة، حليقي الرؤوس، يتدثرون بعباءاتٍ سحرية بيضاء كالثلج، لا يعلق عليها تراب الطريق، أو رِجسٌ مما يسوء الثياب ويعيبها. يطوفون على الأرض كالنسيم، لرائحتهم شذًا، ولقدومهم مهابة، فبدوا في ملبسهم وهيئتهم، وحتى سيرتهم، مثالًا لأنقى ما يكون عليه البهاء والجلال.

وكثيرًا ما تواردت عنهم حكاياتٌ بين الناس، فقال عديدٌ أنهم كانوا من الجان الشرير فاسدي الخلقة، غير أن الحكماء الخمسة غلبوهم فأخضعوهم، وعاقبوهم بخدمة مملكتهم وإلا كان جزاؤهم نيران الحريق، وأن ما كان يبدو عليهم من هدوءٍ وحرص على العدل هو من جراء خضوعهم لأمر ملوك (أنطاكيا) واتقاءً لعقابهم. بَيْد أن تلك الحكاية لم تلق قبولًا عند الناس، إذ لم تُفسِّر نبل طبائعهم الذي بدا أصيلًا لا اصطناع فيه، ولا فسرت طيب رائحتهم، أو السكينة التى كانت تغدق على الناس

أينما حلّوا. كلا، لم يَمِلْ الناس للاقتناع بتلك القصة، وقال غير واحد: إن واريت سوء الخِلقة فلن تواري سوء الخُلُق، هكذا خرجت قصة أخرى في جلسات السمر الليلية، لم يعرف أحد منشأها وحقيقتها، تقول أنهم كانوا آخر سكان مملكة من الجن، عاثوا طويلًا في الفساد والشرور، فحلَّ عليهم غضبٌ من الله أبادهم بطوفانٍ هائل من الجحيم، وأصلاهم بعذابه جميعًا، فلم ينج منهم بعده إلا أولئك النفر. تابوا وأنابوا واستغفروا طويلًا، وبكوا بحرارة على عتبات السماء، فمنَّ الله عليهم بعفوه ورحمته، وأبدلهم جلودًا غير جلودهم، تضوع برائحة كالمسك، وأنزل عليهم سكينته، وأطلقهم في الأرض مغفورين متطهرين، رحماء بين الناس، فوهبوا حياتهم لخدمة البشر وحمايتهم، إلى أن ضاقوا بهم وبشرورهم، فكان مستقرهم الأخير في مملكتنا.

كانت تلك القصة تطرب لها الآذان وتطيب بذكرها القلوب، إذ فسرت كثيرًا مما حار فيه القوم وبحثوا له عن إجابات، كما أنها ذكرت فيما ذكرت رحمة الله وعفوه، ومن لا يطيب له سماع الحكايات عن عفو الله وكلنا خطَّائون؟

والحق أنه نُسِجَت حكاياتٌ أخرى عديدة عن أولئك النفر من الجن، غير أنها كانت حكايات واهية وضعيفة سرعان ما تناساها الناس، واندثرت مع الأيام والسنين. لكن أيًا يكن من حقيقة الأمر، فإن الناس سعدوا بحُماتهم، ولاذوا بهم كلما صعب عليهم أمر، أو احتاجوا عونًا من قوة خارقة كقوتهم، فكانت أيديهم أول الأيدي التي تمتد وقت اشتداد الخطوب.

(٤)

وكان الأجداد حين يجتمعون حول حلقات النار ليلًا، يروون أكثر ما يروون، قصصًا وحكايات عن مليكهم ذاته، حكاياتٍ أسطورية شائقة، يفغر بها الأطفال فاهم، وينصتون مشدوهين لها، ينسون اللهو، ويتحلقون حول النار مندسّين بين أمهاتهم، ليتسمَّعوا ما يقوله الكبار من رؤى وخيالات تثير العقول والقلوب في آن.

يسمع من يجلس في تلك الحلقات عن سيرة مليكهم في صدر شبابه، وكيف كان مقدامًا وجريئًا، لا يخاف إلا الله، ولا يخشى مخلوقًا من مخلوقاته، وأنه، وتنخفض الأصوات، أنه الوحيد الذى غادر أسوار المملكة!

يشهق الأطفال في حماسة، وترتجف النساء وهي تتطلع من بعيد للأسوار العالية، أما الرجال فيتمتمون بغضب في غير تصديق، مدافعين عن صورتهم في أعين نسائهم:

- هذا خبل.. لم يجسر أحد قط على الخروج.

- ما سمعنا هذا من قبل.

- جمح الخيال بكم!

- ابن عمي من جنود مملكتنا ولم يخبرني قط أنهم شهدوا ولو محاولة لخرق القوانين الصارمة بالخروج من أي أحد، فما بالكم بالملك ذاته؟

- ثم من أصلًا يجد الجرأة ليغادر أمان مملكتنا إلى العالم الخارجي!

- دعكم منهم، كبر الأجداد ووهنت عقولهم.

لكن محاولاتهم كانت تذوب في أثير الليل المفعم بالخيالات، فطبائع الأطفال أميَل لتصديق الإثارة، والنساء لا يردن إلا الثرثرة بتلك الحكايات في بيوتهن وفي الحمامات العامة، فكان الرجال يُجبرون على الصمت والاستماع رغما عنهم. بعد كل شيء، من كان يقدر على مقاومة إغراء الحديث عما يقبع خلف الأسوار، حتى ولو كان كذبًا صريحًا؟

هكذا كانت تدور القصص والروايات، لا أحد يعرف صدقها أو يدري إن كانت مختلقة وكاذبة، كل ما كانوا يعرفونه أنها كانت ممتعة، مثيرة، وأنها تخلب ألبابهم، وتثير حماسهم، وتمنحهم ليالٍ طويلة من الثرثرة والنقاش والجدل، لا تنتهي إلا عند الفجر، فيغادرون للجامع المنصور في أكبر ساحات ميادينهم، ليُصلّوا، ثم يعودوا لبيوتهم للنوم... وغدًا دومًا ما يكون يومًا آخر.

وحدث يومًا أن تجاسر غلامٌ من الغلمان على سؤال الملك، في السوق بين رهطٍ من الناس، عن حقيقة خروجه واجتيازه أسوار المملكة: هل كان حقًا؟ وماذا رأى بالخارج؟

لحظتها دهش الناس حين رأوا المظفر بدلًا من أن يبادر للجواب سريعًا، قاطعًا عن الصبي خيالاته، يبهت، ويحار كيف يرد!

لم يكن قد سمع بتلك الأقاويل من قبل، إذ كانت تدور في الأزقة والطرقات بين العامة، بعيدًا عن قصر المُلك أو ديوان الحكم. غير أن السؤال الذي يسمعه لأول مرة أثار في أعماقه خوفًا غامضًا غير مبرر. وأحس بالكلام على غرابته يوقظ شيئًا مبهمًا في جوفه: قصة قديمة، أو رؤية غير واضحة، أو حلمًا من أضغاث الأحلام غامض المعالم.

لماذا مسَّ هذا السؤال في قلبه منطقة مظلمة يجدُّ في الوصول إليها ليراها، لكنها تستعصي عليه وتلوذ بالظلال؟

«ما أشد وقع سؤالك على مسامعي يا صغير!». على أنه ما لبث أن تدارك نفسه، فضحك بهدوء، وربتَّ على جبين الغلام شاردًا، وتمتم بجملٍ وعباراتٍ لم يفقه هو نفسه معنى نصفها. كل ما وعاه لاحقًا، حين اختلى بنفسه، أنه لابد صرّح حتمًا بما اطمئن له شعبه، وأسكن به الأقاويل المنتشرة: كل شيء شيء آمن، والأسوار محصَّنة. لا أحد يخرج، لا أحد يدخل، وما عدا ذلك محض حكاياتٍ خرافية. ستظل (أنطاكيا) آمنة، من قبل ولادته، وبعد موته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(٥)

تلك كانت (أنطاكيا) يا سادة يا كرام..

تلك كانت البدايات الهادئة التي تُفتتح بها كل الحكايات..

لكنَّ شيئًا في الأفق كان يلوح مُنذرًا بحكاية ليست كأيّة حكاية.

(٦)

كانت الاستعدادت تَشِي بأن الحفل سيكون أسطوريًا حقًا.

من القصر، الذي كان ينتصب شامخًا في قلب المملكة، وعبر عشرات الخطوط الرئيسية التي تتفرع منه وتنتهي عند الأسوار، كانت أوراق الزينة تمتد هائلة، طويلة، تبثُّ في الأجواء بهجةً وألقًا غير عاديين، وتتمايل برشاقة كلما هبّت عليها نسمة من الهواء، فتصدر صوتًا سحريًا ناغمًا خاصًا بها.

أما القصر، فقد ألقى عليه (جسّاس) ساحر المملكة، التعويذة المعتادة لمثل تلك المناسبات. ذلك أنه جرت العادة منذ سنواتٍ طوال، في الاحتفالات والأعراس، أن يلقي الساحر تعويذة معينة على البيت الذي يجري فيه الاحتفال، فيتألق وحده من بين كافة بيوت المملكة، بضوءٍ سحريٍ خاص، يرشد الجميع إليه، وينبههم أن صاحبه لديه مناسبة خاصة تلك الليلة. ويظل البيت متلألئًا بالضوء السحري ذاك طوال الليل، لا يخبو نوره إلا قرب الفجر تلقائيًا، حتى يتبدد مع شروق الشمس. كانت تلك هي العادة التي أقرَّها الملك المظفر، بعد سنوات كان فيها ذلك وقفًا على حفلات القصر الملكي وحده، إذ رأى أنه بذلك، بالإضافة للعطاءات والهدايا الملكية، يمنح شرفًا خاصًا لصاحب الحفل، يُضاعف فرحته بين أقرانه.

هذه الليلة، كانت التعويذة مميزة، متفردة، كتفرد المناسبة التي يحتفلون بها، جعلت القصر يشع بضوءٍ فيروزي صاخب وجميل، تبدّى من بعيد للعيون وكأنه لؤلؤة عملاقة مهيبة في جوف محار شكّلته مئات البيوت المحيطة به، والتي كان منذ بنائه يتراءى في وسطها بالضبط، يلاصق الجدار الجدار. ما إن يخرج الملك من بوابته، حتى يجد نفسه في الشارع الرئيسي مباشرةً، وعلى جانبيه تستقيم البيوت والحوانيت والدكاكين.

أشرع الخدم الأبواب للناس على مصراعيها، ليدلف الجميع إلى القصر دون حساب لعدد أو تفرقة بين المدعوين. أما من لم تتسع لهم القاعة الرئيسية، ففي طرفة عين، وبقواهم الهائلة، كان نفر الجن قد مدّوا الموائد على طول الشوارع الرئيسية، لتسع الجميع، عامرة بكل ما لذ وطاب، وما خطر على عقول الناس أو لم يخطر، من الطعام والشراب.

حتى الجند على الأسوار، كان نصيبهم مُصانا، فلم يشعر أحدٌ منهم بالحسرة لفواته شيءٌ.

كانت الليلة صيفية جميلة، تلألأت فيها النجوم على صفحة السماء، كبساطٍ فارسي زاهي الألوان، مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة. وفي كبدها، تخايل القمر بدرًا كامل الاستدارة، يبادل النجوم ألقًا بألق، فيتفوق في وهجه كأنه ملكٍ تُحيط به حاشيته.

أما الملك الحقيقي، فكان في شغلٍ عن كل ما يدور!

في داخل القصر، وفي الحجرة الخاصة بالملك الأب، كان يجلس في سكونٍ جانبه، لا يبدي أقل حراك يبدد الهدوء الذى غشي المكان. كان

يرمق أباهُ بوداعة، متأملًا شموخ ملامحه، ولحيته البيضاء الشاهقة، التي انسدلت على صدرٍ يعلو وينخفض في هدوءٍ خليق بشيخٍ نائم بين يدي الله عز وجل.

وطافت به سنوات عمره الماضية فانفرجت شفتاه عن بسمة وتلألأت عيناه. التقط كفه، وطبع على ظهرها قبلة ناعمة وطويلة، بث فيها حبه وامتنانه لأبيه، على كل ما تعلمه منه من حكمة وعدل ودين وفروسية، كيف يحكم، كيف يحب شعبه، كيف يعدل بين أفراده ويقيم العدل على نفسه قبل الآخرين، فلا يظلم أحدًا ولا يبخس حق أحد.

وذكر في جلسته كيف كان يصحبه أبوه إلى الأسواق، وهو لم يزل طفلًا، ليتعلم منه عن كثب كيف يعامل الرعية ويقيم شؤونهم ويدير أحوال معيشتهم.

رأى بعينيه أباه، الذى طالما كان يخشاه ويهابه، وهو يلاقى أطفال الحي، فيهرعون نحوه، ليتقافزوا على أكتافه، منهم من يتعلق برقبته، ومنهم من يحمله هو بذراعيه المفتولتين. وطوال حياته لم ينس كيف شعر بالغبن والغيرة في تلك اللحظة، مقارنًا حال الأطفال اللاهين مع أبيه بحاله هو..

هم يلعبون بينما هو، ولي العهد، ينوء تحت وطأة الدروس والتعاليم الملكية، والاستعدادت الخاصة بتوليته العرش بعد سنوات، والتي تدور على قدمٍ وساق باهتمام فائق. في تلك اللحظة غزا قلبه شعورٌ موحش بالحسد، وتمنى في قرارة نفسه لو يبدل مُلكًا محتملًا، بيومٍ واحد يكون فيه

طفلًا عاديًا يلهو ويلعب في الطرقات مع أقرانه، دون حسابٍ لغد أو تفكيرٍ في أمر المستقبل الغامض.

وانتبه من مشاعره على أبيه وهو يرفعه من خصره بغتة، بذراعٍ واحد وقوة غير عادية، حاملًا إياه فيمن حمل، وهو يهتف ضاحكًا:

- من يأخذ أولئك العبيد بدرهم؟ من يشتري مني؟

أخذ الناس يتحلّقون من حوله، ضَحِكين لمليكهم الذى لم تمنعه هيبته ووقاره عن المزاح مع أطفالهم، وكأنه ارتد صبيًا مثلهم. وتصايح غير واحد:

- أشتريهم منك بدينارٍ واحد لا أكثر.

- أنا أدفع عشرة.

- بل خذهم أيها الملك، وسنعطيك نحن العشرة دنانير.. إنهم غنيمتك.

فضج الناس بالضحك، وهتف الملك:

- إذن والله لتكونن غنيمةً رابحة.

وتداخلت التعليقات الصاخبة فلم يميز منها شيئًا. غير أن كلمة واحدة سمعها مصادفةً، وإلى اليوم، لم ينسها المظفر قط، كلمة أفلتت من فم أحدهم، وقف خلفه بملابس بسيطة ورثة، ليقول بحرارة صادقة:

- ليت النبي كان حيًا فيراك أيها الملك، لَدَعا لك بالعمر المديد والرزق ورحمة الله.

ورفع رأسه إلى السماء مرددًا:

- اللهم إنّا نُشهدك أن عبادك راضون عن مليكهم، فارضَ عنه وارحمه يا الله.

ذلك اليوم، لم تطرق كلمات الرجل أبواب السماء فحسب، بل طرقت آذانه معها. لم يسمعه الملك، وربما لم يسمعه أحد الواقفين بجواره، لكن سمعه هو، وحفظ كل كلمة نطق بها، فما انقضت ليلةً إلا وأعاد فيها على نفسه تلك الكلمات حرفًا حرفًا.

في ذلك اليوم البعيد، وعلى ما شعر من ظلمٍ لنفسه وغيرة، أقسم لئن أحياه الله حتى يصير ملكًا، ليكونن مثل أبيه وأفضل، وليملكن قلوب أولئك الناس وألسنتهم حتى ينزع منها في كل يومٍ وليلة، دعاءً أصدق وأحر مما سمعه يومها.

واليوم..

ونهض واقفًا أمام النافذة، يرقب مئات الموائد التي امتدت في الطرقات المحيطة بالقصر، تزينها المصابيح المشتعلة بالحرارة والدفء، وتضجُّ بالضحكات التي تنسلُّ أصواتها إلى نافذته فتذيب قلبه.

اليوم أبرَّ بيمينه، وصار الناس يدعون له بمثل ما دعوا لأبيه وأجداده وأكثر.

اليوم وهو يبدأ خطوته الأولى في رحلة تجهيز خليفته، ولي عهده القادم، يشعر أن ما مضى كله بكفة، وما هو قادم في أخرى مختلفة تمامًا.

اليوم يتمم ابنه عامه العاشر، ويدق بنفسه ناقوس الاستعدادات الملكية لتجهيزه للمُلك، كما دقه أبوه وأجداده من قبله في نفس العمر. اليوم تبدأ رحلة تدريب الصغير التي ستستمر حتى عامه الحادي والعشرين، على الصيد، والقتال، ودروب السياسة، ومهارات الذكاء، وعلوم الفلك والطب والفلسفة والكيمياء، فضلًا عن قبسات علوم الدين والفقه والشريعة.

اليوم إذ تشرع المدرسة الملكية أبوابها لاستقبال المهمة الخطيرة، يشعر أنه في مفترق الطرق، فإما أن يتمم تعليم ولده بكل شيء شيء تعلمه هو، وكل دروس حكماء المملكة القدامى، وينقل إليه كل ما خَبَره في حياته، فيُخرج من صلبه كما تمنى، ملكًا قويًا شجاعًا وعادلًا..
وإما أن يفشل، فيقدم للناس ملكًا فاسدًا، يستجلب على نفسه، وعلى أبيه إن كان على ظهر الدنيا أو باطنها، لعنات الناس وسخطهم.

رحلة شاقة هي، قد تتمخض عن بطل كما كان وأجداده، وإما أن يغفل درسًا واحدًا، أو خطأً واحدًا يرتكبه ابنه ولا يأخذه بحزم، فيقود إلى سلسلة لا تنتهي من الأخطاء، تطرح في النهاية ملكًا فاسد الطوية والأخلاق والفكر، ككثير من ملوك العالم الخارجي الذين قرأ عنهم في كتب الأقدمين، ملوك ضيعوا أنفسهم، وشعوبهم، وضيعوا ممالكهم إلى الأبد.

وتسللت عيناه إلى السماء فلهج بهمس:

- اللهم لا تكلني لتدبيرٍ وضعته نفسي، وأعني على حِملي، حتى ألقاك وضيئًا حسن السيرة والخاتمة. اللهم إنى عملتُ بما أمرتَ، وسرتُ بما شرَّعتَ، فأخرجني من الدنيا كما خرج نبيك: فقيرًا مسكينًا لا لي ولا عليّ.

اللهم أعني أن أخلف على الناس خير الوريث لمُلكٍ ملَّكتني إياه ولم أطلبه، فحملته قدر استطاعتي، وسرتُ به قدر عزيمتي. اللهم امددني بعونك وغوثك وأمنك وسلامك.. اللهم أمنك وسلامك.

- من يناديني؟

سمع الصوت الطفولي من ورائه فاستدار بسرعة. طالعته طفلته (سلام) بابتسامة عذبة أضاءت سنوات عمرها الست. أردفت مزهوة:

- سمعت من يهتف باسمي فحضرت.. بالضبط كما يفعل خدَّامك من الجن.

ابتسم أبوها في حنان، وقال وهو يمسح خلسة دمعة تسللت من عينه:

- يا صغيرتي، إنهم ليسوا بخدمي. ليس عندي من خدم يا (سلام)، إنما هم معاونيّ وحراسي، ألم أعُلّمكِ قول ذلك؟

أومأت برأسها مؤمنة على كلماته. تابع مداعبًا:

- ثم أني كنتُ أناجي ربي وحدي، فما شأنكِ أنتِ وربي؟

هتفت بتذمر:

- لكني سمعت اسمي (سلام) على لسانك.. كنت تناديني!

كتم ضحكة كادت تنفلت من شفتيه. قال مشفقًا من غضبتها:

- أجل، أجل يا صغيرتي. كنت أرجو من الله أن أراكِ من فوري، فاستجاب لدعواتي وبعثكِ إليَّ.

تهللت أساريرها:

- أرأيت؟

داعب شعرها الكستنائي الغزير:

- حسنًا إذن أيتها المشاكسة، ماذا كنتِ تريدين من أبيكِ؟

- أمرت أمي الخد.. آآ.. المعاونين.. أمرتهم أمي أن يبحثوا عنك في كل مكان، فالقاعة امتلأت عن آخرها، والجميع ينتظر حضورك لبدء الاحتفال.

ها قد حان الوقت.

ارتجف قلبه رجفةً بسيطة، وشرد لثوانٍ، داهمه فيها قلقٌ مفاجىء، لكنه تنحنح متداركًا نفسه. اعتدل في وقفته، ضابطًا هندامه. أحكم ضم ردائه حول جسده، ثم مد يده لابنته متمتمًا:

- حسنًا يا (سلام)، لنذهب.. لا يجب أن ينتظر الناس أكثر من هذا.

التقطت كفه بيدها الصغيرة، فتعلَّقت بها. سارا حتى غادرا الحجرة، ولم ينس قبل أن يغلق الباب أن يلقي نظرة طويلة على أبيه، ثم يضم الباب في هدوء.

- سنمر أولًا على حجرتي، هناك شيء أريد إحضاره معنا.. اتفقنا؟

أومأت برأسها إليه ولم تعلّق.

محاولًا قدر وسعه أن يمنع قلبه عن رعدته، سار الملك جانبها متوترًا باتجاه مخدع نومه. وأحس على صفحة جبينه العريض بضع قطراتٍ من عرق بارد، رغم أن الليلة صيفية وهواؤها نسيمٌ رقيق.

«يارب أمنك وسلامك!».

تمتم في سره بصورة أشد. لم يكن متهيبًا فقط لتلك اللحظة وما بعدها كما ظن في البداية، لكنه الآن، وهو يمضي إلى رعيته، كان يشعر لسببٍ غامض لا يفهمه بالشر.

وحانت منه نظرة إلى (سلام) المتعلقة في يده، فارتجف أكثر.

لم يكن (جواد) يدري أن تلك الليلة، ستحمل إليه مفاجأة قاسية ستغير حياته إلى الأبد، ليس وحده، وليس أسرته أو شعبه، لكن وعلى رأس الجميع، حياة صغيرته تلك دون سواها.

(٧)

«الملك المظفر (جواد) ابن الأكمل (أرسلان)».

دوى هتاف الحاجب يرجُّ أركان القاعة الملكية. خفتت الأصوات في لحظة، وهبَّ الجميع واقفًا. كل من كانوا في القاعة من عامة ومستشارين وحتى الأسرة الملكية، استقاموا واقفين في تهيب واحترام.

تقدَّم الملك من الرواق الجانبي المفضي للقاعة، حاملًا (سلام) بذراعه اليمنى، بينما يده الحرة تقبض على بضع قطعٍ من قماشٍ ملفوف لم تكشف كنهها بالضبط.

كان (جواد) في الثلاثين من عمره، بهي القسمات، ذا قامة مديدة، ومهابة واضحة، أضفتها عليه شخصيته ذات البأس، وهيئته على بساطتها، أما لحيته المشذبة فزادته وقارًا فوق وقاره.

جلست الملكة على كرسي في صدر القاعة، يلي كرسي العرش مباشرةً، حاملة ابنهما (نذير) بشهوره السبع، بينما وقف غير بعيد (بشر) ذو العشرة أعوام.

كان الأخير صورة مطابقة لأبيه شكلًا وروحًا. في وقفته بجانب أمه، كان أشبه بتمثال قُدَّ من فضة، مستقيمًا، يعقد كفيه خلف ظهره، وثوبه الطويل ذو القطعة الواحدة يدثِّره بالكامل، ويبرز جسدًا ممشوقًا متناسق

الأعطاف والثنايا. حتى وجهه بدت عليه مخايل الجدية والهدوء، بشكلٍ لا يتناسب مع طفلٍ في العاشرة، وإن كانت هيئته وملامحه، ووقفته التي تنضح بالرجولة، تثيران الراحة في قلب أبيه، وقلب كل من كان يراه من الرعية. هذا هو مليكهم المنتظر، الذي لهجت الدعوات باسمه مذ ولادته، تدعو رب العالمين أن يصير يومًا في مُلكه كأبيه وأفضل.

واتخذت (سلام) مجلسها بجانب أمها، ومال الملك مُقبِّلًا طفله الرضيع، ثم جبين زوجته قبل أن يتشجع بابتسامة طمأنينة منها، أن يتقدم لصدر القاعة ليخطب بالناس.

لم يكن ملكًا ذا أوراقٍ وخُطَب. كآبائه وأجداده، اعتاد ملوك (أنطاكيا) أن يخاطبوا الناس وجهًا لوجه، حديثٌ يخرج من قلوبهم دون سابق إعداد أو ترتيب، على أن الملوك كانوا أبرع ما يكونون في فنون البلاغة والخطابة، فكان الناس يستمتعون بحديثهم كثيرًا. وتنحنح الملك، وأثني على الله وحَمِدَه، ثم قال:

«أيها الناس، إنني اليوم أقف بين أيديكم، كما وقف آبائي وأجدادي من قبل، خاضعًا لله، نازلًا على حكمه، راضيًا بعدله وقضائه. أقف أمامكم محاسبًا نفسي، ومراجعًا عهدي، ذلك العهد الذي قطعته هنا، في نفس القاعة، قبل سنواتٍ طوال، أمامكم وأمام آبائكم ونسائكم. عاهدتكم على العدل والشرف والإحسان، وأن لا أبخس حق أحدٍ منكم، أو يُظلم مخلوقٌ عندي ولو كانت هريرة لا تعي من أمرها شيئًا. وإني اليوم، إذ أذكر عهدي هذا، أناشدكم بالله والرحم إلا صدقتموني القول....».

وتوقف لحظة ازدرد فيها ريقًا جافًا.

«أظلمت أحدًا منكم؟ أيوجد بين ظهرانيكم من سلبت منه حقًا، أو نزعت عنه مِلكًا؟».

وكأن عاصفة انفجرت في القاعة بغتة، هبَّ الناس يتصايحون، حتى تداخلت الأصوات، والتحم الهتاف بالهتاف:

- حاشا لله أيها المظفر.

- والله ما عهدنا منك ظلمًا، أو أتانا منك سوء.

- لأنت أرحم بنا من أهلنا!

- بأبي أنت وأمي أيها المظفر.

تخايلت الابتسامة أخيرًا على شفتيه، واستراح قلبه المكدود. رفع رأسه إلى السماء وهتف:

- اللهم فاشهد.. اللهم فاشهد.

ثم وجّه خطابه إليهم مجددًا:

«أيها الناس، ألا من كان منكم قد أصابه مني سوء، أو نالته مني مغضبة، فها أنا ذا فليقتص. ألا من كان منكم قد جلدت له ظهرًا، أو سببتُ له أبًا، فها ذي عائلتي فليقتص».

من جديد تعالت الهتافات مدوية، تهتف بحب الملك، وبرحمته وعدله، حتى استراح القلب تمامًا، وسكن وخز هواجسه. رفع عينيه للمرة الأخيرة إلى السماء وخفض صوته قائلًا:

- اللهم فاشهد.. اللهم فاشهد.

ثم أمسك بلفافة القماش الرث الذى حملها معه، ففضها ورفعها عيانًا أمام الناس، فإذا هي ثياب طفلٍ لم يتجاوز ربما أعوامه العشر. وإذ تأكد أن الجميع رآها، وضعها وقال:

«أيا قوم، قد حدثني أبي مرة، عن أمير المؤمنين عمر رحمة الله عليه ورضوانه، أنه يومًا وقف يخطب بين الناس، فإذا به يشرد فجأة، ويهز رأسه متأملًا قبل أن يقول مخاطبًا رعيته:

- لقد رأيتني يومًا وأنا أرعى أغنامًا لخالاتٍ لي من بني مخزوم، مقابل حفنة من تمر أو زبيب.

ثم عاد الفاروق لخطبته من جديد، وكأنه لم يقل شيئًا!. وحين أتم كلامه، وبينما هو ينزل من على المنبر، بادره عبد الرحمن بن عوف فسأله:

- فيم كان ذاك يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر:

- ويحك يا ابن عوف، لقد خلوتُ إلى نفسي في وقفتي، فقالت لي: يا عمر.. أنت أمير المؤمنين اليوم وليس بينك وبين الله شيء، فأردت أن أؤدبها، وأذكِّرها بقدرها.[٤]

يومها قال لي أبي حين أنهى قصته:

- الزم الفاروق يا بني تسعد، اتّبع خطواته وخطوات نبيك من قبله تغنم. إياك والمظالم أيها الملك، فإنها طوقٌ من نار يوم القيامة تهوي بناصية صاحبها في سَقر».

ثم أشار إلى ابنه أن يتقدم، فسار الفتى حتى جاور أباه.

«إن ذاك ابني (بشر)، وتلك ثيابه ما عرضتُ عليكم. ربيته كما تربى عمر الفاروق، وسائر الصحابة الراشدين، ونبيهم ونبينا الكريم. أنشأته قويًا لا يخشى في الله لومة لائم. ألزمته بالعدل طائرًا في عنقه ما حيا وما حييتم. ربيته على خدمتكم وحمايتكم، وتشهد مزارعكم أنه كان يعمل بها جنبًا إلى جنب مع أبنائكم، وما أكثر ما شهدتموه يرعى أغنامًا كأغنام خالاتِ عمر، فيتعلم منها البأس والحنان وإحاطة ما يرعى بسياج الانتباه والرعاية. إني اليوم أقف أمامكم، لأعلن عن تنصيب ابني ولاية العهد، مستقسمًا بالله وقوته أن يسير مليككم القادم، على نهج آبائه وأجداده، فلا يحيد عن الطريق، ولا تأخذه زهوة سلطانٍ أو نشوة جاه، وأن يعدل بينكم، ويرعى حتى مماته شؤونكم وأمور دنياكم. فإن كنتم ترضونه ملكًا عليكم فإني آخذ بيعتكم الآن، وإن أبيتم إلا غيره فليتقدم، ولكم مني العهد والمنعة أن يظل

---

[٤] قصة حقيقية.

آمنًا حتى يتسلم مقاليد حكمكم متى شئتم، فوالله ما أحد منكم أشد رغبةً مني، في خلاص عنقي وعنق نسلي من بعدي، من نيِّر الولاية وأمور الخلافة. ألا إني قد أنهيت قولي واستغفرت الله لي ولكم، وعليكم وعلى أرواح من رحل عنا السلام».

وأتمَّ قوله فجلس، وساد الصمت مليًا القاعة.

في اللحظات التالية بدا وكأن أحدًا لن ينبس بكلمة، وأخذ الناس يتطلعون إلى بعضهم في ترقب، كان هذا حين نهض أحد الرعية صائحًا:

- أيها الملك، اسمع قولي فإنه طوقٌ في عنقك إلى يوم الدين. إنك قد وُلّيت علينا، وأنت وحق الله أفضلنا، فارتضينا بحكمك، وسرنا على طاعتك، وأقسمنا على أبنائنا إلا أن يطيعوك ما كانت في صدورهم حياة. وإنّا اليوم نشهد أنك ما ظلمت منا أحدًا، فلئن اخترت ابنك للحكم، وعاهدت الله ورعيتك على تنشئته على الدين والأخلاق والعدل حتى يحكم من بعدك ويسير على نهجك، فإنّا والله لا نرتضي بغيره حاكمًا، ولا نثق في أبنائنا أنفسهم أن يكون منهم من يضاهي الأمير (بشر) عقلًا ورجاحةً وأخلاقًا. وإني إذ أقول ذلك أشهد أني أتحدث باسمي واسم الناس من حولي.

تسارع الناس في لهفة، يؤمِّنون على كلماته، وتتداخل هتافاتهم وأصواتهم مؤيدة أقواله وشهادته، وتؤكد رضاها عن تنصيب الأمير الصغير وليًا للعهد.

وجعل الملك يغمرهم بنظراته، محاولًا أن تسع عينيه كل تلك الحشود المتزاحمة التي تلهج بحبه، ويلمس الصدق في نبراتهم وأدعيتهم.

وأخيرًا، وقد استقام الأمر، وأمّن المستشارون على موافقة الناس، أمسك الملك ذراع ابنه وسار به حتى الناقوس الذهبي الكبير، الذي زين جانب القاعة، ذلك الناقوس الذي وضعه أحد الحكماء الخمسة مؤسسي المملكة، واضعًا معه نظام الحكم، والسيرة التي سيتبعها الملوك من نسلهم إلى يوم الدين.

وإذ أمسك الملك بيد ابنه التي قبضت على المطرقة بقوة، ورفعها معه لتهوي على الناقوس، أُعلن بهذا رسميًا تنصيب الأمير، وبداية الرحلة الشاقة التي ستستمر سنواتٍ طويلة، حتى يصير جاهزًا للحكم.

ما إن دوّت دقة الناقوس السحرية في القاعة، وضجت بها أرجاء المملكة بأسرها، حتى هلل الجميع فرحين، وتصايح الناس في القاعة صيحاتٍ متداخلة في بادىء الأمر، لم يتميز منها شيء، حتى استقروا على صيحة ثابتة تجمعت فيها حناجرهم:

- عاش الملك المظفر.. عاش الأمير الأشرف.

- عاش الملك المظفر.. عاش الأمير الأشرف.

ابتسم الملك في شجن.

خلع الناس وحدهم لقبًا على ابنه، كعادتهم كل مرة، وكما فعلوا معه هو حين كان بنفس الموقف في عامه العاشر، وخلعوا عليه لقب المظفر.

مكتملة سعادته، وشاعرًا بالارتياح وقد نزح عن كتفيه أثقالًا كان ينوء تحتها، صاح الملك داعيًا الجميع لتناول الطعام والاحتفال، وفي الخارج انفجرت في السماء ألعاب نارية سحرية، أضاءت المملكة بأنوار خلابة وصرفت أذهان الناس وعيونهم عن كل شيء.

كانت الليلة تسير بأفضل ما يكون، ولم يكن (جواد) ليحلم أن ينام هانئًا بعد ساعات، بحالٍ مغاير لما كان عليه من قلق وتوتر طوال اليوم.

لكنَّ هذه الليلة حفرت وقائعها وذكرياتها طويلًا في ذهن الملك وأسرته والرعية، ليس فقط للأحداث السعيدة التي مرَّت في أولها، ولكن لإن الناس سيتوارثون تلك الحكايات الرهيبة عما حدث في نهايتها، وما تلاها من عمر المملكة، بعد أن سحق الرعب قلوبهم، وأبدل فرحهم همًا ومرارة.

بغتة، ودون سابق إنذار، انقلب الحال في (أنطاكيا)!

دوّت تلك الصرخة من جوف الأرض..

من السماء..

من الفراغ..

أحاطت بالجميع، ونفذت في لحظة كسهمٍ مسموم، إلى أعمق نقطة في أرواحهم.. صرخة طويلة كانت، مريعة، قاسية، وموجعة، كعواء ذئبٍ شيطاني، تذيب لحمه نيران جهنم. اخرسَّت الضحكات، وشحبت الوجوه. انكمش الأطفال ملتصقين بأمهاتهم في رعب، وخلع الارتياع قلوب

النساء. أما الملك المظفر فهبَّ على قدميه فزعًا، محيطًا به وبأسرته في لمح البصر حراسه من الجن.

بالأعلى، في حجرة الملك الأكمل، فتح الشيخ عينيه بغتة، منقلبة سحنته الوادعة، بعدما اجتاحته الصرخة فزلزلته. وفي لحظة واحدة أدرك مصدرها، من أين أتت، وما السر من ورائها. انسحق قلبه في جوفه رعبًا وهلعًا، وعرف ما سيحدث بعد لحظاتٍ قليلة...

إن أسوأ كوابيسه يتحقق قبل أن يرحل عن الدنيا.

الفصل الثاني

حُب مُحَرم

١٢ عامًا سابقًا ...

(١)

«بطل التخفي والحيَل».

رفع رأسه ببطء، متحفزًا متقوِّس الظهر، أذناه منتصبتان كقط، تلتقطان الأصوات الخافتة من بعيد. كانت الحركة قد خفّت، وأنوار البيوت والحوانيت تتوالى منطفئة، الناس أغلقوا أبواب الدور عليهم وعلى أبنائهم ونسائهم، الشوارع خَلَت من المارة في تلك الساعة المتأخرة، وقناديل الطرقات تبعث ضوءًا خافتًا يثير النعاس.

بنظرة واحدة اطمئن على طريقه. تسلل بحذر على أصابع قدميه، يجتاز الميدان الغافي. حين بلغ الأسوار العظيمة التي تحيط بالمملكة، تلفّت حوله في تركيز، لم يكن من أحدٍ بالجوار. دبَّ خنجره بقوة في فتحة صغيرة في السور، التقط نفسًا عميقًا، نفرت عضلاته، ثم شرع في التسلق.

على مدى زمنٍ يقارب العام، هو من صنع تلك الفتحة بنفسه، وصنع عشرات غيرها بطول السور حتى القمة. فتحات خلّفتها مئات الضربات التي شقها بسكينه، منذ دأب على الهرب بتلك الوسيلة.

تسلق الجدار الشاهق برشاقة عود باهرة، معتمدًا على خنجره وعضلاته وحبلٍ غليظ أحاط به خصره. كانت عملية صعبة ومرهقة، أخذت تُجري العرق كالسيل على كفيه وجبينه وظهره، لكنه تجلَّد.

للحب سحرٌ يعصف بالإنسان، يمنح القوة والعزيمة، ويبعث في البدن المتهالك القدرة على فعل المستحيل. وهو لم يكن فقط محبًا، بل عاشقًا متيَّمًا، وهائمًا في ملكوت الجمال الغجري الفريد.

وصل إلى القمة فتوثبت نفسه، وتحفزت عضلات ذراعيه لترفعه قليلًا بعد. على مسافة معقولة، يمينًا، كان جنديان يتسامران وقد أرخيا السيوف والدروع، وأخمدت سنواتٌ من الملل وانعدام الأحداث وفقر الليالى من الإثارة، أدنى قدرة فيهما على الانتباه والتحفز. على اليسار، غير بعيدٍ من مكمنه، كان آخران، أحدهما يجلس مسندًا ظهره إلى حافة السور الداخلية، ذراعاه هامدتان بجواره على الأرض، يغط في نومٍ عميق. بينما وقف الآخر قريبًا منه، خالعًا سيفه، مُريحًا درعه على الحافةً الأخرى التي مال متكئًا عليها وهو يشرد ببصره في النهر المتلألأ من بعيد تحت ضوء القمر.

كان عريسًا جديدًا، لم يمض على زفافه أكثر من أسبوع، قضاه هانئًا، يتقلب وزوجه في النعيم، طعامهما شهدٌ وشرابهما ماء الورد. كانا في شغلٍ عن العالمين، لم يغادرا دارهما لأحدٍ، ولم يستقبلا فيه طوال الأسبوع أحد.

ابتسم في متعة متحسرًا.

لشد ما كان يتوق للعودة، لولا فترة خدمته الإلزامية التي حجبت عن عينيه حبيبة العمر وأميرة المخدع. غير أن الأمير وعده أن...

«(سامر).. يا (سامر)».

انتفض الحارس، رغم أن الهمس كان خافتًا لم يكد يسمعه هو نفسه. تمنطق على عجل بحزامه وسيفه، وهرع إلى حافة السور التي تواجه المملكة.

ما إن رأي وجه المتسلق، حتى أسرع مرتبكًا يساعده على القفز إلى داخل السور، هامسًا:

- سيدي الأمير، حمدًا لله أنك بخير، لقد تأخرت كثيرًا.

جثا الأمير ينفض ثيابه، ودون أن يضيع وقتًا بالرد، أخذ يرفع الحبل سريعًا، ويحرر خنجره من آخر شقوق الجدار. في لحظات كان قد أتم عمله، تلفّت حوله محاذرًا أن تكون نقطتا الحراسة، التالية والسابقة على امتداد السور، قد انتبهتا إلي صوت أحدهما. استدار للحارس:

- سامحني يا (سامر)، قد أثرتُ قلقك. ضاعف أبي الحراسة على حجرتي، فاستغرقت وقتًا طويلًا لأتفلّت منهم. حسبتني لن أقدر الليلة.

ثم بابتسامة جذل:

- لكن حمدًا لله.. مازلت أملك القدرة يا صديق.

- كنت أخشى أن يعيقك أحدٌ اليوم...

وأشار إلى زميله الغافي كجثة:

- فيكون ذاك البائس قد نام بلا طائل!

- هل تأكدت أنه شرب الوصفة بأكملها؟

- حتى آخر قطرة. إن مفعولها كالسحر، لم يشرع في ارتشاف شراب الرمان المخلوط بها، حتى أتى على القدح كله مرة واحدة.

- ليسامحني الله. في كل مرة أشعر بالأسف حقًا، لكن ليس بيدي غير ذلك.

- لا بأس يا سيدي، لم يكن أمامنا خيارٌ آخر.

ثم بتردد:

- فقط لو أن مولانا الملك...

قاطعه بأسى:

- لقد حاولت بكل الطرق، وفشلت مرة بعد أخرى يا (سامر). هو من يجبرني على ما لا أطيق: أن أخدعه.

وشرد ببصره إلى حافة الأشجار المترامية من بعيد:

- لم أكن لأقدر ألا ألقاها. من أجلها يا (سامر) أنا على استعداد لأفعل أي شيء شيء شيء في الدنيا، أي شيء، فقط لأراها بعيني.

تنهد الحارس. غمغم وهو يربت على كتفه:

- لا أحد سيفهم حقيقة شعورك أكثر مني يا مولاي.

ثم تدارك:

- قد أطلنا الحديث، ولا وقت أمامنا.. لن يطول أثر الوصفة لما بعد الفجر.

هز الأمير رأسه، مستعيدًا حماسته من جديد. تأكد من توثيق الحبل حول خصره، وأسرع يربط الطرف الآخر بإحدى نتوءات حافة السور الخارجية، بينما عاود الحارس التطلع ليطمئن إلى تغافل الجنود في نقطتي الحراسة التي تبعد عنهما بمسافة كبيرة، يمنة ويسرة، قبل أن يعاون الأمير على ارتقاء السور، ويبدأ في تدليته رويدًا.

قبل أن يغيب (جواد)، رفع رأسه إليه:

- لم أنسك يا (سامر)، لا تخف. حين أعود باذن الله سأصدر أمرًا بمنحك إجازة طويلة.

وابتسم بمكر:

- أشهرٌ يكفيك؟

انفرجت أساريره:

- ألا بارك الله لك يا مولاي.. إنه يكفي وزيادة.. أسعدك الله وبارك في عمرك.

اكتفى الأمير بابتسامة صافية، وعاود التدرج هابطًا من جديد دون كلمة. كان يسمعها تناديه من قلب الغابة البعيدة، يطرق أذنيه، هو وحده، صوتها المسحور، فيخفق قلبه.«قادم يا حبيبتي.. إني قادم». رددت أعماقه وهو يلهث منحدرًا عن السور.

(٢)

لم يكن قد اعتاد الهرب إلا من أجلها. في الواقع، لم يُجرِّب أي شيء شيء جديد إلا على يديها هي: الحب، الاشتياق، الهرب، المداراة، الكذب، تسلق الأسوار واجتياز العالم الخارجي الذى ظل محرمًا على المملكة منذ قيامها وحتى الساعة.

يعرف القواعد جيدًا، وزادتها رسوخًا في نفسه، ونفس كل مواطن في (أنطاكيا)، أنه لم يكن يزورهم زائر، أو يحل عليهم ضيف ولو عابر سبيل، فتعاظم بداخلهم الإحساس بالوحشة والتفرد والانفصال عن العالم.

لكن حدث يومًا، وكانت سابقة، أن نزلت بهم جماعة من الغجر. رحالة مهاجرون، لا يستقرون ببلدٍ ولا يلبثون طويلًا في مكان، فكانت لا تُعرف لهم أرضٌ ولا وطن.

كانت ليلة شتاء قارسة، والناس ملازمون بيوتهم اتقاءً للبرد الذي اجتاح البلاد، حين تناهت إلى الأسماع دقات جرسٍ عالٍ، كأجراس الكنائس، تنبت من العدم.

دقة تعقبها دقة بعد لحظاتٍ من الصمت، كقطرات ماءٍ رتيبة تسقط على صفحة بحيرة راكدة. بدا الأمر وكأنه طقس جنائزي يبعث على الرهبة، ويثير رجفة في الأوصال المفعمة بالبرد والترقب. لبرهة، لم يفهم أحدٌ شيئًا،

ولفَّتهم الحيرة، قبل أن يتذكروا فجأة ذلك الجرس العملاق المستقر فوق بوابة المملكة.

لم يسمعه أحد يدق في حياته أبدًا!

ومن فتحة ضئيلة في الأسوار، بطول وعرض الرجل العادي، دلف الغرباء لأول مرة إلى (أنطاكيا).

كانت تلك الفتحة يخرج منها، في الطوارىء، من يُصلح عطبًا أصاب السور، أو يفرغ سدًا انغلقت به القناة التي تنقل الماء من النهر بالخارج، إلى كل بيوت المملكة بالداخل. ولم يكن أحدهم يخرج منها متوترًا، متلهفًا على العودة، إلا ويرجع وقد أنهى مهمته بسرعة، مستعيذًا بالله من الشرور والأخطار.

وتواترت الحكايات ممن غادروا الأسوار، على قلّتهم، عن الأصوات الرهيبة التي تدوي ليلًا، والعيون التي تلمع في الظلام من بين أشجار الغابة البعيدة، على الضفة الأخرى من النهر. وكانت تلك الحكايات تنتشر كالنار بين الأهالي، فلا تجد من يُكذبها أو يبحث لها عن تفسير.

حين مر أولئك الرحالة بالمملكة، أصدر الملك الأكمل (أرسلان)، وكان قد جاوز الخمسين من عمره، أوامره باستقبالهم وإكرامهم أبلغ الكرم. كان حدثًا غريبًا وسعيدًا، وكونه يحدث لأول مرة لقومٍ لم يختبروا ذاك الشعور من قبل، فزادهم ذلك عجبًا وغرابة.

حتى الملك الذي خرج لاستقبالهم بنفسه في القصر، آمرًا بتحضير الطعام لهم من كل صنفٍ ولون، كان مبتهجًا ومرتبكًا في آن. قبل أن

يسمح بدخولهم سأل ساحر مملكته (عدنان) عما يفعل، فما كان من الرجل إلا أن نصحه في لهفة باستقبالهم وفتح أبواب المملكة، بابها الوحيد أعني، على مصراعيها. كان كلاهما متحمسًا، تضطرم أعماقه بالخوف والحماسة والتهيب، ويستثيره مرأى أولئك القادمون من عالم ما وراء الأسوار.

كانوا بضع وخمسين رجلًا وامرأة، متشابهي الملامح، متبايني الأعمار، وإن توحدوا في بساطة الثياب والمتاع والممتلكات. قومٌ من السحرة، كما أخبروا الملك، يتنقلون من بلدٍ لآخر، ويعرضون خدماتهم على الملوك والرعية، مقابل منحٍ وأعطيات وهدايا، ودنانير ذهبية تزيد أو تنقص حسب قيمة فعلهم.

حدثُّوا الملك عن بلدٍ حلّوا ضيوفًا عليه، وعالجوا زوجة سلطانه من العقم. بعد شهورٍ أنجبت صبيًا بهي الخلقة، فأجزل لهم وافر العطاء، حتى كاد يطير بهم من الفرح. في مملكة أخرى حضَّروا وصفة حب سحرية، ربطت بين قلب الملكة وقائد جيوشها الذي أحبته ورغبت فيه لتتزوجه. حين بلغت المراد، وتم الأمر الذي أسكر قلبها، منحتهم قطعة من الأرض في مملكتها، يزرعونها ويتناسلون عليها، لولا أنه لم يمض عامٍ حتى دب الخلاف بين القائد وزوجه، وأصابه تسلّط الحكم، وشهوة الاستبداد، فقتلها وتزوج من أخرى، وطردهم شر طردة من مدينته.

في كل أرضٍ نزلوا بها كانت لهم حكاية وأعجوبة، ونادرة يضيفونها إلي نوادرهم، لتتناقلها أجيالهم جيلًا وراء الآخر.

كانوا يرعون، ويصنعون منتجاتٍ جلدية أو بعض الخزف والحلي الرخيصة فيبيعونها، لكنهم لم ينسوا أبدًا تراثهم من السحر، فكان يخرج وقتما تظهر الحاجة إليه، أو يغريهم المقابل. بلى، جنوا ما يكفي من الرعي والتجارة، لكن لم يطب لهم رزقٌ إلا من حصاد قدراتهم السحرية، وعلى هذا كانوا يقتاتون ويتزوجون ويتناسلون.

وبرغم استمتاعه بالقصص والنوادر التي قصوها عليه، والتي تشاركوا في نسج تفاصيلها فيما بينهم، ليمتعوا بها الملوك والحكام الذين ينزلون ضيوفًا عليهم، فيجزلون لهم العطاء، إلا أن الملك الأكمل لم يكن تام الهناء والراحة، كان ينخر بقلبه هاجس غامض ومشؤوم منذ اللحظة التي سمع فيها عن سحرهم وقدراتهم، وزاده علمه بأنهم يهود قلقًا فوق قلق!

كونه ملكًا، كان يفرض عليه أن يطّلع في كتابات الأقدمين على أغلب أمور العالم الخارجي، فيعرفها حتى وإن لم يختبرها بنفسه. ولأن ملوك (أنطاكيا) كانوا يتناقلون فيما بينهم، ملك بعد آخر، كتبًا في الفلسفة والطب والكيمياء، وأخرى في التاريخ وحكايات الزمان الأول، فقد تعلم منها كيف يخشى العبرانيين، ويتوجس منهم أينما حلّوا، إذ عَهِدَ منهم الجار قبل العدو من شؤون الغدر واللؤم والانقلاب، ما سُجِّل عليهم بأيدي المؤرخين عبر الحقب والأزمان، في حكاياتٍ مُحذرة ومنبهة.

ولم يكن في المملكة من اليهود أحد. بالأحرى، لم يكن في المملكة من غير المسلمين أحد!، فمنذ اليوم الأول الذي تأسست فيه (أنطاكيا)، وأهلها يورِّثون الإسلام لأبنائهم وأحفادهم، على ما عرفوا أن في العالم الخارجي أديانًا سماوية سابقة، وأديانًا أخرى من اختلاق البشر. لذلك،

وعلى ما خلت نفوسهم من العصبية للونٍ أو جنس، خلت بلادهم أيضًا من وقوع حادثة يشهدون فيها انتصار دينٍ على دين.

باختصار، لم يكن الملك، كسائر شعبه، يعرف أحدًا آخر غير أبناء بلده. لكنه اليوم، وإزاء أولئك الماثلين أمامه، كان يصطدم لأول مرة بذلك (الآخر) المختلف نسبًا وموطنًا ودينًا.

والحق أنه لم يشهد من القوم الذين التفّوا حول المائدة التي نُصِبَت لهم، يأكلون طعامهم في صمتٍ وهدوء، أدنى شبهة أو بادرة تثير الخوف والقلق. إلا أنه كان يرغب في رحيلهم باكرًا قدر المستطاع. بلى، أمتعه حديثهم، وسرَّته طرائفهم ونوادرهم، لكنه في أعماقه كان يتوق لصرفهم في أسرع وقت، لتعود أمور المملكة، وأمور نفسه، متزنة كقبل.

لكن، وأمام تلك النظرات الحائرة، الملهوفة والمتبادلة أمامه، كانت رغبته في الخلاص تتعاظم حتى حدها الأخير.

فعلى مسافة منه، كان يجلس ولي عهده (جواد)، مستقرًا في مقعده هادئًا، يضحك بوقار على دعابات القوم وطرفاتهم، لكنه، خلسة، بدا مشدوهًا بتلك الصبية الساحرة التي تقف مع النساء، وتتقدمهن، حتى تكاد تلحق بعصبة الرجال في وقفتهم بينهن وبين الملك وأسرته في صدر القاعة.

كانت ملامحها تتجلّى بجمالٍ إلهي غير مألوف، لم يشهد الأمير على طول تنقلاته بأرجاء المملكة وبيوتها، شيئًا مماثلًا له أو يشبهه. تنتصب في وقفتها مستقيمة الظهر، مرمرية العنق، مرفوعه في أنفة واعتداد، ريَّانة

الجسد، بديعة القسمات، يحيط الكحل بعينيها وكأنه يحرسهما في خفة، كحراسة ذلك الخلخال الذهبي الفرعوني بقدمها البضة.

لم يكن الأمير مندفعًا ولا شهوانيًا بطبعه، رغم سنوات عمره التي تخوض المراهقة والطيش والمشاعر المضطرمة آنذاك. غير أنه في جلسته تلك، كان يحترق على جمرٍ متقد، وتتلظى دماؤه الحارة كالحمم، ويشتعل عقله وقلبه وحواسه بأسرها. يكاد يقفز عن المقعد ليهرع نحوها، و... ولا يعرف ما بعدها!

الأمير الذي لم يختبر قبلًا مشاعر كتلك، لم يكن يدرك ما عليه أن يفعله حين تأسر عينيه أنثى، أو تثير إعجابًا لديه. فكَّر أنه قد يهديها وردة، أو يُقبِّل يدها، أو يتأملها طويلًا في تيه... أو ربما يحملها فيفر بها من القصر ومن عيون الحاضرين فيه إلى ركنٍ خفي.

وشعر بلهبٍ يحرق صدره، فاستعاذ بالله من نزغات الشياطين. لكنه حين رفع عينيه مرة أخرى، كانت ترمقه من بعيد بنظرة صامتة تحمل الكثير. نظرة طويلة آسرة، تتأمله بها وكأنها تدرك ما يدور في أعماقه. خفق قلبه مجددًا. رباه! قد يفعل أي شيء، وكل شيء، إلا أن تكون تلك المخلوقة الفريدة على مرمى بصره ولا يقربها.

في تلك اللحظة النادرة من حياته أدرك (جواد) لأول مرة، دون أن يرتِّب لهذا أو يريده، أن قلبه يدق أخيرًا لامرأة، فلعن في سره الإمارة، والحكمة، وتقاليد المُلك ووقاره الذي تمنعه عنها.

قابضًا على مسندي عرشه بغضبٍ صامت، كان الملك الأكمل يرقب ما يجري بنظره، بينما عين بصيرته تكشف له رؤىً مبهمة لما سيحدث في المستقبل. كانت تلك النظرات النهمة المتوثبة من عيني ابنه الوحيد تثير حيرته وقلقه، ويستطير به التوجس أن الفتاة تُرحِّب عيناها بنظراته ولا تصدّها أو تتأبى عليها.

أمر الأكمل حراسه على عجلٍ أن يهيئوا مكانًا مناسبًا لمبيت القوم هذه الليلة، وإلى أن يرحلوا، إذ لم يكن في المملكة، بطبيعة الحال، خانٌ أو مَضْيَفة.

حين أنهوا طعامهم، أخذوا يلهجون بالثناء على الملك وعلى كرم مأدبته، ومنحه كبيرهم هدية خزفية فائقة الجمال تشي بمقدار قيمتها. نهضوا مغادرين ضيافته إلى البيت الذي أُفرغ لهم بجانب قصره، وفوجئ الأكمل بابنه، بغير انتباه، ينهض عن مقعده معهم. تحرَّج ولم ينبس، اكتفى بنظرة لومٍ صامتة أقعد بها ابنه من جديد مؤنبًا نفسه.غادر القوم، وغادر معهم قلب الشاب، لكنه كان يعرف أنه سيراها مجددًا بأية صورة. لن تكون تلك النهاية حتى لو رحلوا صباحًا.

تلك الغجرية الحسناء، في أعماقها، عرفت أيضًا ذلك.

(٣)

قالت له يوم رحيل عشيرتها:

- بربِّك أيها الأمير، دعني أرحل في سلام.

- إني أحترق يا (إيليانا).. ورب السماء، منذ رأيتك لم أكف لحظة عن التفكير بكِ.. إني أعشقكِ.

أطرقت أرضًا:

- يشهد الله على ما في قلبي، لكن ذلك الحب لن يتم. لن تفارقني عشيرتي أبدًا. لم نعهد رحيل أحد عنا قط، ولن يسمح الملك بضياع ولي عهده. كلانا محكومٌ عليه بالغياب.

تعلق بكفِّها في لهفة.

- لا تقولي ذلك، أقسمتُ عليكِ.. حاولي مجددًا، لربما يرق قلب أهلكِ. لن تعيشي هنا إلا في قصرٍ مُنعَّم. ستكونين زوجتي وسيدتي وشريكة مُلكي.

- حتى كل هذا لن يُرضي أحدًا من قومي.

ثم بمرارة:

- قد ننزل لديكم منزل الجشعين، عاشقي المال، كما نعرف ويُقال عنا، لكنَّ انفصال أحد منا مستحيل. لم يحدث هذا من قبل. عشيرتنا لا تُفصم أبدًا حتى ولو بمال الدنيا كله.

ورفعت إليه عينين كسيرتين:

- وهَبْ أني بقيت، هل يرضى أبوك بزواجك من غجرية رحالة؟ أيسمح أن يُدخل في نسله ونسل أجداده، دمًا ملوثًا كدم ساحرة مثلي؟ هل يخضع لإرادتك وتكون أم حفيده، ولي العهد الجديد، أنا؟ المشعوذة اليهودية؟ من تُخادع يا (جواد)؟

بُهت لكلامها فلم ينطق. وتكشَّفت الهوة بينهما مظلمة، قاسية، وعميقة بلا قرار.. لبثا لبرهة واجمين، تتعلق أعينهما ببعضها في صمت، بينما تتردد بينهما ألف كلمة دون بوحٍ.

* * *

ليلة وصولهم، وحين اطمأنت لنوم النسوة المحتشدات في الحجرة معها، نهضت بخفة عن فراشها، وانسحبت ببطء من بين الأجساد المتراصة على الأرض. من خلفها، تناهى إليها همس أختها تناديها، فأسرعت تشير لها بالصمت قبل أن تنتبه إحداهن. ثم إن شفتيها تراقصتا بابتسامة ذات مغزى، التقطته الأخت العليمة بما يدور فعادت لرقدتها وهي تتنهد.

تسللت خارجة.

قرب حزامٍ من الأشجار، وقفت ترمق القمر الغافي من فوقها، وتحكم حول كتفيها شالها من قرصة البرد. تساءلت: أتراه يأتي؟ كانت تعلم جيدًا ما نطقت به عيناه في القاعة. لم تكن غرة لتخطىء فهم كنه تلك الحرارة المفعمة باللهفة. لكن ما لم تفهمه هي في تلك الليلة، كيف مسَّت قلبها نظراته بالذات على كثرة ما ارتدت عن صدرها من عيون الرجال وألسنتهم؟

على اعتدادها بنفسها، وأنفتها اللامتناهية بين قريناتها، إلا أن رؤية ذلك الشاب دون سواه جذبت بتلابيبها فأربكتها. وسيمًا كان، تعترف، لكنها رأت من هو أشد منه وسامة، وأبهر منه عودًا، وأشرف منه نسبًا ومكانة. شيءٌ في ملامحه وهيئته كان ينضوي على سرٍ مبهم سلبها كل شيء: العقل، والاتزان، والهدوء. ما كان مميزًا بشأنه لتلك الدرجة حتى تنتبه لأول مرة وتهتم؟ ما كان مميزًا حتى تجاري عينيه؟

وعاودت التطلع إلى الطرقات الخاوية من حولها. أتراه يأتي؟ أم حجبه الملك والحراس؟. ربما يطلبها غدًا لرؤيتها. للنهار سطوة عن خفية الليل. ثم إنه أمير البلاد ويحق له أن يأمر بمثول أيًا من كان على أرضه. لكن... وزفرت وهي تجوس بعينيها في الظلام المطبق حولها. لقد كنتُ متأكدة أنه لن يطيق الانتظار، فماذا حدث؟. هل أخطأ حدسي لأول مرة؟

حين طال الانتظار، بدأ اليأس يغزوها، والبرد يتكاثف أكثر على لحمها الرقيق. ألقت نظرة أخيرة محبطة، وتنهدت من جديد. قفلت عائدة لحجرتها. عند الباب، وقبل أن تطول أناملها مقبضه، أتاها صوته من ورائها

هامسًا، فارتعشت. دق قلبها بقوة، لكن كَفَتها لحظة حتى تواري ابتسامتها، قبل أن تلتفت إليه بعينين مستغربتين، ووجهٍ يتصنَّع الدهشة.

* * *

مضى على وجود الغجر في جنبات المملكة تسعة أيام متتابعة، تلاقيا فيهم يومًا بعد الآخر في الخفاء. كانت سفينتهم الرثة قد أصابها ما أصابها، في أسفارهم التي تجوب الأرض، فأمر الملك بإعادة بنائها دون أن يُكلّفهم شيئًا.

من مملكته خرج النجارون والبناؤون، والأدوات والأخشاب والأقمشة. كانت رغبته قد تضاعفت أطنانًا حين اكتشف غياب ابنه اليومي عن القصر، وأخبرته عيونه أنه يلقى سرًا الغجرية في ساعات من النهار، وفي حلكة الليل والقوم نيام.

تلك الأخبار أنذرته بنُذُر تهدد قوام مملكته واستقرارها، وخلَّفت في أعماقه رغبة مخيفة لم يجاهد لإخفائها، أولئك الغجر عليهم أن يرحلوا في أسرع وقت وبأي ثمن.

ولعلّ هذا ما دفعه، لأول مرة، أن يُقيم حراسة خاصة من الجند لأسرته، ولابنه الشاب بالذات، بعد أن ظل نفر الجن لسنواتٍ طويلة هم الحرس الوحيدون للملكة بأسرها. لعلمه بعناد (جواد) ونزقه، رغم تدينه وعقله اللذين لا غبار عليهما، كان يخشى أن تجمح به مشاعره، فتدفعه لتصرف مجنون.

لأول مرة كانت حكمة (جواد) تصطدم باختبارٍ حقيقي، ولشد ما خشيَ أن يفشل فيه. كان يدميه أن ولي عهده نجحت في فتنته امرأة، مهما بلغ جمالها وسحرها، وهو من عاش عمره صامدًا كصخرٍ أمام المال أو النساء. أتراه السن؟. وهز رأسه في إشفاق. السن اللعين الذي يمر به ابنه أشد فتنةً عليه من كل نساء الدنيا.

ويح جوادٍ وأبيه! ماذا تقول الرعية إن عرفت الخبر المشؤوم؟

ليته مات دون أن يخطو أحد عتبات (أنطاكيا). تلك جريرته حين خالف وصايا الأقدمين وفتح الباب للعالم الخارجي، فكابد لأول مرة كملكٍ وأب، خطرًا لا يعرف فيه الرشاد.

* * *

«سيقولون سحرته بسحر قومها الأسود، وفتنته بالتعاويذ والوصفات. سيلوكون سيرة الفتاة الملعونة ذات الدم الملوث، القادمة من عالم الشعوذة، الذي لم يخط إليه أحدكم. أعرف كل هذا يقينًا. أراه بعينيّ ماثلًا أمامي».

وملأت ناظريها بملامحه، تشرَّبتها حتى ارتوت. قالت بكل ما في قلبها من حرارة:

- لكن، وأقسم لك على هذا يا حبيبي وأميري، أني لم أفعل إلا أن أحببتك صادقة. أحببت نبلك وقوتك ورقة حاشيتك وخُلُقك. أقسم لك برب موسى وهارون أنه ما جال الحب بخاطري قط قبل أن أراك وأحدِّثك.

- سنحاول من جديد يا (إيليانا)، سنحاول، لا يجب أن نستسلم الآن.. ليس بعد أن عثرت عليكِ.

- تعلم مثلي أنه لا فائدة يا (جواد). انتبه لمُلكك، فهو الأجدر بك. حياتي وسمتها التعاسة في مسارها ومنتهاها، أما حياتك...

وابتسمت وهي تربت على وجنته:

- حياتك أغلى عندي من كل ما تتخيله. لم يزل العمر كله لك، بصدرك حياة، وبقلبك شباب، فارحل وترقب الأيام حتى تُنسيك ما كان من أمرنا. اختر من تستحق أن تقضي شبابك وحياتك معها.. من تليق بك.

- لا يُمكن أن أخسركِ!

- أنا لم أكن لك يومًا حتى تخسرني.

- هذا جنون!

- ومن قال أن الدنيا تعرف غير الجنون؟ لقد جبتُ الآفاق، وخَبُرتُ الدنيا والبشر أكثر منك بكثير، وإن لم أتعلم بحياتي شيئًا، فقد تعلمت درسًا واحدًا فقط: لا أحد في الدنيا يحصل على ما يريد.

ونظرت بعيدًا إلى قومها المتجمعين أمام الأسوار، يغادرون واحدًا عقب الآخر من الباب الضيق الذي دلفوا منه قبل فترة. تنهدت بحسرة:

- حياتي ألقت مرساها للأبد، وطوَّقت عنقي بنيرٍ لا يُفصم. فإن لم أقدر على التحرر، تحرر أنت.. على الأقل حتى أعلم أن أحدنا سيعيش هانئًا ما تبقى له من عمر.

ترقرق الدمع في عينيه الصافيتين كالزمرد:

- لا ترحلي معهم.. أرجوكِ.. لا تكوني بتلك القسوة.

مسَّت وجنته من جديد، بادلته دمعًا بدمع أشد ألمًا وتأثرًا:

- لا تقس أنت وتتهمني بما ليس فيّ. اذكرني بالخير متى خلوتَ إلى نفسك.. وداعًا يا (جواد).

وتسللت من مكمنهما، متقدمة بخطوات راجفة نحو الأسوار والقوم الراحلين، كادت تتعثر مرة بعد أخرى، لكنها تماسكت. حين وصلت إليهم، كان قلبها يلفظ آخر قطرات دمها، وذاك الألم الممض يشق جنباتها بسكينٍ بارد. غصبت شفتيها على ابتسامة باهتة أمام أعين أمها، التي لم تغفل عن العذاب المحفور بقسوة في ملامحها، غير أنها آثرت الصمت.. لاحقا ستسأل، وستعرف.

أما هي، فوقفت في وجوم ضامة قبضتيها بجانبها، تحاول التشبث بقدميها في الأرض لتتزن. هي التي ما نجح مخلوقٌ ولا شيء في الدنيا أن يُرجف طرفًا من ناظريها، اليوم تشعر، ولأول مرة، أنها هشة وبائسة كورقة تكاد الريح تطيح بها عن الأرض.

لن تراه مجددًا. لن تنعم بقربه. لن تلمسه أو تذيب حواسها رائحته. ويل قلبها مما تقاسيه!

لن تراه أبدًا.

واقفةُ في مكانها، وآخر الراحلين يغادر البوابة الصغيرة، تسمَّرت موزعة بين الخوف والرغبة، بين اللهفة الجنونية والحكمة التي جُبِلَت عليها.

طبول قلبها تدوي في صخب.

حان الوقت، وسينتهى كل شيء كما بدأ.

لا..

«لن يكون الفراق». صرخت أعماقها. «لن يكون أبدًا».

استدارت إليه. رأته من بعيد يقف مستترًا ليرنو إليها، يخشى أن يظهر للعيون، فيلمح الناس الذين تحلَّقوا يودِّعون الضيوف ما عليه حال أميرهم.

نظرت إليه مليًّا. رددت دون أن تفتح شفتيها:

- حين يُكمل القمر دورة كاملة، وترى البدر تامًا في صفحة السماء، قابلني عند أطراف الغابة المحرمة.. سأكون هناك بانتظارك، أعدك.

وابتسمت.

بوضوحٍ، وبشكلٍ لا يُصدق، سمعها وكأنها تقف أمامه لا يفصلهما إلا ذراعٌ واحد!. باغتته المفاجأة وقد عجز عن الفهم، غير أنه ما لبث أن تمالك نفسه. ما سمعه بصوتها الذي يذيب كيانه، كان أهم من محاولات الفهم والسؤال. لقد سمع، وفهم، وللمرة الأولى منذ مطلع اليوم غزتِ الابتسامة شفتيه وأشرق وجهه. تابعها وهي تغادر البوابة، ويختفي ظلها، قبل أن يحكم الجند الإغلاق من ورائها. سينقضى حينٌ طويل ربما، لكنه في النهاية سيلقاها. لن يكون الفراق قط.

(٤)

حين لمست قدماه الأرض، أسرع بسحب خنجره من الجدار، لف الحبل حول نفسه جيدًا وأخفاه بين جمّة من الحشائش المرتفعة بجانب السور. رفع رأسه مسددًا طرفه للأعلى. كان الجدار شاهقًا. من مكمنه هذا لم يتسن له الرؤية بوضوح إن كان يرقبه (سامر) أم لا. أسرع قاطعًا المسافة الصغيرة التي تفصل الأسوار عن ضفة النهر، ووقف على حافته متهيبًا.

في كل مرة كان يقف في ذات البقعة بالشعور نفسه. على مدار عامٍ كامل، خرج فيه عشرات المرات، لم ينجح يومًا في اعتياد الأمر، أو التغلب على مخاوفه التي تنتابه لحظة أن يغادر أسوار المملكة، ويقف على حافة النهر متوجسًا من خوضه في الظلام، والتوغل في الغابة البعيدة.

التقط نفسًا عميقًا من برد الليل، حاول السيطرة على أعصابه ومشاعره، مذكِّرًا نفسه أنه على بعد خطوات من لقاء محبوبَيْه. فرد قامته، وبرشاقة وجرأة بالغين فرضها على نفسه، وثب إلى النهر الحالك، شاقًا صفحته كسهم.

كان الماء دافئًا برغم برودة الجو، أخذ يقطعه بنعومة مَن تدرَّب عامًا كاملًا على هذا.. وعند أطراف الغابة المحرَّمة خرج.

وجعل يتحرك بحذر، شاهرًا سيفه القصير، ومتمنطقًا بحزامه السحري، الذي ألقى عليه ساحر المملكة يومًا تعويذة تجعله ينبض بلونٍ أحمر مخيف، ويُطلق حرارة مفاجئة إلى بدن حامله، حين يكون ثمّ خطرٌ قادم.

بينما يرتجف بردًا وتوترًا، أخذ يستطلع الرؤية من بين غصون الأشجار الكثيفة المتشابكة، محاولًا تبيّن طريقه بينها. حانت منه نظرة للسماء، كان القمر بدرًا تام الاستدارة، يتلألأ بضوء فائق الجمال، كقرص فضةٍ مقطَّرة.

ابتسم في حنين، اليوم آخر أيام عامٍ كامل من لقاءاتهما السرية بليلٍ.

ما إن سار بضع خطواتٍ أخرى مستكشفًا، حتى أطلق الحزام بغتة دفقة من حرارة مفاجئة سَرَت إلى جسده، قبل أن ينبض باللون الأحمر القاني. اشتعلت أعصابه في لحظة، وتوترت يده على المقبض العاجي للسيف، وهو يتلفَّت حوله في عصبية مترقبًا ضربة مفاجئة. انكسر غصنٌ من خلفه، ففزَّ منتفضًا، واستدار خلفه، حين هوت تلك القدم أمامه بغتة.

ارتجَّت الأرض بعنف، كاد على أثرها يسقط متعثرًا. انتفض قلبه مذعورًا، وأسرع يتراجع للخلف، حتى التصق بجذع شجرة ضخم. دبَّت القدم الأخرى أمامه، بثلاث أصابع حرشوفية مشقوقة، تبرز منها مخالب سوداء بشعة الخلقة، يناهز الواحد منها الأمير طولًا وحجمًا. عبر الكائن العملاق أمامه، على أربعٍ في أناة وثقل، يسحب قدمًا وراء الأخرى بتعاظم ملك.

كان أشبه بعظاءة هائلة الحجم، تزن عشرة أطنان على الأقل، حراشيفها عريضة لامعة كالفضة، جلدها الداكن ثخين، ينز رائحةٌ كريهة منفرة. ذيلها

طويل ينسحب على الأرض من خلفها، تاركًا أخدودًا طويلًا، يشق طريقه على الأرض التى كستها الحشائش والأوراق الجافة الساقطة.

كادت تنفلت منه صرخة، علم مسبقًا أنها سترجُّ الغابة بأسرها. شجاعٌ هو، لكن ليس إلى ذاك الحد!. لولا أن أطبقت يد على فمه، تطوقه وتكتمه بقوة. كانت دقات قلبه تدوّي في صدره، وشعر أنه على وشك التوقف للأبد. بنظرة واحدة لما خلفه رآها، تتعلق به في حزم وحنان مشفق، وعيناها تبرقان بالإثارة.

هتف باسمها، فأشارت إليه بالصمت. أومأ برأسه مجيبًا. لبثا على تلك الحال دقيقة كاملة، حتى غاب الكائن عن أنظارهما، وتخافتت أصوات أقدامه التي تدبَّ على الأرض، حتى ضاعت تمامًا.

عندها أفلتت ضحكة استمتاع، وربتت على كتفه قائلة بمكر:

- هل شعرت بالفزع يا صغيري؟

عقد حاجبيه مغضبًا، وغمغم وهو يغالب لهاثه:

- أنا لا أخاف، كل ما في الأمر أني لم أر شبيهًا لهذا المخلوق من قبل. كنت لأقاتله بسيفي وحدي لولا ظهورك.

أطلقت ضحكة أخرى صاخبة ولم ترد. كانت تعشق مكابرته وعناده. تعرف أنه في كل مرة يدلف فيها الغابة، كان يخاف المجهول، وتلتهب أعصابه لأدنى حركة أو صوت، حتى يلقاها فيسكن توتره. لكن برغم هذا كانت تحسده على شجاعته حقًا، يدخل الغابة المحرمة في جرأة، ويخاطر

في كل لقاءٍ لهما غير آبه، فقط كي يراها!. وتذكرت يوم علَّمتها أمها أن المرأة لا تعشق الرجل لبطولته وفروسيته وجندلته عشرات الخصوم. ربما يستثيرها هذا، لكنه لا يميل بقلبها، إنما تعشق مَن يبدي صادقًا رغم ضعفه، استعداده لخوض غمار كل شيء، حتى المستحيل، من أجلها وحدها.

«(إيليانا).. هل أتيتِ به؟».

انتبهت من أفكارها على صوته الملهوف.

- كنت أعرف أنك لن تطيق فراقه. لا تخف يا حبيبي، إنه هنا.

خفق قلبه بحنين، وهي تسحب يده، وتدور به حول شجرة البلوط الضخمة التي وقفا عندها. هنالك رأى أعجب صورة شاهدها في حياته، خطفت بصره وقلبه في لحظة. كان ذلك الوليد، يسبح في الهواء، نائمًا بوداعة، متدثرًا بثوب حريري في لون الورد، ومحاطًا بكُرةٍ كاملة من نور فيروزي صاف، تطوف به فوق الأرض بنعومة!. كان المشهد ساحرًا إلى حدٍ لم يصدقه، حتى وهو يراه بعينيه. هتف مشدوهًا:

- (بشر).. بنيَّ!

(٥)

كملاكٍ فاتن، كان الرضيع نائمًا بين ذراعي أبيه، تتشبث كفه الضئيلة الرقيقة بإصبعه، ويضمه هو في حنو. كان من السعادة في غاية، عيناه تتألقان بينما يملأها بصورة صغيره الوحيد. ولم تشأ (إيليانا) أن تقطع تلك اللحظة الخاصة بكلمة، فاكتفت بالتطلع إليهما معًا في سكون، دون أن تنبس ببنت شفة.

* * *

كان قرارهما بالزواج غريبًا وسريعًا. عارضته في البداية متخوفة، إذ كانت تخشى كل شيء وكل أحد، وتجد ألف عارضًا لذلك الرباط العجيب الذي سيجمعهما للأبد، لكنَّ نداء قلبها كان أشد وأقوى. بدت مقاومتها خافتة، ضعيفة، وفي النهاية وافقت على استحياء وقلبها يرقص.

وفي الغابة المحرَّمة كانت لقاءاتهما. أخفت فيها بقدراتها كوخًا صغيرًا كان بمثابة عشهما إلى حين. في البدء كانت المتعة اللذيذة، والحب، واللقاءات القصيرة، التي تسري أوقاتها في هناءٍ صاف. لكن حين بدأت بطنها تتكور، وتدبُّ في بدنها الموفور آيات جلية للحمل، طفرت على السطح كل المخاوف، والأسئلة، والحيرة التي جاهدا لدفنها.

وعزمت على الرحيل. أبلغت أمها أنها ستستقر حينًا عند أخوالٍ لها، في بلدةٍ بعيدة كان لهم فيها نسبٌ ودم. كانت عنيدة، متصلبة الرأي، وكان الجميع، حتى أهلها، يحسبون لغضبتها ألف حساب، لذا لم تطل المقاومة

كثيرًا حتى كانت في طريقها إلى أرض أخوالها. وفي ذلك الكوخ الفقير، كان مستقرها ومقامها وحدها إلى حين.

كانت الولادة عسيرة. شاء القدر يومها بغرابة، أن يحرمه من التواجد معها ليشهد تلك اللحظة الفريدة. كان الحصار يشتد يومًا بعد آخر، وأبوه يلحظ توقه للرحيل، وشروده المستمر، وإضرابه عن الطعام والدروس المعتادة الصارمة بإصرارٍ منه غير معهود. لم يكن الملك الأكمل يعرف كنه ما يخفيه ولده، لكن لسببٍ ما أمر بزيادة العيون والحراس عليه. وفي تلك الليلة، كان الحصار على أقصى شدته، وكأن القدر وأباه والجميع تكالبوا لحرمانه منها.

هكذا، شاعرًا بالقهر والعجز، قضى الليل يدور في أروقة القصر كالأسد الحبيس، حتى انجلى الصباح، وتهالك بدنه من الإعياء والتفكير والحزن، تمامًا في اللحظة التي نامت فيها هي، على شفتيها بسمة راحة بعد انهاك، وبجوارها يستقر طفلها مُدثَّرًا في ثوبٍ أعدته خصيصًا لتلك اللحظة.

وحين ألقمته ثديها لأول مرة، وأخذ يرتشف منه ما يرويه، أدركت (إيليانا) أنها لم تعد تلك الشابة العابثة زهرة عشيرتها وأميرتها، ولا حتى الزوجة الهانئة التى تنعم بلحظاتٍ من السعادة من حينٍ لآخر مع حبيبها وزوجها.. لقد صارتً أمًا. ورددت الكلمة طويلًا وكأنها تستوعبها وتستوعب ما يتبعها من مسئولية.

أسبوع كامل مر قبل أن يستطيع (جواد) اللحاق بها في الغابة، حيث قضى الليل بأكمله جوار زوجه، يُقبِّل طفله ويضمه، كأنه يخشى عليه الهرب.

ومثلها، فكَّر أي مسئولية ورَّط نفسه فيها، ما عليه أن يفعل؟ وما الخطوة التالية؟. رحل الشاب الذي ينهل الحب يومًا من نبع حبيبته، وينتظر دهرًا حتى يقربها مجددًا، وأقصى ما يشغل باله حيلة جديدة يستخدمها ليهرب من المملكة ويلقاها. الآن صار أبًا مسئولًا عن أسرة كاملة تطوق عنقه. كيف سيقبل أن يتربي ابنه، ليس فقط مع أم وحيدة، ولا حتى بعيدًا عنه، ولكن - وهو الأنكى - بين قومٍ من الغجر الرحالة، سحرة وعبرانيين، عاجزًا عن الرفض، عاجزًا عن اصطحابهما معه.. أي ورطة أغرقت نفسك فيها يا (جواد)!

* * *

لبثا صامتين لزمن، مستندين في شرود على جذع عريض لشجرة برزت أطرافها الضاربة في الأرض، متلاصقين يستمدان الدفء من بعضهما.

كانت قواها السحرية ليست بهيِّنة. تفيدها، بجانب خبرة الترحال الثرية، في مجابهة أخطار عدة، وتصد عنها كل مشكلة تورطت بها. لكن هنا الآن، كانت واهنة كفراشة، مبعث ضعفها رضيعها، وسر رقتها هو: حبيبها، وفارسها، ورجلها.

وتأملته وهي تمسد شعره بكفها في رقة، بينما هو في شغلٍ عنها بالطفل. كان ذلك يسعد قلبها: أن ترى فرحته بطفلٍ منها، يربط بينهما للأبد.

كانت، ولا تعرف كيف ، تشعر في هذه اللحظة بنشوة تنبعث من العدم فتفعم روحها بسكينة غير عادية!

رفع (جواد) رأسه شاردًا في الأفق البعيد. كان يعقد حاجبيه، وهو يفكر بعمق. تنفرج شفتاه للحظة، ثم تنغلقان بسرعة قبل أن تلفظا ما بجوفها. أخيرًا وبعد تردد عزم الرأي. قال حاسمًا:

- سنرحل.

لم تستوعب الكلمة لثوان. أطلقها كقذيفة مدفع في وجهها، وصمتَ حتى تعيها. لبثت دقيقة مبهوتة فاقدة النطق، قبل أن تردد:

- تعني أن...؟

- سنرحل، أنا وأنتِ والصغير. لن أسمح أن يبقى الوضع هكذا للأبد. لن يتربَّى ابني إلا تحت ناظريّ ووصايتي.

انقبض قلبها في خوفٍ:

- يوم تلاقينا، أخبرتك أن أحدًا من العشيرة لم ينفصل عنا قط. لقد ارتكبتُ إثمًا هائلًا بزواجي منك يا (جواد)، والآن.. ما تطلبه مني.. إن هذا مُحرم في أعرافنا حُرمة الدم!

- لم يعد كل هذا مهمًا الآن يا (إيليانا).

ورنا للطفل مشفقًا:

- ما لدينا الآن أهم من كلينا: (بشر). هو من ينبغي أن نفكر فيه وفي حياته، لا أنفسنا ولا الإثم الذي يثقل كاهلنا.

- تقول هذا لأنك لن تُضحي بمثل تضحيتي.

قال في غضب مكتوم:

- تضحيتك؟ أتتحدثين عن التضحية حقًا؟ أنسيتِ حياتي وأهلي؟

- لي أيضًا حياةٌ وأهل!

صاح:

- ليس مثلي. لن يكون أبدًا حالك كمثلي؛ أنتِ ستودعين حياة الترحال والغربة، ستكونين زوجة وأمًا، سيكون لكِ وطن دائم مع ابنك، معي، لكن أنا...

وشملته رجفة أخذت بجسده كله:

- أنا سأترك عالمًا لم أعرف سواه طوال حياتي يا (إيليانا). لم أبصر غيره. بيتًا وأرضًا وعائلة وتاريخا. سأهجر مُلكًا تجهَّزتُ له لسنوات طويلة. أنتِ لا تعرفين بم أضحي من أجلكما. لا تعرفين أبدًا.

أطرقت أرضًا وقد أوجعتها كلماته. كانت تعرف أنه محق، وفي قلبها أشفقت عليه بشدة، لكنَّ الأمر كان أقسى وأصعب عليها من أي تصور. قد يمكنها الرحيل لفترة. يمكنها التنقل بين المدن التي تتوزع فيها عشيرتها، وما أكثرها من مدن. يمكنها حتى أن تداري حقيقة حملها عن أسرتها شهرًا أو عشرة، لكن كيف ستترك أهلها؟

وقبل أن تجد جوابًا باغتها سؤال أشد قسوة: وما البديل؟ كيف ستقضي بقية عمرها؟ كيف ستحيا برضيعٍ يكبر يومًا عن سابقه؟ كيف ستخبئه

وتحميه وحدها دون عون زوجها؟ من تخدع؟ جوادًا أم نفسها؟ إنه محق، تكره أن تعترف بهذا، لكنه لم يكن محقًا قبل تلك اللحظة.

وأحست بكفه تربت على وجنتها:

- لنرحل معًا يا (إيليانا). لقد حاولت كثيرًا مع أبي، لكني فشلت. قد يكون رقيقًا وعادلًا، لكنه ملكٌ قبل كل شيء، وفي سبيل استقرار بلاده وحمايتها من الفتنة لن يتردد في التضحية بأي شيء، حتى أقرب الناس إليه. ذاك هو العدل الذي يعيه ويعرفه، والمسئولية التي يدرك هولها. لن يقيم وزنًا لسواها لو حتم الأمر.

ثم التقط نفسًا سيطر به على مشاعره:

- لن يفهم أبدًا. لن يفهموا جميعًا. ذهبت التقاليد والموروثات بعقولهم، فدعينا إذن نغادرهم، نستكشف العالم، ونستقر في أرضٍ تكون لنا ولابننا موطنًا جديدًا.

قالت مشفقة من حماسته:

- (جواد)، الأمر ليس بتلك السهولة.

- بل هو كذلك. فقط أنصتي إليّ. سنبني بيتًا سويًا في أرضٍ طيبة نحيا بها. سيكون لنا جيرانٌ وأهل وعشيرة. لن نكون وحدنا أبدًا. تطلعي لما حولك جيدًا يا (إيليانا)، اليوم نحن هنا، في الغابة المحرمة، وبين عالمينا. من كان يحسب أن نحيا فيها معًا قبل عامٍ واحد؟ غدًا لا أحد يعرف. ربما نكون في الطرف الآخر من الأرض، أيضًا معًا.

وتعلق بيديها مستحثًا:

- أرجوكِ يا حبيبتي.. أعلم أنك ستطيعينني. سترحلين معي لآخر مكانٍ في الدنيا، المهم أن نكون سويًا.. أليس كذلك؟ أأنا محقٌ يا (إيليانا)؟

كانت كلماته حارة وصادقة، تذيب عزيمتها وتوهن إرادتها. تعلم أنه محق في كل ما قال، لكنها لا تقدر.. ما يقوله واجب، لكن شد ما تعجز عن إتمامه.

يا إلهي الرحيم، أي عذابٍ هذا؟

ومكثت تفكر، وتجهد ذهنها المكدود، واحترم هو لحظة ضعفها الصامت تلك. لم يشأ أن يبالغ في الضغط عليها، غير أنه كان يريد التيقن منها ومن قرارها. بعد برهة، رفعت رأسها وقد استكانت ملامحها. بلغت أخيرًا قرارها. وانفرجت شفتاها لتنطق، لكن كان هذا حين ومض الحزام بغتة!

نظرت إليه في دهشة متسائلة. لم تستشعر خطرًا رغم غريزتها الفائقة. هبَّ واقفًا وقد توترت حواسه من جديد. لم يكن هناك شك في قوى حزامه المسحور. أتراه وحش آخر؟ أحد يتبعهما؟

أنهضها وهو يناولها الرضيع، قبل أن يضمهما إلى صدره بيسراه، بينما يستل سيفه بيمينه، ويشرعه متحفزًا. من أين ستأتي الضربة؟ أخذ يدور حول نفسه متوثبًا، مستعدًا لغريمٍ مجهول. من أين ستأتي الضربة اللعينة؟

هنا سمعا الأصوات. ضربات سيوفٍ تنهال على الأغصان، تمزقها فتتهشم أرضًا. كلابٌ تنبح وتعوي، ورجالٌ يهتفون بأشياءٍ لم يتبينا فحواها. نظرا لبعضهما في خوف. ازدادت تعلقًا به، ازداد هو انفعالًا.

الأصوات تقترب..

وتقترب..

وتقترب..

وفجأة برز الجندي الأول من بين الدغل المتشابك، يشق طريقه بالسيف بين الأغصان. تبعه ثانٍ وثالث، قبل أن تخرج فرقة كاملة من الجند، قوامها ما يقارب العشرين جنديًا. فرقة ميَّز فيها، بثيابها الموحدة، جنود مملكته!

أحاط بهما الجند كالسوار، شاهرين سيوفهم في تحفز. لوهلة، ظن وهو في مكانه بأنها خيانة صريحة، أو انقلاب على الملك. لم يفهم ما يجري. لكنه إذ لاحظ نظرات الجند المتوترة إليها، زوجته الفزعة بين ذراعيه، بدأ يفهم ما يدور.

من خلف الجنود، صدر سعالٌ مكتوم، ميَّزه بوضوحٍ تام.

ارتجف قلبه.

أفسح الجند طريقًا للقادم بإجلال بالغ، قبل أن يبرز من ورائهم الملك (أرسلان)!

(٦)

أي خيانة!

كانت تلك هي الكلمة التي دوّت كقذيفة في ذهنه، فألهبت أعصابه. كان يعلم أن للملك عيونًا ترقب خطواته وتحصيها، مذ ظهرت (إيليانا) في مملكتهم. غير أنه كان مبلغ علمهم، هو هروبه المتكرر من القصر، واختفاؤه لفتراتٍ طويلة ليلًا. وضعوا احتمالاتٍ عدة، وحاروا طويلاً في أمره، لكن لم يكن أحد ليجرؤ أن يفكر لحظة في تجاوزه الأسوار للعالم الخارجي، كان هذا أبعد من تخيلهم بكثير.

أحدٌ قد خانه ووشى به!.. (سامر)، صديق الطفولة الوحيد!.. أم...

كان الساحر (عدنان) يتبع الملك، خارجًا من وراء الأشجار، مطرقًا أرضًا، غير قادر على رفع رأسه.

الآن يفهم!

اصطف الجنود في دائرة كاملة حولهما، حوت بداخلها الزوجين والملك والساحر الذي تعلق به بصر (جواد). كان يحبه كعَمٍّ له، شارك في تربيته، وعلمه كثيرًا من الفنون والدروس التي نسجت شخصيته. كيف أمكنه أن يفعل ذلك به؟ كيف خان ثقته؟ لم يُخبر أحدًا سواه، وسامرًا.

فأي خيانة!

وقف الملك الأكمل أمامهما صارمًا، منتصب القامة، مسربلًا بعباءة سوداء طويلة أضفت عليه مهابة غامضة. شبك كفيه خلف ظهره، ولبث برهة يحدج بهما بنظرة صامتة قاسية، قبل أن يتمتم:

- لقد دمرتَ كل ما بنيته يا (جواد).. دمرتَ كل شيء بفعلتك.

- أبي، إنني. . .

صرخ هادرًا:

- اصمت.

ارتجف الشاب. لم تصعقه الصرخة، بقدر هيئة أبيه الواقف أمامه. كان الغضب قد أعماه، وحوَّله في وقفته ونبرات صوته شيطانًا مريدًا. ولأول مرة أحس بالخوف منه.

قال الساحر:

- (جواد) يا ولدي، لا أحد فينا يبغضك لما فعلتَ. أنت أميرنا وسيدنا، وولي العهد الوحيد. مستقبل مملكتنا كله معلق في عنقك. أنت لست مسؤولًا عن نفسك وحدك، بل عن أمة بأسرها، كيف نسيتَ هذا؟

اشتدت إحاطته بزوجه التي ضمت وليدها في رهبة. قال بصرامة:

- لستُ مسؤولًا عن شيءٍ من هذا. أمور المُلك تلك شأنكم وحدكم. أنا الآن مسؤول أمام ربي فقط عن أسرتي الخاصة.

هتف الملك بغضب:

- أسرتك؟ نحن أسرتك. تلك الغجرية مجرد سارقة حقيرة، عزَّ عليها رؤية أميرٍ سعيد في مملكته، فأرادت أن تجرب حُسنها، وتذيقه لوعة الوجد.. إنها غانية.

صرخ:

- إياك أن تنطقها. إنها زوجتي، وأم ابني، ووالله ما شهدتُ سوءًا قط على خُلُقها وسيرتها.

تلجَّم الملك مبهوتًا. لم تعنه في شيء بقية كلمات (جواد). تسمرت حواسه كلها عند كلمة واحدة لحظة أن نطق بها..

ابنه؟ (جواد) أب؟! حفيده هو، وولي عهده البعيد، يُنجب سرًا دون أن يعلم ومن غجرية مشعوذة؟ يهودية؟!

وكأنما لأول مرة ينتبه بصره إلى ذلك الصغير السابح في ملكوت الله، المُلتف بأقمطته بين ذراعي أمه.

ناظرًا إليه في غير تصديق، لم يشعر بأي شيء يُحرك قلبه تجاهه: لا اشتياق، لا فضول، لا بُغض.. فقط خواءٌ تام كان يرتع في قلبه، وهو يرى الرضيع من تلك المسافة القصيرة.

- كيف فعلت هذا بي؟ بشعبك؟ كنت أعدَّك لتكون خليفتي، فكيف واتتك تلك الأنانية؟

- لم أكن أنانيًا. لقد أحببت يا أبي.. أحببت. لأول مرة أختار شيئًا خاصًا بي بنفسي: زوجة وأبناء وبيتًا. لأول مرة سأجوب العالم الذى حُرمت منه طوال حياتي.

لوح الملك بذراعيه مشيرًا لما حوله:

- العالم؟ انظر لما حولك وأخبرني، أهذا هو العالم الذي تريده؟ عالم من الظلام والكآبة والوحشة؟ عالم من الخوف؟ أنت طفلٌ لا يدري شيئًا عن العالم.

- ولا أنت تعرفه كذلك! كل ما تعرفه أتى من الكتب والحكايات. دعني أنا أختبر العالم بنفسي، إنه ليس بتلك البشاعة التي لقنتنا إياها، هناك أماكن أخرى أجمل وأكثر أمانًا.

هتف:

- لا مكان لنا سوى (أنطاكيا)!

- (أنطاكيا) محض نقطة في دنيا الله يا أبي. دونها بلاد وبحور، وأراضٍ ممتدة أكبر من قدرتك على التخيل. لماذا تريد أن تسجنني في قمقم وتجبرني على احتماله؟

تنحنح الساحر:

- تقول كتب الأقدمين...

هدَرَ (جواد):

- تبًا لكتب الأقدمين. الحياة ليست كتبًا وقواعد. هناك بشر لنتعايش معهم، وتجارب لنمر بها. دعكم مرة واحدة من الثوابت الجامدة، وأعملوا عقولكم حبًا بالله.

تمتم الأكمل:

- تلك اليهودية القذرة.. لقد.. لقد لوثت عقلك!

- تلك اليهودية زوجتي، وهي ليست قذرة. ليس لإنها مختلفة نسبًا ودينًا عن بنات المملكة، ستكون أحقر أو أدنى منهن.. والله لهي عندي أغلى من نساء (أنطاكيا) والدنيا قاطبة.

ثم التقط نفسًا حاول به السيطرة على جموح غضبه:

- أبي، أنا لا أطلب منك أن تغيِّر ما استراح له عقلك وقلبك لسنوات. أنت وما تحب. أريدك فقط أن تتركني أقرر ما أريد لنفسي، أختار بإرادتي، وأدفع حرًا ثمن اختياراتي. لقد اخترت زوجتي من قبل، والآن أختار أن أرحل معها عن (أنطاكيا) إلى العالم الحقيقي.

- لا أصدق أن ابني هو من يتحدث.. العالم الحقيقي؟ هذا جنون.

- ليس جنونًا يا أبي. (إيليانا) أخبرتني بهذا. حدثتني عن الجمال خارج أسوارنا الكئيبة. معها، ومع ابني، سأكتشفه وأراه.

اتسعت عينا الملك لحظة في غير تصديق، وفتح فمه ليرد، لكنه تراجع وأطبقه من جديد، كابتاً حَرَّ غضبه. رويدًا انعقد حاجباه. قسَت ملامحه، وقال بهدوءٍ مخيف:

- تلك الغانية لن تقول أو تفعل شيئًا بعد الآن. أما أنت، فلن تغادر الأسوار ما حييت، لن تشق عصا طاعتي أبدًا.

وترامقا هنيهة بدت كدهر، كانت كافية ليهوي الرعب بقلب الشاب وزوجته.

همس الملك في جمود:

- أحضروه.. واقتلوها.

تجمد المشهد في لحظة.

الجنود، الذين لم يشهدوا يومًا قتالًا حقيقيًا، أو معركة تستوجب استعمال الأسلحة، سمعوا كلمات مليكهم، فانفجرت في أذهانهم. إستوعبوها في أقل من ثانية. كان الأمر ملكيًا، وكانت تنفيذه واجبًا.

تحفز (جواد) مستعدًا بسيفه للذود عن أسرته، لكن (إيليانا) كانت أكثر خبرة منه، قتالٌ كهذا لم يكن متكافئًا أبدًا. بحركة واحدة سريعة، وضعت الصغير بين ذراعيه، ودفعتهما جانبًا وهي تصرخ بكل جنونها، وحنقها، وخوفها، مستعدة للقتال.

وانقض الجنود انقضاضة رجلٍ واحد.

(٧)

بتشكيل عسكري سريع، انقسم الجنود لفرقتين رئيسيتين، أحاطت أكبرهما بـ(إيليانا)، في حين انبرت الفرقة الأخرى الأقل عددًا بالزوج الثائر.

لم يكن الجنود يبغون له إيذاءً، فاكتفوا بإحاطته في إحكام، مستفيدين من قوته المحجَّمة بالصغير الذي احتضنه بيسراه، بينما يده الأخرى تنهال عليهم بضرباتٍ قوية مباغتة بالسيف.

اكتفوا بمناوشته، يصدّون ضرباته المتلاحقة، ويجاهدون كيلا يخدشونه عن غير قصد.

أما على الناحية الأخرى فكانت حرب حقيقية حامية الوطيس، انقض أكثر من دزينة من الجنود الأشداء على امرأة واحدة. كانت الأوامر التي تلقوها قبل خروجهم من الأسوار، تقضي بقتلها دون ذرة تردد أو إبطاء. وجعل الساحر يحذِّرهم من قواها، ويشدد عليهم ألا تأخذهم بها أقل شفقة، أو يشعروا في قتالها أنهم بلا نخوة أو شرف. «إنها مشعوذة شريرة، وخطر يهدد أرضكم ومليككم». لم يفكر أحد سوى في تلك الكلمات.

بيد أنها لم تكن غرة. باغتتهم منطلقة في جسارة حقيقية نحوهم، غير آبهة بالسيوف المشرعة في أيديهم. انقضَّت على أدناهم إليها، فقبضت

بفكها على عنقه، تنشب فيه أنيابها، قبل أن تقفز عنه قفزة هائلة، عبرت بها الجنود الذين تخبطوا إثر تلك المفاجأة.

اضطربت صفوفهم، لكنهم عاودوا الكرَّة، وكانت مستعدة مجددًا. صرخت في وجوههم صرخة هائلة، عاتية، أطلقتها كموجة جارفة، انتزعتهم انتزاعًا من الأرض وأسقطت نصفهم أرضًا، كقطع شطرنج بعثرتها يدٌ غاضبة.

كانت عيناها تتوهجان بصدى صرختها الغاضبة، بلونٍ دامٍ كقيان الخمر، تشعان لهيبًا وتضطرم غضبًا.

انقض جندي من خلفها مباغتًا، فلطمته بظهر كفها لطمة، بدت في أثرها عادية، غير ذات قوة، غير أنها قذفت الجندي طائرًا، ليصطدم بجذع إحدى الأشجار، ويهوي كجلمود صخر فاقد الوعي.

تبادل الملك وساحره النظر لحظة، كانت كافية ليتلقى فيها أمرًا صامتًا بالتدخل.

تحرك الساحر مدمدمًا بعباراتٍ وهمهماتٍ خافتة، وهو يشير بيديه إليها. هتف (جواد) منبهًا (إيليانا). كان يجندل أحد الحراس، طاعنًا إياه في فخذه طعنة مدروسة، خر على إثرها أرضًا.

ارتفع صوت الساحر فجأة، صائحًا بلعنة غير مفهومة، وهو يشير بكفه المعروقة إليها. كانت سحنته قد تبدلت، وتجلَّى الغضب العاتي في عينيه.

من العدم تلقت (إيليانا) تلك الضربة المفاجئة في صدرها، لتطوِّح بها مسافة في الهواء، قبل أن تطرحها أرضًا.

نهضت متهالكة، تتشبث بالهواء لتقف، وعظام جسدها الضئيل تئن في ألم. رفعت كفيها، وصرخت بلعنة مدوية حانقة، ارتجفت لها الغصون بقوة، وتطايرت عشرات الطيور المظلمة، كريهة الهيئة، من الأفرع الكثيفة. وانطلق سربٌ محدود منها، يحيط بالساحر ويشل حركته، وأخذت الطيور تنقر الرجل بمناقيرها المدببة، وتجرحه في مواطنٍ شتى من وجهه، بينما تخفق أجنحتها باضطراب، وتلطمه بها بقسوة، في حين يحاول جاهدًا حماية وجهه وعينيه.

كان الفخ محكمًا، أدرك به أنه قد استهان بقدراتها فعلًا. وأخذ الوعي يتسرب منه ببطء، وقواه تَهِن تحت الضربات السريعة المتلاحقة، لعشرات الطيور من حوله. بدأ الهواء يتبدد، والضغط يلقى بوطأته على صدره، فيُثقل جسده وقلبه العجوز. كان لابد من حركة سريعة ينقذ بها عنقه.

هتف بأعلى صوته:

- اقتلوا الرضيع.. اقتلوا الرضيع.

بُهت الجنود في ارتباك. كان الأمر أكبر من قدرتهم على التنفيذ. لم يكونوا مجرمين أو قساة القلب، غير أن قائدهم تحرك بسرعة مطيعًا الأمر في انصياع تام، فانقاد الباقي من خلفه كالمسحورين. تكالب الجنود على الأمير، وازدادت ضرباتهم شراسة وحدة، بينما هو يصد ضرباتهم في عجزٍ متزايد.

لم تعِ (إيليانا) شيئًا سوى صرخة ابنها الباكية، وهجوم الجنود عليه. كانت تتحكم في الطيور بإرادتها، وتُسيِّرهم بحركة كفيها، لكنها إذ انتبهت لما يحدث خلفها، تبدد كل شيء من أمام عينيها، إلا من زوجها وابنها الرضيع.

هتفت وقد فقدت الإحساس بأي شيء:

- لا!

رفعت كفيها لتأمر القبة الحامية أن تتشكل من حولهما، لولا أن كان الساحر أسرع منها. في اللحظة التي فقدت فيها التركيز، وانفلتت الطيور من سيطرتها، فتضاربت متخبطة، وأخذت تنفضَّ عن الساحر العجوز، كان هو، وبدهاءٍ بالغٍ، قد أعد ضربته التالية، ووضعها في أقل من ثانية موضع التنفيذ.

بحركة سريعة من ذراعه، ارتجت الأرض بعنف، وانشقت عن عشرات الثغور، التي برزت منها أفرع وجذور شيطانية، أخذت تتلوَّى كالأفاعي من باطن الأرض. وبإشارة من إصبعه، انطلقت الأفرع تزحف بسرعة جنونية كديدانٍ عملاقة نحوها.

مولية ظهرها بغير انتباه، وتفكيرها منصبّ على المعركة لما كان الجنود مقدمين عليه، أحاطت بها الأفرع في لمح البصر. قيدت يديها ورجليها في حصار سريعٍ خانق، قبل أن يدب من الأرض جذرٌ سميك، شق عموديًا صفحة الأرض، وانطلق كضربة سوط عاتية يلطم الساحرة الشابة، لطمة كانت من العنف أن ألقت بها بقوة رهيبة للوراء، لترتطم بالأرض، وتزحف

منسحبة ككومة بالية مسافة غير قصيرة، جارفة معها طين الأرض وترابها، والورق الجاف المتساقط من الأشجار، قبل أن تستقر أخيرًا بلا حراك.

عند ذلك تجمد المشهد.

برهة طويلة، تخايلت لهم وكأنها دهر بأكمله. لم يجرؤ أحد على شق سكون الموقف، حتى (جواد) الذى وقف يلهث في إعياء، وقد تمزقت ملابسه، ونزف الدم من جرحٍ في كتفه.

لم يصدق أحد أنها سقطت. ولثوانٍ، بدا الأمر وكأنها ضربة فحسب، ستقوم على إثرها واقفة لترد بأعنف منها.. لكنها لم ترد، ولم تنهض.

حاول (جواد) التفلُّت من أيديهم، ليهرع مغيثًا زوجته، لكنهم أحاطوا به ليمنعوه. كان يصرخ في ثورة عارمة، وينتفض بدنه المكدود وسطهم ألمًا وحزنًا. كان يكابد مرارة غير عادية، لم يشعر بها وبه أحد.

وأشرع سيفه عاليًا، يريد به عنق أحد الحراس من حوله، وقد أعمته سورة الغضب عن أي تعقل أو شفقة. كان يريد الوصول إليها بأي ثمن. لولا أن تدخل الساحر في اللحظة المناسبة، أسرع موجهًا تلك الأفرع الشيطانية، التي كانت لم تزل تتلوى أرضًا، فأحاطت بمعصمه قبل أن يمس عنق الجندي. وبإشارة من يده أسرعت البقية تنتزع السيف من قبضته وتقيد ذراعيه للخلف، وقدميه بإحكام.

حاول الملك أن ينطق. بادره الساحر في حزم:

- لا تقلق أيها الأكمل، لن يمسه سوء. لقد توقعت منه المقاومة وتجهزت لها.

وبإشارة خفية لأحد الجنود ، أسرع يخرج من طيات ثيابه، إبرة طويلة ومدببة. أفسح له الجنود مكانًا، فتقدم من الأمير في هيبة مترددًا. كان الأخير يقف مقيدًا بالأفرع المرنة، التي أحاطت بسائر جسده، دون أن يقدر على تحريك أنملة، حتى عنقه فشل في ليِّها. التف الجندي من حوله، وتردد لحظة، قبل أن يغرس الابرة في مؤخرة عنقه بسرعة، خشية أن تخور إرادته. ندَّت عن الأمير آهة خافتة، لكنَّ الوصفة التي حُقنت بها الإبرة كانت من القوة أن لم تلبث إلا لحظات قبل أن تؤتي مفعولها، ويميل رأس الأمير ساقطًا فاقد الوعي.

بروية، انسلَّت الأفرع لتعود إلى مكامنها في الأرض، تاركة جسد الأمير يميل ساقطًا بين جنود مملكته، لولا أن التقطه أحد الجنود الأشداء، فحمله على كتفه متمسكًا به في إحكام.

فحص الساحر (إيليانا) الراقدة أرضًا. سأله الملك في قلق:

- ماتت؟

هز رأسه نفيًا:

- ليس بعد. لقد تلقت هذه اللعينة ضربة كافية لشجَّ رأس ثور، لكنها لم تزل حية.

ثم غمغم لنفسه:

- هذا يُعقِّد الأمور كثيرًا. تُرى هل تكون...؟

وجالت برأسه فكرة مخيفة، أراد أن يتثبت منها، فلم يتردد أن يضعها موضع التنفيذ. من جراب أحد الجنود الواقفين، مد يده يستل خنجرًا طويلًا، وبحركة واحدة سريعة، رفع يديه الاثنتين، وهوى بالخنجر في قسوة على قلبها و..

واصطدم الخنجر بصدرها!

لم يخترقه، بل ارتد عنه في دوي عالٍ أصمَّ أسماعهم، كأنه يطعن صخرة، أو أشد صلابة. بسمل الجنود وحوقلوا. تلك الليلة رأوا من الأعاجيب ما لم يشهدوا مثيلًا له في حياتهم كلها.

أعلن الساحر بعصبية واضحة:

- كان شكي صحيحًا: لا يُمكن قتلها!

سأل قائد الجند متعجبًا:

- ولكن كيف أيها الموقر؟

- هذه تعويذة من السحر القديم، لا يعرفها إلا المتمرسون في السحر الأسود مثل عشيرتها. لا يُمكن اختراق جلدها، أو حرقه، أو خدشه حتى. كانت الضربة التي تلقتها كافية لقتلها على الفور، لولا تلك التعويذة التي حمتها.

هتف الملك:

- هذه مصيبة. ما تقوله يعني أن نتركها حتى تستيقظ!

ولم ينطق الساحر.

كان يعرف أنه أصاب في كلمته: إنها مصيبة بالفعل، امرأة كتلك لا يُمكن أن تُترك خارجًا، حية وغاضبة، تبغي انتقامًا ستعينها عليه حتمًا قواها. حتى سجنها سيكون سذاجة، إذ لم يكن ليأمن أن تبقى المملكة آمنة وبين ظهرانيها مشعوذة كتلك، حتى ولو كانت مسلسلة بألف قيد. وأجهد مخه محاولًا إيجاد حل. كانت خبرته عميقة وثرية، لكنه رغم كل شيء لم يعمل بالسحر الأسود في حياته، ولم يخطر بباله أن يجرب فنونه. يعرف من الحيل السحرية ألوانًا، لكن السحر الأسود؟ واستعاذ بالله من شياطين الإنس والجان. وفكَّر أن تلك التعويذة لا يُمكن كسرها إلا على يد من ألقاها، إذن ربما كان عليه أن....

داهمته فكرة مفاجئة. لم يعرف أي شيطانٍ ألقاها في روعه، لكنه جعل يديرها في ذهنه مرة بعد أخرى متفكرًا بعمق. لا، هذا أخطر مما يجب.. قد تموت.. وقد تنجو.. قد أرتكب خطأً يُفشل الخطة.. هل أملك حيلة أخرى؟ إذن هو الحل الوحيد، وليس سواه آخر، وليرحمنا الله برحمته.

رفع عقيرته مغالبًا حيرته وقلقه، قائلًا في حزم:

- ليحملها أحدكم.. ستعود معنا إلى (أنطاكيا).

تعلق الملك بذراعه في غضب:

- أجننت يا (عدنان)؟ كيف نأمن أن تعود مشعوذة مثلها بين أسوارنا؟

- امنحني ثقتك للنهاية فحسب يا مولاي.

- إن كنت تفكر في سجنها فتلك....

- لا يوجد سجن قادر على احتوائها، لكن أعتقد أن لدي فكرة ربما تريحنا للأبد من تلك الشيطانة.

فتح الملك فمه ليعقب، لكنه تراجع مطبقًا إياه من جديد. تبادلا النظر مليًا. كان الملك يجتاحه القلق، لولا أنه كان يثق في مستشاره ثقة لا مراء فيها. ثم أنه، بعد كل شيء، لم يكن أمامه من حل سوى ذلك فعلًا.. ليس وبقلب المشعوذة حياة.

زفر الملك زفرة حارة، أفرغ فيها كل التوتر من أعماقه. تمتم للجنود باستسلام:

- قد سمعتم يا رجال.. ستعود الغجرية معنا.

تحرك جنديان على الفور يرفعانها، ويحملانها بين ذراعيهما رغم الذعر الذي بدا جليًا على ملامحهما. بينما تقدم أحد الجنود ناحية الساحر، حاملًا الصغير الذي كان يبكي بكاءً يمزق القلب.

وانصبَّت عليه نظرات الملك وساحره، قبل أن يتبادلا نظرة أخرى مفعمة بالصمت المخيف، نظرة كانت كافية ليفهم كلاهما ما ينبغي فعله.. ليس من أجل أميرهما وحده، بل من أجل مستقبل المملكة بأسرها.

قال الساحر موجهًا حديثه للجنود بصرامة:

- أنتم أمهر جنودنا، وأشدهم بأسًا وإخلاصًا. قد أقسمتم على صون سر أميركم ومليككم من قبله، فلا ينطقن أحدكم بحرف، ولا يُعرِّفن حتى امرأته بما جرى الليلة. فلتقسموا لمليككم على هذا الآن.

تبادل الجند النظرات في حيرة، قبل أن يحسم قائدهم الأمر، فيتقدمهم هاتفًا:

- نقسم بشرفنا على هذا يا مليكنا.

كان الشرف في عُرفهم، هو السيف المسلَّط على أعناقهم، قبل أوامر ساحرهم، أو حتى إرادة مليكهم. أما وقد بادر قائدهم، فكان لزامًا عليهم أن يطيعوه. أسرعوا جميعًا يهتفون في نفسٍ واحد:

- نقسم بشرفنا على هذا يا مليكنا.

وفي تناسق، اصطفوا بتشكيلٍ مقارب للحال التي خرجوا عليها. تقدم القائد في الأمام، يتبعه الحارس الضخم الذي حمل أميرهم على كتفه، ومن ورائهم الملك الذى سكنت عواصف قلبه وقد استتب له الأمر من جديد حتى حين. أما الساحر فقد تلكأ مليًا، قبل أن يحمل عن الجندي، الطفل الرضيع، ويحدجه بنظرة غريبة وطويلة، ثم يتمالك نفسه ويتبع مليكه، ومن ورائه بقية الجند يحمون مؤخرة القافلة الصغيرة، ويسحبون المشعوذة التي أذاقتهم مرارة الهزيمة، وآياتٍ من السحر لن ينسوها ما ظلوا أحياء.

(٨)

حين عادوا تلك الليلة، كانوا واجمين وصامتين كالقبور.. جميعهم بلا استثناء.

عند طرفٍ بعيدٍ ومهجور من المملكة، رسم الساحر بكفه، على أحد المواضع المستترة من الأسوار، دائرة كبيرة من تراب سحري أفرغه من جرابٍ معه، ونفخ في الدائرة بقوة، فتماوجت كموج نهر أسقط على صفحته حجرًا، وانفتحت فجوة بحجم الدائرة المرسومة على الجدار. وكما خرجوا منها قبل ساعات، دلفوا إليها من جديد، قبل أن تنغلق عليهم في صمت، ودون أن يشعر أحد من حراس المملكة.

أمر الملك جنده المنهكين أن يعودوا إلى ثكناتهم، بينما سار هو إلى القصر، يتبعه الساحر حاملًا الصغير. ومن ورائهما كان ثلاثة من الجنود، يحملون الأسيرين فاقدي الوعي.

فى القصر، انفصل جندي عنهم متجهًا في صمت بحِمْله كما أُمِرْ، إلى جناح نوم الأمير، حيث أسلمه الفراش بروية، قبل أن يتراجع في احترام بالغٍ، وكأن الأمير لا يزال واعيًا، ثم يغلق الباب من خلفه بهدوء.

أما البقية، فكان طريقهم مختلفًا كثيرًا.

أشعل (شداد) حارس القبو، القناديل المثبتة على جانبي الدهليز الضيق، المفضي إلى بوابته، ثم تراجع منسحبًا، إثر إشارتهما، تاركًا الحرية لسيديّه يمضيان وحدهما.

تقدم الملك وتابعه، ومن خلفهما الأسيرة المستقرة بين ذراعيّ الجنديين، من بوابة القبو. في ركنٍ خفيٍ في الجدار لم يلحظه سواه، ضغط الساحر ضغطة خاصة، انفتح الباب على إثرها، مطلقًا سحابة من ترابٍ أصفر ثقيل في وجوه القادمين. حين انقشع الدخان، وتبدَّت الرؤية واضحة، دلفوا بقلوبٍ وجلة.

لما يقرب من خمسين عامًا، لم يطأ أحد أرض هذا القبو قط!

وضع الجنديان حملهما على منضدة حجرية طويلة في المنتصف، وأحكما بحبل غليظ وثاقها، قبل أن يتلقيا الإشارة بالرحيل. انحنيا في احترام وغادرا من فورهما، بحوزتهما الرضيع، ليخلو القبو إلا من الأسيرة النائمة والرجلين.

حين انغلق الباب، تنحنح الساحر وبسمل في سره، بادئًا عمله دون إبطاء.

من صندوق خشبي عتيق في ركنٍ منزوٍ،أخرج كتابًا رثًا مهترىء الغلاف، أصفر الأوراق. غمغم وهو يشرع في تقليبه، مطأطئًا عينيه:

- طوال حياتي لم أشعر أبدًا بالخوف إلا في يومي هذا. ليسامحنا الله على ما نفعل. لم أكن لأقوم بهذا إن لم يكن في صالح المملكة وحماية العباد.

- ماذا يدور ببالك يا (عدنان)؟

توقفت يده عن البحث. تمهل لحظة قبل أن يرفع طرفه:

- سحر.. سحر أسود.

أربد وجه الملك في لحظة، وانقبض قلبه صائحًا:

- ماذا تقصد؟ ما الذي تنويه بذلك الكتاب يا (عدنان)؟

- إنه أحد الكتب التي تناقلناها عبر تاريخ المملكة، به ذكرٌ لفنونٍ من السحر الأسود، ليس كلها بالتأكيد، لكن ما به يكفي لتحقيق بغيتنا.

وتمهل قبل أن يردف وازنًا كلماته:

- كل الطرق مغلقة أمامنا أيها الأكمل. تلك الشيطانة لا يُمكن إطلاق سراحها، لا يُمكن قتلها، ولا حتى إبقائها سجينة. لا حل أمامنا إذن إلا أن ننفيها من هنا.

- ننفيها؟! ما الذي تقصده بالضبط؟

- ما أبحث عنه، تعويذة قرأت عنها قبل زمن، سيفتح عملها بوابة في الزمان والمكان.. بوابة خاصة إلى أرضٍ ملعونة يسكنها الخراب والموت والظلال، أرض اتُفِقَ على تسميتها (وادي الجماجم).

سأل في حذر:

- وستنقل الفتاة إليه عبر تلك البوابة؟

- ليس بالضبط. ما سينتقل هو وعيها. طيفها على وجه الدقة. ستكون هنا جثمانًا لا قيمة له. ربما تتنفس وتشيخ، لكنها...

- ستكون محبوسة هناك للأبد بين الظلال!

تنهد الساحر، وأومأ برأسه مؤمِّنًا. ثم إنه ترك الملك يفكر فيما سمع، وطفق يواصل بحثه في الكتاب عما يريد. بعد دقائق طويلة، هتف أخيرًا في ظفر:

- ها هي.. قد وجدتها.

تجاهل الملك قوله. غمغم في شرود:

- سيسامحنا الله يا (عدنان)، أليس كذلك؟

تنهد من جديد. أجاب بلهجة فشلت في إقناعه هو:

- سيسامحنا بالتأكيد يا مولاي، فليس كل السحر كفر. ثم إننا لا نقوم بهذا جلبًا لمنفعة، أو إضرارًا بأحد، إنما هو صدٌ عن ذاك الضرر، ورحمة الله وسعت كل شيء.

قائلًا تلك الكلمات، حاول (عدنان) الهرب من عيني الملك الغائمتين بالفكر، إلا أنه لم يكن متيقنًا تمامًا من صدق ما يقول، أو صحته، أو أن ذلك حقًا هو الحل الوحيد المتاح أمامهما. وراح قلبه يخفق بقوة، وضميره يوخز روحه بإصرار، مُحذِّرًا من خطورة ما يفعل.

كان يعرف أن فنون السحر الأسود وبالٌ على مرتكبها، وعلى الأرض التي تُمارس بها، لكنه في ذلك الحين كان على استعداد لفعل أي شيء في

الدنيا، كل شيء، فقط كي يحمي استقرار بلده، وحاكمها المستقبلي، حتى ولو كان بأشد وجوه الشر ظُلمةً وقسوة.

وبدأ الساحر يقرأ.

كانت لغة غريبة وغامضة، تستعصي على غير العالمين بها، إلا أنه كان وحده يعرف فحواها ويرتجف فرقًا من معنى كلماتها. وبرح يدمدم بتعاويذٍ وعزائم، ويرسم بكفه خطوطًا في الهواء فوق جسد (إيليانا) الفاقدة لكل إحساس.

أخذت لهجته تشتد، وصوته يعلو، والقبو يزداد ظلمة وحلكة وقتامة. كان الهواء يختنق، حتى حسب الملك أن الجدران تنغلق على نفسها. في الخارج، ولدهشة الحراس الساهرين، كانت الأجواء تتغير وتنقلب، والسماء تُغطي صفحتها بدثارٍ من الغيوم الكثيفة الرمادية، منذرةً بمطرٍ عاصف، وليلة عصيبة على غير المتوقع.

شق ذلك اللسان الطويل من البرق، صفحة السماء، فهال الحراس، قبل أن يتبعه رعدٌ مدوٍ زلزل هزيمه الأسوار المتينة، وأرجف قلوب الجند.

في القبو المغلق، كان الأمر يزداد إثارة للرعب. بدأت الجدران تتألق بلونٍ دامٍ كالمرجان، وصوت الساحر يشتد، ويتهدج، ويعلو.

تراجع الملك مراقبًا لما يحدث في فزع. التصق بالجدار وجسده كله ينتفض بعنف. كان شديد الجرأة والبأس، يشهد له الجميع بذلك، لكن الآن، ومع ما يحدث أمامه، كان الأمر أكبر من قدرته على الصمود.

وفجأة، انفتحت تلك الفجوة في فراغ الحجرة.

بدأت كثغرة ضئيلة الحجم، ما لبث أن أخذت تتسع، وتتضخم، وتتمدد، حتى أضحت بوابة واسعة ومخيفة، في جوف فراغ القبو، تماثلت لهم كثغرٍ مفتوح لقبرٍ مظلم يثير الانقباض.

ونفث الساحر في عقدته نفثة أخيرة، فانتفض جسد المرأة بغتة، وندّت عنها حشرجة عميقة كحشرجة الموت، تناهت لأسماعهما وكأن الروح تُنتزع من جسدها نزعًا مثل كرة الشوك.

أمام ناظري الملك المذعور، وساحره الذي كان يرى نتيجة فعله لأول مرة، انسحب طيفٌ شفاف، أسود الظل، من جسد المرأة الراقدة، وهَام مليًا في الهواء تائهًا وحائرًا، قبل أن تتجاذبه البوابة المفتوحة فتسحبه إليها رويدًا رويدًا.

كان قلب الساحر يدوي في عنف، يكاد يثب من صدره، إلا أنه هتف منهيًا تعويذته:

- من ظلال الموت قدمتِ، وإلى ظلال الأبدية ترحلين. باسم الله ملك السماوات والأرضين، أحكم عليكِ يا (إيليانا)، يا ربة الشر واللعنات، بالخلود في وادي الجماجم، تذوقين العذاب السرمدي، وتنسحق روحك بوطأة الظلام، إلى أن تقوم الساعة، فتكون لك لحظة الخلاص.

انبعث من الطيف عواءٌ غاضب، مريع، وهو يغيب خلف البوابة المسحورة، بينما ينتفض جسد المشعوذة مرة أخيرة، قبل أن يرتخي على

المنضدة الحجرية، ويسكن تمامًا، إلا من أنفاسٍ تأخذ بصدرها وتضعه، لتنبىء عن بقايا حياة لم تزل في جوفها.

ودوّت قرقعة عالية، أصمَّت أسماعهما، قبل أن تتآكل البوابة ببطءٍ مخيف، حتى انغلقت تمامًا وحدها، مخلِّفة خواءً وشعورًا بالخوف والوحشة، وانقباضة رهيبة اعتصرت قلب العجوزين بلا رحمة.

(٩)

خرج الرجلان من القبو شاحبي الوجه، يتقاطر العرق البارد من كليهما. أسرع الحارس يستقبلهما، فبادره الملك في لهجة أثارت قلقه:

- (شداد)، لقد كنت حارسًا طوال حياتك على هذا القبو، ولم يكن فيه إلا بقايا من تراث الأقدمين. اليوم ستحرسه وفيه حياة المملكة وأمنها بكل ما تحمله الكلمة من معنى، هل تفهم ذلك؟

شدَّ الحارس قامته:

- حياتي فداء المملكة وأمنها يا مولاي. سأحرس القبو بروحي، ولأمنعن مخلوقًا من المرور أمام بوابته، فضلًا عن الدخول فيه.

ربتَّ الملك على كتفه بابتسامة محايدة، وغادر المكان بصحبة رفيقه الشارد.

في الطريق إلى جناح الأمير، كانا يسيران في صمتٍ واجم. يسترجعان، كلٌ في مخيلته، ما دار طوال تلك الليلة العصيبة، وما آلت إليه نهايتها.

وجال خاطر في ذهن الملك، فقال:

- لقد أغفلنا جوادًا. حين يفيق سيسأل أول ما يسأل عن زوجته وابنه.

- لا تقلق يا مولاي، لقد أعددت عدتي لهذا.

ثم شارحًا:

- حضَّرت له وصفة خاصة لم أستعملها كثيرًا، لكنها مذكورة في كتب الأجداد، ومفعولها مؤثر بإذن الله.

- ماذا تنوي أن تفعل به

- ليس أكثر من أن أجعله ينسى. سينسى ما جرى له طوال العام الماضي، بكل أحداثه الهامة والتافهة. سيُمحى هذا العام من ذاكرته للأبد، بكل من فيه.

- أخشى عليه السحر وأثره يا (عدنان)!

- أيها الأكمل، إن جوادًا بمثابة ابنٍ لي، وأنا من علمه كل شيء في صغره حتى بعد أن تسلّمته المدرسة الملكية، ويعلم الله أني ما أخبرتك الليلة بما عزم عليه وحدثني فيه، إلا لأجل سلامته، وحمايته من الغجرية المشعوذة، فلا تخش عليه مني، وثق أننا بإذن الله سنسترجع أميرنا كما كان قبلًا، وكأن شيئًا لم يكن.

أطرق الملك، وتردد للحظات قبل أن يُلقي بحِمله:

- وماذا عن الرضيع؟

باغته السؤال الذي تحاشاه طويلًا. احتار في الرد، وتريث برهة عبثًا، قبل أن يجيب في النهاية مُسلّمًا:

- لا مناص أمامنا يا مولاي.. يجب أن نقتله!

اتسعت عينا الملك في ذهول:

- نقتل رضيعًا؟! أجننت يا (عدنان)؟ أحسبت أننا مجرمون حقًا؟ أم تراك كنت صادقًا في أمرك الذي أطلقته في الغابة وجندلت به الساحرة؟

- وقتذاك كانت خدعة يا مولاي، لكني إذ قُلتها أدركت أني ما نطقتُ إلا صدقًا.

- أي صدقٍ أيها العجوز الخرف؟ كيف يمكنك أن تتحمل وزرًا كهذا؟

رد بصبر:

- ومن قال أنه وزرٌ يا مولاي؟ ألم يقتل (الخضر) غلامًا أمام عيني (موسى) وهو من هو في خشية الله؟

- أوظننتنا يُوحى إلينا كما (الخضر) يا رجل؟ أي تخريف!

- بل قصدتُ الفعل، لا فاعله يا مولاي.

- كان هذا أمرًا من السماء!

- لكنَّ الغاية واحدة، كان غلامًا سيُرهق أبويه طغيانًا وكُفرًا، ووالله ما أرى ابن (جواد) إلا مثله!

كان صدر الملك يعلو ويهبط في انفعال. غمغم حائرًا:

- بلغت بك القسوة مبلغها يا (عدنان).

قال كأنه لم يسمع:

- إنه ابنٌ غير شرعي للأمير، ولعلَّه يحمل في دمائه بعضًا من شعوذة أمه وسحرها الأسود، أتراك تأمن أن يحيا بيننا؟

ضحك الملك في عصبية:

- لقد جننتَ! لابد أن تكون مجنونًا حتمًا! كيف يمكنك أن تفكر في فعلٍ شنيعٍ كهذا لمجرد هواجس؟

- ليس قولي بهواجس يا مولاي. فكر جيدًا أيها الأكمل وأجبني: كيف يُمكن أن يبقى طفلٌ، أمه مشعوذة عبرانية، بين ظهراني المملكة؟ كيف ستفسر بقاءه؟ وحتى إن ربيته بعيدًا، كيف ستجيب رعيتك، لو تسربت الأخبار وعرف الناس أن هذا الصغير هو الوريث الشرعي للبلاد بعد أبيه؟

بُهِتَ الملك من أثر كلماته. ودون وعي أخذ يزنها ويقلِّبها بعقله، فتفتحت له آفاقٌ لم يفكر فيها قبلًا. وشعر الساحر أنه بدأ يستجيب، فأهوى بمطرقته مجددًا:

- أيها الملك، إن بلادنا لا يُخفى فيها أمرٌ مهما دام سره، فكيف يصير الحال لو عرف الناس بهذا الدم الملوث في نسل ملوكهم؟ وهَبْ أن الناس ارتضت بقاءه، ألم تزمع زواج الأمير خلال عام من الآن؟ ماذا سيحدث بالمملكة إن أنجب من زوجته وريثًا للعرش، فانقسمت البلاد بين الأبناء؟ أسترضى لمملكتنا الشتات؟ ألم يُخبرك التاريخ بممالك كانت أشد بأسًا، وأعظم رقعة وسطوة ونفوذًا، لكنها انهارت بوطأة الانقسام بين ولاة العرش؟

وصمت لحظة، ليترك أثره المنشود يحدث بكلماته، قبل أن يستطرد متممًا:

- فكر أيها الأكمل فيما فيه صلاح المملكة وأمن عرشها. أنت مسئولٌ وراعٍ، وسيحاسبك الله عن رعيتك، ماذا فعلت بهم، وعلى أي حالٍ تركتهم. أتريد أن تتركهم للفتن والصراعات؟

غمغم بحلقٍ جاف:

- ولكن يا (عدنان)، إنه.. إنه طفل بحق الله!

- وماذا يعني دم طفلٍ واحد أمام دماء مملكة بأسرها؟ هل تعدل روحٌ في نظرك آلاف الأرواح؟ إني محقٌّ أيها الملك، وفي صميم قلبك أنت تعرف هذا.

كان الملك يكابد صراعًا في تلك الأثناء أشد خطورة وعنفًا من أي شيء واجهه في حياته من قبل. كان قلبه يصرخ رافضًا الفكرة، والفعل البشع المحرم، بينما، في نفس اللحظة، يؤمِّن عقله على كلمات ساحر مملكته، وحارسها الأول، ومستشاره الأمين.

وطاف بعين خياله في المستقبل البعيد، فرأى المملكة تتقاذفها الحروب والصراعات، ويمزقها الانقسام. الناس يشهرون السيوف في وجه بعضهم، والنار تحرق البيوت والمزارع. القتال يشتعل، والدماء تسيل، والنساء يصرخن، وكل فئة تهتف باسم قائدها أحد ابنيّ (جواد)!

عند ذاك، أطرق أرضًا أخيرًا، صامتًا لبرهة طويلة، قبل أن يتمتم في انكسار:

- وماذا ستفعل به؟ أعني، كيف ستق... كيف تتخلص منه؟

أجابه في لهجة ذات دلالة:

- لا تحمل همًا لهذا الأمر. هذا سر مملكتنا، والأسرار لا علاج لها إلا أن تُدفن بلا أثر.

حدجه الملك بنظرة جلية الخوف، رغم المهابة والوقار المتأصلين به. لأول مرة تصيبه الرهبة من ساحره، حتى وإن كان يبغي الخير لمملكته وابنه.

وإذ جال الشاب في خاطره في تلك اللحظة، نفض عن ذهنه أي أمرٍ آخر، مُلقيًا التصرف، والوزر، على مستشاره. «فليفعل ما أراد». قال لنفسه. «طالما يرى برأيه الصلاح، والأمر بعيدٌ عن يدي، فليفعل ما يشاء، وليغفر له الله ما كان!».

وتنهد وهو يرتقي السلم المفضي لجناح الأمير. كانت الليلة الطويلة لم تأذن بعد بالانتهاء.

(١٠)

امتد نوم الأمير حتى الظهيرة. فتح عينيه متثائبًا في قوة، وتشوشت الرؤية أمام عينيه بغبشٍ طفيف، قبل أن يعتدل بسرعة مُحدقًا في الجالسين من حوله باستغراب. كانت تلك هي الليلة الأولى في حياته، التي يستيقظ منها ليجد والديه و(عدنان) في جناحه يحيطون به!

«ماذا حدث؟». سأل متعجبًا. «لماذا تجلسون في حجرتي بهذا الشكل؟».

ألقت أمه بنفسها عليه، وانفجرت في بكاءٍ طويل، فتعاظمت دهشته. سأل بجزع:

- ماذا يبكيكِ يا أماه؟ هل من مكروهٍ حد

تبادل الملك ومستشاره النظر للحظة خاطفة، قبل أن يبتسم الأول في تصنُّع:

- لا تقلق يا ولدي، ليس هناك مكروه أبدًا. فقط انتابت أمك لوعة مما أصابك في رحلة الصيد.

- أنا؟ أكنتُ في رحلة صيدٍ وأُصبت فيها؟

أسرع (عدنان):

- بلي يا سيدي الأمير، كانت رحلة مثمرة جدًا. رغم إصابة رأسك، أشاد بك فيها معلِّموك. أنت تزداد براعةً وقوة في كل يوم، فهنيئًا لك.

أكمل الملك:

- لكن قُطعت رحلتك حين انهار بك جرفٌ متهالك، وارتطم رأسك بالأحجار.

شرد الفتى هنيهة وقال:

- أنا.. أنا لا أذكر شيئًا من هذا.. فقط تتخايل في ذهني صورٌ مشوشة غير مفهومة: غابة واسعة.. سيفي.. جنود مملكتنا.. ومخلوقٌ ضخم الجثة لا أتبين ملامحه، و...

خفق قلب الملك:

- وماذا يا (جواد)؟

- لا شيء يا أبي، لا شيء.. تداهمني فقط تلك التفاصيل المبهمة، كحلمٍ استغرقني الليل بأكمله، لكنه يتأبَّى الآن على ذاكرتي.

ورفع رأسه للساحر حائرًا:

- إني أذكر كل ما كان قبل الرحلة بدقة، غير أني لا أستطيع استرجاع شيءٍ من تفاصيل الرحلة ذاتها.

- لا تقلق يا بني، هذا ليس بالأمر الخطير. عما قريب بإذن الله ستستعيد كل ما غاب عن ذاكرتك. كانت الإصابة قوية، وربما سيستغرق الأمر بعض الوقت.

هز كتفيه مستسلمًا، وغاب في شروده قليلًا، قبل أن يهز رأسه مزيحًا عنه كل تلك الأفكار، ويقول بمرحٍ غاب عنهم طويلًا:

- حسنًا إذن، لندع ما سيأتي يأتي في وقته الذي أذن به الله، أما الآن فالشمس توسطت السماء، ولا ينبغي للأمير أن يكون كسولًا. أريد أن أخرج، أشعر أني كنت غائبًا لفترة طويلة.

ربتَّ الملك على كتفه، مبتسمًا بارتياح:

- المهم أنك عدت إلينا بسلام يا ولدي.. المهم أنك عدت.

«ما أطوله من غياب، وما أشقاها من عودة».

همس الملك لنفسه، مغالبًا قلقًا عصف بروحه، ومستبشرًا بسعادة تمناها صافية.

بعد سنوات، سيعلم الملك الأكمل أن تلك السعادة لم تكن يومًا لتصبح كذلك مهما طالت به، كانت سعادة مخضَّبة بالدم، مشوهة باللعنات، ومثقلة بأرواحٍ ستعود يومًا لتطالب بحقها في الانتقام!

الفصل الثالث

أسرار الموت

(١)

دوَّت تلك الصرخة من جوف الأرض..

من السماء..

من الفراغ..

صرخة طويلة كانت، مريعة، قاسية، وموجعة، كعواء ذئبٍ شيطاني، تذيب لحمه نيران جهنم. وفي حجرة الملك الأكمل، فتح الشيخ عينيه بغتة، منقلبة سحنته الوادعة. في لحظة أدرك مصدر الصرخة، من أين أتت، وما السر من ورائها. انسحق قلبه في جوفه رعبًا وهلعًا، وعرف ما سيحدث بعد لحظاتٍ قليلة.

(٢)

من خارج القصر، انهمرت على أسماع كل من بالداخل، صرخات الرجال وعويل نسائهم. جاءت مصحوبة بتلك الضربات التي تلاطمت قرعاتها في فضاء المملكة، ورجَّت القصر والبيوت وكل حجرٍ استقر مقامه على الأرض. كانت جلبة عالية، سُمِعت فيها صيحاتٌ شيطانية صاخبة. ولوهلة، وهي تطرق أسماع الناس، بدت وكأنها صيحات امرأة!

لم يُضيّع الملك وقتًا، تحرك جنوده بإشارة منه يحيطون بالضيوف الذين كانوا يملؤون الموائد على جانبي البهو الفسيح.

هتف بالحراس الجان:

- قبة الحماية.. الآن.

تحرك النفر في طرفة عين، مخترقين حاجز البصر إلى الخارج. اثنان منهم أسرعا، عند طرفي المملكة الشمالي والجنوبي، يتخذان مكانهما المرسوم. رفعا ذراعيهما عاليًا إلى السماء، يستجمعان قواهما، حتى انحسر طرفا أكمام ثوبيهما، وبدت من تحتهما أذرعهما البيضاء كالثلج.

ببطء ما لبث أن أخذ يتسارع تدريجيًا، دارا حول المملكة، كلٌ عكس الآخر، طائفين بها في حلقة كاملة. وأخذت سرعتهما تتزايد..

وتتزايد..

وتتزايد..

حتى بدا الاثنان وكأنهما طيفان من نورٍ عظيم، يدور حول المملكة، مكوِّنًا حلقة واسعة من ضوءٍ أخضر شفاف، لم تلبث أن اتسعت وتعاظمت صانعةً قبة هائلة، أخذت تصعد أطرافها، يمينًا ويسارًا، منطلقة صوب نقطة واحدة فوق قلب المملكة، تريد الانغلاق حول نفسها، لتشكِّل درع حماية تنضوي تحته (أنطاكيا).

وتضاعفت سرعة الجنيين الفائقة، حتى أخذ الشرر يتطاير من حولهما، واقتربت القبة من الاكتمال.

فجأة، هوت تلك الضربة الخفية على أحد الجنيين، ملقيةً به بقوة كالصاعقة، على أسوار المملكة، ففجَّرت بجسده ثغرة واسعة في السور، نفذ منها حتى النهر، ليختفي جسده تمامًا تحت أمواجه التي اضطربت بعنف.

انهارت القبة مرة واحدة، وتوقف الجان الآخر عاقدًا حاجبيه في غضب وعدم تصديق. كان ما يحدث أمامه يتم لأول مرة، إذ لم يسبق لأحدٍ ،بشريًا كان أو جنيًا، أن أوتي من القوة الهائلة ليقدر على إيذاء أحد رفاقه، مهما اشتد سحره وبلغت قدراته.

لم يعرف من أين أتت الضربة. ولبث مليًا شاعرًا بالدهشة، يرتجف قلبه في اضطراب. طار عاليًا إلى السماء محاولًا كشف المملكة بأسرها من أعلى نقطة، لولا أن أتته الضربة الثانية، كقدمٍ هائلة عملاقة دهسته دهسًا، وألقته على الأرض، مخترقًا إياها بعنفٍ مدوٍ، ومتجاوزًا طبقات الأرض

واحدة تلو الأخرى، حتى توقف جسده أخيرًا في قلبها، غائبًا عن الوعي، مستقرًا بحفرة عميقة لم يُعرف لها قرار.

في القصر، كان الملك يدور كليثٍ متابعًا ما يحدث عبر كوة في الجدار. لم يرَ في البداية إلا تكوين القبة، التي أشعرته بالراحة، وبقليلٍ من الاطمئنان، إذ كانت القبة الحامية سلاح ردعٍ خارقًا، لم ينجح إنسي أو جني في اختراقه قبلًا. لكن مع تهاوي القبة قبل اكتمالها، واختفاء الجنيين عن ناظريه، أدرك أن هذه المرة ربما يكون الخطر من قلب المملكة لا خارجها!

مع رؤيته لجندييه الأمينين يسقطان، هوى قلبه معهما في رعب. وإلى أن يموت سيظل المظفر يذكر المرة الأولى والوحيدة التي رأى فيها حارسيه يؤذَيان بهذا الشكل المروع.

هنا انطلقت الصرخة من جديد، بصورة أشد وأعنف، وأكثر ضراوةً وغضبًا. غابت في طياتها صرخات النساء، وبكاء الأطفال، وصيحات الذعر من الرجال مما يقع لهم لأول مرة. كانت الصرخة من الشدة أن انفجر لها زجاج البهو بأكمله، منطلقًا في آلاف الشظايا المؤلمة والدقيقة، تعصف بالناس المتلاصقين في القاعة، فتعمل فيهم قتلًا وتجريحًا.

تراجعت زوجة المظفر حتى التصقت بالجدار من ورائها، وانفجرت طفلتها (سلام) باكيةً وهي تتشبث بظهر الأب، الملك، والقائد الذي وقف شاهرًا سيفه في يأس، فاردًا ذراعه الأخرى ليحمي أسرته من خطرٍ مجهول، لاهجًا بالدعاء لله أن ينقذهم من الهول الذي يعصف بهم.

في تلك اللحظة بالضبط، أحس برجفة تجتاح صدره، وبغته سؤال لم يفهم مبعثه: لماذا يشعر أنه عاش هذه اللحظات من قبل؟ لماذا وهو يقف في مقدمة أسرته حاميًا ومدافعًا يشعر أنه واجه ذلك الإحساس بالخطر يومًا ما؟

هل...؟

لكنَّ الباب انفجر بغتة!

انفتحت ضلفتاه على مصراعيهما، إثر صاعقة هوت عليهما، فتطايرتا في الهواء بعنف. وهال الناس مرأى حارسهم، الجان الثالث، وهو يطير عبر الباب المفتوح، مندفعًا دون إرادة، وكأنه تلقى لطمة من عملاق هائل، قبل أن يرتطم أرضًا في منتصف البهو، بين عشرات الموائد التي امتدت على جانبي القاعة، وكانت منذ دقائق زاخرة بالطعام والدفء والضحكات.

أسرع الملك لنجدة حارسه، لولا أن صرخ به رافعًا يده:

- إياك! لا تقترب.

تجمَّد الملك على درجات السلم القليلة النازلة للبهو، محدقًا إليه في حيرة. كان الجان يرقد أرضًا، يتلوى جسده بعنف، ويصرخ في ألم مجنونٍ بعباراتٍ لم يفهمها أحد من لغته الأصلية.

لم يكن أحدٌ يرى ما به، أو يعرف ما أصابه!

ممسكًا بجانبي رأسه بقوة، يعصره بين كفيه، أخذ يصرخ:

- النيران.. نيرانٌ كالجحيم.. الرحمة.. إنها تذيبني!

لم يدر الناس أي نار تمسك به، ولم يتبدَّ لأعينهم شيء يرونه، غير أن قلوبهم خفقت في حزنٍ غير مسبوق لمرآه بهذه الصورة البشعة.. كان يتلظّى أمامهم ببطء.

طفرت عينا الملك بدمعة عجز يائسة، وهو يرى حارسه يتلوى ألمًا بهذا الشكل، دون أن يقدر على مساعدته. وبغير أن يعي بنفسه، ضرب بكلامه عرض الحائط، وترجل على السلم نازلًا ليسعفه. كان ذلك حين ظهرت هي أمام الجميع لأول مرة.

(٣)

لم تكن تصعد درجات السلم القليلة المفضية للقصر على قدميها، بل تسري في الهواء برشاقة، فاردة ذراعيها إلى جانبي جسدها وكأنها تحلق. من باب القصر دلفت، تنسل معها ظلالٌ سوداء كثيفة، عَلَت جدران القصر وغزت أركانه، ككابوسٍ جثم على الأنفاس دون إنذار.

وإذ تعلقت بها أبصارهم المرتعبة، صرخت صرخة واحدة مدوية ومخيفة، وبلوعة حطمت أعصابهم:

- ولدي!

ازداد انكماش الجميع، وأذهلتهم كلمتها بصورة أشد وطأة مما جرى أمامهم كله قبل ظهورها. كانت امرأة ذات حسنٍ واضح، طويلة، رشيقة القد. إلا أن ملامحها اكتسبت طابعًا شيطانيًا مقبضًا، أضفته عليها الهالات التى ارتسمت حول عينيها، وأظفارها اللامعة الطويلة، التي نافست عباءتها المسربلة سوادًا.

- ابني.. أين ابني عليكم اللعنة؟

ووصلت في طوفتها فوق جسد الجان الملقى أرضًا، الذي كانت صرخاته في تلك اللحظة تزداد وهنًا، وتخفت حدتها ببطءٍ مخيف. رفعت يدها عاليًا، فارتفع معها الحارس من فوق الأرض. ضمت أصابعها بقوة،

فانكمشت يد المسكين على رقبته يريد تخليصها من قبضة وهمية أحاطت بها فسلبتها الهواء.

جالت في الوجوه الهلعة بعينين داميتين، تشعّان كجذوة من الجحيم. صاحت بهم بصوتٍ غليظ، عميق النبرات، كأنه ينفذ من طيات بئر:

- أيُكم يخبِّىء ابني؟ أريد طفلي وإلا قتلتكم جميعًا.. أريد ابني (بشر).

تفجَّر الصمت بين الجميع.

ماتت الصرخات، وتحجَّر الرجال والنساء في أماكنهم، حتى الأطفال بقدر عقولهم الصغيرة، أخذهم السكون المباغت فتلجمت ألسنتهم عن البكاء والعويل.

ولنقطة معينة استدارت الوجوه، جميعها دون استثناء.

انطلقت النظرات من الأعين، كعشرات الأسهم الحامية، صوب شخصٍ واحد، سارت الغريبة بطرفها وراءهم حتى استقر فوقه: الأمير الأشرف (بشر).

بدأت حركة الجان المسكين في قبضتها، تهمد تدريجيًا، لكنها كانت في شغلٍ عنه. برقت عيناها بشدة وهي ترى الصبي، واقفًا أمامها ثابتًا، في شجاعة نادرة، رغم كل ما جرى. هوى قلبها في شوقٍ، وندَّت عنها حركة نحوه، لولا أن اقتحم بصرها أبوه، حائلًا بينها وبينه في صرامة:

- إياكِ أن تقتربي خطوة. إنه ولدي. إن كان أحدٌ فجَعِكْ في صغيرك،

فأعدك أن أسلمك إياه. أما الآن فارحلي عنا بسلام، وكفي ما أرقتِ من دماء. ارحلى كيلا يكون على هذه الأرض قبرك.

كان تهديدًا أجوف. عَلِمَ هو أول من عَلِم، أنه ومملكته بالكامل لن يقدرا على تنفيذه، خاصة مع ما رأوه منها حتى الآن. لكن، وتلك الغريبة تنشد ابنه، كان على استعداد للتضحية بأي شيء حتى حياته كي يبقه آمنا عن متناولها.

حدجته بنظرة كاللهب، وهي تقول من بين أسنانها:

- أنت من يسلمني ولدي وقد سرقته؟ (جواد) الخائن يتحدث عن الوعود؟ يا للجبروت.

بُهت المظفر لكلماتها، وانقلبت ملامحه ذهولًا. لم يدهشه معرفتها باسمه، وهو الذي لم يرها من قبل في حياته، بقدر دهشته لما قالته عنه: خائن؟ وهو من سرق ولدها؟ أي جنونٍ هذا!

كان منذ رآها تخترق قصره، وقلبه يخفق في صدره بقوة. شعر في اللحظة التي وقعت عيناه عليها، بشعورٍ غامضٍ لا يعرف كنهه، شعور يثير بأعماقه حيرة وخوفًا وحزنًا غير مفهوم أو مبرر. كان متأكدًا أنه لم يرها قط، لكن من عجب أنه، في أعماقه، كان يحس كما لو أنه يعرفها!

وشغلته الأفكار للحظة، ذهل فيها عما حوله، قبل أن ينتبه على صوتها يردد بمقتٍ:

- لقد سرقت ابني أيها الحقير. أنت وأبوك عليكما اللعنة سلبتماني إياه، وألقيتما بي في أرضٍ موات، لأتعفن إلى يوم الدين. قسمًا بحياة ولدي الوحيد لأقتلنَّكما جزاء هذا.

ودون أن تدع للملك الحائر فرصة ليُفكر فيما قالته، طوَّحت بكفها في الهواء، مُطلقة الجان الذى كان مشنوقًا في قبضتها الوهمية، معلقًا هامد الحركة، صوب الملك.

تلقَّى الرجل القذيفة في صدره، ليطيحا سويًا، فيصطدما بالحائط ويُطرحا أرضًا. ودون أن تُضيِّع وقتًا في معركةٍ محسومة الجانب، انطلقت نحو الأمير الصغير، الذى تجمد مكانه في مزيجٍ من اليأس والبسالة، إذ أدرك بنظرة واحدة أنه في متناول يدها أنّى هرب.

أسرعت أمه تحيطه بذراعها الحرة، وهي تصرخ، بينما هبَّ الملك واقفًا من جديد بصعوبة، مكابدًا ألمًا يمزق عظامه. وفي لمح البصر كان يحول بينهما شاهرًا سيفه، هاتفًا بكل ما في قلبه من ارتياع:

- لا.. لن تأخذيه مني.

كانت قد قطعت نصف المسافة، فباغتها وقوفه. صاحت بلهجة جمدت الدم في عروقه:

- سأفرغ لعقابك لاحقًا أيها الخائن.. والآن ابتعد عن طريقي، وإلا أقسم أن أخطو لابني فوق جثة أبيه.

- هذا ليس ابنك أيتها المخرفة. إنه ابني أنا، وتلك أمه.

صرخت:

- كاذب. أنت كاذب لعين. إنه ابني، ولن أسمح لك بسرقته مني بعد اليوم.

وانقضت عليه في غضبٍ مجنون.

«لم يكذب عليكِ يا (إيليانا).. هذا ليس ابنك!».

تجمدت في مكانها.

(٤)

استدارت أعين جميع من في القاعة، وعلى رأسهم الملك و(إيليانا)، إلى جهة الصوت.

كان الملك الأكمل واقفًا بالكاد على قدميه، يستند في صعوبة على عصاه الغليظة، ويده الأخرى تتشبث بالجدار كيلا تَخونه قوته ويسقط، وهو الذي لم يتحرك منذ شهورٍ طويلة. بدا في وقفته شاحبًا، مسلوب القوة ككومة بالية، ينازع الموت ليجد القدرة فحسب على النطق.

«لم يكذب (جواد)». كان يلهث. «هذا الصبي.. ليس ابنك.. ليس من أنجبتماه».

هتف (جواد) مصعوقًا:

- ليس من أنجبناه؟ أتعني أن لدي ابن غيره...

واستدار إليها:

- منها؟!

هبطت بقدميها أرضًا، وقد عجزت عن حفظ توازنها. رددت البصر طويلًا بينهما غير مستوعبة، وفي النهاية قالت بصوتٍ مبحوح:

- لا. لابد أنكما تكذبان. هناك شيء ما خاطئ. لا يُمكن ألا يكون هذا ابني (بشر).

قال الأكمل وعيناه تبرقان:

- كان ابنك منه خطأً يجب تصحيحه، وقد فعلت به ما كان فيه صلاح المملكة.. مملكتي. أما هذا الصبي فهو ابنه وحده من زوجه (هند).

سأل (جواد) في حيرة ذاهلة:

- أنا أنجبت منها؟! متى؟ وكيف لا أذكر؟

ثم رفع عينيه إليه:

- وماذا عن الاسم؟ (بشر)!. إنه..

- تلك كانت رغبتك التي حِرنا فيها. لقد تزوجتَ هذه المشعوذة سرًا وأنجبت صبيًا، وبسحرٍ خاص جعلناك تنساهما معًا. حين أنجبت ابنك البكر، ولي عهدك الشرعي، كان تصميمك غامضًا أن تسميه بِشرًا. لم يعارضك أحد، لكننا وحدنا فهمنا.

- وحدكم؟.. أنت وأمي فعلتما بي ذلك؟

- لم تكن أمك ضليعة في الأمر. تركت لي، وللساحر (عدنان)، التصرف كما ينبغي. رحم الله الاثنين.

وتهدج صوته وهو يحدق في عينيَّ ابنه بقوة:

- كنت أخشى في كل يوم أن تتذكر ماحدث. تتذكرهما. كنت أصلي لله أن يُبقي عقلك فارغًا من كل ما يخصهما حتى الموت.

واستدار إليها بغلّ:

- لكنها عادت لتهدم استقرار مملكتي. فعَلتها سابقًا، والآن بعد كل تلك السنوات تعيدها ثانيةً.

صاحت في وجهه:

- مملكتك؟ أهذا كل ما فكرت به أيها العجوز؟ سرقت ابني ولم تخشْ إلا على المملكة اللعينة؟

دق بعصاه الأرض:

- إنها بلادي، أرضي، وأنا على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، حتى لو كان القتل.

في تلك اللحظة، واقفًا بينهما دون حراك، لم يكن (جواد) على الأرض معهما. كان عقله يُجاهد لتكذيب كل حرف مما سمع. كان يريد ألا ينهار عالمه بهذا الشكل، ألا يُصدم في قائده وأبيه، مليكه الذى طالما كان يصبو إليه في صغره.

لكن، من كان يخدع؟ لحظة أن اعترف أبوه، اعترف قلبه هو بصدق ما حكى. برغم عدم تذكره ما جرى، وما قصَّه أبوه بكلماتٍ مقتضبة، إلا أنه في أعماقه كان على يقين أنه الصدق. اليوم، أخيرًا، يفهم سر تلك البقعة

المظلمة في عقله، التي أبَت طويلًا أن تتكشف له. كيف استطاع أبوه أن يفعل به هذا؟ كيف؟

ثم إن...

ورفع عينه بغتة:

- لكن ماذا عن الطفل؟ ذاك الذى أنجبناه، (بشر)، ماذا فعلت به؟

تعلقت عيناه و(إيليانا) بشفتيِّ أبيه.. تعلق الجميع بها.

وكأنما يخترق بسيفه حيوانٍ جريح ليُنهي عذابه، رد في اقتضاب:

- مات.. ودفناه في أرض المملكة.

(٥)

في كل يوم يمر بالأرض، وبحياة البشر فيها، هناك آلاف الكلمات التي تتردد وتُقال. وحدها تكون كلمة، أوتيت من القوة الحد الذي تُبدل به حياة أحدهم من نقيضٍ لنقيض، فإما تحلِّق به في السماوات، وإما تُرديه أسفل سافلين.

«مات».

مُطلقًا تلك الكلمة، وبلهجة غاية في الحياد والجمود، لم يدرْ الملك الأكمل أي حياةٍ تردَّت أسفل سافلين بسببها. لم يدر أنه، بفعلته، فتح طاقةً من نار الجحيم على مملكته، ورعيته، وأحب الناس إليه، وأن الجميع سيدفعون بسببها ثمنًا غاليًا جدًا.

كانت لحظة تجمد فيها الزمن.

في صدر القاعة الملكية، وقفت (هند) حاملة رضيعها (نذير)، مُلصقة بذراعها (سلام) إلى جانبها. أمامهم وقف الصبي (بشر) بملامحٍ جامدة، لا تشي بالانفعال الدائر في أعماقه، وهو يرى كل ما يحدث أمامه، محاولًا استيعابه قدر عقله الصغير.

وتعلقت عيون الناس بالثلاثة الذين وقفوا يحدقون ببعضهم، كلٌ في حال مختلف.

الملك الأكمل كان يقف لاهثًا في إعياء، يرتجف انفعالًا وخوفًا، وقد عَلِم أن سره الصغير انكشف الآن، وأن المرأة التي استطاع ومخدومه نفيها عن عالمهم، قد عادت بطريقة غامضة إليهم، تبغي انتقامها يعلم جيدًا أنها قادرة عليه.

(جواد) كان يفكر فيما حدث، وفيما هو آت. يُكابد لصرف ذهنه عن زواجه الغامض السري، وابنه الذي لا يذكر ولادته، ولا ملمسه، ولا رائحته.. ولا حتى مماته. محاولًا التفكير في طريقة يُخرج بها أسرته، ومَن لا ذنب لهم، من غضبةٍ يراها في عينيِّ المشعوذة. غضبة شعر يقينًا أنها ستطيح بالجميع، ولن تُبقي على الأرض أحدًا.

أما (إيليانا).. فكانت ترتجف. ترتجف في أعماقها، وقلبها، وظاهر جسدها. تشدُّ على قبضتيها دون وعيٍ، بقوة كانت كافية لسحق حائطٍ من فولاذ، لو قبضته أصابعها.

تطنُّ أذنيها.

تضطرم النيران في أعصابها.

تتدفق الدماء ساخنة في عروقها، تتلظى وتمور كحممٍ بركانية.

تتردد الكلمة في عقلها، ببطءٍ مخيف شديد الوطأة: مات.. مات.

ما بين نطق الأكمل بها، والتو، بضع لحظاتٍ لا غير.. لكنها شعرت وكأنها عاشت مع الكلمة، ورافقتها سنة كاملة.

لقد قتلوا ابني.

لقد... قتلوا... ابني.

«قتلوه!».

تفجَّر صراخها بالكلمة الأخيرة.

ما كان الناس قد سمعوه من صرخات غضبتها، إلى الآن، لم يكن إلا هباءً أجوف، كأنها صرخة طفلٍ في مقابل تلك الصرخة المريعة. ارتج القصر بعنفٍ عاتٍ، حتى تشققت الجدران، راسمة على صفحتها، أخاديد طويلة، سَرَت بعرض الحائط كأفاعٍ هائلة الحجم. تخبَّط الناس، وتساقطوا أرضًا يتلوّون في ألم من الصرخة التي أصمَّت أسماعهم، وأدمت آذانهم وأنوفهم. وسمعوا صيحتها الوحشية تقول:

- أيها الملاعين.. سأقتلكم جميعًا.

وفي لمح البصر، رفعت كفها عاليًا، فارتفع معها الملك الأكمل دون إنذار، ليصيح مستغيثًا بمن حوله. وطار ناحيتها و(جواد) يهتف:

- ارحميه.. إنه شيخٌ عجوز.

لكنَّ (إيليانا) كانت كثورٍ أعمى. صمَّت أذنيها وحواسها كلها. كان الرجل مُعلَّقًا من رقبته في الهواء، حين قرَّبته منها فلفحت أنفاسها وجهه. وهمست بلهجة جمدت الدم في عروقه:

- قد قتلتَ ابني أيها الحقير، ودفنته في مملكتك.. فلتُدفن الآن بجواره.

وأشارت بكفها، فارتفع الرجل حتى مسَّ سقف القصر. وصاحت به وهي تحدق في (جواد) بنظرة مخيفة:

- إلقِ على ابنك المظفر نظرة الوداع.. فسيكررها مثلك بعد قليل.

صرخ (جواد) بأبيه، وبكت النساء بحرقة. وفي لحظة، ضمَّت قبضتها فضربتها لأسفل، ليخترق العجوز الهواء أمام عينيَّ ابنه الملتاعتين، كقذيفة نحو الأرض، ثم يرتطم بها في عنفٍ مدو، فتنفجر الدماء من رأسه وجسده في مشهد بالغ البشاعة.

هرع (جواد) نحوه صارخًا:

- أبي.. لا.

لكن المشعوذة أمسكته هو تلك المرة، وهي تحلق في منتصف القاعة، لتناله قبضتها الرهيبة وتجذبه إليها كأبيه. وهتفت وهي تحدق في عينيه:

- ربما لا تذكر شيئًا مما كان بيننا، فيشفع لك عجزك عن انقاذ ابني. لكن لأنك كنت السبب في كل هذا، لأنك من جعلني أتعلق به، أحبه، وأتزوجه، مخالفة قومي وعقيدتي، فإني لن أتركك تحيا مُنعَّمًا مع أسرتك، فيما أحترق بلوعة الفقد وحدي. فقط أعدك أن تكون ميتتك أكثر رحمة من أبيك البائس.

هتف بها بصعوبة، محاولًا التقاط نفس من الهواء، وقبضتها تشتد حول عنقه:

- أنا لا أخافكِ. اقتليني إن شئتِ، لكن لا تمسّي الناس وعائلتي بسوء، لا ذنب لهم.

أطلقت ضحكة رنانة:

- الناس وعائلتك؟ يا للنبل!

ثم بشراسة قاسية:

- لا تخفْ، سيلحق بك الجميع حالًا.

وشددت من قبضتها على رقبته، فاختنق الدم في عروقه، وازرقت وجنتاه، وبدأ الهواء والوعي والروح في التسرب من بدنه. تشنجت قدماه وهو يضرب الهواء في يأس محاولًا التحرر. كان يموت تدريجيًا. واستسلم أخيرًا لمصيره، ووهنت قوته فلم يجد في نفسه القدرة على النزاع، فتلا الشهادتين سرًا، حين صكَّ أذنيه صوت ابنه يهتف من أسفل:

- اتركيه أيتها المشعوذة.

التفَّت برأسها لترى من يصيح، فطالعتها صورة (بشر)، ابنها، في وجه الصبي. خفق قلبها فجأة، ولثانية فقدت قدرتها على التماسك، وخفّت غضبتها.

- لقد قتلوا أغلى من لديك، فلا تقتلي أغلى من لدي. اقتليني أنا بدلًا منه، أرجوكِ.

كان يهتف وعيناه تطفران بدموع تجري على وجنتيه.

بدأت قبضتها تخفُّ تدريجيًا عن رقبة (جواد) الذي هاله ما يحدث. صرخ بها بقدر ما سمحت رئته المتحجرة:

- لا.. دعكِ منه، إنه بعد صبي صغير.. اقتليني أنا ولا تقربيه.

نظرت إليه لحظة في صمتٍ بارد، وبغتة، أطلقت كفها محررة إياه وهي تقول:

- لقد عدلتُ عن رأيي.

لم تكن المسافة عالية، لكنه ارتطم بالأرض في قوة، فأنَّ بألم. أما هي فتحركت ناحية الصغير بوجهٍ جامد لا حياة فيه. صرخت أمه وأسرعت تحول بينهما، لكن بإشارة من إصبعها تحرك أحد القضبان الحديدية التي تزين إطار النوافذ خلفها، وبمرونة شيطانية، ليحيط بعنقها من الخلف، وينقبض في حركة سريعة فتتراجع معه للوراء، مثبتًا إياها على الحائط في إحكام.

تمسّكت (سلام) بأخيها الرضيع في جرأة، وهي تهرع إلى أمها محاولة إنقاذها، أما (إيليانا) فواصلت المسير وعيناها تبرقان في ألقٍ مخيف.

أسرع بعض الجند يطوّق ولي عهد مملكتهم، لكنها لوحت بأنملها في خفة، لتلطمهم جميعًا في وقتٍ واحد كفٌ عملاقة، أطاحت بهم على الأرض.

قفز أحد الجنود من خلفها ليطعنها بسيفه، لكنَّ السيف تكسَّر نصله على ظهرها، متناثرًا على الأرض كعملاتٍ معدنية، دون أن يخدشها.

استدارت للجندي الذي تجمد مكانه من الرعب. كانت لحظة واحدة، رمقته فيها بجمود وكأنها لن تُقدم على شيء، قبل أن تدبّ يدها في صدره بغتة، فتنتزع بحركة واحدة قلبه وتطوحه بعيدًا في ازدراء. تصلَّب جسد المسكين في مكانه لثانية، قبل أن يهوي للخلف جثة هامدة، على وجهها أعتى آيات الألم.

وتابعت طريقها. سارت كمَن لا يخشى أحدًا، ولا يتوقع ضررًا مفاجئًا من مخلوق..

حتى وصلت إليه.

وقفت أمام الغلام تحدِّق في ملامحه الجميلة، تتأمل أعطافه، وثناياه، ورقة قسماته.

وتراقصت ابتسامة جنونية على شفتيها السوداوين. «هذا الطفل لا يجب أن يموت». قالت لنفسها. «إنه مِلكي».

وفي اللحظة التالية، التي هبَّ فيها الملك واقفًا، ليهرع إليهما متواثبًا على ساقه المصابة، أسبلت هي عباءتها علي الصبي لتحيطه بها، قبل أن ينتفض جسدا الاثنين طائرين في الهواء!

صرخ الملك وزوجه باسم ابنهما في آن. سقط الأول وقد عجزت ساقه المصابة عن احتماله طويلًا، بينما تراجعت (إيليانا) بحِملها إلى بوابة القصر المفتوحة، لتنسحب معها الظلال التي غطت المكان منذ دخولها.

هتفت أمام نظرات أبويه المكتوَيْن بالعجز والقهر:

- لا تبحثوا عنه، إنه مِلكي الآن، سيصير ابني وتلميذي. أما أنتم فكما اخترتم لحياتكم: ستبقون داخل الأسوار ما حييتم، حتى تتعفن أجسادكم الفانية، أؤكد لكم هذا.

ورفعت عقيرتها إلى السماء، كذئبٍ جهنمي، مطلقة عواءً واحدًا وأخيرًا، زلزل المملكة، وجعلها تتوهج بضوءٍ أحمر ، ألقى في النفوس رعبًا فوق رعبهم.

وترددت صيحتها الأخيرة طويلًا في فضاء المملكة:

- من الآن فصاعدًا، ستبقون هنا للأبد. خارج تلك الأسوار لن يؤتي سحركم فعله، ولن يجد حراسكم الجان قوتهم. قد وهبتوني ولي عهدكم هديةً لي، وفي ذلك النهر سأترك هديتي الأخيرة لكم.

وإذ توارت في الأفق، خلَّفت ورائها ضحكاتٍ مسمومة، رجَّت أركان المملكة، واخترقت أسماع أهلها. انهار قلب (جواد)، وصرخت الملكة في لوعة باسم ابنها الذي اختفى من أمام عينيها للأبد.

(٦)

كانت ليلة قاسية. وَسَم الحزن ملامح الناس وقلوبهم، وخيَّم السكون على القصر والطرقات والبيوت. عرفت مملكة (أنطاكيا) لأول مرة بتاريخها قسوة الرعب، ومرارة الهزيمة في حربٍ لم تكن متكافئة. أنصتت دقات الزمن لحديثٍ هامس كانت القلوب تردده في وجوم وذهول: مات الملك الأكمل، وهُزِم ابنه، وسُرِق حفيده من بين أيدينا، فأي عارٍ وخذلان!

كانت مشاعر الناس متشابكة، تتنازع بين الخوف من ناحية وبين الراحة لزوال الغمة، غير أن الإحساس الذي سيطر على الجميع وحطم نفوسهم هو إحساس الفقد، في تلك الليلة فقد الناس كل شيء: أمنهم، وسعادتهم، وضحكاتٍ عرفوا أنها قد وَلَّت للأبد، فقدوا مليكهم القادم، ومليكهم الحالي الذي رأوا في عينيه التائهتين غدًا مظلمًا، أدركوا معه أنه لن يعود أبدًا كما كان.

غاية القول أنه في تلك الليلة المشؤومة، وبضربة شيطانٍ، خسر أهل (أنطاكيا) ماضيهم ومستقبلهم معًا.

لبرهة طويلة، لبث الحال كما هو في القصر دون حركة، افترش الناس الأرض وقد أنهكهم التعب والرعب والصرخات التي مزقت حناجرهم. ساعد الحراس مليكتهم، وحرروها من القضيب المعدني الذي قيد رقبتها،

فارتمت باكية تحتضن ابنتها التي تمسَّكت بـ(نذير) في استماتة، وكأنها تخشى عليه من خطرٍ لم يزل باقيًا.

أما الملك، فزحف حتى وصل إلى أبيه الذي توسطت جثته بهو القصر، تسيل منها الدماء، مكوّنة بركة قانية واسعة من حوله. ألقى عليه نظرة أخيرة، تاركًا الدموع تنهمر من عينيه كمدًا.

لم يقدر على النهوض، وقد أعياه الانفعال والإرهاق، والألم المضني الذي شق ساقه، بيد أنه وهو راقد، خلع عباءته وغطى بها جسد أبيه، فأخفاه عن الأعين. ثم إنه ارتمى بجانب الجثة المسجاة على الأرض، وانفجر في بكاءٍ حار.

كان يبكي وينهنه كطفل، حتى حسب الناس أن أحد أولادهم هو من يبكي لا الملك، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على التفكير بأنه أضعف منهم، أو أقل احتمالًا؛ ما كابده الليلة كان أكبر وأقسى من احتمال البشر، ومُصابه لا يُقارن بأي مصاب مهما اشتد وقعه أو قسى ألمه. في تلك اللحظات، كان صوت بكائه هو الصوت الوحيد الذي يسري في العتمة والسكون.

* * *

بعد الفجر، صلّى الناس على مليكهم الأكمل، وخرجوا عن بكرة أبيهم وراء تابوته إلى مثواه الأخير.

حين عادوا كانت الشمس قد بدأت تشرق، والطيور تتصايح مُحلّقة في السماء تبحث عن أقواتها. سبَّح الناس ذاكرين الله. لشد ما حسبوا أن لن

تطلع شمس الغد عليهم إلا وهم جميعًا تحت التراب، لكن ها هم الآن، يعودون لبيوتهم على أقدامهم، وكأن الأمس وهوله ما مر وما كان.

وتماثل لهم القصر من بعيد كئيبًا وموحشًا، تشققت جدرانه وانتُزِعَت بوابته، فتبدَّى مقبضًا للأعين، وكأنه هُجِرَ لسنوات. وعاد الملك إليه يتقدم الناس، متعكزًا على عصا أبيه، يكتم ألمه، وتسنده باليد الأخرى (سلام)، التي رافقته إلى المسجد والمقابر، ثم عادت معه كأنها تحرسه بنفسها.

وقف الملك على باب قصره متأملًا، يحدِّق في البهو الفسيح، غير مصدق لما جرى في ساعاتٍ قليلة. «اللهم غوثك وعونك ورحمتك وسلامك». همس لنفسه. كان قلبه يتمزق.

بإيماءة منه صرف الناس لبيوتهم، فتبادلوا النظرات في إشفاقٍ، قبل أن يغادروا منكسّي رؤوسهم، واحدًا تلو الآخر، دون أن يجرؤ أحدهم على التعليق بحرف يواسي به مولاه. كانت الكلمات في تلك اللحظة أفقر من أن تحكي شعورهم وألمهم نحوه.

استند على ابنته مرتقيًا السلم إلى جناح نومه، ودلف بهدوءٍ تام خشية أن يوقظ (هند)، التي رقدت بأثر وصفة دفعتها لنومٍ طويل يقيها شر كوابيس وآلام تلك الليلة.

وتمدد الملك جانبها. ضم السرير امرأته وطفله الرضيع، وجسده هو محتضنًا (سلام) بيدٍ ككلّابة الحديد، مستمدًا منها الدفء والأمان. أحاط أسرته بذراعيه وهو يرتجف، يرمق الباب بين هنيهةٍ وأخرى، مستعيذًا بالله من شرٍ آتٍ أشد مما رحل.

وسقط الجميع في النوم إعياءً، تتنازعهم الكوابيس، وتتصارع في عقولهم الأفكار والمخاوف. وكان آخر ما ملأ عينيَّ الملك، رسمٌ لوَليِّ عهده، غُزل على بساطٍ شرقي فائق الجمال، وانبسط مسدولًا على الجدار في مواجهة السرير.

كان الصبي يبتسم في عذوبة.

«والله لأرجعنَّك يا بني، حتى لو كان آخر ما سأفعله على هذه الأرض!». همس لنفسه.

(٧)

في الأيام التالية، اشتد الألم على الملك، وأسلمته إصابة ساقه لحمًّى ثقيلة، أنهكت جسده المكدود، وأوهنت قوته وعقله. كان يهذي ويصرخ في كل ليلة، باسم (بشر)، فيغرق القصر في الغم. ولبث على ذلك الحال مليًا، تتنازعه الهلاوس، وتضطرم الحمَّى في أطرافه وحواسه.

وكان (جسّاس) ساحر المملكة، والذي تعافى مؤخرًا من حمى مشابهة، يعكف على صنع وصفاته السحرية يقدمها له أولًا بأول، وتسهر زوجته ليلًا بجواره، تتبع الماء المثلج على جبينه بآخر، وتتوسل إليه في قلبها أن يستفيق.

وعرف الناس بمرض مليكهم، فانهالت الدعوات من كل صوب، تلهج عليه بالثناء والرحمات، وتستغيث بالله أن يخفف آلامه. كان ذلك إلى أن منَّ الله عليه في النهاية بالشفاء، خفَّت حدة الحمى تدريجيًا، وعاد الدم يسرى رويدًا في جسده، وعظامه يلين تصلُّبها، حتى استعاد أخيرًا رونق ملامحه وعافية جسده.

وكان عصرًا يرتاح وحده في حجرة نومه، في آخر أيام المرض، حين دُق الباب، ودلف الساحر باحترامٍ جم، وابتسامة مرتبكة. بادره الملك بهدوءٍ محييًا:

- تفضل أيها الحكيم (جسّاس).

- كيف حالك اليوم يا مولاي؟

- الحمدلله. كانت في وصفاتك الشفاء، بعد معية الله ورحمته. كيف حالك اليوم؟ أراك تعافيت مما ألمَّ بك.

- أنا على خير ما يرام يا مولاي، فلا تقلق.

ثم تنحنح متحرِّجًا:

- علم الله يا مولاي أني لو كنت تام السلامة وقتها، لما كانت تلك المشعوذة...

قاطعه بابتسامة شاحبة:

- لكل أجلٍ كتاب يا (جساس). لا يعلم غيب العباد إلا خالقهم. ولربما كان مرضك قبل الاحتفال سبب وجودك حيًا اليوم أمامي.

ثم اعتدل قليلًا في رقدته:

- ومن يدري؟ لعل الله أنجاك لتنقذني من مرضي. إني أدين لك بحياتي.

- عفوك مولاي، ما فعلتُ إلا ما أملاه عليَّ واجبي. الحمدلله أنك بخير حالٍ الآن.

ثم إنه وقف برهة بعدها، صامتًا ومترددًا، فأثارت هيئته اهتمام الملك. سأل:

- فيم ترددك يا (جسّاس)؟ ألكَ حاجة نقضيها؟

- بلى يا مولاي، الحق أني أتيت اليوم لأكاشفك بأمرٍ لم يعد يحتمل الكتمان.

لاح في وجهه العجب:

- أي أمر؟ هلم، هات ما عندك.

استأذن في الجلوس، ومد يده لطيّات صدره، فأخرج لفافة ورق موشاة بخيطٍ حريري قرمزي اللون، أحاط بها في إحكام. وفضَّها قائلًا:

- هذه المخطوطة كتبها أستاذي (عدنان)، غفر الله له، حينما كان يتولى تعليمي وتدريبي. أوصاني بحفظها في مكانٍ أمين، إلى أن يشاء الله ويأتي يومٌ تُفضُّ فيه، فتُقرأ على أسماعك وحدك. سألته متى يكون ذلك، فأجابني أنه يومٌ لا شبيه له بعمر المملكة، أوله زهرٌ من جنة، وآخره جذوةٌ من جحيم. وحدي سأعرفه، ووحدي سأتخذ خياري في نهايته.

وهز رأسه بأسف:

- أجزم يا مولاي أنه، ربما، هو اليوم الذي...

ولم يُكمل.

طالعه الملك بوجه جامد، كمَن لا حياة فيه، ولم ينبس بحرف، خَشِيَ أن يفتح فاهه ويسأل، فتطيل المدة بإجابات الساحر. بدا في جلسته وقورًا ورصينًا، غير أنه كان يتحرَّق في لهفة لم تظهر على قسماته. حين لم يجد تعليقًا من الملك، آثر (جسّاس) أن يخوض رأس الأمر مباشرةً. مزق الخيط الحريري، وفضَّ الأوراق ثم تنحنح، قبل أن يشرع في القراءة.

«باسمك اللهم..

الحمد لله الأول الآخر، الظاهر الباطن، القوي المتين، مُنزِّل الكتاب على عبده ونبيه بلسانٍ عربي مبين، أحمده تعالى كما ينبغي لجلاله العظيم، وسلطانه القديم، ونور وجهه الكريم، حمدًا طيبًا مباركًا، ملء السماء والأرض وما بينهما إلى يوم الدين، وبعد...

فإنه في يوم الجمعة العاشر من صَفَر، لسنة (...)، كتب العبد الفقير إلى الله (أبو الحارث عدنان بن محمد الإدريسي(هذه الوريقات، مودعًا إياها، في حفظ الله وستره، عند ربيبه وصفيّه (جسّاس بن زهير)، وذلك إلى ميقاتٍ معلوم، ويومٍ إن قدَّر الله مشهود».

رفع (جسّاس) رأسه إلى الملك مُستطلعًا، فأشار له الأخير أن يكمل. اعتدل في مقعده، وشرع يحكي ما كتب الساحر في أوراقه.

* * *

«بطل التخفي والحيَلْ».

قُلتها لنفسي يا مولاي، وأنا أرقبك من نافذتي باسمًا، برغم حنقي البالغ منك. كنت تتقافز، في تلك الليلة، متعلقًا بجدران القصر، متسللًا من بين يدي حراسك، تقصد أسوار المملكة.

كنت أعرف أنك تهرع لتلبي نداءها.

اعتدتَ أن تثير إعجابي في كل أفعالك، حتى لو كنتُ أشد الناكرين لها. على أن تلك المرة، لم أكن أقدر على إبداء الإعجاب بحال. في الواقع، كنت أتقد قلقًا، ذلك أنه....».

* * *

«... وكنتَ يا مولاي تعشق الغجرية عشقًا، وتهيم بها في حبٍ ملَكَ عليك قلبك. وكان يثير خوفي، إصرارك الدائم ألا تغدو تلك مجرد نزوة معتادة من طيش الشباب، أو نزق المراهقة، وأنك تريد أن تصطفيها لنفسك زوجةً وأمًا لأبنائك. يومها عارضتك بقوة، لكنك ناشدتني الله، وبحق ما علّمتك إياه طوال سنوات، إلا أن أكتم عنك سرك، وأُبقي ما بيني وبينك مطويًا في صدري، بعيدًا عن الملك الأكمل، وأمك وسائر الرعية. وعلم الله أني حفظت ذلك، حتى جاء يومٌ...».

* * *

«.... يومها، تذكُر مولاي، هتفتُ بوجهك في ثورة، لم أتمالك نفسي إزاءها: تزوجتها؟ يا لك من أحمق! أي وبالٍ جلبته على نفسك وبلادك بطيشك هذا....».

* * *

«... ولم أشأ أن أخبره يا مولاي. ورب البيت، لكان الموت أرغب إليَّ من إفشاء سرك. لكنَّ الأمر آنذاك كان قد فاق مداه، وصارت عاقبة خطأك وخيمة، ليس في حق نفسك أو أبويك، لكن في حق مملكتنا التي جررتَ عليها، بابنك الوليد ذاك، وبالًا الله وحده يعلم قدره ومنتهاه. وقدِمْتُ إلى

جناح الملك بوجهٍ متأسٍ، أقول له: مولاي، هناك ما يجب أن أخبرك إياه ولا يحتمل التأجيل...».

* * *

«- (جواد) يا ولدي، لا أحد فينا يبغضك لما فعلتَ. أنت أميرنا وسيدنا، وولي العهد الوحيد. مصير مملكتنا كله معلق في عنقك. أنت لست مسؤولًا عن نفسك وحدك، بل عن أمة بأسرها، كيف نسيتَ هذا؟

- لستُ مسؤولًا عن شيءٍ من هذا. أمور المُلك تلك شأنكم وحدكم. أنا الآن مسئولٌ أمام ربي فقط عن أسرتي الخاصة».

* * *

«... وصرختُ بالجنود لأشتت تركيزها: اقتلوا الرضيع.. اقتلوا الرضيع...».

* * *

«ستكون محبوسة هناك بين الظلال!».

* * *

«لا تقلق يا بني، عما قريب باذن الله ستستعيد كل ما غاب عن ذاكرتك...».

* * *

وتوقف (جسّاس) قليلًا، بدا فيه غارقًا في قراءة بقية المخطوطة، وكأنه ذُهل عن المواصلة. وانتبه الملك لتوقفه، فرفع عينيه إليه مستغربًا، حينها تنحنح الشاب في حرج، وعاد يُكمل آخر كلماته.

* * *

«.... هكذا انطوى السر في قلبي يا مولاي، ثمانية أعوام كاملة، لم يبدر مني فيها أقل بادرة تثير شكك أو فضولك. لكني، في كل يوم، كنتُ أحترق بتلك الحيرة والأسئلة الهائمة في عينيك. كنتُ مطوَّقًا في عنقي تجاهك، بحقك في المعرفة، لكني لم أقدر على النطق.

طُمِسَت الذكريات للأبد، إلى أن كان يومٌ علمت فيه أن الأجل قد حتم، وأن المرض الذي احتل جسدي حين يغادره، سيذهب بروحي معه، فآثرتُ أن أكتب تلك الأوراق وأودعها عند تلميذي، إلى أن تحين اللحظة التي يسعه فيها فضَّها، وإطلاعك على ما بها، في يومٍ دعوت الله كل ليلة ألا يمد في أجلى إلى أن أشهده، ذلك أني عرفتُ أنها ستعود يا مولاي، عرفت هذا في صميم قلبي، وأنبأتني به الأفلاك والنجوم حين استطلعتها.

إني أعرف (وادي الجماجم) جيدًا يا مولاي، وأعرف أنه ما عاد منه أحدٌ من قبل، فلئن حدث، سيكونن قد اكتسب من القوة الهائلة، ما لا قِبَل لنا، ولا لحراسنا، على مجابهته. حتى أنا ما كنتُ لأغني عنك شيئًا بعلمي أو قوتي.

لشد ما يؤلمني أن أقول إنه، يومها، ليس لك من اتقاء غضبتها سبيل، وأنه ليس بوسعي لك، ولا للمملكة التي أفنيتُ لها عمري، إلا الدعاء، إلى أن يسترد الله وديعته بغير سوء.

اغفر لي خطيئتي يا بني، وتجاوز عن ذنبي، فما بغيتُ إلا صلاحك وصلاح الأمة التي أخلصنا لها، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ.[٥]

قد أردتُ أمرًا، وأراد ربُك أمرا، وعليك في الأخير وعلى (أنطاكيا) المجيدة السلام».

* * *

ابتسم الملك في مرارة، وأراح رأسه على الوسادة، مغمضًا عينيه.

«غفر الله لك يا أبي.. غفر الله لك يا (عدنان)!». رددها كثيرًا في أعماقه.

لفّ (جسّاس) المخطوطة، مُعيدًا إياها إلى ملابسه بحرص، لم يكن أمرها قد انتهي بعد. يعرف كيف سيستفيد منها جيدًا حين تحين الفرصة.

ولم يدر إن كان الملك قد نام أم لا، وخشيَ أن يكسر حاجز الصمت باستئذان، فضم عباءته، ونهض مغادرًا في هدوء.

كانت مهمته الأولى قد انتهت!

---

[٥] الأعراف: الآية ١٨٨.

(٨)

بدأت الاستعدادت تجري على قدمٍ وساق.

نادى منادٍ في الناس، أن الملك المظفّر قد قرر تجريد حملة للبحث عن ابنه خارج أسوار المملكة، وتردد النداء لأيام في أرجاء (أنطاكيا)، فما ترك بيتًا ولا حانوتًا إلا وبلغه.

وانقسم الناس منذ تلك اللحظة: فقطاعٌ من الأنطاكيين رأى في هذا ضرورة قائمة، وواجبًا على كل رجل في البلاد، حتى رغم الخوف الفطري حين يذكرون أنهم لأول مرة سيغادرون الأسوار، كان ما حدث وانتهى عليه الأمر، يثير غضبًا مكبوتًا في قلوبهم، ويُضرم نارًا تبغي رأس المشعوذة لتهدأ. كانت عيونهم لا ترى أمامها إلا الثأر.

على أنه، في المقابل، خرجت أصواتٌ عدة تُخمد الحماسة، وتئد الغضب الذي يزكي النفوس. كان الفريق الجديد يرى أن المملكة عانت في ليلة واحدة، ما لم تعانه أبدًا في حياتها من قبل. «تلك المشعوذة كانت زوجته، اختياره. هو وأبوه السبب فيما جرى لهما، ولـ(أنطاكيا) دون ذنب». كانوا يرددون في غضبٍ خافت. «المملكة بأكملها لم يخرج منها من استطاع هزيمة المشعوذة تلك الليلة، أو حتى مبادلة الضربة بمثلها، وكل ذلك في ليلة واحدة!، فكيف بالخروج لإثارتها من جديد، وعلى أرضها؟ أنفعل هذا من أجل طفلٍ واحد لن يُغني المملكة مهما عظم قدره؟».

والحق أن تلك الدعوة، على خذلانها، وجدت صدًى عند الناس غير ضئيل، فبدأت بهمسة سرية بين اثنين في الخفاء، ثم ما لبث أن صارت تكبر وتتعاظم، حتى أضحت حقيقة يرددها عددٌ من العامة دون خوف.

واختلطت الأصوات في الساحات والمساجد، وعلى المقاهي والبيوت، بعضها ينشد السلامة، وآخرون يطلبون الانتقام، ويصمّون آذانهم عن كل ما عداه.

وتناهت الأقاويل بطبيعة الحال إلى القصر، وبلغت الملك، فأغمّه ذلك، وقرر أن يجمع الناس بعد صلاة العصر، ليقف خاطبًا فيهم ربما لآخر مرة. قال:

«أيها الناس، ما بال أقوامٍ يفترون على مليكهم بغير ذنب، فيقولون إن المظفر يدفعهم لحربٍ لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل؟ حربٍ قد تُذهب بأرواح كثيرين لأجل روحٍ واحدة مهما بلغت قيمتها. أما والله فقد تعس من كذب عليّ بذلك. إني، وأُشهد الله، ما رغبتُ أن أخرج برجلٍ واحد منكم خارج تلك الأسوار، خوفًا عليكم، وإشفاقًا من أذًى يصيب أحدكم، غير أن القدر شاء أن يفجعني في أغلى ما لدي: ولدي!».

وتهدج صوته على رغمه:

«وإني قبل أن أكون مليككم، فأنا أبٌ يلهبه الشوق لأبنائه، ويمزق قلبه فراقهم. وأيم الله، لو كان مَن انتزعته منا ابن أفقر رجلٍ فيكم، لما تمهلتُ يومًا حتى أجده وأعيده إلى أهله سالمًا، فكيف بابني؟ والله يا قوم، لو كان بيني وبين ولدي جبلٌ، ما ترددتُ في تسلقه بيدي حتى أسترجعه أو أهلك

دونه. على أني ما فكرت قط، ولا خطر ببالي، أن أجبر أحدًا منكم على الخروج، حتى لو كان طلبًا لثأرٍ لا يبغيه سواي.

أيها الناس، إني نويت أن أعبر تلك الأسوار بعد ثلاث ليالٍ، ساعيًا خلف ابني، متوكلًا على الله ومسلِّمًا أمري كله إليه. فإن عدتُ، عدتُ به، وإلا أموت معه. إني خارج، وما كنتُ لآمن أن يرزقني الله رؤية وجه ابني من جديد، وفي نفس أحدٍ من جيشي ضغينة، أو شعورٌ بالقسر افترضته عليه، لذا، فإني مخيِّركم: من أراد أن يخرج معي لوجه الله وحده، لا زيفًا ولا نفاقًا، فإنه مني وأنا منه. ومن آثر السلامة في البقاء، فله مني الأمان والمنعة، وله عليّ ألا يمسسه مخلوقٌ بسوء من قولٍ أو فعل ما دام حيًا. إني خيَّرتكم وأنتم وما ترغبون، والله وليُّنا ومولانا».

* * *

وصدق الملك فيما ذهب بعزمه، إذ لم تمض الليالي الثلاث، إلا وكان ممتطيًا فرسه، يتقدم عشرة آلاف رجلٍ من جنده ومواطنيه الذين انضموا صفوفًا لثكنات العسكر، يستلمون سيوفهم ودروعهم، وزي المملكة العسكري.

أما على الجانب الآخر فقد تخلّف عددٌ ليس بالكثير عن الركب. وصدق الملك من جديد فيما خطب بالناس، فما مسّهم هو أو أحدٌ ممن اتبعه بلومٍ أو تقريع، ولا تعرّض لهم عارضٌ بقولٍ أو فعل. وتهامس المُخلَّفون في خزي، أنه لم يُحصِهم حتى عددًا، ولم يهتم، كما جرت العادة في الحروب، بأعداد الكشوف بأسماء من انضم ومن تخلَّف، بل

تركهم وراءه في المملكة، يرددون الحجج فيما بينهم، ويدفعون بها وخز ضمائرهم ونظرات نسائهم اللائمة.

كان المظفر يعلم أنه خروجٌ أشبه بانتحار، فلا أعدَّ خطة، ولا استطلع عيونًا تحدد له هدفه، ولم يمهل رجاله للتدرب على السلاح بشكلٍ وافٍ حتى، وهم الذين لم ير أغلبهم السيف إلا في غمدٍ مرصعٍ بالجواهر، يزيِّن جدران بيته.

يوم الخطبة، استدعى قائد شرطته وصديقه ليستطلع رأيه، ذلك أنه لم يكن بالمملكة جيشٌ بالمعنى المعروف، ولم تُوجد حاجة إلى إنشائه. كانت هناك فقط ثكنة عسكرية يتم تدريب فئة من الشباب بها إلزاميًا على حماية الأسوار لفترة، قبل أن يحل محلهم عددٌ جديد دوريًا، أما رجال الشرطة فكانوا يُختارون لتأمين الطرقات والأسواق، ومراقبة الأسعار ومصالح الرعية، وكان قائد الشرطة هو المسؤول عن كل أولئك.

كان رأي الرجل الصراح أن الخروج، بذلك التسرع، ضربٌ من الجنون، كان عليهم التمهل، وتدريب الرجال، وصقل السيوف التي صدئت من الإهمال، وتحديد وجهتهم أولًا قبل أن....

لكن المظفر لم يُمهله ليُكمل. انفجر في وجهه صارخًا، يتهمه بالتخاذل والضعف وترك الجهاد. أوجعت كلماته قائد جنده، لكنه احتمل في جَلَد من يعرف أن مُخاطبه هو أبٌ مكلوم، أشبه بحيوانٍ جريح.

حين انتهى الملك، وهوى على عرشه يلهث انفعالًا، قال القائد بصرامة لم تخل من رنة حزن:

- أيها المظفر، إنك ما استطلعت رأيي إلا وحق عليَّ الجواب فيه بإخلاص. أمّا والله عن شجاعتي، فليس دونك من يجهلها، غير أن أولئك رجالي، وتلك أرواحهم معلقة في عنقي، أوتحمل عني إصرها يوم القيامة؟

- هم رجالي أيضًا، ورعيتي التي سيحاسبني عليها الله، وقد اختاروا بأنفسهم.

- اختاروا لأنهم يحبونك، لا لأن ذلك هو الصواب.. أنت تنتحر أيها المظفر!

- إنه ولدي يا (سامر).

صاح باستنكار مكبوت:

- ولم يقل أحد أننا سنتخاذل عن نجدته يا مولاي، ولكن في التأني السلامة.

- لو كان هذا مُصابك، لما كنتَ واقفًا الآن بتلك الادعاءات الباردة.

- لو كان مُصابي لوجدتك أنت تعد خطوتي التالية وتضع الخطط بنفسك.

دق بقبضته على مسند عرشه صائحًا في قسوة:

- انقضى أوان الخطط. لا حيلة ولا خطة ستفلح مع تلك المشعوذة. ليس بيدي إلا الهجوم بينما تنتشي بانتصارها.

وحدجه بنظره طويلة لاهبة، قبل أن يتراجع في مقعده متمتمًا بهدوء مخيف:

- لقد اتخذت قراري أيها القائد: سنتحرك في بحر ثلاثة أيام، فإما صُحبتي، وإما والله لأجدنَّ قائدًا غيرك.

تطلع إليه (سامر) في صمت.

في أعماقه، كان قد بات يخشاه. كلما حدَّثه تراءى له شبحٌ يحتل سحنته، مُحيلًا الملك الدمث إلى آخر يثير توجسه وخوفه. على أنه، وكما يُملي عليه شرفه وواجبه، شد قامته في اعتداد، مرددًا بحسم:

- والذي نفسي بيده، لئن خضتَ بي بحرًا يا مولاي لخضته قبلك غير آبه. وإني ما قلتُ مقالتي تلك إلا حرصًا على أرواح رجالنا ودمائهم، لكن وأما قد قضيتَ، فلا راد لكلمتك، غير أني أشهد الله أمامك أني أخلع ذنبهم عليك إلى يوم الدين. إنّا نازلون على أمرك أيها المظفر، فامضِ بنا إلى ما تحب تجدنا رهن يمينك.

ودون أن يضيف حرفًا، استدار على عقبيه مغادرًا القاعة، تاركًا مولاه في بحر أفكاره.

حين جاء يوم الخروج، زُينت المملكة بالأعلام والأوشحة، واحتشد الأطفال والنساء يشيعون رجالهم الخارجين، ويسترون من ورائهم المخلَّفين!. وضجَّت الشوارع بالأهازيج، احتفالًا بالجيش الذي يخرج لأول مرة في قتالٍ حقيقي، من أجل كرامة (أنطاكيا) وشرف رجالها.

كان يومًا مشهودًا حُفر للأبد في تاريخ المملكة.

بعد سنوات، وهو يرقد عاجزًا على فراشه مسلوب الإرادة، سيسترجع (جواد) كثيرًا ذلك اليوم المشؤوم، ويذرف دموعًا من الحسرة، بالضبط كما اعتاد أن يفعل في كل ليلة يذكره فيها.

(٩)

رغم عدم تذكُّره بعد، اضطرب قلب (جواد) وفرسه يتهادى في طليعة جيشه مقتربًا من الأسوار، شعر بحنينٍ مبهم، وحيرة مربكة، وتعلقت عيناه دون إرادة بقمة السور. لم يفهم كنه شعوره أو سببه، بيد أنه تدارك نفسه، وحافظ على رباطة جأشه في تلك اللحظة المصيرية.

من البوابة الضئيلة في الأسوار، خرج الملك مترجلًا عن فرسه، ساحبًا إياه، يتبعه القائد وطابور الفرسان، ثم بقية المشاة في ثنائيات.

وفي داخله عقد النية على بناء بوابة هائلة الحجم، ليعبر منها جيشه إلى العالم الخارجي في المستقبل، إذا أحياه الله ليعود بولده. كان على تلك العزلة في رأيه أن تنتهي وإلى الأبد.

مر وقتٌ طويل ومتثاقل، قبل أن يتم خروج الجيش بأكمله من البوابة، وفي الأخير الحراس الثلاثة للمملكة. منذ تلك الليلة المشئومة لم يرهم أحد، كانوا يشعرون بمزيج من الخزي والألم والمهانة غير المعتادين على بني جنسهم، حينما ذاقوا مرارة الفشل لأول مرة في مهمتهم، وخذلوا مليكهم وشعبهم الذي آمن بقدراتهم.

لكنهم ظهروا من جديد.

حين سمعوا منادي الملك يطوف في البلاد، داعيًا للقتال، برزوا من العدم كما اختفوا. كانت تلك فرصتهم للثأر. زاروا الملك ليلًا في ديوانه، وهناك أبلغوه دون مقدمات أنهم بعض جنوده، وأرواحهم ملكه، فليمض بها حيثما شاء. لحظتها تغلبوا أخيرًا في نفوسهم على المهانة التي تلقوها، واستردوا من جديد بعض إحساسهم بالشرف.

وسرى الحراس الثلاثة في الهواء وراء الجيش، يحرسون مؤخرته، حتى اكتمل خروجه، فمضوا وراءه مجتازين البوابة، و...

وكانت المفاجأة!

بغتة، ودون أن يفهم أحد، هوى الجان الثلاثة أرضًا على أقدامهم!

انتاب الجنود ذهول طاغٍ، وحدقوا في الحراس وهم ينهضون في ارتباكٍ متشتت، ويتسنّدون على بعضهم كأطفالٍ تتعلم لأول مرة كيف تخطو على أقدامها.

هتف الملك:

- بحق الله، ماذا....؟!

تبادل الحراس النظر في غير تصديق أو فهم لحقيقة ما يحدث. وجال خاطر مخيف بأحدهم، فرفع كفه يشير لحجرٍ ثقيل بغية تحريكه من موضعه، لكن الحجر لم يستجب!

صُعق الجميع.

حدّق الحارس في يديه مبهوتًا، وسقط الآخر على ركبتيه، غير قادر على الوقوف على ساقٍ لم يخط بها خطوة واحدة من قبل. أما الثالث، أكبرهم سنًا، فعقد حاجبيه مفكرًا بعمق، وحانت منه نظرة إلى البوابة من ورائه، فتحرك نحوها، يتعثر وتتضارب خطاه، حتى وصل إليها. وفي اللحظة التي تجاوز فيها أعتابها، انتابه نشاطٌ مفاجىء، شعر به يدب في بدنه، ويجدد الدماء في عروقه. وكما اعتاد دومًا، أمر جسده بالحراك، فأطاعه على الفور لينطلق بخفة مخترقًا الهواء.

شدَّ على قبضتيه في جنونٍ حانق، الآن يفهم أي لعنة حاقت به ورفاقه.

من قلب البوابة ظهر من جديد. عاد على قدميه للملك بخطواتٍ هشة، حتى مثل أمامه متهيبًا لما سيقول. وتمتم بغضبٍ كظيم:

- قُضي الأمر أيها الملك. لا يمكننا الخروج!

هتف الملك:

- ماذا؟ كيف؟!

- تلك الشيطانة. لقد لعنت المملكة. خارج الأسوار نحن بلا قوة.

بلا قوة؟!

تلقى كلمته كلطمة مباغتة، وسَرَت في ثوانٍ على ألسنة جنوده حتى بلغت آخر الجيش. وصكَّ أذنيه صوتها من جديد، يردده فضاء المملكة في تلك الليلة السوداء صارخة بتحذيرها.

كان قد قرر أن يخلف (جسّاس) من ورائه نائبًا على المملكة، حين عرف أن سحره، كما لعنتهم يومها، سيفقد مفعوله خارج الأسوار، لكنه لم يتخيل لحظة أن يطال الأثر حراسه الجان، فتسلبهم كينونتهم ذاتها.أي تسرعٍ أعمى بصرك يا (جواد)!

وسأل في قلق:

- أأنت واثق يا (إيكيل)؟ كل قواكم...؟

أومأ برأسه، مجيبًا في مرارة:

- بلا فائدة. خارج (أنطاكيا) كل قوانا بلا فائدة. سنكون كمثل رجلٍ في جيشك، أضعف رجل.

كانت المفاجأة شديدة القسوة. أحس معها أنه، وقبل حتى أن يقاتل، هُزم في جولته الأولى. قد أجادت (إيليانا) الضربة حقًا!. كان اعتماده كبيرًا على حراسه الثلاثة وقواهم الفذة. لم يكن يعرف ما هو مقبل على ملاقاته بالخارج، فكان بحاجة لكل سلاحٍ يحارب به.

الآن خسر نصف قوته بضربة واحدة!

لكنه تدارك نفسه سريعًا. شدَّ على لجام فرسه بقوة هاتفًا ليُسمع الجيش:

- ليقض الله أمرًا كان مفعولًا يا رجال. سنمضي وحدنا. إذا كانت تلك اللعينة قد سلبت منا سلاحًا واحدًا، فلنُرها أن لدينا ألفًا نقاتلها بهم.

بعثت كلمته حماسة في نفوس رجاله، فهللوا بأصواتٍ منفعلة يغالبون بها خوفهم.

أشهر سيفه عاليًا في الهواء وأردف بصيحة عظيمة:

- لن تقدر على سرقة إرادتنا أبدًا. سنقاتل بالله وبعزيمتنا حتى الموت.

ردد الجيش خلفه في ثورة:

- حتى الموت.. حتى الموت.

وجّه أمره لحارسه:

- ستعودون إلى (أنطاكيا)، أحتاجكم هناك أكثر.

- مولاي، بدوننا والساحر (جسّاس) ستكون المعركة مستحيلة. إنها ليست مُحارِبة بشرية ستنازلها بسيفك فتصرعها!

- أدرك هذا، لكنك قلتها: بدون قواكم لا فائدة من وجودكم معي، ففيم انتظاري؟

- على الأقل أيها المظفر حتى نرتب أوراقنا قبل أن....

قاطعه بحزم:

- أعرف شجاعتك وأقدّرها يا (إيكيل)، لكن في المملكة ستكون فائدتكم الحقيقية بالنسبة إليّ، أحتاج من أثق به هناك في حماية ظهري.

ودون كلمة إضافية، استدار بفرسه مُنهيًا النقاش ليعود إلى المقدمة. وهتف وهو يمر بالصفوف راكضًا بجواده:

- على بركة الله يا رجال.. إلى القتال يا فرسان (أنطاكيا) البواسل.

وفيما تعاظم شعورهم بالإحباط، بانكسار سلاحهم الأقوى قبل أن يقاتلوا به، عاود الجنود تهليلهم من جديد، وهم يتابعون مليكهم يتفجر بالقوة والحيوية، وبإرادة ملتهبة نطقت بها عروقه، فقال غير واحد منهم أن لن نُهزم وفينا المظفر أبدًا.

همس الحارس الأكبر (إيكيل) لنفسه:

- سامحنا أيها الملك، لقد خذلناك.

وقفل ورفاقه عائدين إلى المملكة منكسّي رؤوسهم.

تحرك الجيش.

كان الأمر شاقًا بكل المقاييس، حشودٌ لم تعرف من قبل كيف تتحرك وتتحد، كان من الصعب بمكان توجيهها ككتلة واحدة مثل كافة الجيوش. كانوا يسيرون بتخبط وعشوائية، وبدا نظامهم منفرطًا شديد الارتباك، لكنهم على ذلك كانوا جميعًا يوحدهم هدف ثابت، وشعور بالشجاعة يهزأ من مخاوفه. وتبادلوا المزحات فيما بينهم عما سيفعله كل واحدٍ منهم حين ينازل المشعوذة، فأثار حديثهم المفعم بالحماسة حين تناهى لآذان الملك، شجنه وامتنانه، رغم هيئتهم الباعثة على الرثاء.

على ضفاف النهر تجمَّعوا، ولبثوا يرمقونه بحيرة. وتقدم (سامر) بجواره فسأل:

- كيف سنعبر النهر أيها الملك؟

- انظر إليه جيدًا.. بدأت مياهه منذ أمسٍ في الانحسار.

وأشار إلى السماء مردفًا:

- تلك حسابات الفلك التي قام بها الحكيم (جسّاس). ثم إني أرسلت عيونًا لدراسة النهر، فاخترت مخاضات معينة سنجتازه عبرها. قد تجهزت للأمر جيدًا.

- لكن كيف؟ نصف جنودنا لا يجيدون السباحة!

دون أن يجيب، أدار الملك عنق فرسه مواجهًا الجيش، هاتفًا:

- يا رجال، انصتوا جيدًا إليَّ، من كان منكم يعرف السباحة فليترك فرسه لمن لا يجيدها.

تدخَّل القائد:

- أتعني....؟

- سنعبر النهر على خيولنا.

- لكن هذا.. سامحني أيها الملك، هذه مخاطرة لن تفلح!

ابتسم الملك باستخفاف:

- كنت أظن أن إعداد قادة الشرطة يُلزم صاحبه أن يدرس التاريخ فيما يدرس يا (سامر).

ثم اعتدل يشرح:

- (العلاء بن الحضرمي) عبر في ألفين من الرجال إلى البحرين، على صهوة جيادهم، إبان حكم الصدّيق. وكذا فعل (سعد بن أبي وقاص) في فتح المدائن، لقد عبر النهر بستين ألفًا لا عشرة![٦]

رمق القائد النهر الهادىء داكن المياه، وازدرد ريقه. لم يجرؤ على النطق خشية اتهامه في شجاعته. هتف الملك بهم من جديد:

- هلمّوا يا رجال، أريد عشرًا من الشجعان لقيادة الجيش إلى الضفة الأخرى، فهل من متطوعين؟

ساد الصمت هنيهة، قبل أن يشق صياح أحدهم من الصفوف الأخيرة:

- أنا لها أيها الملك.

بعد لحظة تبعه آخرون متشجعين:

- وأنا أيها المظفر.

- وأنا.

وتقدم خمسة شبابٍ، موفوري الصحة، ممشوقي الجسد على جيادهم. أشار لهم الملك على خريطة أبرزها في يده، بالسبيل لعبور النهر بالخيل في سلام. وأمام عيون القائد المتوترة، تقدم الفرس الأول، ليخوض في صفحة الماء ببطءٍ متهيب، ما لبث أن بدأت تخفت وتيرته، ويتشجع قائده فيخوض أكثر.. وأكثر..

---

[٦] حقيقة تاريخية.

وكان أن وصل الفرس إلى ثلث المسافة، وبرز عنقه القوي وصاحبه المتعلق بها في إحكام، من صفحة الماء، حين ارتجَّت الأرض فجأة بزلزالٍ مروعٍ، اضطربت له الصفوف، وتخبط الواقفون متعثرين.

ندَّت عن الجميع صيحات فزع، وحاولوا التشبث بأي شيء يقيهم. صهلت الجياد بقوة، وتحركت بعصبية متوترة. صرخ الشاب في الماء، وقد هوي قلبه بين قدميه، لكنَّ صرخته ضاعت في خضم زئيرٍ أشد وأعلى، صكَّ أسماع الجيش بأكمله، وارتجفت له السماء.

خفقت القلوب في ذعر، كان الزئير وحشيًا ومريعًا، وكان يصدر من قلب النهر!

(١٠)

فجأة تماوج الماء. اضطربت صفحته، واشتد لونه في قتامة حالكة. صرخ الملك بفارسه الاستطلاعي يأمره بالعودة من فوره. ارتبك الشاب حديث السن والخبرة، وفشل في السيطرة على حصانه. كان يصهل وقوائمه تضرب الماء بعنف، كان مذعورًا كصاحبه.

هتف أحدهم فجأة:

- انظروا هناك إلى آخر النهر!

التفتوا حيث أشار، فلم يجدوا شيئًا. صاح في رعب:

- وحق الله، لقد رأيت حراشف عملاقة تشق سطح الماء!

زادتهم كلماته هلعًا. استداروا جميعًا للشاب الذي لم يبق له الكثير على العودة لضفتهم. خفقت قلوبهم وجلة. هتفوا يستحثونه، جميعهم بلا استثناء.

كان هذا حين برز الفكان العملاقان رأسيًا من سطح الماء، لينطبقا في إحكامٍ مزق قلوبهم، على الشاب وفرسه، فيخفيهما تمامًا قبل أن يغوص بهما في الماء من جديد.

صرخ الرجال، واضطربت الجياد تصهل بعنف. أسرع البعض في عشوائية يعدو بفرسه تجاه المملكة من جديد، بينما شلَّت المفاجأة عقول وأطراف الباقين. أما من أوتي قليلًا بعد من الاتزان، فحاول أن ينظم الصفوف المضطربة التي أخذت تدهس بعضها محاولة النجاة.

كان الملك ضائعًا بين كل ذلك الجنون، ذاهلًا ومبهوتًا. هتف به قائده وهو يجذبه من ذراعه:

- أيها المظفر، افق بربِّك.. يجب أن نرجع حالًا.

ردد بصوتٍ مبحوح أشبه بالهمس:

- لقد قُتل المسكين!

صرخ:

- لا وقت لهذا الآن.. يجب أن نعود.

استدرك الملك نفسه. ازدرد ريقه وهتف بالناس:

- لـ.. ليعُد الجميع إلى (أنطاكيا) على الفور.. هيا، أسرعوا.

وإذ تلقت البقية الواقفة في لهفة، قرار الملك، استدار الجميع من فورهم، فرسانا ومشاة، هرعين كمن أصابهم مس، يتبعون من سبقهم إلى المملكة.

ودوّى الزئير ثانيةً، تلك المرة بصورة أعنف من ذي قبل.

ارتجت الأرض مرة أخرى، ومن وراء الجيش المنسحب، انتفض الوحش الخرافي بارزًا من قلب الماء، واقفًا على قائمتيه.

كان طوله هائلًا، ووزنه يقارب العشرة أطنانٍ ويزيد. جسده مغطى بحراشف بارزة كريهة الشكل، أشبه بحرابٍ مدببة. رأسه مستطيل صخري، ومن جانبيه، في موضع الآذان منها، برز قرنان هائلان أشبها بقرني ثور، لونهما أسود حالك، وأطرافهما مدببة. وانحفرت في ملامح ذلك الكائن أخاديد متقاطعة كالندوب، حمراء كالدم، أحاطت بزوجين من الأعين الصفراء الضيقة، المشقوقة طوليًا، والتي برزت في وجه الكائن بشع الخلقة.

فتح المخلوق فمه، وأطلق عواءً للسماء، خلع قلوبهم، ورجَّ به الأرض من تحت أقدامهم...

ثم انقض هاجمًا!

كان لديه ساقان خلفيتان، أشبه بجذعي شجرة في حجمهما وصلابتهما، بينما يداه الأماميتان ضامرتان، كضمور جناحيه الأسودين البشعين، على لوحي كتفه من الخلف.

بخطوة واحدة، وثب من النهر خارجًا، ليقطع المسافة، هاويًا على ضفته بدويٍّ هائل. وأطلق صرخة غاضبة، قبل أن ينطلق حثيثًا وراء الرجال المسرعين، حتى اجتاز المسافة التي قطعها الجيش متراجعًا.

انقض الوحش على مؤخرة الجيش، وهوى بفكيه عليها، فقبض في قضمة واحدة ما يقارب الستة جنود، التهمهم بينما يضاعف الباقون سرعتهم، ويلهبون جيادهم بالسياط وقد أعماهم الخوف.

كان الأمر أشبه بإنسانٍ بالغٍ يلهو بجماعة من النمل، معركة هي أشد صور الانتحار طرًا. ضرب بذيله الطويل عرضيًا، فطوح فرقة كاملة من الجنود في الهواء، قبل أن يلقيهم مكسوري الأطراف، مهشمي الظهر، هامدي الجثة.

كانت بقية الجيش في المقدمة، قد شارفت على بوابة المملكة، فيما خسروا بهجمتين فقط ثلث قوامهم. صرخ الملك يستحثهم على الركض غير ناظرين للخلف. بيد أنه هو نفسه لم يقدر على مقاومة التطلع وراءه، فهاله ما رأى.

كانت مؤخرة جيشه قد سُحقت!

متقدمًا على قائمتيه الخلفيتين، كان الوحش يطاردهم في إصرار، مخلِّفًا وراءه أجسادًا ممزقة، وأشلاءً ودماء، وجثثًا لفظها مفرغة الحياة. كان يتجاوز العقبات في طريقه، يطوح بالجند يمينًا ويسارًا بذيله، ويدبُّ بقدمه فيدهس منهم، وينقض قابضًا على غيرهم بفكيه.

كانت مذبحة حقيقية، تجاوزت فيها صرخات رجاله السماء، وأذابت عقله وكيانه كله. كان المسؤول عن كل تلك الدماء.

واصل بفرسه الركض وسط الجنود، ينهب الأرض نهبًا، ويستصرخهم لمزيدٍ من السرعة. كان المساكين يركضون وكأن ورائهم ألف شيطانٍ رجيم، حتى وصلوا جميعًا إلى بوابة المملكة. هنا تداركوا الكارثة،

فدخولهم جميعًا بهذا الرعب الجنوني، في بوابة لا تسمح بمرور رجلين بالكاد، وقبل أن يصل إليهم هذا المخلوق، كان أمرًا مستحيلًا بكل المقاييس. أدرك الجنود في تلك اللحظة القاسية من أعمارهم، أنه لا سبيل لنجاتهم.. سيموتون حتمًا تحت جدران (أنطاكيا)!

كان الحرس الواقفون فوق الأسوار قد التقطوا ما يحدث، وشراذم الجنود تهرع نحوهم في جنون، فأسرعوا يفتحون البوابة أمام الجيش العائد بعد أقل من ساعة، ساحبًا وراءه تلك الكارثة.

صرخ الضابط المسئول في حراسه، أن يلجئوا لخطة تأمين الأسوار، فأسرع الجنود المرتبكون، ينفذون تدريباتٍ طالما تلقونها دون أن تحين لحظة تطبيقها فعليًا، لكنَّ اللحظة حين أتت، باغتتهم دون أن يستعدوا لها.

انضم الجيش المتقهقر إلى الأسوار، ملتصقين بها، بينما انطلقت فرقة على الأسوار بأعلى، تصبَّ زيتًا داكن اللون ثقيل الكثافة، وبنسبٍ معينة، في فتحاتٍ محددة بالسور، فينطلق كالشلال صانعًا خيطًا طويلًا عرضيًا، سد الجهة الشمالية للمملكة.

وبرز الوحش في الأفق قادمًا ككابوس.

انسحبت الفرقة التي تولت القدور الفارغة للزيت، وحل محلها فرقة أخرى مسلحة بالأسهم المشتعلة. وانتظرت أمر قائدها الذي كان يشرف على دخول الجيش من البوابة، محاولًا ما أمكنه تنظيم الصفوف.

استدار إليهم القائد هاتفًا:

- استعدوا للإطلاق.

سحب الجنود أوتار أقواسهم في تحفز، منتظرين الأمر الأخير بالضرب. بأسفل، همس الملك لنفسه وهو يرقب كل ذلك بيأس:

- لا فائدة.. لا شيء سيوقفه!

كان يراقب جيشه يدخل من البوابة متضاربًا، يصرع رجاله بعضهم، ويخطو كل جندي فوق جسد رفيقه ليصل أولًا، وقد أعماه الخوف.

وكان الوحش يقترب أكثر فأكثر..

عاويًا كذئب ينهشه الجوع والغضب..

كانت الكارثة تنذر بمزيدٍ من الدماء.

«الآن!».

أطلقت الأيدي المتحفزة، المصوبة إلى السماء، العنان لأسهمها المشتعلة، لتحلِّق في الفضاء، قبل أن تتخذ طريقها للأرض، فتنهمر كالشهب على الزيت، لتشعل فيه نارًا تمتد بطول الخط، الذي صنع حاجزًا بين البوابة والوحش.

توقف المخلوق فجأة مرتبكًا، كانت النار تمثل له الغريزة الأساسية التي جُبِلَت على الخوف منها كل المخلوقات. لكنه، واقفًا أمامها الآن، كان يشعر بغريزة أكثر جنونًا في كل الحيوانات البرية على اختلاف أجناسها: الغضب الضاري.

كانت تلك الكائنات الضئيلة قد اجترأت على خوض سلطان مملكته ومساحة نفوذه، وكان لابد لهذا من عقاب.

أطلق زئيرًا مروعًا من جديد، واشتعلت عيناه بنيرانٍ وحشية. وأمام الأبصار المذهولة، وثب وثبة هائلة، اجتاز بها حاجز النار المرتفع في الهواء، ليدبَّ كهزيم الرعد على الأرض، مستقرًا على بعد خطواتٍ بسيطة منهم.

وهوت القلوب يائسة، وأيقن الجميع النهاية.

ازداد اندفاع بعضهم نحو الباب في جنون، وقد أزال الهلع كل مظاهر البشرية فيهم، وأطلق الخوف الكامن من محاجره، فأصبحوا كالحيوانات الضارية تنشب مخالبها فيمن حولها، من أجل الظفر بفرصة واحدة للنجاة. أما البقية الغالبة، فأدركت أن لا حائل بينها وبين الموت اليوم، فأسلمت له نفسها، وتهيأت بشجاعة للقائه.

أشهر الباقون سيوفهم، وتقدمهم الملك في بسالة حقيقية، وهو يتمتم بالشهادتين.

وتقدم الوحش ببطء، حتى لم يعد بينه وبينهم إلا خطوة واحدة.

زأر مكشرًا عن أنيابه، والتمعت عيناه البشعتان.

«توقف».

دوّت الصيحة مهيبة، بصوتٍ تردد صداه في أرجاء السماوات، فتسمَّر الجميع في مكانهم، لكن ما أثار تعجبهم لحظتها، هو توقف الوحش نفسه وكأنه فهم الأمر، واستجاب له صاغرًا!

«يكفي هذا.. عُد إلى النهر»..

أطلق الوحش زمجرة خافتة، لحظوا فيها رنة غضب جلية، وخاضعة لصاحبها. أو بالأحرى، صاحبتها.

هسَّ الملك من بين أسنانه:

- (إيليانا)!

حدجهم الوحش بنظرة، التمع فيها غضبٌ عات، لو أُطلق من عقاله لأبادهم عن بكرة أبيهم. ثم في النهاية، انبعثت منه زمجرة أخيرة، واستدار ليثب من جديد متجاوزًا الحاجز الناري، الذى كان قد بدأ في الخفوت تدريجيًا، لكنه استطاع أن يحجب الوحش خلفه عن العيون، فلم يتبد منه إلا ظلٌ مبهم وهو يبتعد، أحاطته غلالة من الدخان والحرارة، حتى اختفى تمامًا في الأفق.

انفجر الجميع مهللين من أعماقهم، متنهدين بالحمد والثناء على الله لزوال الغمة. لم يكن أحدٌ منهم يصدق بعد أنه مازال واقفًا على قدميه، سليمًا، وحيًا إلى الآن. وكانوا في شغلٍ بالنجاة، حين عاد الصوت ضاحكًا يجلجل في الفضاء:

- كانت تلك هديتي الأخيرة، هل راقت لكم؟

هتف القائد بغضب:

- أيتها الحقيرة!

أوقفه الملك بربتة على ذراعه:

- دع عنك هذا يا (سامر)، لقد انتصرت وهُزمنا.

ثم رفع عقيرته إلى السماء:

- (إيليانا).. أظهري نفسك ولا تختبئي في الظلال.

أطلق أحد الجنود من خلفه ضحكة مدوية:

- ظلال؟! إني ممزوجة بالظلال، يا زوجي العزيز.

استدار الملك مشدوهًا، فهتف جندي آخر بشماتة:

- لقد وعدتكم فصدقت، كان الأجدر بكم أن تلزموا مملكتكم الخربة.

وقال فارس عن يمينه:

- لقد أجدتُ اللعبة يا (جواد)، لا تنس ذلك.

كانت تتنقل بينهم كعاصفة.

صاح جندي:

- أنت المسئول يا (جواد)، أرواح كل أولئك القتلى في عنقك أنت.

وثالث:

- لقد أمرتك ألا تخرج لتبحث عن الصبي، فأبيت إلا العصيان. هاك جزاءك، فلا تلومنَّ إلا نفسك.

أصابته كلماتها في الصميم. أدمت قلبه، وأثقلت كتفيه بالهم والذنب. تهدج صوته:

- أريد ابني يا (إيليانا).. لا ذنب لي فيما فعله أبي.

صرخ جندي من يساره:

- الذنب كله ذنبك أنت، فلا تدَّعي الشهادة!

كانوا يحيطونه في دائرة محكمة الغلق.

- لكني...

صاح آخر من خلفه:

- قُضي الأمر يا (جواد). من الآن فصاعدًا ستتعلم كيف تنسى أنك رُزقت بصبي اسمه (بشر)...

وهمس الواقف أمامه مباشرةً:

- كما نسيتُ أنا.

ترقرقت عيناه بالدمع.

كان الجند يتعاقبون على الدخول عبر البوابة إلى داخل المملكة، فأخذ العدد يتناقص باطراد، حتى لم يتبق من حوله إلا (سامر)، وثلة من الجنود مِن أخلص رجاله. جاء الدور على القائد ليضغط على ذراعه قائلًا باشفاق:

- لنذهب أيها الملك.. لن يجدي بقاؤنا.

نزع ذراعه في قسوة:

- دعني. ليس قبل أن أسترد ابني منها.

وفي اللحظة التي تحرك فيها، حدث شيءٌ عجيب أمامهم: انقض عليه جندي في لمح البصر، متعلقًا بذراعه في استماتة، وتحرك ثانٍ بسرعة ليمسك بالذراع الأخرى، وثالث أحاط بخصره، وآخر طوَّق عنقه من الخلف..

ثم آخر..

فآخر..

تكالب عليه الجنود، وصرخ القائد محاولًا إنقاذه، لكنَّ المشعوذة لم تكن تريد قتله، مثبتة إياه بإحكام، في قبضة حديدية أصابعها من جنودٍ بشريين، التصق (جواد) بالأرض، تحت فيض من رجاله. كان يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة، حين مال عليه وجه أحد الجنود، منسحبة حدقتيه من عينه، لتظهر بدلًا منها صفحة بيضاء بشعة، ويهسّ كالحيّة:

- لن أكرر كلماتي مجددًا يا (جواد). من الآن فصاعدًا ستنسى أن لك ابنًا. بإرادتك أو رغما عنك. من اليوم هو ابني وتلميذي. ملكي وحدي. لقد احتجتَ لأصعب الطرق حتى تُدرك حجمك جيدًا: خارج أسوارك، أنت وجيشك وسحرتك، وحتى حراسك من الجن، كلكم بلا قوة أو قيمة. ولولا رحمتي لسحقتكم جميعًا تحت قدميّ، فتذكّر هذا ما بقي لك من عمر.

وشدد الجندي قبضتيه على عنقه متممًا:

- دماء رجالك في عنقك. أنت جررتهم لهذا. في كل مرة ستخرج فيها لتبحث عني سأكون موجودة، لأشاهد مذبحة جديدة لكم على يد حارسي. هاك لعبتنا إذن: ابنك.. أو شعبك، فاختر منهما جيداً.

وأطلقت على لسان جنديه ضحكة صاخبة وشامتة، ضاعفت شعوره بالوهن والعجز وقلة الحيلة. ولبثت تضرب أسماعه، حتى بدأت حدتها تخفت رويداً، ويسترد الجندي ورفاقه صوابهم من جديد.

وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يسمع فيها صوت (إيليانا).

في ذلك اليوم، عاد الملك وجيشه مكسوري الهامة، مطأطئي الرؤوس، مثقلين بالهم والانكسار والشعور بمرارة الهزيمة. واستقبلهم الناس تتنازعهم المشاعر، ما بين من شمَت، ومن بكى شهيده، ومن حزَنَ على مولاه المكسور والأمير الذي تأكد ضياعه للأبد. وعمَّت في أنحاء البلاد سرادق العزاء، الكل يبكي من ماتوا دون تفرقة بين بيتٍ وبيت.

وفي تلك الليلة، متكومًا في سريره يبكي كمدًا، تأكد الملك أن رحلته قد انتهت قبل أن تبدأ، وأن هذه كانت محاولته الأولى والأخيرة لاستعادة ابنه، أو حتى للبحث عنه.

لا سحر..

لا جان..

لا قدرات خارقة..

لا سيوف بتارة، ولا إرادة لا تنكسر..

منذ اليوم اختار شعبه قسرًا لا ابنه، فأي اختيار! وأي غدٍ قاتم بدايته هزيمة مذلة كتلك، لم يجر فيها صليلٌ لسيف، ولا قرقعةٌ لحرب!

«الملك المظفر!». قال لنفسه بسخرية مريرة وهو يعضُّ على شفتيه. «أي انكسارٍ أيها المظفر!».

الفصل الرابع

الانكِسار

١٨ عامًا لاحقًا ...

(١)

رفعت رأسها بحذر ترمق الطريق الغافي في ظلمة الفجر. يمينًا، يسارًا.. لا أحد.

تثبتت من سلاحها المعلق بخاصرتها، وأسرعت تعدو في رشاقة، تجتاز طرقات المملكة النائمة بوداعة غير عابئة.

وصلت إلى الأسوار.

* * *

«ألا لعنة الله على الظالمين!».

يتمتم وهو يسير مطرقًا. يرفع عينيه يتبين طريقه بعينين غشيتهما الدمعات، ثم يهز رأسه ويطرق أرضًا. يسحب حماره الوحيد بحبلٍ وراء ظهره وهو يستغفر الله، ويلهج بالشتائم على رأس الملك ورجاله، والناس أجمعين.

«ألا لعنة الله على الظالمين!».

كان راعيًا بسيطًا، يجد قوت يومه بمعجزة، ولربما كانت خِرافه أغنى حالًا وأطيب معيشةً منه وهي ترعى في خيرات الله، أما خيرات الملك فما كان أضناها عن الرعية من البشر. حين يفرغ من صلاته فجرًا يكون أول الخارجين من المسجد، وأول الساعين للرزق في طرقات (أنطاكيا).

يشتري زيتونًا وتمرًا، ويُخرج كسرات الخبز من منديله الملفوف بين طيَّات صدره، يفطر ويقصد وجه الله ذي الجلال.

يذكر صدر شبابه، حين كان فطوره عسلًا وجبنًا وخبزًا بالريحان والزعتر، غذاؤه لحمٌ وفاكهة، والشراب أنهارٌ في بيته. تلك الأيام المجيدة التي كان فيها أعظم مقامًا وأهم عملًا من رعي الأغنام!. كان يسكن ببيتٍ رحب فسيح، ويتحصل على أجره بالدنانير الذهبية لا الدراهم. الآن، وهو في أرذل عمره، يقضي يومًا بأكمله يقتات بفتات الخبز وبقايا غداء الأمس، ويتحصَّل على عشرة دراهم فقط، ويأبى حتى رجال الملك إلا أن يقاسموه فيها بالضرائب والإتاوات. الخير غاض، والرزق شحّ، وعيش الأيام الخوالي عزَّ دوامه بين الناس، فأي جدبٍ ضرب أوصالك يا (أنطاكيا)؟! ماذا فعل بك وجه الشؤم ذاك؟!

ينهق حماره من خلفه، فيمزق نهيقه قلبه، جيبه خاوٍ، والجوع شيطانٌ لا يعرف الرحمة. يتلقاه الناس بنظرات حسرة وإشفاق. ترن في آذانهم صيحاته في الميدان الفسيح أمس وهو يصرخ:

- والله لأخرجنَّ من أرضكم ما بقيت بصدري حياة. لعنكم الله جميعًا يا أولاد الأفاعي.

لا يجسر أحدٌ منهم على النطق. تفر من عليه نظراتهم، خجلى أكثر منها مشفقة، كانوا يلومون أنفسهم، كان بركةً لهم تذكِّرهم بالأيام الخوالي، فكيف يطيب لهم العيش بعد رحيله؟

«ألا لعنة الله على الظالمين!».

وكان أحد أولئك الظالمين هو السبب في مأساته.

* * *

كان يتجول نهارًا في دوريته الشرطية، فشاهدهم: راعٍ عجوز، وخراف تستثيره للأكل: شهية، ممتلئة، وافرة اللحم. جرى لعابه، وازدرد ريقه بصوتٍ مسموع. وعد رجاله بغداءٍ طيب، وتسلل من وراء الراعي، فوجد شاةً شريدة أجرت لعابه. أخرج قوسه وسدد سهمًا في عنقها فقتلها، وسحبها بمعونة رجلين من رجاله لأعلى التلة. ذبحوها وتناوبوا على لحمها بعد الشواء.

حين انتبه إليهم الراعي كان نصف الشاة يسكن بطونهم. جن جنونه، وتعلق برقابهم يريد بدلًا منها أو ثمنها. لجؤوا للقاضي وقصّوا عليه الحكاية، فبتَّ الرجل في أمرهم، وحكم بألا يحق للراعي فيها ثمنٌ أو قيض!

صرخ العجوز، وأرغى وأزبد على باب ديوان القضاء، فنصحه المخلصون أن سبيله الأخير هو القصر الملكي. لم يتمهل. هبَّ من فوره قاصدًا إليه. كان في كل مرة يقرب فيها جانب القصر، يتحسر على الأيام الفائتات، أيام كان القصر لا ينقطع خيره، وتحاطه عشرات البيوت والحوانيت كأنها تحرسه. اليوم ما أبعد الشقة بينه وبينهم، إذ أمر الملك القاهر بردم البيوت المجاورة للقصر، بداعي الأمن وحماية الأسرة الملكية من الخونة والأعداء. اليوم تشهد (أنطاكيا) خونة وأعداء، فسبحان من له الدوام!

واستمع الملك إليه، فضجر بحكايته، وصراخه، وشكواه برمتها. أمر باستدعاء القاضي والجندي ليقف على حقيقة الأمر. حكى الجندي أن الشاة كانت شاردة ووحيدة، فتعثرت بحجرٍ وتدحرجت إلى أسفل التلة مكسورة الساق، تنازع الموت من إصاباتها، فما كان منه إلا أن اضطر لذبحها، قبل أن تسلم الروح فتصبح جيفة حرامٌ أكلها.

- كانت أيها الملك، أعزكم الله، شرودًا بلا صاحب. تدبُّ على الأرض دون وجهة أو مقصد. هي منّة من الله وفضل، فهل يُرد لله فضل؟

- كانت ترعى بقطيعي يا خلق الله.. أنا راعيها!

- كانت جريحة وستموت، ولم أعلم أنها ملكٌ لأحد.

- أريد ثمنها. لا يملك صاحبها سواها. سيقتلني إن لم أدفع له.

قال القاضي بنفاد صبر:

- هو خطؤك وجريرة غفلتك، وما أخطأ الجندي فيما اجتهد، أما أنت وصاحبك فاذهبا كلاكما خصيمٌ للآخر».

- أيها الملك، بحق الله أنصفني.

لكنَّ الملك كان قد غادر المقام ضجرًا، صارفًا الجمع المحتشد بإشارة نافذة من يده. وانفض الجميع. ومال عليه الجندي حتى لفحت وجهه أنفاسه الثقيلة، وهمس:

- هاك درهمًا من عندي. الحق أنها كانت طيبة المذاق، لكنها غير ذات لحمٍ، فلَكَ الدرهم، ولنا نحن الله.

وابتسم في شماتة.

كانت نظرة طويلة رمقه بها الراعي، نظرة احتشد فيها الدمع والغيظ والقهر والحق المسلوب. سنواتٌ من الكبت تجمَّعت في تلك اللحظة الفارقة. ودون أن يعي ما يفعل، انقض عليه صارخًا متعلقًا برقبته، وهوى بأسنانه يقضم أذنه في جنون. هرع الحراس، الذين باغتهم ما حدث، إليهما. كانوا يوقرونه ويعرفون قدره، لكنهم كانوا يعرفون كذلك أن رؤوسهم ستكون ثمنًا لأي تخاذل قد يبدر منهم.

من براثن الراعي العجوز، المتشبث باستماتة، انتزعوا الجندي المثخن بالدماء، ينوح باكيًا، ويسدّ بيدٍ جرح رأسه، بينما الأخرى تحمل أذنه في راحتها. وانهالوا على الراعي المكلوم ضربًا بأقدامهم وعصيهم، حتى انفسخ على الأرض كرِمَّةٍ بالية. جرّوه جرًّا إلى خارج القاعة، وألقوه على طول ذراعهم على السلالم حتى استقر عند عتبات القصر مكوَّمًا مهدودًا.

ملقىً على وجهه، يُعفِّر جسده التراب، وتطيِّر الريح شعره وثوبه المرقع، رقد قرابة الساعتين، لا يقربه أحد ولا يجرؤ إنسانٌ على نقله أو حتى تحريكه. حين استفاق، كان الحرس قد نقلوا لمليكهم ما دار، فلبث مليًا يُفكِّر في عقابٍ صارم يردع به الرجل الذي بلغ منه الرهق ومن تصرفاته مبلغه. ذلك أن الراعي العجوز كان مقصد المظلومين طوال السنوات السابقة، وكثيرًا ما وقف بساحة الملك في شجاعة محذرًا ومؤنبًا غير آبهٍ لحياته. كان مشغولًا بالناس على الدوام، حتى وهو لا يجد قوت يومه. كان ملاذ من لا ملاذ له، وحماية مَن طرده أهله من حمايتهم. ولا ينسى أحد أي قامةٍ كان في العهد البائد، وأي منزلةٍ كان يحتلها في قلوبهم حتى اليوم.

هكذا، كان ما جرى اليوم فرصة الملك الذهبية للتخلص منه وإلى الأبد.

وتحير القاهر طويلًا في الأمر، يُقلّبه في نهاره وليله، دون أن يجد لمراده سبيلًا. لكنَّ زيارة مفاجئة بعد عدة أيام من حكيمه ومستشاره (جسّاس)، كانت كافية ليصل إلى حلٍ حاسم. همساتٌ خافتة أهدت القاهر في النزع الأخير من الليل، قرارًا أفزع المقربين قبل الكارهين.

أقرَّ الملك طرده خارج أسوار المملكة لحولٍ كامل!

كانت العقوبة من القسوة أن هوت كصاعقة على الناس، إذ لم يُوجد نظيرٌ لها قبلًا في المملكة. لم يُعاقَب بها أحد، ولم يوقعها ملكٌ أو قاضٍ على أحد. «ما يدور في المملكة يبقى بين جدارن المملكة». كانت تلك إحدى القواعد الثابتة التى تربى عليها الناس في (أنطاكيا)، عاشوا بها وماتوا عليها.

لكنَّ الملك القاهر فكَّر أنه لو كان قد فشل في شرائه، وفشل السجن، الذي ضمه أكثر من مرة، في إرهابه، فليس عليه إلا أن يبعده لعام. فقط عام واحد، إلى أن يستتب له الأمر، وبعدها لن يضير أن يعارضه هو أو غيره.

هكذا صدر مرسومٌ ملكي يقضي بأنه لا بقاء للراعي على أرض مملكتهم بعد اليوم، إذ أعلن عصيانه على حكم القضاء، وتعدّى على جندي من جنود البلاد، فصار خطرًا خليقًا بالإقصاء والنفي، ليكون عبرة لمن لا يعتبر. إن الملك القاهر قد حكم، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ألا تغرب

شمس غدٍ إلا وهو خارج أسوار المملكة. فمن آواه، أو أجاره، أو قدَّم له شربة ماءٍ واحدة، فللملك الحق في تقرير العقوبة الملائمة عليه، التي تبدأ بجلد الظهر، وتنتهي بالنفي معه!

وسمع الجميع، وسمع الراعي قبلهم. سار على غير هدىً، يقلِّب البصر بين الناس الذين أخذوا يتحاشون التطلع إليه، فضلًا عن الكلام معه. كان يوزع نظراته وابتسامة المرارة على من حوله، وقدماه تسوقانه دون وجهةٍ محددة، حتى ألفى نفسه بعد زمن في ساحة (الملك الأكمل) بقلب المملكة، عندها وقف يسدد نظراته للتمثال المنتصب في شموخٍ، لفترة طويلة. وخرج منه حديثٌ هامس، اختلط فيه الابتهال لله، بالعتب على الأكمل، باللعنات على حفيده القاهر. كانت الكلمات لا تتناهى لسمع أحد، لكنها ما لبثت أن استطارت واشتدت، وبدأت عقيرة الراعي في الارتفاع، حتى بات جليًا على مسامع الناس:

- أيها الأكمل...!

تعالت صرخته تهز الأرجاء، وتُفزع الطيور. وحطَّ على الناس الصمت في تلك اللحظة.

- أيها الأكمل، أتسمعنا عند ربك؟ هل أشهدك على حالنا من بعدك وبعد ولدك؟ هل أراك أي واقع مرير تردَّينا فيه بنسلك؟ ألا فانهض من الموت لتنتقم لنا. تلك رعيتك تستصرخك في كل ليلة، فلم لا تلبي ندائها؟ ألا غفر الله لك أيها الأكمل.

تحلَّق الناس من حوله، وجرت دمعاتهم ثخينة ومكلومة. صرخ بهم يفضُّهم عنه:

- ارحلوا. اغربوا عن وجهي يا أبناء الملاعين. تركتموني أشحذ طعام يومي ولم تبالوا، واستذلني القهر والهوان وغلبة الجوع فلم تكترثوا، واليوم أُطرَد من بلادي لأموت خارج أسوارها فتبكونني؟! أتكون نصرتكم لي بضع دمعاتٍ أرخص من تراب الأرض؟ وحق الله لو لم يكن بي إلا نفسٌ واحد لما زفرته خارج أرض بلادي، لكن أما وإن أنكرتموني، وقبلتم في عِرضي الذلة والانكسار فلا طاب لي عيشٌ بينكم بعد اليوم. والله لأخرجنَّ من أرضكم ما بقيت بصدري حياة. لعنكم الله جميعًا يا أبناء الأفاعي. لعنكم الله جميعًا.

وسار تردد الطرقات صيحاته حتى اختفى في الأفق.

وبقي الصمت.

حتم القضاء، وحمَّل الراعي حماره الوحيد بمتاعه وبقايا طعامه وزيَّه القديم. صلى الفجر حاضرًا، ثم خرج كما اعتاد دومًا قبل الجميع، ولآخر مرة، يجوب الطرقات في الضوء الواهن، مُلقيًا اللعنات والشتائم في سره على الملك وحاشيته وأهل (أنطاكيا) أجمعين، قبل أن ينهكه أخيرًا الحقد الذي لم يعرف الطريق إليه قبلًا، وتتسلل الشفقة لقلبه، فيستغفر ربه، ويبدل لعناته بدعواتٍ لأهل المملكة المساكين بالرحمة والغفران.

في الطريق اجترَّ ذكريات ماضٍ مات، ورؤىً غامضة لم يعد يتبين منها ما يبين. وذكر خاليًا الملك القاهر الذي رافقه صغيرًا، وعلَّمه ما لم يكن

يعلم. ذكر جبروته، وعنفوانه، وتمرده. ذكر، فيما ذكر، كيف دلّله أبوه حتى قست أخلاقه، وفسدت حاشيته، وسكنته الأنانية والجشع، فانقلب الحال لغير الحال، وسبحان من يغيِّر ولا يتغير.

* * *

يؤرخ الناس في (أنطاكيا) لبداية انهيار المظفر، بيوم غاب ولي عهده (بشر)، وهنت قوته، وضعفت سيطرته على مقاليد الحكم وشؤون المملكة. وحدث ما حدث يوم الخروج الأعظم، فاختل عقله أكثر بمن مات وتعلَّقت دماؤهم في عنقه. هكذا مضت أيام حُكمه في تخبّط وشتات، وهو يرى نسل أجداده وآبائه ينتهي عنده إلا من أملٍ وحيد: (نذير).

برحيل زوجه (هند)، بعد أيام من ضياع بكريها، عاف (جواد) النساء كلها، وقرر أن يهب حياته لطفله، جاعلًا منه ليس فقط ولي عهده القادم والوحيد، بل وأمل (أنطاكيا) بأكملها. على أن المقادير شاءت أن يأتي (نذير)، تعس الحظ، في تلك الفترة السوداء من عمر المملكة، التي انقلب فيها أبوه لحالٍ غير الحال، وعقلٍ ليس كذي قبل.

بغير إرادة منه، تلقَّى الفتى من أبيه تدليلًا لم يشهده ولدٌ في سائر (أنطاكيا)، منذ قيامها، وعلى ما عاش ومات فيها من أبناء. بالغ في حبه وحمايته بكل السبل التي خطرت على قلب بشر. أغلق المدرسة الملكية، وتعهد المعلمين والمربين، في القصر لا يخرج أبدًا، بتربيته على عهد الأقدمين، ونهج من سبقوه إلى الحكم. أقام ثكنة عسكرية في مقدمة القصر، مهمة جنودها الوحيدة حراسته من أي اعتداءٍ محتمل، وأضاف

إليها كتيبة كاملة مدججة بالسلاح، كانت طرقات القصر ترتج بجنودها في النهار والليل. وفي كل ليلة قبل نومه، وكأنها تعاليم مقدسة، كان يعيد على مسامع الصغير خطة هروبه كاملة حرفًا بحرف، إذا ما قررت المشعوذة أن تعود فجأة للمملكة بشرٍ جديد.

غير أن سنَّة الله التي لا تقبل تبديلا كانت أن يصيب الفتى ما يصيب أي طفلٍ يُفرط أهله في العناية به أو تلبية رغباته: رقَّ صوته، وطرى عوده، وفسدت أخلاقه، بعدما أراد أبوه أن يُنبتها بالرجولة والشرف، فأبدله مكانها أنانيةً وشرًا وسوء طوية. وتكرر فقدان الفتى لصوابه، وأَلِفَ الناس نوبات تمرده وطيشه، ثم عربدته حين بلغ عمر الشباب، حتى تبدّى بعد سنواتٍ طويلة أميرًا مستبدًا وطاغية، يأمر فيُطاع، ويتدخل في الحكم فلا يُخالف ولا تُرد له كلمة أو قرار.

وكان الناس قد عزموا أن تحيا ذكرى الأمير الأشرف في نفوسهم ما داموا أحياء، فاختاروا لولي عهدهم الجديد ذات اللقب، تمجيدًا لأخيه الراحل. بيد أنه، حين استوى عوده وحُكيت له القصة كاملةً، أنكر اللقب، وتشاءم منه، وقرر أن يخلع على نفسه لقب القاهر، ليكون قاهرًا للنفس والمُلك والرعية من تحته. وإذ تاه بلقبه الجديد، أطلق مناديه في الشوارع، يُعلمون الناس به، ويحذّرون من تسميته إلا بالقاهر (نذير بن جواد)، فتعاظمت له خشية الناس، وارتعدت بذكره الفرائص في ستر البيوت.

وكأن الأمير القاهر كان يستمد قوته من ضعف أبيه، فما كان ينقضى عامٌ إلا وجسده يشتد، بينما يذبل عود أبيه. وكان الناس اعتادوا على رؤية رجالهم وملوكهم يُعمِّرون في الأرض، ويدبّون عليها لما بعد المائة، لكن

في الوقت الذي كان فيه القاهر يحتفل بعامه الثامن عشر، ويمدّ في كل يومٍ قدمًا نحو العرش، كان المظفر الذي شارف الخمسين، تنهار صحته، وتهِنْ صلابته المعهودة، فيلزم الفراش، وتسوء حالته يومًا بعد آخر، وتؤول مقاليد الحكم، عن غير إرادة من الناس، للأمير الشاب.. حتى حين.

كان (نذير) ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يتمم فيه عامه الحادي والعشرين، فيعلن نفسه أخيرًا سيدًا على البلاد، ذلك أنه كان يعرف أن حُكمه واهٍ، وعرشه قائم على دعائم من ورق، ما لم يتم تنصيبه رسميًا، وبمباركة الحراس الثلاثة الشرعيين للمملكة. بلى، أطلق يده في (أنطاكيا)، ونزل بنفسه في الطرقات يجول بمواكب فخيمة، ولبس تاج الملك الأكمل، وقبضت يده على صولجان الملك الراشد، الذي كان بخزانة المُلك حتى علاه التراب.. لكنه كان بعد، في نظر الناس ونظر نفسه، الأمير الشاب.

أصدر قراراتٍ انفعالية، غالبًا ما كان يتنازل عن نصفها في اليوم التالي، بمشورة ساحره (جسّاس) رفيق الحكم. أمر بصكّ العملات باسمه ولقبه، ودعا له الشيوخ على المنابر باسم (الأمير القاهر نذير بن جواد). حَكَم وعيّن وسجن وقضى بين الناس، وأشاد بيوتًا وهدم أخرى، ومد الجسور والطرقات. ارتكب كل شيءٍ يدل الناس على سيدهم الجديد، لكنَّ كلمة واحدة كانت تهدم كل ما يفعل، وتعيده ثانية لحجمه الفعلي: ابن الثامنة عشر.. الأمير الشاب!

واليوم، وقبل سنواتٍ من بلوغ الميعاد، كان (نذير) يُدرك أن العقبة الوحيدة في سبيل العرش، ليست تلك الأعوام الثلاثة التي تُبعده عنه، ولكن

في تلك البقايا البشرية التي ترقد مريضة في حجرتها، بلا حول أو قوة، وبلا قيمة إلا أنها تُلقَّب بالملك الشرعي الحالي للبلاد!

* * *

حين لاحت له الأسوار من بعيد، غذّ السير ليصل بسرعة. كان يريد أن ينهي الأمر عاجلًا، لا تنفيذًا للحكم، ولكن ليغلب نفسه الأمّارة بالعودة، قبل أن يضعف عزمه ويغلبه الحنين فيقرر البقاء.

كان يمكنه أن يسترحم القاهر لأجل حياته. أن يتوسل بالناس، وبماضيه، لكي يبقى، غير أنه كان يعلم أنه لن يسكت ولو سكتوا. ربما خضعوا بقوة السيف، أو لأجل لقمة العيش التي يطعمونها أولادهم، لكنهم في النهاية ارتضوا، ولم يكن هو ليرضى إن رأى ظلمًا جديدًا يوقعه الأمير المأفون به أو بأحد. كانت المواجهة الأخيرة بينهما قد دنا أوانها، يدرك هذا، لكنه لم يكن يريد أن يأتي عليه زمانٌ يُشهر فيه سيفًا في وجه ابن المظفر، ليس ابن هذا الرجل بالذات.

وكان يسير وهو يتمتم مستغفرًا الله، ومستنزلًا لعناته على الظالمين من عباده، حين أتاه النداء من خلفه يستوقفه:

- عماه.. عماه، تمهَّل!

استدار عجبًا، فطالعه أجمل وجهٍ وقعت عليه عيناه في تلك المملكة، منذ وُلد بها وحتى اليوم: الأميرة (سلام).

كانت رشيقة القد، بهية الطلعة، رقيقة القسمات، موفورة الجسد في غير امتلاء. تماثلت لعينيه في ثوبها الملكي الأصفر، المنسوج بخيوط الذهب، كزهرة نبتت من باطن الشمس، لتتجلّى على الأرض أمامه. وتأملها بحنانٍ أبوي وهي مُقبلة، مسترجعًا صورة زوجته التي كانت تحبها كابنتها، فترحَّم على روحها وابتسم في شجن.

أسرعت الخطى نحوه، ووقفت وصيفتها (فيروزة) غير بعيدة عنهم. خضَّبت وجنتيها حمرة الانفعال، وهي تقول بحزن:

- أكنت تنوي فراقنا بغير توديع؟

- ما أردت ازعاجك يا (سلام)، فاغفري لي.

تنهدت:

- بل اغفر لنا أنت يا عماه. لم يكن أبي ليسمح بهذا لو كان...

وصمتت. ربَّت على كتفها:

- أعلم يا (سلام). لكني والله ما رحلت عن أرضي خشية أخيك، ولا تهيبًا له. إني لقادر على ردعه ولو لم أملك إلا يدي هاتين، إنما هو دينٌ أخير أردت سداده لأبيك، فما وسعني ذلك إلا اليوم وبتلك الطريقة.

- دَيْن؟ أي دينٍ يا عمي؟

- صنيعٌ من صنائع أبيك، قدمه لي يوم كنتُ فقيرًا لا يعرفني أحد. واساني بماله وشفاعته، وزوّجني بمن أحبُ يوم منعني الناس حتى أهلي. إني والله لا أنساها له قط.

ثم إنه قطب حاجبيه بصرامة قاسية، وردد من بين أسنانه:

- لقد جانبتُ أخاكِ طويلًا كيلا تتخضَّب يدي بدم ابن المظفر، لكني أعلم أني ملاقيه يومًا. والذي خلق السماوات والأرض، لئن مدَّ الله في عمري حتى أرجع (أنطاكيا) ثانيةً، وكان لم يزل في غيّه وفساده وظلمه للناس، لأقاتلنّه حتى يكون آخر يومٍ في حياة أحدنا.

وإذ لاح في وجهها الكدر والهم، وأطرقت أرضًا، أحس بالندم على ما قال، ولام نفسه. صمت لحظة قبل أن يردد مشفقًا:

- أعلم أنه قد ساءتكِ مقالتي يا (سلام)، ذاك أخوكِ مهما فسدت نبتته. لكنها (أنطاكيا) أيتها الأميرة.. (أنطاكيا)، هل تعين قدر تلك الكلمة؟ إنها أغلى عليّ من روحي، ولا أطيق أن أرى مكروهًا يصيبها، فما بالكِ لو كان من أجدر الناس بصونها؟ كيف أقبل ولو قَبِلَ الناس؟ والله ما كنتُ لو أدركت بها وبأهلها ذلًا ومنعني وفائي لأبيكِ.

لم تنبس (سلام). كانت تسترجع كل كلمة قالها، وتفكر أنه أصاب فيها تمامًا. كان ينطق بشعورها هي، بحيرتها بين الواجب ورباط الدم، وبإحساسها بالتمزق بين اثنين كلاهما يمتلك في قلبها نصيبًا غير هين، فكيف تُنكر عليه وعيده؟ واسترجعت ذلك الألم في قلبها كلما رأت طغيانًا من (نذير)، بينما تذكُر الأمانة التي طوّق المظفر عنقهما بها قبل أن يغيّبه المرض. حتى بعدما اعتزلت شؤون المملكة، ولاذت بالوحدة والصمت في خلوتها، كان ضميرها يأبى أن يدعها تهنأ بها.

وتنهدت من جديد لتطرد عنها أفكارها وهي تودِّعه، ربما لآخر مرة، فأجبرت نفسها على تجاهل ما قال حتى حين، ورفعت رأسها تسأله:

- أين سيكون مُقامك؟

- سأكون دومًا في الجوار أيتها الأميرة. لسنا سجناء أسوارنا فحسب، بل سجناء ذلك النهر الملعون أيضًا.

- تمهل اليوم يا عمي ولا ترحل، سأحدَّثه لأجلك، وعسى الله أن...

قاطعها بحزم:

- لن يحادثه بشأني أحد، سيقتلني العار قبل أن أقبل شفاعةً عند (نذير).

ثم أردف:

- إنه خطؤنا نحن يا (سلام)، ولو حنيت هامتي اليوم لذاك الصبي، سأضاعف الخطأ ألف مرة.

بدت الدهشة على وجهها، فأكمل:

- أتذكرين يوم قصصتِ علي رؤياكِ بشأن (بشر)؟

انقبض قلبها في لحظة. همست بخفوت:

- أنا أحيا بها كل ليلة يا عمي.

- رؤياكِ حقٌ أيتها الأميرة.

وتهدج صوته بانفعال:

- ما كان لأخيكِ أن يحكم قط في أرضٍ نشأ فيها الأمير الأشرف خير فتيان المملكة. لقد كان خطؤنا أن أسلمنا أرواحنا لليأس، ولم نحاول مجددًا أن نجد طريقة نعيده بها. كيف بحق الله كنا نريد أن نهزم (إيليانا)، ولم نستطع حتى أن نهزم خوفنا؟ خشينا على أرواحنا، ورضينا بالهزيمة من الجولة الأولى، وأبينا أن نستعيد مليكنا الشرعي، فعاقبنا الله بأسوأ بديلٍ عنه. والله لولا يقيني أنه سبحانه يأمرنا بدفع الشر، ولو كان بعض أقدار السماء، لأسلمت عنقي لـ(نذير) يفعل به ما يشاء.

وتعلق بمعصمها بيده المعروقة:

- تمسّكِي برؤياك تلك يا (سلام)، فبها سيعرف (بشر) طريقه إلينا.

رددت بحسرة:

- (بشر) ضاع يا عماه. ضاع للأبد. كان حلمًا وتبدد، تمامًا كأحلامي به نفسه.

- أخوكِ سجينٌ وليس ميتًا. ربما لا نعلم أين مقامه، ولا كيف السبيل إليه...

ثم أشار إلى الأسوار البعيدة:

- لكنه هناك، هل تفهمين؟ خارج تلك الأسوار، ثمّ وجه أخيكِ، فتذكري هذا جيداً.

- وماذا عنك يا عماه؟ من يذكرك أنت؟ كيف ستحيا وحدك خارج الأسوار؟

وأتبعت برنّة خوف:

- ألا تخشى ذلك المخلوق في النهر؟

«بحق الله يا (سلام)، لماذا تنكئين هذا الجرح؟». ردد في نفسه ويده تعصر رأس عصاه. قال دافعًا رؤىً شنيعة عن ذاكرته:

- تلك اللعنة لا تصيب إلا من أراد اجتياز النهر للعالم الخارجي، أما من يقيم بعيدًا فلا أحسب أنه يقربه بسوء. منذ سنوات وإلى الآن لم يتعرض لنا، ولم يره أحد منا ثانيةً، لأننا لم نقرب سلطانه.

- لقد تعمَّد (نذير) ذلك يا عماه. أرادك ألا تحيا وحيدًا عامًا كاملًا مع قسوة العيش فقط، بل أن ترى الخوف في كل ليلة وتتعذب به. أنا أشد الناس درايةً به، إنه داهية أريب.

- هو في عيني أضأل من ذلك بكثير يا (سلام)، فلا تخلعي عليه قدراتٍ ليس ببالغها. إنه بشر يخاف ويحزن، ويصيبه ما يصيب الناس من وهنٍ ومرض. إن أدرك الناس أن الطاغية ليس إلهًا يُحيي ويُميت بمشيئته، لما كان على الأرض طاغية يتنفس بعد.

ومال عليها مردفًا بإيمانٍ عجيب:

- أخوكِ سيعود يومًا يا (سلام)، أنا موقنٌ بهذا. لا أعلم متى، ولا كيف سيهتدي إلينا، لكنه سيجد طريقه ويعود مطالبًا بحقه في العرش. كل ما علينا أن ننتظره فحسب، وسيعود.. يجب أن يعود.

وحانت منه نظرة للسماء، فتراءت صافية ممتدة في اتساعٍ لا حدود له، يتوهج فيها شعاعٌ من شمس الضحى البارزة على استحياء. ملأ صدره بأنفاسٍ نقية وردد:

- انتهت الليلة، وانقضى مُقامي هنا.. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

ترقرقت في عينيّ الأميرة الصافيتين دمعة حاولت مغالبتها، وخشى هو أن يخدش كبريائها بالبقاء فتنحدر أمامه. انشغل بعقد لجام حماره في يده، قبل أن يستدير متابعًا سيره في جد.

«إلى اللقاء يا عماه. لا غفر الله لمن فعل بك هذا!». همست لنفسها.

عند الأسوار تلقَّاه الرجال صامتين في انكسارٍ تجلّى في العيون. وتشاغلوا بفتح البوابة، ليخرج عددٌ منهم يساعدونه في نصب كوخه الخشبي قريبًا منها. فيما تسلل اثنان منهم في غير انتباهٍ من البقية، أو من الناس المتحلقين عند البوابة، بصندوقٍ خشبيٍ كبير، جمعوا فيه أطعمة مختلفة، وتمرًا وخُضرًا وكساء، وبذورًا يزرعها ليأكل من حصادها، فأخفوه خلف شجرة عريضة الجذع، حتى ينتهي البناء. كانت الأوامر التي تلقوها ليلة أمس، أنه بخروجه من الأسوار فلا عودة له أبدًا إلا بانقضاء عقابه. لا يُسمح له بدخول أو حتى اقتراب من البوابة، ولا يمدّه أحد بشيء من طعام أو شراب، أو عون من أي نوعٍ كان. كان ذلك يعني أنه من لحظة خروجه، فقد انقطع دابره عن مملكتهم حتى ينتهي العام، أو يقضى الله أمره في حياته، فلا يخرجون إلا ليعودوا بجثته لدفنها في مقابر المملكة!

انهمر الدمع غزيرًا، وانتحبت النساء كأنهن يشيّعونه إلى قبره، واعتصر الألم قلوب الرجال العاجزين، فقالوا ما العمل واللسان أضعف من أن يصرخ رافضًا؟

وانقضى الصباح والحراس يثبِّتون قواعد الكوخ الخشبي، ويقيمون جدرانه وسقفه، حتى طلعت الظهيرة وقد تم الأمر، وانتصب الكوخ شاهدًا على جُرمٍ سيظل محفورًا في القلوب طويلًا. وغمر الراعي (أنطاكيا) بنظرة أخيرة، تدفقت بالحنين والاشتياق واللهفة للمُقام. وتوقفت نظراته عند الناس، غير أنه في سكرة الحزن لم يُرِدْ أن يكون آخر عهده بهم، إن قضى الله أمره فيه يومًا، نظرات لومٍ أو غضب، لذا، ومن عجبهم، تبسّم لهم مواسيًا، وارتفع صوته يخرق السكون الذي ملأ الساحة، وفاض على الرؤوس:

- أستودعكم الله. اذكروني بخير، وسنلتقي إن شاء الرحمن بعد عام.. إن لم يُرِدْ الله غير هذا بدلًا.

وألقى عليهم آخر نظراته، وهو يرفع رأسه بكبرياء، قبل أن يسحب حماره خارجًا في هدوءٍ ووقار. في تلك النظرة الأخيرة لمح الناس بعضًا من هيبة وشموخٍ قديم، وتخايلت لأعينهم صورته البائدة التي وطأها الفقر والجوع، ورثاثة الثياب، وانحطاط الحال. صورة كانت يومًا لقائد شرطتهم القديم قبل عزله، (سامر).

(٢)

رفعت رأسها بحذر ترمق الطريق الغافي في ظلمة الفجر. يمينًا، يسارًا.. لا أحد.

تثبتت من سلاحها المعلق بخاصرتها، وأسرعت تعدو في رشاقة، تجتاز طرقات المملكة النائمة بوداعة غير عابئة.

وصلت إلى الأسوار.

رغما عنها أصابت قلبها رجفة، وانتابها شوقٌ مبهم، يستحثها على العودة، ويغريها بأمان جدران القصر. وقفت تحت الأسوار تلتقط أنفاسها المتلاحقة، ولبثت مترددة برهة.

* * *

لاح شبحٌ في شرفة القصر، يتحرك متوترًا، ويدور في رحابها بعصبية، وهو ينظر بين حينٍ وآخر إلى الحديقة الفسيحة بأسفل.

فاق الحب الحدود. الآن بات جنونًا.إن رآهما أحدٌ، لن يكون العقاب أقل من قطع رأسيهما معًا!. كان القمر محاقًا، والحديقة مظلمة. قمم الأشجار تواري الكثير، والقناديل في الثلث الأخير من الليل تذوي شعلتها أو تكاد. كان كل شيء يتضافر ليسدل ستره عليهما، لكن لشدّ ما كانت خائفة.

أخيرًا بدا ظله يتحرك من بعيد، فخفق قلبها هوىً وقلقًا.

كان متوسط القامة، نحيلا، رشيق الحركة. رأته يبرز مستترًا من خلف حارسين غافلين أخذا يتسامران، وأسرع يتعلق ببروزٍ زخرفي بالجدار، وتحفَّزت عضلاته لرفعه. جعل يتنقل من موضعٍ لآخر كقرد. يتعلق بإفريز كوّة، ويثب عن سور شرفة، فيثب معه قلبها. كان حبها الأول، ولعلَّه يوم زواجهما يكون الأخير.

ارتقى سور شرفة الأميرة، فمدَّت له يد العون. حين استوى واقفًا تألقت ملامحه بمزيج من الوجد والرغبة. هتفت به بغضب هامس:

- لقد جُنَّ عقلك حتمًا يا (نواس)، أتدري عاقبة ما تفعل؟!

رد بسماجة:

- سيجبرونا على الزواج.

- بل سيذبحنا جلاد الملك يا أحمق!

تحسس عنقه بلمسة بادية الخوف، لكن سرعان ما غلبته نيرانه، فقال متجاهلًا:

- لا يضيرني ذلك...

وجابت عيناه جسدها الملفوف:

- ما دمتُ سأموت وقد شبعت من وصالك يا (فيروزة).

ضربته في كتفه بلهجة خابت في اقناعها هي:

- آهٍ منك، تفكر دومًا في شوقٍ ووصال، ولا تحسب لعاقبة الأمور.. يا لك من فاسق مجنون!

كادت أن تتفلَّت منه ضحكة، فأسرعت تكتمها بكفها، وهي تُنصت خشية أن يكون أحدٌ في الجوار. زجرته بعينيها، فسألها هامسًا:

- أين الأميرة الساعة؟

ردت باقتضاب:

- في خلوتها.

ثم متداركة:

- لكنها قد تكون هنا في أي لحظة، فأرجوك ارحل الآن.

- الآن؟ هل جننتِ؟ أتعلمين ما خاطرت به لأجل مجيئي لرؤيتك؟

تلفتت حولها قلقة ولم ترد. كانت تريده، وهو يعلم لا مراء، غير أن الخوف كان يلجم عقالها ويكبت بعض رغبتها.

قالت بتوتر:

- إذن ليس هنا. اتبعني، سنجد غرفة أخرى.

برقت عيناه وهي تسحبه من يده ليدلفا إلى الداخل، قبل أن تداريهما الستائر الثقيلة الموشاة بورودٍ حمراء كالنار.

* * *

كانت الحجرة واسعة وعارية، لا يقطع جدرانها كوّة أو نافذة. حوائط مُصمتة بلا رسم أو شكل، خلت إلا من باب صغير خشبي في أحد الأركان، لا تكاد العين تنتبه إليه. وتلألأت الحجرة بأضواء أربعة مشاعل، حُفر كلٌ منها على رأس أحد جدرانها...

أما في قلب الحجرة فكانت هي.

تركع على ركبتها، مستندة بقبضتيها معًا على مقبض سيفها المغروز في الأرض، حانية رأسها، تتنفس بعمق.

هبَّت دفقة من نسيمٍ مجهول، أطفأت المشعل الأول، فانتبهت غرائزها. انقبضت يدها وقلبها في نفس اللحظة. من خلفها، في قلب العدم، تناهى الخوار البربري، ثم برز ذلك الشبح الأسود يتبعه: عملاقٌ مديد الجثة، بسيفٍ باتر مخيف، يقطر دمًا. كان مريعًا في ملامحه، دميم الخلقة، عيناه الحمراوان تتوهجان كالعقيق في وجهٍ حُفرت فيه التشوهات.

أشهرت سيفها، وتجهَّزت للدرس الأول.

انقض العملاق عليها بالسيف مطلقًا صرخة هائلة، يرتجف لها أشد الرجال بأسًا. تلقَّت الضربة الأولى بسيفها في جَلَد، أكسبها ثقةً في داخلها، غير أن العملاق كان كالمينوتور[٧] في حجمه واندفاعه، لا يرى ولا يتمهل.

[٧] المينوتور: كائن خرافي، نصف رجل ونصف ثور، حسب الميثولوجيا الإغريقية. حبسه مينوس ملك كريت في قصر التيه، وهي متاهة صُممت خصيصًا لاحتجازه. وفرض الملك على أهل أثينا إتاوة من سبع عذارى وسبعة شبان ليقدِّمهم للوحش كل تسع سنوات، واستمر هذا حتى استطاع البطل الأثيني ثيسيوس قتله في النهاية.

انهال عليها بسيفه ضربة تلو أخرى. يهوي يمينًا ويسارًا. يطوّح وصرخاته ترجُّ الحجرة وتصمُّ آذانها. كانت تذيب أعصابها حرفيًا.

لفترة حسبتها دهرًا، كانت تتلقى فقط الضربات. تصدُّ بالكاد واحدة، وتتفادى أخرى، لكن السيل المنهمر عليها كان أكثر من قدرتها على الصمود. بدأت تشعر بالخدر يدبّ في يدها، وأعصابها تتراخي ببطء. كان لابد أن تجد خطة بديلة غير الدفاع.

رفعت سيفها تتلقى ضربة عاتية كادت تطيح برأسها. مالت بركبتها على الأرض، وبحركة سريعة قبضت على حفنة من رمل الحجرة وقذفتها في وجهه. هاج مغضبًا وهو يحمى عينيه بيده، فأسرعت تنتهز الفرصة وتضربه بنصل سيفها ضربة مدروسة جرحته وأسقطت السيف من يده. وبجرأة اندفعت تطعنه بسيفها طعناتٍ محكمة في فخذه وكتفه وصدره، وهو يصرخ متراجعًا يحاول دفعها عن نفسه. ثم إنها قفزت تتعلق برقبته، وتدور بحركة رشيقة حول جسده لتعتلي كتفيه، وتحكم ساقيها حول عنقه. مد يده خلف ظهره قابضًا عليها وهو يخور، فيما كانت عيناه يزداد ألقهما الأحمر، والألم يحرقهما. بحركة مباغتة تراجع للخلف، فدهسها في الجدار بعنفٍ جعلها تتأوه. كادت أن تسقط. تقدم خطوتين قبل أن يرجع مترنحًا كدبٍ جريح إلى الجدار، محاولًا ضربها من جديد. أدركت أن تلك الضربة ستقسم ظهرها إن نجح. رفعت سيفها عاليًا بكلتا يديها، وغرزته مرة واحدة وبقوة في مؤخرة عنقه. تجمد العملاق في مكانه، وتحشرج صوته وهو يترنح، والدم يتفجر من رقبته، قبل أن تخفت قبضته على ظهرها، ويتعثر

خطوتين ثم يميل كجدارٍ منقضّ على الأرض. قفزت عنه في اللحظة الأخيرة، وتدحرجت أرضًا قبل أن تستقر راقدة تلهث.

ساد الصمت للحظة، قبل أن يفاجئها تماوج جلد العملاق، الذي بدا كقدرٍ يغلي بما فيه. برزت عنه بسرعة دمامل وثآليل بشعة، أخذت تفور وتضطرب، كأنها مخلوقاتٍ تطفر تحت جلده تريد التحرر.

زحفت للخلف متهيبة، يدق قلبها بعنف، والخوف يجتاحها. فجأة، انفجر جسد العملاق، لتنطلق منه، في مشهد أكثر رعبًا من كل كوابيسها، عشرات الأفاعي والعقارب والعناكب، وحشراتٍ أخرى سوداءٍ ضخمة لم تميزها.

وانقض هذا الجيش الزاحف عليها.

تراجعت للخلف حتى التصقت بالجدار، وبكل رعبها أطلقت صرخة مدوية.

«قاتلي بعقلك لا قلبك إن أردتِ النصر. اهزمي الخوف يا (سلام). تذكري درسك الأول».

دوّت الصيحة في فضاء الحجرة، فازدردت ريقها، وثابت لرشدها بعد لحظة شلّ الخوف فيها عقلها، وكاد يفقدها الصواب. لكنَّ حواسها تحفزت لصوتٍ أثار رجفتها. التفتت يمينًا، فالتقت عيناها بعينيّ تلك الكوبرا التي وقفت منتصبة قبالتها، تفحّ وذيلها يتراقص مُطلقًا صوتًا كالجرس. هسَّت الحية وهي تتراجع بعنقها، قبل أن تنقضَّ عليها بأنيابها، لولا أن أسرعت تهوي عليها بالسيف، لتفصل رأسها مطوحةً به بعيدًا.

شعرت بحركة عن يسراها فاستدارت بسرعة، لتقابل أصلة عملاقة، لم تعرف كيف حواها جسد ذلك المخلوق الراقد!. انقضّت برأسها تريد تطويقها، فانحنت مسرعة لأسفل بحركة رشيقة، دفعتها لها غريزتها، ورفعت سيفها لتدفع بنصله لأعلى في عنقها فتغرسه فيها. كان ذلك حين تعلَّق عقربٌ مصري بساقها، فصرخت وهي تركله لتزيحه عنها.

كانت مقاتلة شجاعة، لم تعرف الخوف طوال فترة تدريبها، ولطالما واجهت مخاطر، وخضعت لتحديات، لا يقوى على تجاوزها فارس عتيد. لكن برغم ذلك كان الخوف الآن يشل حواسها ويعطل عقلها تمامًا، ذلك أن الأفاعي والعقارب كانت أشد مخاوفها سرية، وأكثر المخلوقات بشاعة في نظرها. والآن في تلك الحجرة، كانت تتعرض بسببها لموجة جارفة من الهلع، تلجم ردة فعلها، وتدفع مخاوفها الدفينة لتبرز إلى السطح، فتردَّها طفلةً تكاد تبكي رعبًا وتبحث عن أمها لتحميها.

ازدادت الزواحف انتشارًا في الحجرة، واندفع سيلٌ أسود من مئات الحشرات متباينة الحجم، من قلب العملاق الذي ذابت جثته تمامًا تحت هذا الطوفان. تراجعت أكثر فأكثر حتى التصقت بالجدار، وأخذت تطوح يدها يمينًا ويسارًا بالسيف، تمزق جسد الأفاعي، وتدفع العقارب بعيدًا، بينما قلبها يكاد يتوقف. وجالت برأسها فكرة مباغتة، أرادت أن تضعها فورًا موضع التنفيذ، لولا أن لمحت فجأة وجه (بشر).

للوهلة الأولى، وبدون أن تعي حقيقة ما يحدث، ظنَّت في عقلها الجنون. غير أنها لم تكن تتوهم.. كانت تراه فعلًا!

واقفًا عند الباب المغلق، بثوبه الملكي وشعره الناعم القصير، وملامحه التي انحفرت في أعماقها منذ آخر ليلة رأته فيها. كان لم يزل بعد ابن العاشرة!

«(سلام).. انتبهي!».

انطلقت الصيحة من جديد، فانتفضت. اختفى (بشر) عن ناظريها، في نفس اللحظة التي أنشبت فيها تلك الأفعى السامة أنيابها في ساقها. أطلقت صرخة ألم عالية وسقطت أرضًا تمسك بساقها التي تنزف..

وفي لحظة غمرها سيل الثعابين والعقارب.

هبَّت دفقة من نسيمٍ مجهول، أخمدت المشعل الثاني، واختفى كل شيء: جثة العملاق الممزقة، العقارب، الأفاعي، بقايا الحشرات. وساد السكون للحظة، فقط لحظة، لم تنتهِ حتى انفجرت عينٌ من الجدار المقابل لـ(سلام)، ثم عينٌ مجاورة لها.. وأخرى.. وأخرى.

وجعلت العيون تتفجر من الجدران، بينما (سلام) تقف متهالكة، تدور حول نفسها، ترقب ما يحدث وهي تلهث بقوة. فجأة، اندفعت عشرات الحبال من تلك العيون، انطلقت كخيوطٍ شيطانية مقززة، أحاطت بذراعيها، وخصرها، وساقيها، والتفَّت في إحكامٍ خانق حول جسدها كله، حتى صارت كحشرة واهنة، غزل حولها عنكبوتٌ هائل خيوطه فلم تستطع الهرب.

من إحدي العيون التي برز منها حبلٌ أحاط بخاصرتها، إنطلق لسان من اللهب يجري بطول الحبل، حتى وصل إليها، قبل أن يعقبه لسانٌ في حبلٍ آخر، ثم آخر، حتى اشتعلت كل الحبال حولها.

أطلقت صرخة عالية، وهى تحاول التفلت بجنون من خيوط النار الكاوية للحمها. كانت تتلوى محاولة الفكاك، شاعرة بألم فظيع يجتاح بدنها. غير أن النار نفسها، من عجبٍ، لم تنشب في ملابسها أو حتى تحرق جلدها، بدا وكأن ألمها الذي يعصف بها خفيًا!

كانت تدور حول نفسها بجنون، وصرخاتها لا تنقطع، تبحث عن سيفها الذي سقط منها أرضًا، لكنها لم تستطع الوصول إليه مع إحكام الحبال. مدّت يدها بسرعة لجراب ساقها، لتنتزع منه خنجرًا مدبب النصل، وبسرعة دون تفكير قطعت أقرب الحبال لمتناولها، فأفزعها ذلك الصوت الذي أصدرته الحبال كلها في نفس اللحظة: كانت تفحُّ كالحيَّات، وسقط الحبل المقطوع أرضًا يتلوّى لثانية، قبل أن يسكن ويذوب على رمال الأرض.

بسرعة شرعت تقطع الحبال واحدًا تلو الآخر، فتعالى الفحيح أكثر فأكثر، وسقطت الحبال المشتعلة أرضًا تتلوّى، قبل أن تذوب تمامًا مخلّفة وراءها دفقة من دخانٍ تبدد في فضاء الحجرة.

كان الألم لا يزال يغزو جسدها، لكنَّ نشوة انتصارها المؤقت جعلها تتغافل عنه، وتشعر بالرضى لحسن تصرفها، إلا أنه صدمها انطلاق عشرات

الحبال الجديدة، وبصورة أكثر من ذي قبل، تحيط بها لتذيقها ألمًا مضاعفًا.

«مهما عظم جُرحكِ سيندمل في النهاية. اهزمي الألم يا (سلام). تذكري درسك الثاني».

كانت تقطع حبلًا فينطلق بدلًا منه اثنان، وهي تواصل الضرب يمينًا ويسارًا. تلهث، ويتصبب جسدها وجبينها بعرقٍ غامر، ألهبته نيران الحبال وحرارة الحجرة الخانقة. وبدأ الإعياء يبلغ منها مبلغه. النيران تضطرم، والحرارة تزداد بجنون، وذلك الألم القاتل لا يلين أو يتوقف.

كانت تتهالك بكل المقاييس.

ضربت حبلًا أحاط بساقها اليسرى، وهي تكاد تسقط من التوجع. كانت الرؤية أمامها تغزوها الظلال، وبصرها تغشاه غلالة من دخانٍ ولهيب، وإرهاقٍ يمتص الحياة من عروقها. كانت آلام جسدها الآن تتحول لعشرات الإبر القاسية التي تضرب فيها. لدغات نحلٍ تنتهك بدنها الغض، فتعقب الوخزة بديلتها بسرعة، ولا تترك لها لحظة لتلتقط أنفاسها.

وانطلق حبلٌ مفاجىء أحاط بعنقها بسرعة، ليشل حركتها ويجعلها تتوقف للحظة كانت كافية لأن تتمكن منها خيوط الجحيم تلك، فتحيط بجسدها كله، وتبثُّ سيلًا من الألم أطلق حنجرتها بصرخة حادة ارتجت لها الحجرة. وسقطت الأميرة أرضًا متكومة، تغمرها النيران الزرقاء.

هبَّت دفقة من نسيمٍ مجهول، أحاطت بالمشعل الثالث فأطفأت جذوته، واختفت معه الحبال المشتعلة، وشقوق الجدران. وخيّم الصمت من جديد.

لبثت على الأرض تلهث بعنف، وينهمر العرق غزيرًا وساخنًا من جبينها، ومن كل موضع في جسدها المنهك.

كان هذا قبل أن ترتج الحجرة من جديد، فيهوي قلبها.

كإعصارٍ انفجر بغتة في فضاء الحجرة، ارتجَّت الجدران بعنفٍ أقوى ألف مرة من سابقه. تزلزلت الحوائط والسقف، وانبثق أخدود من صلب الأرض، بدأ كقبضة يدٍ، لم تلبث أن أخذت تتسع وتتسع، حتى قسمت الحجرة إلى ضفّتين تباعدتا بدويٍ هادر.

وعلى وجه (سلام) تراقصت تلك الظلال الحمراء، فأيقنت، وقبل أن تنظر لأسفل، أي هول ينتظرها. كانت نهاية الهوة هي الجحيم ذاته!

أخذ الشق الأرضي يتمدد كثعبان، والجدران ترتج، والهوة تفغر فاها، لتتقد في قلبها الحمم البركانية، مطلقة هديرًا صاخبًا كأمواج المحيط يتجمد له الدم في العروق.

تراجعت (سلام) للوراء وهي تتلمس طريقًا وسط هذا الجنون.

«كل خطرٍ مهما بدا هينًا يمكنه سحقكِ إن أيقنتِ فيه الهلاك. اهزمي الشك يا (سلام). تذكري درسك الثالث».

دوّى النداء الجديد، فجعلها تنتفض. هتفت تلك المرة بأقصى ما أمكنها:

- لن أقدر.. سأموت!

لكن في اللحظة التي أتمَّت فيها جملتها، رأته!

أمام عينيها المذهولتين، كانت تبصره من جديد، تتشبث أصابعه بحجرٍ في جدار حافة الهوة المقابلة. كان يستغيث بها أن تنجده. صاحت بلوعة:

- (بشر).. لا.

لم تقدر على تصديق ما يجري أمامها. هتفت في أعماقها أنه هذيانٌ لا شك، غير أنه كان حقيقيًا كذاتها، ليس وهمًا ولا خيالًا. الطفل (بشر) الذي حلمت به كل ليلة، لثمانية عشر عامًا. ذات العينين، ذات الملامح، ذات الملابس. لكنه هذه المرة، يطالعها بإحساسٍ غامر بالفزع ينحفر في وجهه، لم يتجلّى حتى في ملامحه يوم رحل عنهم قسرًا. غطت وجهها بكفيها:

- مستحيل.. لا يُمكن أن يكون حقيقيًا.. لا يُمكن أن يكون حقيقيًا.

لكن حين كشفت عينيها من جديد، كان بعد هنالك. صرخ بها:

- (سلام)، لا تتركيني هنا. ساعديني. سأموت.

كان صوته، صوت حبيب طفولتها ورفيقها، محطمٌ لأعصابها. كان يواجه الموت أمام عينيها للمرة الثانية، ولم تكن لتقدر على تحمل هذا.

ألقت نظرة على الهوة..

رفعت عينيها إليه في الناحية الأخرى..

كان القرار في لحظة.

بجسارة غير عابئة بالخطر، وبلهفة حقيقية تسلطت عليها، تراجعت قليلًا إلى الحائط من خلفها، ثم انطلقت مندفعة، لتثب بأقصى قدرتها وثبة

واسعة نحو الحافة الأخرى. في وثبتها تلك، وضعت كل الخوف والألم واللهفة، كل ما أرادت أن يعود بها الزمن لتفعله يوم سُرق (بشر) من بين يديها، كل مشاعرها. كانت وثبتها قوية، اجتازت بها المسافة الفاصلة بينها وبين أخيها..

لكن الهوة كانت لم تزل أوسع!

على بعد ذراعٍ واحد من الحافة توقف اندفاعها. لم تصلْ يدها لشيءٍ تقبض عليه. في جزء من الثانية حاولت التمسُّك بشيء، أي شيء، لكنَّ يدها لم تجد إلا الفراغ. هوت إلى الجحيم المضطرم من تحتها، ورددت الجدران صرختها الأخيرة.

هبَّت دفقة واحدة ونهائية، قتلت جذوة المشعل الرابع، ومعها تلك المرة اختفى كل شيء تمامًا من حولها: الأخدود الأرضي، الجحيم، (بشر).. الحجرة بأكملها.

قبل أن تفقد وعيها، كان آخر ما رأته نورٌ خاطف، لمع على ملامح جميلة وهادئة لوجهٍ تعرفه جيدًا، حاولت التشبث به قبل أن يختفي، لكنه كان قد ذهب، ولم يبق إلا الظلام.

(٣)

رفعت رأسها بحذر ترمق الطريق الغافي في ظلمة الفجر. يمينًا، يسارًا.. لا أحد.

تثبتت من سلاحها المعلق بخاصرتها، وأسرعت تعدو في رشاقة، تجتاز طرقات المملكة النائمة بوداعة غير عابئة.

وصلت إلى الأسوار.

رغما عنها أصابت قلبها رجفة، وانتابها شوقٌ مبهم، يستحثها على العودة، ويغريها بأمان جدران القصر. وقفت تحت الأسوار تلتقط أنفاسها المتلاحقة، ولبثت مترددة برهة.

تنازعتها المخاوف، وأفعمت عقلها الأفكار، لكنها هزَّت رأسها بقوة. «اللهم غوثك وعونك ورحمتك وسلامك». رددتها كثيرًا في أعماقها، حتى سكن قلبها الثائر. تأكدت من إحكام الحبل حول خصرها، دبَّت خنجرها في الشق المتواري بين الحجارة، وشرعت في التسلق.

* * *

بهدوء، أدار المقبض ودلف.

انسل داخلًا، وأغلق الباب من خلفه، وتقدم بتؤدة حتى وقف عند حافة الفراش البسيط، يرمق الراقد عليه في سكون، بنظرة طويلة وصامتة.

جال بعينيه في الحجرة متعجبًا، ربما للمرة الألف منذ وعى لما حوله، كانت بسيطة الأثاث، متواضعة التجهيز. بالكاد تشعر أنها حجرة نوم تاجر، أو أحد رجال المملكة مثلًا، لا حجرة نوم الملك ذاته!

واستغرقته جولة بصره في دائرة كاملة، حتى عاد يستقر أخيرًا على وجه الكهل الذي كان يومًا الملك المظفر. كان نائمًا في وداعة، تحيط بوجهه لحية شعثاء نافرة، رغم محاولات الجاريتين تهذيبها كل صباح. شعره يفوق لحيته بياضًا، وملامحه متغضنة، كعجوزٍ هَرِمٍ في الثمانين، وليس كهلًا لم يزل في الخمسين بعد!

ثبّت عينيه على وجهه، ليجوس بهما في ملامحه، محاولًا إيجاد ذاته فيها، لكنه لم يجد. كانت القناديل خافتة، والبخور الشرقي يعبِّق الجو بنسيمٍ منعشٍ مُخدِّر للأعصاب. كان الجو بشكلٍ عام في الحجرة، يبعث على النعاس والاسترخاء، لكنه رغم ذلك كان منتبهًا ومتحفزًا كصقر.

استقر واقفًا بجانب الفراش، لصْق رأسه بالضبط، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره، وعيناه في ظلام الحجرة تبرقان. ولبث برهة على ذلك الحال، حتى كان ليحسبه الداخل تمثالًا من شمعٍ، صُبَّ فتحجر في مكانه، لا حراك له.

على أنه سمع صوتًا غريبًا، فانتفض. بدا وكأنه آهةٍ خافتة أو زفرة، لكنه لم يستطع التحديد أو التبين. خُيِّل إليه أنها قادمة من الشرفة المفتوحة التي تتراقص أمامها الستائر مع نسيم الليل. تسمَّر مكانه، وتنبهت حواسه لما حوله. أصاخ السمع جيدًا، لعل الصوت يصدر من جديد، لكنه لم يتلق سوى الصمت. توترت أعصابه، وتحرك ليشرع في تفقد الحجرة، بيد أنه

توقف قبل أن يُقدم على خطوة، ولبث ساكنًا. جال بذهنه خاطرٌ ما، فتراقصت ابتسامة مكر على شفتيه.

لم يستدر. لم ينظر لما خلفه حتى. قال بهدوء لم يبدد سكون الحجرة:

- هل كنت تتوقع رحيلي باكرًا؟

لم يتلقْ ردًا. ولوهلة حسب أنه أخطأ في ظنه، غير أن الرد عاجله:

- الحق أني لم أتوقع مجيئك من الأصل.

اتسعت ابتسامته. كان الصوت هادئًا، وقورًا، قوى النبرات عميقها، يأسرك بشكلٍ يثير العجب والخوف.

- ماذا أتى بك هنا يا (نذير)؟

وخطا إلى منطقة النور فتجلّت ملامحه. كان تمامًا كصوته: هادىء، قوي الملامح، عريض الفك والمنكبين، ينسدل شعره الأسود اللامع، رغم سنوات عمره التي تجاوزت الأربعين، من تحت عمامته ناعمًا طويلًا على كتفيه، يرتدي زيًا من الديباج حالك السواد، وإزارا أخضر، تمنطق به حول خصره، مُعلقًا فيه خنجره المرصع بالجواهر واللآليء. كان إرثًا يتناقله الحكماء، هدية غالية المعنى قبل القيمة، تلقاها الساحر الأول (الحارث) وأحد مؤسسي المملكة، فكانت له مصدر فرحٍ عظيم. وظل حكيمٌ بعد آخر يتناقل الهدية، محتفظًا بها في خزانة خاصة محكمة الغلق، غير أن (جسّاس) كان أول من أخرجها وتزين بها فخرًا.

همس بصوتٍ بارد:

- لم تجب سؤالي بعد.

- أتيت لأراه يا (جسّاس).

وتدارك قوله إثر نظرة قاسية:

- أقصد.. أيها الحكيم (جسّاس)!

- أذكر أني أمرتك من قبل ألا تخطو بقدميك إلى جناح المظفر. ليس دون أن أحدد لك ميقاتًا بهذا.

- وماذا يقول الناس بربِّك؟ هل يهجر مليكهم الشاب أباه في مرضه؟

كان (جسّاس) يقف بعيدًا عنه في منتصف الحجرة، لكن في اللحظة التالية فوجىء به يقف أمام وجهه مباشرةً، تلفح أنفاسه وجهه، وهو يفحّ كالأفعى:

- سيقول الناس أن مليكهم مهمومٌ بأمورهم، بشؤون المُلك، بالجحيم ذاته، لا يهمني. المهم ألا يربطوا بينك وبينه، ليس وهو في تلك الحالة، ليس والأمر يشارف الانتهاء.

ارتعد. سأل مزدردًا ريقه بصعوبة:

- هل.. هل حان الوقت؟

لم يرد مباشرةً. رمقه بنظرة طويلة في عينيه أرجفته. كان (نذير) يعلم الجواب قبل أن ينطق به.

- ثلاث جرعات بثلاث دوراتٍ للقمر.

استدار (نذير) إلى أبيه الراقد، وحدّق إليه مبهوتًا معقود اللسان. كان مايزال بقلبه تجاهه بقايا حبٍ بائد، لا ينكر هذا، غير أن الإمارة، ومن بعدها المُلك، كانت كالنار تسري في عروقه، مثيرة ومحفزة ووخّازة. منذ صغره تعلَّم أن يملك، فقط يأمر فيملك. ترقّت مطالبه وأوامره عامًا بعد آخر، حتى وصل إلى نهاية المطاف، وسدرة منتهى الأحلام، الأيقونات الذهبية الثلاثة: العرش.. التاج.. والصولجان.

إنهم تحته، وفي يده، ويزينون رأسه، لكنه بعد لا يملكهم، لا يملك القوة التي يمنحونه إياها، ليس والآخر حيٌ يتنفس!

- هل أنت واثق أن لن يكشف الأمر أحد؟

رد بنفاذ صبر:

- لعامٍ كامل أتلقى منك هذا السؤال، في كل يوم، في كل ليلة، وإجابتي دائمًا لا تتغير: لا يا (نذير)، لا يا مليكنا المبجل، لن يكشف أحدٌ الأمر، فلا تخف.

قال بكبرياء مراهق:

- أنا لا أخاف!

ثم استطرد:

- الأمر فقط أني لا أريد أن أبدأ حكمي بقلاقل تشقّ أوصال البلاد، أريد أن يستتب الأمر لي وحدي، دون مشاكل أو أسئلة، ودون اعتراض، على الأقل ليس في عامي الأول.

- لا تقلق يا مولاي، لن يحدث شيءٌ طالما بقيتُ بجوارك. إن ما يجري إنما هو لصالح (أنطاكيا)، نريد لها دمًا جديدًا، وعهدًا جديدًا. نريد لها الصحوة التي تُصلح أحوالها، بالشكل الذي يراه الملك، أنت، لا كما يهواه الرعية. تالله، لقد خاب قومٌ ولَّوا أمرهم لعامتهم، يأمرون وينهون، ويختارون ما يحيون عليه كما تريد إرادتهم، لا إرادة سادتهم، فمن يكون الحاكم ومن المحكوم إذن؟

هز رأسه مؤمنًا:

- صدقت والله أيها الحكيم، صدقت.

- الآن أريدك أن ترحل في صمتٍ كما أتيت. لا يلمحنّك أحدهم، ولا يرقبك حتى تلوذ بجناحك. أريد أن يكون حالك كما بدا دومًا، مهمومًا بالناس، غارقًا في قضاياهم وأمور حياتهم ومعيشتهم، حتى إذا ما قُضي الأمر، وسيُقضى باذن الله، أعدك أن تكون محمولًا على الأكتاف إلى عرشك، ويتوسلوا إليك إلا أن تقبل نقض التقاليد، وتقود البلاد قبل الأجل المفروض.

وإذ أتم الساحر كلماته، أخذت الأفكار تتقاذفه بين الخوف والرجاء، والأحلام تداعبه، وتأرجحه بين صورة أبيه، وبين صورته وهو يملأ فضاء البهو الملكي بردائه، يقبض بيده على صولجان الملك الراشد، الذى لم يحمله مخلوقٌ سواه. الناس تهتف باسمه، والأعناق تنفر حاملة إياه، تقوده بالهتافات إلى مستقره ومستودعه: العرش. ورويدًا، وعند تلك الصورة

الأخيرة، ذوت صورة أبيه في خياله، وتضاءلت المخاوف، وانكمش القلق متراجعًا إلى ركنٍ ظليم من أعماقه.

احتلت صورته هو فضاء كل شيء: ذهنه، عينيه، جناح المظفر، العالم بأسره. يكاد يلمسها بأصابعه..

الملك القادم.. الملك القادم!

خفق قلبه في نشوة ظافرة.

«ارحل، الآن».

قالها (جسّاس) في صرامة، فانتبه. ألقى على أبيه نظرة أخيرة، وغمغم إليه بكلماتٍ غامضة لم يفهم إن حوَت اعتذارًا أم شماتة. تراجع للخلف وهو يحلم، انسحب من الحجرة وهو بعد يحلم، ويشرد ويحلّق.

ما إن أغلق الباب، حتى أحكم (جسّاس) ضمّ رداءه حول جسده، وهو يرمق بدوره الملك النائم غافلًا عن كل ما يجري. برغم كل ما قال، وكل ما فعل، كان حقًا يهابه ويجلّه، كما لم يجلّ حكيمٌ ملكًا عبر تاريخ (أنطاكيا) كلها. بيد أنه الآن، واقفًا أمامه في تهيبٍ، ويخفق قلبه بصورة أدهشته، كان يعلم أنه لم يعد هنالك مجالٌ للتراجع. تمتم بجمود:

- عاجلًا أم آجلًا كنت سترحل أيها المظفر، ويؤول الحكم لخليفتك من بعدك. بضع أعوامٍ مبكرة لن تضر أحدًا. إن هذا ما فيه خير (أنطاكيا)، ويومًا ما سنلتقي في العالم الآخر، وحينها، أؤكد لك، لن تكون غاضبًا لما فعلتُ.

قالها وانحنى في احترامٍ للجسد المسجى، قبل أن ينسحب للخلف متراجعًا بهدوءٍ تام، حتى ابتلعه ظلام الحجرة. وفي لمح البصر، كان قد اختفى.

ساد الصمت لحظة، إلا من صوت حشرات الليل، الذي أخذ يتناهى من بعيد، قادمًا من الحديقة، ليسري في فضاء الحجرة مبددًا السكون. فجأة، ندَّت حركة من بين الستائر المزخرفة التي أخفت خلفها باب الشرفة المفتوح. برز رأسٌ لأنثى صغيرة السن، جميلة الملامح، ومن وراء كتفها رأسٌ آخر لشاب نحيل العود. كان كلاهما يرتجف.

تبادلا النظر هنيهة، كانت كافية ليلمح كلاهما في الآخر شحوب وجهه كالموتى. وقلبها يتقافز بين ضلوعها، لهثت (فيروزة):

- يجب أن نخبر الأميرة حالًا!

* * *

كان الظلام دامسًا كالقبر. لا تكاد تُبصر فيه يدها. عالم من السواد يحيط بها. يدور ويتمدد، يتسع ثم ينقبض على صدرها. تتحسس جسدها فتستشعر لمسته، موجودًا ومعافى. لا تحلم ولا تهذي إذن. أتراها فقدت بصرها؟

«(سلام)، أنا هنا، جوارك».

تسمع صوته. إنه هو من جديد. تراه يتجسد فجأة أمامها متوهجًا كياقوتة مبهرة بين طبقات الظلام. تدنو صورته وتبعد. كم بدا في تلك

اللحظة آية من الجمال الإلهي!. أي عذابٍ أن تتجلّى أحلى أحلامك أمام عينيك ولا يُمكنك لمسها!

«اقتربي يا شقيقتي.. لا تخافي».

تتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن طريق، أي طريقٍ تسلكه في هذا الظلام، فلا تجد. تمد يدها للأمام ومعها قدم تخطو خطوتها الأولى بحذر.. تقترب.. وتقترب.

يقف أمامها على بعد قبضة، يبتسم في رقة. تهمس مشدوهة:

- (بشر)!

يمد لها يدًا. فجأة تدوّي تلك الصرخة المريعة، فيهوي قلبها. أذناها تعرفانها. تألفان وقعها. تتراجع للخلف مذعورة. يبكي الصغير. تبرز من العدم يدٌ معروقة سوداء، ذات مخالب بشعة، تقبض على عنقه فتملكه. تجذبه جذبة قوية ويندفع معها لأعلى.

تهتف بحرقةٍ باسمه.

يرتج الظلام بصرخات الغضب والخوف واللوعة.

«استيقظي.. الآن».

تفتح عينيها وهي تشهق، صافيتين يتألق فيهما دمعٌ قان.

* * *

كانت تسترخي على سريرٍ وثير، يسري كطيفٍ في الهواء، ويحيط بها جدران منزل صغير، بيد أنه كان دافئًا ورحبًا يبعث على الأمان. كانت سلاسل ضوء الشمس تنفذ عبر النوافذ، فتغطي المنزل بغلالة صفراء رقيقة، تبثُّ الدفء في أوصالها. وتذكرت أنها حين بدأت اختبارها الأخير، كان الوقت ليلًا!

آخر ما تذكره كان مختلطًا ومتضاربًا: صرخات وبكاء، وهوة سحيقة لا قرار لها.. و(بشر). لكن حتى ذكراه هنا، على غير العادة، لم ينقبض لها قلبها، أو تُفعِم روحها بالحزن المعتاد، بل بعثت فيها، لدهشتها، طاقة من الأمل والحماسة لم تعرف لها سببًا أو مبررًا. كانت مرتاحة بالكامل.

«كان علينا أن نعوّضك أيتها الأميرة».

رفعت رأسها إثر ما سمعت، فرأته: الحارس الأكبر (إيكيل)، معلمها الأول وأحب المخلوقات لقلبها، يدلف إلى الحجرة، حاني الرأس، متواضع الهامة، يبتسم في عذوبة آسرة كعهدها به. يتبعه (عاموران)، يطفو أمامه في الهواء قدحٌ صغير، تنبعث منه أبخرة شفافة حلوة الرائحة. وفي الأخير (يوناس) الحارس الثالث.

وصل إليها الكوب طائفًا، فالتقطته دون وجل، وشكرت صاحبه. جلس (إيكيل) على مقعده في صدر الحجرة، واستقر على جانبه (عاموران)، بينما وقف (يوناس) في أحد الأركان عاقدًا ذراعيه خلف ظهره.

«اشربي هذا، سيساعدك».

لم يكن أحدهم ينطق أو يتحدث مثلنا، بل كانوا يدفعون الكلمات دفعًا في ذهنها، فتشعر بها وتفهمها، على غرابة لغتها، واضحة الأحرف بليغة التعبير.

كانت تلك طريقتهم في التعبير عن حبهم لإنسيّ: أن يفهم لغتهم الأم، ويتحدث معهم بها، إذ اعتادوا طوال حياتهم أن يخاطبوا الناس بالعربية، وبنطقٍ سليم لا شائبة فيه. فقط كان الاستثناء الوحيد، في عصرهم الحالي، للملك المظفر، ومن بعده ابنته (سلام).

أجالت النظر في وجوههم البيضاء الشاحبة، رقيقة الملامح، ولم تشرب، كانت بعد حانقة.

- كان الاختبار شديد الوطأة هذه المرة. أنتم تزدادون قسوة يومًا بعد آخر.

تبادلوا النظرات في صمت. ترقرق صوت (عاموران) في ذهنها:

- ليس هذا صحيحًا يا (سلام)، ما كان الاختبار إلا ما اعتدته كل مرة، لولا أنك تهوين أكثر فأكثر في رؤاكِ، حتى أضحى الأمر جحيمًا حقيقيًا لكِ.

- ليست مجرد رؤى، إنها حقيقة، في صحوي ونومي أقابلها. (بشر) يناديني يا مُعلميّ.

- حتى لو كان حيًا، فلا سبيل لنجدته يا (سلام). اصرفيه عن ذهنكِ، ولا تُحمِّلي نفسكِ أكثر من وسعها. لن يشقى أحدٌ بهذا إلاكِ.

- لقد رأيته وسمعته رغم الخوف، رغم الألم والشك، فأي شقاءٍ أكثر من هذا؟

تدخَّل (إيكيل) برنة غضب:

- ولهذا فشلتِ. كل اختبار وضعناكِ فيه فشلتِ في اجتيازه بسبب تلك الضلالات. إن لم تستطيعي السيطرة على عقلك، فلا نجاة لك، ولا خير من ملء عمرك بالتدريب والدروس. أنتِ ضعيفة!

- لم أفشل لإني ضعُفت، فقط أضلَّتني الرؤى، وكل إنسانٍ له رؤياه التي تأخذ بعقله. إن أعدتُ الاختبار فلسوف...

قاطعها (يوناس):

- لا يا (سلام)، لقد انتهى الأمر.

استدارت له متعجبة.

- لقد اتخذنا قرارنا بانهاء تدريبك.

لطمها الخبر بقسوة. قالت ذاهلة:

- تنهون تدريبي! لماذا؟ لقد بذلتُ أقصى ما بوسعي.

- لقد فشلتِ ثمان مراتٍ متتالية في عامٍ كامل. لم تُعينك تأملاتك وسيطرة ذهنك. حتى تدخلاتنا عجزت عن حمايتكِ من الضلالات. لم تعد ثمّة فائدة. هذا الاختبار كان الأخير لكِ.

- لا يحق لكم هذا، لقد نلت منكم وعدًا!

- ونحن أكثر عباد القدُّوس حفظًا للوعود، لكنّا لم ننكث عهدنا. لقد منحناكِ كل علومنا وخبراتنا، كل ما نعرفه عن البشر وتاريخهم وفنونهم، وحتى حروبهم وقتالهم، لكنك إذ عجزتِ عن هذا الاختبار لم يعد بوسعنا المزيد لنقدمه لكِ. أنتِ لم تفشلي في مجرد اختبار يا (سلام)، لقد فشلتِ في التغلب على نفسكِ، ومن لا يغلب نفسه لا يغلب أحدًا قط.

- لكني لم أحظ بلقبي بعد. لم تنصِّبوني حامية للمملكة.

- لأنك عجزتِ عن اتمام اختبارك الأخير.

عقدت حاجبيها بغضب:

- وهل كل ملوك (أنطاكيا) نجحوا في اختباركم هذا؟

رد (إيكيل):

- للملوك في أعرافنا حساباتٌ أخرى، واختباراتٌ قد تكون أشد وأعظم مما واجهته في ليلتك هذه. لكن تذكَّري يا (سلام بنت جواد)، أنتِ من أردتِ خوض اختباراتنا لتكوني فارسة المملكة وحاميتها، فنفسُكِ أحق بلائمتك.

ألجمتها كلماته الحازمة. كانت تعرف أنه محقٌ فيما ذهب، هي من اختارت قبل أعوامٍ أن تصير، ولأول مرة في تاريخ المملكة، فارستها الأولى وحاميتها، وهو لقبٌ ومنصب، والأهم مسؤولية، لها ثقلها الذي تستشعره الآن يقبض على عنقها. كانت طموحة وعنيدة، لكنها الآن، وهي

ترى آثار فشلها في عيونهم، تدرك أي حِملٍ ألقته على كاهلها بالخوض فيما ليس بوسعها إتمامه.

أطرقت أرضًا في حزن، وتكاثف الغم على ملامحها الجميلة، فاستشعروا الخجل من قسوتهم، رغم الإشفاق المستتر من ورائها.

شعرت بإصبعين يرفعان ذقنها، فاستجابت لهما. طالعها وجه (إيكيل) يجلس بعد في مكانه، وهو يحدق بها متبسمًا في حنو. داعبتها تربيتته على وجنتها، وصوته ينساب في خاطرها رقيقًا:

- نحن نعي جيدًا يا (سلام) أي حماسٍ يُشعل قلبك لخوض اختباراتنا واحدًا تلو الآخر. نعرف أن رغبتكِ في حماية مملكتك، من أي خطرٍ كان، هي ما تحركك وتجعلك تحتملين الألم والفشل في كل مرة. لكن تذكري أيتها الأميرة: إن لكل جوادٍ كبوة، ولكل مخلوقٍ قُدرة، فرحم الله من عرف قَدْره، ولزم قُدرته، فتجاوز كبوته.

قال (عاموران):

- ستتوقف التدريبات الآن إلى حين. ربما يومًا قد تعودين لإكمالها، وحينها يُقدِّر الله أمرًا غير ما كان.

تنهدت ولم تُعلِّق. كان الأمر أكبر من قدرتها فعلًا، الآن ترى هذا جليًا. وفكرت أنه ربما كان الحراس، بعد كل شيء، محقين في قرارهم.

همس (يوناس) بتوتر:

- الوصيفة (فيروزة).

انتبهت لكلمته، ولاح في عينيها تساؤل. بادرها (إيكيل):

- انظري ما تريد، وسنعود إليكِ، مازال هنالك ما يُقال.

وأغمض عينيه بغتة فاختفى كل شيء. ألفت نفسها بعد في ليلتها التي خرجت فيها للاختبار الأخير، جالسةً في مقعدٍ حجري عتيق، في بقعةٍ نائية بحديقة على أطراف المملكة، بالضبط حيث اعتادت أن تلتقي بهم بعيدًا عن الأعين، دون أن يعلم مخلوقٌ في (أنطاكيا) غيرها بذلك المكان إلا (فيروزة).

وتراءت لها الوصيفة تسعى حثيثة لتخترق حاجز الأشجار غير الكثيف، حتى اهتدت إليها، فاتجهت صوبها مباشرةً. كانت تلهث من طول الطريق، ومن شيءٍ آخر بدت آثاره في ملامحها. كانت عيناها تنذران بكارثة.

قالت من بين أنفاسها المتلاحقة:

- مولاتي الأميرة، لقد أعياني البحث عنكِ.

سألتها وقد سرى بقلبها قلقٌ مريب:

- ما الأمر يا (فيروزة)؟ أحدث شيءٌ بالقصر؟

أومأت برأسها مجيبة:

- جدّ أمرٌ خطير، ينبغي أن تعلمي به.

ثم مستدركة:

- لندْعُ الله فقط ألا نكون تأخرنا كثيرًا.

(٤)

رفعت رأسها بحذر ترمق الطريق الغافي في ظلمة الفجر. يمينًا، يسارًا.. لا أحد.

تثبتت من سلاحها المعلق بخاصرتها، وأسرعت تعدو في رشاقة، تجتاز طرقات المملكة النائمة بوداعة غير عابئة.

وصلت إلى الأسوار.

رغما عنها أصابت قلبها رجفة، وانتابها شوقٌ مبهم، يستحثها على العودة، ويغريها بأمان جدران القصر. وقفت تحت الأسوار تلتقط أنفاسها المتلاحقة، ولبثت مترددة برهة.

تنازعتها المخاوف، وأفعمت عقلها الأفكار، لكنها هزَّت رأسها بقوة. «اللهم غوثك وعونك ورحمتك وسلامك». رددتها كثيرًا في أعماقها، حتى سكن قلبها الثائر. تأكدت من إحكام الحبل حول خصرها، دبَّت خنجرها في الشق المتواري بين الحجارة، وشرعت في التسلق.

بعد لأيٍ، وصلت لأعلى. تشبثت أصابعها بحافة السور، واختلست نظرة. كان الجنديان في مكانهما، مُجمَّدين كتمثالي شمع: أعينهم مفتوحة، شاردة، ووجوههم متخشبة. ابتسمت في ظفر. كانت الخطة تسير حتى الآن بنجاح.

* * *

تمتمت (سلام) مطرقة أرضًا:

- لا أصدق. أي شيطانٍ تلبَّس (نذير)، ليُقدم على فعلٍ كهذا!

تنهد (يوناس):

- صدقيني، هذا ليس أسوأ ما رأيناه من البشر في تاريخهم!

- لكنه الأسوأ في تاريخ (أنطاكيا). منذ قيامها وحتى اليوم لم نشهد حادثة واحدة بتلك البشاعة.

ثم استدركت:

- لو كانت خيانة (جسّاس) وحده لهان الأمر.. لكن (نذير)!!

قال (إيكيل) بمرارة:

- سيُدهشك ما ابن آدم بقادرٍ على فعله ليصل إلى مبتغاه.

هتفت:

- حد القتل؟!

- وأكثر.

واجتاحته رؤى وذكريات مشوَّهة، فارتعش بدنه بالغضب. هزَّ رأسه:

- أنتِ لم تري شيئًا مما رأيناه في حياتنا.

- يجب أن تتدخلوا. يجب أن تحموا مليككم.

تبادلوا النظرات في صمت، ولم يرد أحدهم.

- فيم صمتكم؟ ألا تسمعونني؟ يجب أن تنقذوا أبي بأي ثمن، هذا دوركم وواجبكم.

قال (عاموران) بهدوء:

- لا نقدر!

هوت الكلمة على رأسها كصاعقة زلزلتها. حدقت فيهم غير مصدقة. كيف يقبل حراس (أنطاكيا) العظماء أن يجدوا مليكهم يُغدر به فلا يهبّوا لنجدته؟ أأولئك حماة المملكة ودروعها؟ أهذا شرفهم؟!

«لا تظلمينا يا (سلام)».

كانت أفكارها الصامتة تطرق آذانهم بوضوح.

«لو كان بيدنا الأمر لأبدنا (نذير) من على وجه البسيطة، بمن يتبعه ويواليه، ومن يُحرِّكه حتى، لكنَّ هذا خارج نطاق قدراتنا، إنه شأنٌ ملكي، وأمرٌ يخص مستقبل (أنطاكيا) وحدها، وفي هذا لا يُمكننا التدخل».

غمغم (يوناس) بغيظٍ مكبوت:

- ذلك قانون (الصارم)!

رفعت عينيها إليه مستغربة:

- قانون ماذا؟

- (الصارم بن النعمان)، إنه...

قاطعته:

- أحفظ تاريخ المملكة ومؤسسيها جيدًا، فقط لا أفهم عن أي قانونٍ تتحدث!

- إنه عهدٌ قديم قطعه حكماء المملكة وفرسانها الأوائل علينا. لم يكن أمرًا أو شرطًا مقيّدًا، بل كان عهدًا متبادلًا، أرحنا به نفوسهم، وحرَّمنا به على أنفسنا التدخل في شأنٍ من شؤون الإنسان من جديد.. ليس بعد كل ما لاقيناه معهم في أعمارنا.

أكمل (عامورآن):

- العهد يقتضي منا ألا نتدخل في شؤون المملكة وسياستها، لا ننصر أحدًا على سواه، أو فئة دون غيرها، لا نوالي ملكًا ولا نناهض قائدًا. إننا هنا، ومنذ قيام (أنطاكيا)، لنُرسي فقط الأمن، ونحمي الشعب ضد أي خطرٍ خارجي. هذا دورنا الذي لا نجيد سواه. أما شؤون المُلك تلك فلها أهلها، ولها ربٌ ينصر من أراد، ويغلب بأمره من يشاء.

هزت رأسها محاولة استيعاب ما تسمع لأول مرة، ذلك أن استقرار (أنطاكيا) طوال تاريخها، حال دون أن يضطر أحدٌ في المملكة، لشرح قانون (الصارم) ذاك لها، فضلًا عن العمل به. حتى أبوها لم يذكره لها قطُّ من قبل، ولم تقابله مسجلًا في كتب الأقدمين.

سألت بحيرة:

- إذن ما العمل؟ مِن دونكم لمن ألجأ؟

تبسَّم (إيكيل) مشجعًا:

- لا تُراعي أيتها الأميرة، سيدبر الله أمرًا بإذنه.

أشار (عاموران):

- ينبغي أن يعرف الرعية حقيقة الأمر. يجب أن نخبرهم.

هز (يوناس) رأسه بقوة نافيًا:

- خطأ، إن لـ(نذير) وساحره، مئات الأعوان والموالين، وجنودًا يحكمون قبضتهم على كل أرجاء المملكة. لو انقسم الناس الآن، أو قامت ثورة ضده، ستُغرق (أنطاكيا) أنهارٌ من الدم.

صاحت:

- يجب أن نخاطر.

- لن تكون مجرد مخاطرة، بل حربًا حقيقية بين الرعية وبعضها، فهل تتحملين وزر تلك الدماء في عنقك يوم الدين؟

- إنني...!

ولم تُكمل، أربكها سؤاله، وحارت في إيجاد كلماتٍ، فسكتت.

قال (يوناس):

- ربما كان علينا أن نرتضي الأمر كما هو.

وقال (عاموران):

- كان سيصبح الحاكم القادم، إن لم يكن اليوم فغدًا.

هتفت مستنكرة:

- أي عبثٍ ما تقولون؟ (نذير) لم يتملك (أنطاكيا) بعد، وفعل بها كل ما فعل، فكيف ستصبح على يديه إن صار حاكمها الفعلي؟

لوح (إيكيل) بيده:

- لعل جشعه اللعين للعرش، ما جعله يرتكب جريمة بشعة كتلك، لكنه بها أو بسواها، فإنه الملك القادم، الملك الشرعي، وليس بإمكاننا تغيير هذا.

- ما فعله أسقط شرعيته!

قال حاسمًا:

- الرعية وحدها من تحدد هذا، لا نحن. لا يُمكننا أن نتحكم في تفكيرها أو إرادتها. هذا ليس مسموحًا لنا.

قالها فخيم ثقل الصمت لبرهة على المكان. أطرقوا جميعًا في وجوم، وذهب كلٌ منهم فيما ذهب، بخواطره وأفكاره. ولبثوا على ذلك الحال مليًّا، حتى قطع الصمت صوتها يتساءل بأسى:

- وأبي؟ مليككم المظفر؟ هل ستدعونه يموت بأيديهما؟ أهكذا تكون نهايته؟

تبادلوا النظرات من جديد في حزن، وألقى كلٌ منهم المبادرة على أخيه. أجاب (إيكيل) أخيرًا:

- حين أخبرتنا بما جرى، مضى إليه (يوناس) ففحصه بنفسه في ثوان...

وقلب كفيه في تردد:

- و... إن الأمر...

وأطبق صامتًا. قال (عاموران) حاسمًا الأمر:

- هاكِ الحقيقة يا (سلام): السم الذي يسري بعروق أبيكِ، سمٌ زعاف شديد الخطورة، يعرف به كهنة الممالك ومشعوذوها. إنه شيءٌ أقرب للسحر الأسود، يقتل ببطءٍ ودون أثر.

- وهل.. هل من ترياق له؟

- ربما كان هناك ساحرٌ في بلادٍ بعيدة يقدر على مساعدتنا. ربما، لا أعرف. لكن أمام لعنة المشعوذة، وذلك المخلوق بالنهر، وفوق كل هذا، قدراتنا التي تُسلب منا بالخارج...

أتم (يوناس) بمرارة:

- فإنّا نخشى أنه لا سبيل لإنقاذ الملك، إن المظفر يحتضر أيتها الأميرة!

* * *

كانت تتحرك بشرودٍ تام.. عقلها يسبح في السماء، وقدماها تدوران بغير هدًى، على أرض الحجرة. تشبك كفيها خلف ظهرها، مطرقة أرضًا، وكتفاها متهدلان. بين الفينة والأخرى، ترفع عينيها إلي وجهه النائم الرقيق.

مسكينٌ ضاعت روحه ووعيه، غير منتبه لما يدور من حوله، غير يقظٍ للخطر، غير مدرك أنه يموت.

وأشرعت ستائر الحجرة، فنثر القمر ضيائه على وجهها ووجهه. كان قرصًا فضيًا فائق الروعة في كبد السماء، يغطي (أنطاكيا) بغشاءٍ أزرق شفاف، يثير مشاعر غامضة، وأحاديثٍ مبهمة في الأعماق.

ألقت نظرة على البيوت المتبدية من بعيد: مُنارة، دافئة، تعج بالضحكات والثرثرة وصياح الأطفال. «يا لغفلتك يا (أنطاكيا) الحبيبة». همست لنفسها. «مملكةٌ لاهيةٌ أنتِ؛ لا تعرفين، ولا يعرف قاطنوكِ، ما يُحاك لكم بليلٍ».

هبَّت النسائم على وجهها وشعرها المعقوص فداعبته، أخذت تشرح صدرها المنقبض قليلًا، وتدفع خوفًا تكالب عليه، فتبعث مكانًا أملًا، فقط بعضًا من أمل. لكن فيم سيُجدي الأمل في عالم أحكم قيوده بخطة شيطانية؟

«لا علاج للملك».

تدوّي الكلمات في وعيها، فتقطِّر عليه حممًا. أي قلبٍ يقوى على إقرار هذا؟ المظفر يموت؟! الملك، القائد، المعلم.. الأب الذي لم تحلم صبية بلمحة من طيبته ورقته وحنانه؟! شيمٌ وأخلاقٌ تُكتب في مجلدات، وتُعلَّم لرجال المسلمين في كل الأقطار. الآن ستوارى تلك الشيم الثرى. وقالت لنفسها ما أفظع الغيلة، وأبغض التاج المُغرق بالدم!

«لا يمكننا أن نتدخل. هذا خارج عن قدراتنا».

يداهمها الخاطر، فتطبق فكيها في انقباض، لا تعي له من شدة الغضب.

«ستكون حربًا حقيقية».

«أنهارٌ من الدم».

«اليوم أو غدًا، إنه الملك القادم للبلاد».

رويدًا رويدًا، ينسحب ذهنها في دوامة من الأفكار والخواطر والجُمل. تعصف بها عبارات عشوائية. تقف مبهوتة، حائرة، تتحرك خطوة ثم تُعيد قدمها لمكانها الأول.

«سيدبر الله أمرًا».

«يجب أن نخاطر».

«أنهارٌ من الدم».

«الترياق في الخارج».

«ستكون حربًا».

«الملك القادم، ولا يمكننا تغيير هذا».

«عاش الملك القاهر.. عاش الملك القاهر».

تدق الهتافات كالنواقيس في أذنيها، تسمعها دون أن تسمعها. ترى في الفضاء الآلاف يهتفون ويهللون. تغتصب الصورة دماءٌ تُنثر، لا تعرف من أين أتت. صراخٌ وبكاء، ونيرانٌ تشبُّ في كل ركنٍ بـ(أنطاكيا). جموعٌ تزأر

بالغضب والقهر والخوف. عشراتٌ يشهرون سيوفهم، ومصاحف تُرفع على أسنة الرماح.

تختلط الصيحات فلا تميز في ذهنها إلا اسميّ (بشر) و(نذير). يخترق الصخب بكاء طفلٍ، فتميِّز الصوت!

«انقذيني يا (سلام)». يقتحم الصورة (بشر). «أنا هنا.. ساعديني».

«المظفر يحتضر أيتها الأميرة».

ترنو إليه في ارتياع، وكأنها تسمعها لأول مرة.

«الملك يحتضر.. المظفر يموت يا (سلام)!».

«يموت!».

«يموت!».

لا..

لا ورب الكعبة..

وتوقفت في مكانها تلهث، صدرها يعلو ويهبط في عنف، فيما تستند بيدها على حافة الجدار. «لن أسمح بهذا». هتفت. «لن أدع سوءًا يصيب أبي وأنا بعد حية على الأرض. لن أُسلَب آخر من تبقى لي على قيد الحياة».

وألقت عليه نظرتها الأخيرة. ضاع الأخ، والأم من ورائه كمدًا، والآن يريدونه!

«لن يأخذوك مني. لن يدمروا إرثك في (أنطاكيا). إن كنتُ حقًا من صُلبك، إن أردتُ أن أكون حامية مملكتك، فلأكن الآن. لا اختباراتٍ ولا ألقاب. لأكن الآن، أو ليكن الموت».

وغادرت الحجرة كعاصفة.

* * *

سارت بعزمٍ ألهب خطاها. تحرك جنديان لرفقتها، فأوقفتهما بإشارة حازمة. تعرف إلى أين تذهب، وتريد أن تكون وحدها. اجتازت طريقها الأثير المعزول. تقطع طرقاتٍ، وتخلف بيوتًا. تتجنب القناديل، وتلوذ بسكك الظلام المقفرة. كانت تلهث وقلبها يخفق بدويٍ عنيف، لكنَّ الغضب والإصرار كان وقودها. أخيرًا وصلت إلى بقعتها في الحديقة المترامية. اجتازت حاجز الأشجار، وانتصبت قامتها كرمحٍ في قلب الساحة الجدباء. هتفت:

- يا حراس (أنطاكيا)، لبّوا ندائي الآن.

سكنت الأجواء لحظة، قبل أن تتماوج الأشجار من حولها وتهتز. صدرت قرقعة مكتومة، وبزغ من العدم الحراس الثلاثة بقاماتهم الطويلة، وعباءاتهم البيضاء.

كان يلوح على وجوههم أمارات الدهشة، وقد فارقتهم قبل ساعة واحدة. رمقتهم بنظرة حملت الكثير. شدَّت على قبضتيها، وتمالكت ما استطاعت من خفقان قلبها المضطرب. قالت بحزم:

- أيها الحراس، أنصتوا إليّ جيدًا. أعرف أني فشلت في اختباراتكم. أعرف أني لست جاهزةً بعد لأكون فارسة المملكة المسؤولة عن حمايتها. أعرف حتى أني نفسي أحتاج لحماية. أعرف كل هذا ولا أخدع نفسي بغيره. لكن هاكم الأمر: لن أنتظر حتى أجتاز اختباركم، وأتزين بلقبٍ يناديني به الناس في أرجاء المملكة، حتى أبدأ في نجدتها. لن أنتظر عمرًا أرى فيه (أنطاكيا) تنتهي، وتتقوض أركانها ببطء، لأني في لحظةٍ ما، قررت التأني والتمهل، أو ترك الأمور للقدر يسوقها كيفما شاء. إن معي هذا...

وأشارت إلى السماء.

«وهذا...».

وأشارت إلى السيف المعلق بخاصرتها.

«فلا حاجة لي في تدريباتكم أو ألقابكم. أنا (سلام) بنت الملك المظفر، امرأة من (أنطاكيا). مجرد امرأة، وفي هذا الكفاية حتى أتصرف بمفردي».

ثم التقطت نفسًا من الهواء، حاولت به كبح انفعالها قبل أن تستطرد:

- إن كان هنالك أملٌ واحد في إنقاذ المظفر، والبلاد بأسرها، فإني لن أتردد لحظة، ولن أفكر مرتين.

وضمت قبضتيها بقوة:

- بمساعدتكم أو بدونها، سأخرج لأحضر ترياق الملك بنفسي.

اتسعت أعينهم في غير تصديق. كانت الجملة من المفاجأة أن أخرست ألسنتهم تمامًا، وشلّت تفكيرهم وقدرتهم حتى على الاستنكار أو السؤال. وحده (إيكيل) تخايل شبح ابتسامة على وجهه، وهمس لنفسه:

- أخيرًا فهمتِ!

ندَّت حركة من (عاموران)، وبدا كأنه سينطق، فأسرعت تسبقه:

- أنا لم أكمل حديثي بعد.. لقد وضعت خطة مبدئية، لن تكتمل إلا بكم. لكن وأيم الله، إن أبيتم مساعدتي، أو ترددتم لحظة، فسأجتاز تلك الأسوار وحدي، حتى أعود بالترياق، أو يواري ثرى الخارج جثتي.

ذات الكلمات، ذات الحماس. كان (إيكيل) يتابعها مشدوهًا في تلك اللحظة، وأمام عينه تتمثل صورة المظفر خاطبًا بالناس قبل سنوات.

- أعلم أنكم خارج المملكة لا حول لكم أو قوة، وأنا لا أريد رفقتكم ولا قواكم، أريد فقط مساعدة بسيطة لأنجح، فما قولكم؟

تبادلوا النظر في دهشة حائرة، ولم يجد أحدهم ما يقوله. ردد (يوناس):

- هذا جنون أيتها الأميرة!

وقال (عاموران) بانزعاج:

- تريدين مساعدتنا على قتل نفسك؟!

لكنَّ (إيكيل) سأل هادئًا:

- فيم تريدين مساعدتنا بالضبط؟

- أريد أن أعرف أين أجد الترياق، أو من يقدر على مساعدتي في صنعه.

غمغم (عاموران) في استنكار:

- وهَبْي أنك خرجتِ بالفعل، فماذا عن ذلك المخلوق بالنهر؟ كيف ستتجاوزينه؟

ردّت باقتضاب:

- لدي بعض الأفكار.

صاح بها:

- أهذا كل ما تعتمدين عليه؟ بعض الأفكار؟ هل تحسبين الأمر نزهة؟ ألم يُحدِّثك المظفر عما جرى لجيش (أنطاكيا) بأكمله في ساعة واحدة أمام ذلك المخلوق؟

- سأعتمد على حظي ببعض المخاطرة.

هتف (يوناس):

- هذا انتحارٌ لا مخاطرة!

- ألديك بديلٌ؟

- لننظر في الأمر بضعة أيامٍ على الأقل حتى نضع خطة مناسبة.

أسرعت:

- وهل حياة المظفر تحتمل الإنتظار في رأيك؟

فهتف (عاموران) بغيظ:

- البشر هم البشر، لا يتعلمون أبدًا مهما حاولنا معهم!

وقال (يوناس) في صبر:

- أيتها الأميرة، المرة الأخيرة التي قرر فيها أبوكِ أن يتحرك بلا عقل، انتهى الأمر بكارثة!

رفعت رأسها بإباء:

- التعقل لا يعني التخاذل أيها الحارس، وأنا لست أبي.

لوَّح (يوناس) بذراعه:

- كلاكما من نفس الدم!

وكرر (عاموران):

- لن تنجحي في تجاوز وحش النهر أبدًا.

عندئذٍ تنحنح (إيكيل) وهو ينظر إلى رفيقيه خلسة:

- في الحقيقة، ربما كان لديّ فكرة.

حدجّه (يوناس) بنظرة مستنكرة:

- أتشارك في هذا التخريف؟

وزمجر (عاموران):

- إذن كنت تعلم ما تنويه، فأعددت لها أفكارك.

أسرع:

- أقسم أن سلامًا لم تشاركني برأيها هذا من قبل. كل ما في الأمر أن ذلك المخلوق كان يشغلني لسنواتٍ طويلة، وتأملت كثيرًا في وسيلة لقتله أو لتجاوزه إلى الخارج، حتى اهتديت لبعض الأفكار. لا أقول أنها ستنجح بالقطع، لكن يمكننا الاعتماد عليها.

هزَّ (عاموران) رأسه:

- لابد أنكم تمزحون!

فقال (إيكيل) بحزم:

- انظروا يا أخوتي، إن كانت الأميرة تريد شيئًا مهما كان، فمن نحن لنحول بينها وبينه؟ ربما نملك لها النصح، لكن لا نملك أبدًا تحديد اختياراتها ومصيرها. إذا عزمت أمرًا فليس علينا إلا أن نساعدها إليه قدر المستطاع، وهذا لو تعلمون واجبنا الأول.

ثم إنه التفتَ إلى (سلام) ليقول مُنهيًا النقاش:

- لندعُ الله فقط أن تنجح في بغيتها، وتعود إلينا سالمة.

تطلعت إليه بنظرة امتنان غامرة، وابتسمت. برغم قرارها المحسوم سلفًا، كانت تتمنى أن يمنحها هو بالذات موافقته ليبارك خطواتها.

- ليلة غدٍ سأتجهز للتحرك إن شاء الله.

قالت بحزم، فسأل (عاموران) بوجهٍ جامد:

- إذن لا مجال لإقناعك؟

طالعته باعتدادٍ ولم تجب. تمتم (يوناس) في تسليم:

- لله الأمر إذن. لقد بذلنا ما في وسعنا.

تجاهلت كلماتهم. قالت وهي تشير بيدها:

- ليس هناك متسع من الوقت أمامي. منذ الليلة، أريدكم اليوم أن تبدأوا البحث عن الأمرين اللذين أحتاجهما.

سأل (يوناس) بقلق:

- أي أمرين؟ الترياق.. وماذا بعد؟

التفتت إليه:

- أريد خريطة واضحة بمنازل الغجر وتحرُّكاتهم بين الممالك، سيكون هذا أول الخيط.

توجسّ (عامورن)، وتضاعف قلق (يوناس). سأل (إيكيل) وهو موقنٌ من الإجابة:

- أول الخيط لماذا أيتها الأميرة؟

صمتت لحظة.

- لأجد طريقي إلى أخي (بشر)، الملك الحقيقي والوحيد لـ(أنطاكيا)!

(٥)

رفعت رأسها بحذر ترمق الطريق الغافي في ظلمة الفجر. يمينًا، يسارًا.. لا أحد.

تثبتت من سلاحها المعلق بخاصرتها، وأسرعت تعدو في رشاقة، تجتاز طرقات المملكة النائمة بوداعة غير عابئة.

وصلت إلى الأسوار.

رغما عنها أصابت قلبها رجفة، وانتابها شوقٌ مبهم، يستحثها على العودة، ويغريها بأمان جدران القصر. وقفت تحت الأسوار تلتقط أنفاسها المتلاحقة، ولبثت مترددة برهة.

تنازعتها المخاوف، وأفعمت عقلها الأفكار، لكنها هزَّت رأسها بقوة. «اللهم غوثك وعونك ورحمتك وسلامك». رددتها كثيرًا في أعماقها، حتى سكن قلبها الثائر. تأكدت من إحكام الحبل حول خصرها. دبَّت خنجرها في الشق المتواري بين الحجارة، وشرعت في التسلق.

بعد لأيٍ، وصلت لأعلى. تشبثت أصابعها بحافة السور، واختلست نظرة. كان الجنديان في مكانهما، مُجمَّدين كتمثالي شمع: أعينهم مفتوحة، شاردة، ووجوههم متخشبة. ابتسمت في ظفر، كانت الخطة تسير حتى الآن بنجاح.

تعلقت بالحافة، وفي رشاقة وثبت لتستقر أرضًا في مكمنها. بحركة سريعة راقبت الحراس البعيدين عن اليمين واليسار، لكنَّ أحدًا لم ينتبه لها في تلك الليلة المظلمة.

وقلبها ينبض بالرهبة، ألقت نظرة على الأحراش الحالكة من بعيد، والنهر الساكن الذي يقبع فيه أشد مخاوفها. تجاوزت رجفتها، وألقت بالحبل من الناحية الأخرى. لم يعد هناك وقت. ثم إنها اعتلت السور في لحظة، وجثت على ركبتها مولية ظهرها للخارج. سددت عينيها ووجهها وكيانها كله إليها، إلى (أنطاكيا). كانت المملكة غافية، تسبح في ضبابٍ غلَّف أرجائها. همست:

- يومًا ما سأعود يا مملكتي الحبيبة، وحينها، أعدُكِ، سأرد لكِ أمنك واستقرارك، والملك الذي تستحقين.

وعبَّقت صدرها برائحة ليل (أنطاكيا)، وهي تُشبع عينيها بنظرة أخيرة منها. ثم بلا تردد، وثبت إلى الخلف، لتسبح لحظة في الهواء، قبل أن تهوي فيبتلعها الظلام.

«لَعَمري لَأَهلُ العِشقِ فيما يُصيبُهُم.

أَحَقُّ بِأَن يُبكى عَلَيهِم مِنَ المَوتى!».[٨]

الحكاية الثانية

صليل

[٨] العباس ابن الأحنف.

(١)

ألمرية.[٩]

في ليلٍ صيفيٍ رائق، تهادت (سيف البحار) دالفةً بأناةٍ وخيلاء كالأميرات، تحفُّها عشرات السفن والمراكب الأخرى، المتباينة في الحجم، والمنثورة على صفحة البحر الساكن. كانت تطلق بوقها العاجي بنغمٍ متصاعد، فتترامى إليها من الميناء البعيد أهازيج المُستقبلين لكبار المدينة، العائدين بعد رحلة دامت خمسة شهورٍ كاملة.

بدا النشاط على أوجَّه على سطح السفينة المتلألئة، الصيحات تتبادل بين البحَّارة، الأشرعةُ تُطوى، الصبية يعزلون أكوام المخلَّفات، وصناديق البضائع والهدايا تُخرج من مخزنها، لتُرصَّ على السطح بانتظار حمَّالة الميناء.

كانت حركة الجميع سريعة، تموج فيها لهفة العودة للوطن، مع زفرات الراحة من مسئولية شارفت على الانتهاء.

الركّاب الذين كانوا في شُغلٍ عن كل هذا، تراصوا لصْق حواف السفينة، تغازل أعينهم مدينتهم المتخايلة من بعيد، المتألقة في وهج

[٩] ألمرية: واحدة من أهم موانىء الأندلس القديمة وأشهرها، شيَّدها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وحوَّلها إلى مرفأ ودار صناعة لأسطوله. وهي اليوم إحدى المدن المشهورة في إسبانيا.

الأسرجة كالبللور الملوَّن، والمنتشية في كبرياء بتفرُّدها الأبدي عن سائر موانىء المشرق كله.

ومن لا يشهد لـ(ألمرية)، عروس التجّار، وقِبلة البحّارة، وزهرة حياة العرب بأسرهم، بهذا؟

كانت النساء يتسرَّين، والصبية يتعلقون بالأسوار مُطلقين أبصارهم إلى البحر الشفاف الرائق من تحتهم، رغم ظُلمة الليل، حتى بدت قيعانه واضحة، والكائنات الخلابة السابحة في قلبه. أما سادة (ألمرية) وكبار تجّارها، فكانوا يقفون معًا الآن، وفي مناسبة لا تتكرر إلا مرة واحدة في العام، على رأس قافلتهم البحرية العائدة من موانىء محددة، استبضعوا منها ما يلزم تجارتهم وحياتهم حتى العام القادم. كانوا يثرثرون، يتنقلون في مزاحهم بين صفاءٍ ومداهنة، يتبادلون الأخبار والخطط، ويحصون، مع أقداح ماء الورد والحلوى الحلبية، مكاسب السنة المأمولة، حتى تمام الرسو. كان زحامٌ وصخبٌ وضوضاء، وفرحة بادية لا تُخفى في الوجوه.

لكنَّ الربّان (صليل)، مالك السفينة وقائدها، لم يكن يرى شيئًا من هذا آنذاك!

(٢)

«حمدًا لله على سلامتك يا سيدي».

لم ينطق. لم يلتفت إليه من الأساس. تنحنح الرجل وتابع متحرِّجًا:

- سيدي، لا يصح أن تقوم بكل شيء بنفسك. دع أحد الرجال يتولى عنك ما تفعل.

كان يعقد بعض الحبال حول ذراعه ببطءٍ شديد، وعيناه لا تبصران. لاحظ مُحدِّثه أين تسبح نظراته الشاردة، فدمدم مُغضبًا:

- بحق الله!

رشقته الكلمة، فانتفض منتبهًا إليه. قال في ضيق:

- بحق الله أنت يا (عابد)!، ماذا تريد؟

دنا منه هامسًا من بين أسنانه:

- كفَّ عن هذا والتزمْ يا عدو نفسك. ماذا قد يقول بحَّارتك إن رأوا قائدهم يهيم صبًّا، وعيناه تتبعان فتاةً كالفاسقين؟

قال باستياء:

- أنا لستُ فاسقًا أيها الخَرِف. لقد شردتُ قليلًا فحسب دونما سبب.

- كلانا يعلم فيم شرودك. والله لولا خشيتي على هيبتك بين رجالك، لقرعتُ رأسك بالعصا.

- أنت بلا قلب!

- وأنت طفل

دنا منهما بحارٌ، فانقلبت سحنتاهما إلى ابتسامة مصطنعة، وقطعا الحديث بغتة.

قال البحَّار بإجلال:

- أتممنا الرسو سيدي القائد، ورجال الملك يطلبون الإذن بالصعود للتفتيش.

ارتجَّ (صليل)؛ لفترة طويلة منذ تخايلت (ألمرية) لهم، وهو منعزل تمامًا عن كل ما حوله، يقف في إحدى الزوايا ساهمًا، وعيناه تغدقانها بالنظرات. تتحرك فيسبقها بصره إلى مقصدها، تضحك فيثب قلبه، تتسامر مع إحداهن فيشتعل بالغيرة.

كان غارقًا فيها حتى مفرق شعره. يلذّه ذاك ويعترف، لكن شدّ ما دهمته كلمات عامِله بالخجل، كيف أتمَّ رجاله كل شيء وعقله في غياب!

كان المسافرون جميعًا قد غادروا السفينة. اتخذ كلٌّ مجلسه فوق جواده أو محفّته التي يحملها الخدم، أما النساء فوقرن في هوادجهن على صهوة النوق. حين وقف (عابد) يحدِّثه، كان يسترق آخر النظرات إليها من وراء

سور السفينة، والجواري يحطن بها، حتى استقرَّت في هودجها وأسدلت ستائره، قبل أن تتحرك الناقة بحملها بعيدًا. حينئذٍ عرف أنه لن يصبر أكثر!

انتبه على صوت (عابد) مزهوًّا:

- رجال الملك يستئذنون كالعادة!.. ما طُلب ذلك من أحدٍ قبلنا.

قال البحّار:

- ولن يحدث مع غيرنا يا سيدي، الملك يعرف أن (سيف البحار) ليست كما سواها.

سأل (صليل) في جدية مُغالبًا قلبه:

- هل غادر الجميع بسلام؟

أومأ برأسه إيجابًا:

- وتأكدوا من سلامة بضائعهم قبل المغادرة، كما أمرتَ سيدي. والحمّالون على رصيف الميناء بانتظار انتهاء التفتيش للصعود.

- حسنًا إذن، اذهب وأخبر رجال الملك أن الربّان يأذن لهم.

أحنى البحّار رأسه في احترام.

- وبعد تحميل البضائع على الجمال، ستبدأ إجازتكم.

أتمَّ (عابد) الجملة، فكرر البحّار انحناءة رأسه، وغادر منفِّذًا الأمر.

حين غاب من أمام عينيهما، عمَّ صمتٌ طويلٌ بين الرجلين، إلا من أصوات الحركة الدائرة على السفينة صعودًا ونزولًا. لم يُرد (عابد) أن يعود

لحديثه السابق مباشرةً، كان يتحاشى إيلامه، يعلم أن كلماته على صدقها توجعه، لكنَّ صليلًا كان يترقب.

تمتم (عابد) دون أن ينظر إليه:

- بالله لا تزد في حماقتك. لقد أعلنوا خطبتها أمامنا، وقُضيَ الأمر.

لم يأته رد، وللحظة بدا وكأن قائده الشاب لا يجد واحدًا في هذا المقام، لولا أن تمتم بعد برهة في أسى:

- لا أحد يملك قلبه يا شيخي.

تجلّى الحزن في عينيه:

- لكننا نملك النسيان يا (صليل).

- النسيان صار حلمًا مثلها!

- لا تنس إذن، فقط تجاوز. افتح عينيك لسواها. اطلِقها من قلبك قبل أن تختنق بها.

- الموت أحبُ إلى قلبي من أن يتنفس غيرها يومًا.

قال باستياء:

- وماذا برأيك قد تفعل؟ أتنوى اغتصابها عنوة من أهلها؟

- سأجد حلًا. لن أقلب كفي مُسلِّمًا بالهزيمة.

- لقد رفضوك مرتين، حتى صارت البلدة بأسرها تتحدث عنك. ولولا أنك مَلِكُ هذا البحر دون منازع، ما قَبِلَ أهلها ركوبه معك بعدما جرى.

- إنهم جشعون، يرومون من وراء التمنُّع جبالًا من الذهب.

- خدعك الناصحون، بيت (الزيدانية) لا ينقصه مال.

هتف بقسوة:

- إذن إنما رفضُهم حقًا لانقطاع نَسَبي. فقط لو أخبرتهم أنني....

ضرب بقبضته حافة السور هادرًا:

- (صليل)!!

بُهِتَ للصيحة التي خرجت مكتومة رغم الغضب، فلم تترامَ للعمّال الواقفين عن بُعد. ألجمته. اتسعت عيناه لزلة لسانه الذي كاد ينفلت من مكمنه، قبل أن تهدأ أعماقه رويدًا ويطرق. حين رفع عينيه من جديد كانتا تفيضان بالامتنان، إنّ عابدًا لا ينسى قط ولو غَفِلَ هو نفسه.

«إياك أن تلفظها مجددًا يا (صليل)». قال عاقدًا حاجبيه. « نت هنا بمأمنٍ لسنوات، بعيدًا عن الخطر، بعيدًا عن... عن كل ما تركته وراءك. أتريد أن تُخاطر بهذا من أجل فتاةٍ مهما غمر قلبك حبها؟».

لم ينبس. أردف (عابد) بحرارة:

- أنت ابني الذي لم يلفظه صُلبي، ولئن رأيتك تُورد نفسك إلى الهلاك، فسأنقذك ولو قسرًا. بالله لا تزد حماقاتك سوءًا يا بني، أرجوك.

قطّب جبينه منفعلًا وألقى ما في يده على الأرض.

منذ بدأت قصته، وكلمات العجوز في كل مرة تشلُّ قدرته على العناد أو التصميم. كان يدرك أنه محق، لكن كيف يتجاهل قلبه المشتعل؟

وسرح ببصره إلى البعيد، إلى (ألمرية) التي شكّلت بيوتها وطرقاتها أمام عينيه ملامح أميرته: عينيها ووجنتيها، جبينها الممتد كسهلٍ من النور، وشفتيها الزهراوين كقطوف الورد. لقد عَشِقَ المدينة لإنها منها، وتمنّى قلبه أن يعيش ويُدفن فيها، لو كان سيحيا فقط بجوارها.

أي جحيمٍ أن يحيا على أملٍ واحد، لا يملك تحقيقه، ولا يقدر على تجاوزه!. حياة كاملة ابتلعها حلمٌ في جوفه، فلا هو مرَّ بسلام ككل الأحلام الوهمية، ولا أقنعه غيره، مهما كان، أن يرضى وينسى.. أي جحيمٍ!

آهٍ يا (ورد)، أين منكِ المفر، وأنتِ كل الحياة؟

شعر (عابد) بما يعتمل في روحه، فهرب ببصره بعيدًا كي لا يفضحه بنظراته التي يعرف أنها تنفذ إلى عُمقه. كان الصمت بينهما الآن مقدَّسًا، أحجمه جلاله عن خرقِهِ بكلمات.

وأسند راحتيه على حافة السور، مُطلقًا بصره إلى البحر الحالك الممتد حتى الأفق عن يمين السفينة الراسية. كانت وراءه أضواء الميناء المتلألئة والصخب والحركة، وأمام عينيه بساطٌ هائل من الظلمة الهادئة الباعثة على الرهبة. التقط نفسًا من هواء الليل الرطب، وقال:

- كم أعشق ليل (ألمرية)!

انتظر ردًا فلم يتلقّ. استدار متوقعًا انسحاب قائده إلى الشرود من جديد، لكن لدهشته لم يكن بجواره. غمغم منزعجًا:

- قاتل الله قلوب العاشقين!

من بعيد، على السلم النازل من السفينة إلى رصيف الميناء، لمح طرف عباءة تخفق في الهواء مغادرة بصاحبها (سيف البحار).

(٣)

قبل عامٍ ويزيد، وحين تصايح الرجال هاتفين باسمه، نهض في شممٍ خليق بمن يعرف أنه الأبرع والأفضل بين أقرانه. بابتسامة حيية واثقة، استل سيفه (العاقب)، فكَّ رباط جواده فامتطاه، ثم دلف إلى وسط الحلقة التي أحكمت حوله، وعلى صوت ضربات الدفوف شرَعَ في الرقص.

كان يُشهر سيفه في السماء فيلتمع عليه بريق القمر الفضي. جواده الذي انثال العرق على جسده المفتول، وانعكس وهج النار على جبينه وعينيه، كان ينقِّل خطواته على إيقاع الضربات وتصفيق الكفوف المتناغمة. يتحكَّم هو في لجامه فيديره يمينًا ويسارًا، ويلوِّح بسيفه، شاقًا الهواء في مهارة حاذقة، بلطماتٍ تثير الخيال، وتستل صيحات الإعجاب من الأفواه.

على إثر دعواتٍ تهتف من جديد، نهض (علي) مبتسمًا في خجل من جانب عروسه على السجاد الدمشقي المفروش على الرمال. أحكم عباءته البيضاء الموشّاة بخيوطٍ ذهبية، والتقط سيفًا ألقاه أحدهم إليه، قبل أن ينضم لمولاه (صليل) في الساحة.

ما إن دلف حتى قفز (صليل) عن صهوة جواده، ولطمه بخفة على كِفلِه، فابتعد بخطواتٍ رشيقة عن الساحة يسحبه أحد الأصدقاء. وتشارك الرجلان الرقص بالسيوف، تحيط بهما الزغاريد، وتصحبهما النغمات التى أخذت تهزج متصاعدة حتى صارت تراقص النجوم.

كانا يتلاحمان، يتقارع سيفاهما، ثم يثبان منفصلين عن بعضهما في براعة، فتنطلق آهات الإعجاب تحفّ الساحة من حولهما.

(صليل) لم يكن يرقص، كان يطير. يحمله الأثير لنشوة غامرة أغدقت روحه بسعادة مؤقتة شفافة، جعلته، أخيرًا ولو للحظة، يكفُّ عن التفكير بها بعد كل تلك المدة. كان يسبح بعيدًا عن الجمع في الملكوت، في فضاءٍ رحب ذكَّره بصباه في (رأس الحكمة) حين كان...

لكنه بغتة توقف عن الرقص، خطفه وجهٌ فتجمَّد مكانه، وانقلب السيف الزئبقي جلمود صخرٍ بين أصابعه.

لفتَ الأنظار.

وسط الصخب الدائر من حوله، رآها للمرة الثانية في حياته!

* * *

المرة الأولى كانت حين تخايل طيفٌ أمامه من بعيد فوثب قلبه.

كان في السوق يشتري بعضًا من أشياءٍ تنقصه، قبل رحلة قصيرة تلوح في الأفق. كانت نظرة واحدة خاطفة وغير منتبهة، لكنها كانت كافية لتجعله يرتد إليها مصعوقًا. «يا رب الكون!». تمتم لنفسه بأنفاسٍ مبهورة. «هل تُختزل نساء الدنيا كلهنَّ في امرأة؟!».

امرأة بديعة القسمات، ناهدة رغم نحولتها، متألقة بوهجٍ خفي كالجنيّات. ملامح وجهها، الذي انتثر عليه نمشٌ خفيف كحبَّات اللؤلؤ، وعلى رقتها، كانت تشعُّ كبرياءً وشموخًا يخلُق بأميرة. عيناها كانتا

يتراقص فيهما الخفر والمكر والعذوبة والجنون والرصانة، في بحرٍ رماديٍ شفاف، امتد أمامه واسعًا وسحيقًا، بلونٍ متفرِّدٍ مثلها لم ير شبيهه في حياته على ما رأى من أعين النساء!

فجأة امّحى الجميع من حوله. توقف العمر. تحجَّر الزمن. وانقطعت الأصوات إلا من صوت زفراته تشقُّ صدره. خلا السوق إلا من طريقٍ ضيق، أوله هي ونهايته قلبٌ تزلزل.

خلبت الفاتنة لبَّه. أسرته!

لكن طرفة عينٍ جبرية في استدارة للبائع يدسُّ في يده ثمن ما اشترى، كلَّفته أن يفقدها في الزحام. جنَّ جنونه. هرع بين الناس كالمخبول يبحث فيهم بعينين جزعتين. لم يعرف بِمَ يناديها!. بِمَ يصرخ!. يداه تشقَّان الصفوف معتذرة قبل لسانه عن عنفٍ غير مقصود. ركض. دار. هام لاهثًا حتى تقطَّعت منه الأنفاس.

اختفت!

وعاد إلى السفينة ليلًا متثاقلًا، يجرُّ قدميه إنهاكًا، ويتهدل كتفاه بخيبة مهزومٍ في معركته الأولى. رجع لرجاله الساهرين بوجهٍ غير الوجه، وعقلٍ قرأوا في ملامحه أنه تركه هناك، وراءه في مكانٍ مجهول بـ(ألمرية).

وتساءل هل حياة الإنسان هشّة لتلك الدرجة، حد أن تنقلب رأسًا على عقب في لحظة واحدة، موقف واحد، أو حتى نظرة واحدة لغريب؟!

تسعٌ وخمسون يومًا كاملة، يومٌ بيوم، ساعةٌ بساعة، يصحو وينام مستعيدًا ملامحها التي كانت تتسرب من ثنايا عقله كلما جاهد للتشبث بها.

تسعٌ وخمسون يومًا وهو يسأل نفسه: هل رآها حقًا؟ أم كان وهمًا اختلقه عقله؟

لكنَّ الحياة لا تحتاج أكثر من لحظة واحدة لتضحك فيها، كما عبست بوجهك يومًا في لحظة مماثلة. في اليوم الستين، في زفاف أحد رجاله، وحين قنع بضياعها للأبد، لمحها حقيقية من لحمٍ ودم، واقفةً بين جمعٍ من الفتيات يصفِّقن له يرقص.

* * *

واختلى بعامله، فهمس إليه بانفعال:

- من الفتاة؟

- أيّة فتاة؟!

- تلك الواقفة هناك بجانب العجائز.

- لا أرى شيئًا!

قال بغيظ:

- انتبه لإشارتي واعتق عروسك من نظراتك قليلًا. قد صارت ملكك. لن ترحل!

دقق (علي) النظر متحرِّجًا، فانتبهت حواس (صليل) لما سيقول. حين أشرق وجهه بملاحظتها أخيرًا قال:

- آه.. تلك (ورد بنت نعيم).

- أتعرفها جيدًا؟

- البلدة كلها تعرفها وتعرف أسرتها سيدي.

- من أي بيتٍ هي؟

مُفضيًا بقوله، الذي ظنه إجابة سؤالٍ عادي لا شيء من ورائه، أجاب:

- من بيت الزيدانية.

- ....

(٤)

حين عادت (ورد) ليلًا، كانت أمها في انتظارها بقلقٍ معتاد، لم يسكن إلا حين رأتها سالمة، كانت وحيدتها التى لا تملك سواها، ولا أغلى منها في الحياة. قبَّلتها، وتسامرتا مليًّا حول الزفاف الذي كان مبهجًا رغم بساطته.

لم تنس أن تلمِّح لها، كالعادة، عن الوردة التي أينعت ولم تمنح بعد رحيقها لأحد، فلم تنس الفتاة كالعادة أن تبتسم غير منتهية إلى شيءٍ محدد.

في حجرتها بأعلى عاونتها الجارية على تبديل ثوبها، وارتداء قميص النوم، قبل أن تنسحب في هدوء وتغلق الباب. أطفأت الفتاة قنديل الحجرة، وضمَّت ضلفتي الشرفة التي أفسحت طريقًا لبرودة الليل القارصة كي تغتال دفء الجناح، ثم أزاحت الأغطية لتصعد إلى الفراش المزدان بالذهب.

كان هذا حين راعها مرأى وردةٌ حمراء، قانية كدنان الخمر، تفوح بعطرٍ خلّاب أسكرها، استقرت مائلةً على الوسادة الحريرية، وعن يمينها كانت بطاقة صغيرة تقول بخطٍ منمَّق:

- عسى وسادتُكِ تختزنُ عَبَقًا، يُذكِّرُكِ في كلِ لَيْلَةٍ أن بتِلكَ المدينةِ رجُلًا يتمنَّاكِ!

(٥)

في الأيام التالية للزفاف اعتاد الخروج صباحًا في طريقٍ مرسوم إلى بيتها. يتهادى من بعيد جيئة ورواحًا منتظرًا أن تتخايل ولو طيفًا من وراء ستار. دار على جميع الحوانيت والدكاكين المجاورة لبيتها، حتى ألفه أصحابها وبات زبونًا خاصًا مستديمًا رغم سابق معرفتهم، والمدينة بأسرها، بالقائد الشاب ذي السمعة الطيبة والملاحة الماهرة. تُقلِّب يده في البضاعة وعيناه لا تريان منها شيئًا، وفي النهاية يشتري ويجزل العطاء دون كثير فصال.

وفي قمرته بالسفينة، تراكم سيفٌ تلو الآخر، دروع، أقمشة، حبال، أجولة من مكسرات، مشغولات من الخزف، وخناجر فارسية.

وتناقل رجاله فيما بينهم أن قائدهم على كرمه المعهود قد صار في الآونة الأخيرة جزيل البذل، يمنح الهدايا عديدة وكثيرة، دون مناسبة تُذكر. حتى أن أبناءهم كانوا يفوزون بين فترة وأخرى بحلوى وأحصنة خشبية وعرائس من قماش، فازدادوا بهذا له حبًا، وفكر أنهم لو عرفوا الحقيقة لأحبوها هي!. هي التي لم تظهر أبدًا، أو يلمح طرفًا من عباءتها...

رغم أنها كانت تراه كل يوم!

* * *

منذ تلك الليلة القديمة وهي تتلقّى وردةً بعد أخرى.

لا تعرف كيف استطاع ذاك المجهول أن يفعلها كل مرة، لكنه كان ينجح بمهارة غير مسبوقة، وبضربٍ أقرب للسحر، أن يدفع زهراته القانية إلى مخدعها ليلةً تلو الليلة. بعد فترة طويلة ستسأله وهي ترقد على رمال الصحراء، ضامة ساقيها إلى صدرها، تريح رأسًا مثقلًا بالأفكار والهموم على صدره:

- ألن تخبرني كيف كنت تتسلل إلى بيتنا لتدسَّ وردتي كل ليلة؟

سيطوِّقها بذراعيه، يحكم الشال الصوفي حول كتفيها من برد الليلة القاسية، ويتمتم مبتسمًا:

- يومًا ما ستعلمين.

حين ترفع رأسها إلى وجهه، ستسأل:

- متى؟

سيزيح خصلة انسدلت على عينها كما يحب:

- في ليلة زفافنا.

قشعريرة دافئة ستسري في بدنها النحيل، فيشعر بها. سيردف بحرارة:

- تزوجيني وسأجيبك عن كل أسئلة الكون يا (ورد). تزوجيني ولن يمسَّكِ معي نَصَبٌ ولا همّ ما حييت، ولن تشقي يومًا وحق الله.

ستتبسَّم في حياء امتزج بالحبور. ستريح رأسها من جديد على صدره ولن تردَّ. في تلك الأيام السعيدة لن يكون لديها بعدٌ رد.

لكن دعوا هذا حين يأتي زمانه، أما اليوم، ولسببٍ ما لم تعرفه، لم تحك (ورد) لأحدٍ عن الأمر برمته، ولا حتى أقرب صاحباتها. أتاها هاتفٌ من الغيب يرجوها أن تُبقي (حكايتها) سرًا لها، ولها وحدها.

هكذا أسمت الأمر: حكايتها.

كانت تختبر لأول مرة بحياتها شعورًا لم تشهده قبلًا أو تجرِّبه على ما سمعت مثيله من قريناتها اللاتي أحببن وأوسعن مجالسهن حديثًا عن العشق وعذوبته ونيرانه، وما يحدث بين المحبين باسمه.

غير أنها لم تر في حكايتها شيئًا مشينًا كما يفعلنْ، إحساسٌ أنبأها أن وراء الحكاية الفريدة حبًا حقيقيًا لا شهوة فيه ولا رغبة تجرح عذريته. كان لديها محبٌ مجهول، نبيل، شجاع، فائق الحسِّ، ورقيق القلب كالورود التي تزاحمت في حجرتها حتى أدهش مرآها جواريها.

من يكون ذاك الرجل؟

في البدء كانت تكابد روحها التى تتفلَّت من لجامها لتشرد في هذا الحبيب الذي لم يجرفه حبه فيتجاوز مرة حدًا أو يطلب ما يشين. لم يسألها لقاءً ولم يلفظ حرفًا يخدش بتولتها وحياءها. فقط وردة تلو أخرى بذات العبير الفريد الذي يبهجها، دون طلب، ودون كلمة. بعد بطاقته الأولى لم ينطق بحرفٍ قط ثانيةً.

في البدء كانت تقنع نفسها قسرًا أن ترى الأمر وقاحةً وتطفُّلًا. أي شيء يدفعها للتعامل مع ما يجري باستهانة واستخفاف، بل وربما بتحقيرٍ لا

يجعلها تستسلم لأنامل الأحلام الوادعة. لكن يومًا بعد آخر كانت مقاومتها تنهار، وتجد نفسها تترقب الليل وما يحمله.

من يكون ذاك الرجل؟

هكذا، وبمرور الليالي، راحت دون وعي ترسم له صورة من غزل الخيال. رأته فارسًا عريض المنكبين، واسع الصدر، مفتوله، تنطق ملامح وجهه الأسمر بالفتوة والبأس، رغم رقة قلبه وعذوبة أعطافه.

وتمادت في الأحلام، فقضت لياليها تُمعن في الصور وتقلِّب وجوه الرجال الذين يستقبلهم أبوها بدارهم. تضيف لونًا إلى الشعر، رسمًا للأعين، وشكلًا للقسمات، بل وحتى هيئةً للثياب!

لكن من الحق القول أنها لم تجنح بعيدًا عن الواقع، ذلك أن صليلًا لم يكن أشد منه وسامةً ورجولة. وبالإضافة لتهذيب خُلُقه، كانت صورته أقرب ما تكون لما حَلِمت به في خدرها.

* * *

- سأسألها قبل أن أخطو خطوة.

فضرب كفًّا بكفّ:

- تسأل من يا مجنون؟ أترى هذا قابلًا للنقاش؟ إنها زيدانية!

- لن يمنعني أحد عن البوح بما أريد. نحيا الحياة لمرة واحدة، وإنّا لمغادروها يومًا كما هم مغادرون، ففيم الخوف والإحجام!

- الأمر محسوم.

قال بعناد:

- هنالك استثناء لكل قاعدة.

- وتظن أنك ستكون هذا الاستثناء اليوم؟ استثناء لقاعدة دامت عقودًا؟

- الأمر ليس قرآنا منزّلًا!

- إنهم بدو. بدو. أتفهم ما يعنيه هذا؟ تقاليدهم وعاداتهم شرعٌ لا مزاح فيه.

- لكني أريدها.

صاح في وجهه:

- أهذا مبرر لتنصاع لك الحياة؟

- أنا أحبها.

- سيدهشك كم رجلًا لم يتزوج من يحب!

فصرخ بجنون:

- لن أتركها!

كم من الوقت مضى على هذا الحديث؟

مازال يذكر كلمات (عابد) تدوّي في أذنيه، تصمُّهما، لكنه آنذاك لم يكن يسمع، إن الرجل متى عشق كفَّت حواسه عن العمل إلا في سبيل معشوقه أو في صحبته. لا العين ترى سواه، ولا الأذن تسمع ما يدفعه

لإعمال عقله. وحده القلب يتحرك خافقًا وراءه كالدرويش، مُغيَّبًا ومسحورًا، حتى ينال مبتغاه أو يهلك دونه، فرحم الله في كل زمان عاشقًا أعماه الهوى!

(٦)

وحدث يومًا أن أصابها إرهاقٌ مفاجىء، شعرت به وهي تتسامر مع جاراتٍ لها ولأمها، فاستأذنت لتغادر إلى فراشها بغية الراحة. واقتحمت حجرتها وصورته تغزو خيالها حين... رأته!

مُتستِّرًا بالظلمة وانطفاء القناديل، وبثيابه المغرقة في السواد، حتى غدا قطعة من ليل (ألمرية) السادر الذي طال الحجرة. استدار على عقبيه فجأة وقد هاله مرآها عند باب الجناح. لحظة واحدة فقط تلاقت أعينهم فيها. لم تر ملامحه. فقط عينيه هي كل ما استطاعت أن تلمحه في بريق القمر الخافت، قبل أن ينتزع نفسه نزعًا من سكْرته ويندفع كالبرق إلى الشرفة. أرادت أن تهتف به، لكنَّ صوتها لم يسعفها. قفز (صليل) متعلقًا بالسور، ووثب منه وثبة واسعة إلى شرفة أخرى.

حين وجدت أعصابًا في ساقيها تفيان بالحركة، هرعت وراءه مُتخبطة. كان خياله ينسحب من بعيد وراء شجرة التوت العملاقة التي امتدت فروعها حتى شرفات البيت. اختفى من أمام عينيها في اللحظة التى همست فيها بلهف:

- انتظر، أرجوك!

لكنه لم يسمع فيتمهل. وكان آخر ما خطف بصرها، قطراتٌ من ندىً بارد على أوراق وردة خلَّفها الغريب وراءه على الأرض.

(٧)

بعد ثلاثة أيام اختفى فيها (صليل) تمامًا عن التسلل إلى بيتها، أو حتى الدنو نهارًا من الحوانيت المجاورة له، لم يطاوعه قلبه على الاستمرار في الغياب.

في اليوم الرابع خرج من بيته وقد اغتسل وتعطَّر. قطع الطريق أمام البيت مرة أو مرتين، آملًا أن تظهر، بَيْد أن شرفتها كانت مغلقة تمامًا.

سحبته قدماه لأحد الدكاكين، وفي قلبه جبالٌ من الترقب كلَّها الخوف والقلق، دون أن يدرك أن (ورد) كانت في انتظاره خلف الشرفة المغلقة منذ الصباح!

حين تراءى لها في أول الطريق البعيد، يدنو رصينًا رغم الانفعال المستعر بأعماقه، خفق قلبها دونما سبب.

سألت غريزتها: تُرى هل... ؟

حين أعاد مروره أمام المنزل مرة بعد أخرى شكَّت في غير يقين. وحين مضى إلى دكانٍ قريب، يتظاهر بمعاينة بضاعته وعيناه تجوبان شرفات البيت، ضحكت حتى دمعت عيناها من الفرحة.

شيئان فضحاه: عيناه اللتان لم تنسهما قط لثلاث ليالٍ، ودكان الأقمشة الذي وقف فيه القائد المُهاب بين الحريم شاردًا، يعاين قطعة من حريرٍ نسوي بين همس الفتيات وضحك الجواري!

(٨)

وانتهزت (ورد) الفرصة، فأرسلت جاريتها تتقفّى أثر ذاك الغامض. أوصتها بحرارة أن تنتبه لأدنى تصرف أو كلمة، حتى لا تلفت الأنظار لسؤال مخدومتها عنه. غير أن الفتاة كانت بارعة بحق، وساعدتها علاقاتها بأصحاب الحوانيت المجاورة على الوصول لخبر يقين. حين عادت لسيدتها بعد ساعة، كانت تحمل قصة طويلة عن الربّان الشاب:

- أتعرفين من هو يا مولاتي؟ إنه القائد (صليل).

- (صليل)!

ولاكت الإسم بتمهل. تعجبت كيف لم تسمع به قط.

«إنه قائد (سيف البحار) الشهيرة». تابعت الجارية بحماس. «رباه!.. إنهم يحكون عنه أساطيرٍ وحكايات تخطف القلوب».

- زيديني يا (سمراء)، ماذا يُقال عنه؟

- يقولون أنه أتى من بلادٍ بعيدة لا يُعرف لها أرضٌ ولا مكان، ولا يعرف قصته الحقيقية أحدٌ في (ألمرية) كلها، حتى شيخه (عابد). ورغم أنه استقر بمدينتنا قبل أربعة أعوام فحسب، لكنه استطاع الظفر بإعجاب مولانا الملك في أشهرٍ معدودات وأضحى أهلًا لثقته. يقولون أنه عرض عليه منصب قائد أسطوله، لكنه رفض لإنه لا يحب الحروب ولا القتال.

ثم مالت عليها مبتسمة:

- لكنَّ بحارته يشهدون له بالبأس والمهارة في النزال كمن وُلد في أرض الحروب ذاتها.

استحثتها (ورد) بعينيها للمزيد. اعتدلت الجارية وقد بدأت تشعر بأهميتها تتعاظم:

- يقولون أنه جاب البحار السبع، وقاتل وحوشًا ومخلوقاتٍ عجيبة، وطاف ببلدانٍ سحرية نجا بسفينته ورجاله من براثن وحوشها المروعة. إنه أمهر من ركب البحر في (ألمرية) عبر تاريخها.. كذا يرددون.

- بمدينتنا طوال أربعة سنوات ولم أسمع به مرة!

- لأنه رجلٌ نبيل يا مولاتي، لا يسهر أبدًا في خان (موسى)، ولم يشهده أحدٌ يعاقر خمرًا أو يرافق امرأة. حتى حفلات مولانا لا يحضرها، ولا يُرى خارج أسوار سفينته إلا في المسجد ليصلي...

وغمزت بعينها:

- أو في السوق القريب بكثرة هذه الأيام!

لكزتها (ورد) بقبضتها وهي تضحك دون أن تُعلِّق، فأتبعت الجارية:

- إن سيدي (نعيم) قد سافر معه مرتين حتى الآن مع سادة (ألمرية).

انتبهت (ورد).

«حتى سيدي (جارح)....». أردفت برنة بُغضٍ فشلت في مداراتها. «سمعته يتحدث عنه مرة بإعجابٍ لم يُخفه، ولو دريت أنكِ تهتمين لأمره لأخبرتك وقتها».

لاحت نظرة عتاب في عيني (ورد) وهي تبتسم مشفقة، تعذر خدم البيت إذ لا يطيقون عمها. هي ذاتها لم تكن تحبه كثيرًا، فلم تُنكر عليها شعورها. لكن في تلك اللحظة كانت من الانشغال في غاية بما هو أهم، فما سمعته من جاريتها أثار إعجابها إلى أقصى حد، وطوَّح خيالها إلى حافة السماء. وفي حنايا صدرٍ لم يشغله أحدٌ من قبل، كانت تسمع دقات قلبها باغيًا المزيد من فيض هذا الرجل.

واستقر سؤالٌ في الأعماق: ما قصتك يا (صليل)؟ وماذا تريد بي؟

(٩)

لكنَّ صليلًا انقطع عن السوق بغتة، وأتتها الأنباء أنه خرج في رحلة سريعة كلَّفه بها الملك نفسه، ولم يكن يجدر به أن يرفض.

بعد ستة أسابيع من انتظارٍ شاق، لكليهما، عاد. وكان أول ما فعله فور وصوله أن أتاها على استعجال، ومكث كعهده في الطرقات يتجوَّل تحت أنظارها المسرورة والخفية من وراء ستار.

في تلك اللحظات كان يجهل ما يدور في ثنايا البيت الصامت، وما يجول بعقل وقلب فاتنته. بالنسبة إليه كان الأمر معتادًا، واليوم ككل يوم، وإن كان يأمل مرة بعد أخرى لو يراها مصادفةً. فقط صدفة واحدة هي ما كانت أقصى آماله.

هذه المرة كانت السماء قد انتوت أن تجود عليه ببركاتها!

بعد انقطاعه كل هذا عنها، وبعد ليالٍ قضتها تتحرَّق شوقًا لتراه كما العادة، تفجَّرت برؤيته مشاعر أكبر من قدرتها على التحمُّل، وألهبها حسٌّ في قلبها أنكر عليها البقاء ككل مرة متلذذة بحِيرته من وراء حجاب. حين رأته قادمًا، وبعد أن تمالكت نفسها من المفاجأة، قررت أن تخرج إليه بأي ثمنٍ.

«قد يبوح!».

قالت لنفسها وهي تتنهد، قبل أن ترسل في طلب جاريتها.

(١٠)

وانفتحت البوابة، فتبدَّت من ورائها الشمس لاهبة!

كان بعيدًا عن بابها بمسافة. أسرع يهرب بوجهه وقد أربكته المفاجأة. هتف:

- أغثني يا ذا الجلال!

وأخذته جذوة الحب المتقدة في صدره، فجعل يلهث، وقلبه يثب في مكمنه. شدَّ ما شعر بالقسوة من فِعلتها غير المتوقعة، وتساءل هل انشغل كل هذا الوقت بتمنّي مرآها، حد عدم الإستعداد له؟

هبَّ حارسٌ في أعقابها، فأشارت له بخفّة أن يرجع، ومضت خارجة من البوابة، تتبعها (سمراء) شريكة السر.

كانت قد تنازلت هذه المرة عن الهودج الذي ألزمها عمّها به في كل مرة تغادر البيت. استغرقها وقتٌ حتى اقتنعت أمها على مضض أن تخالف الأوامر الصارمة لربِّ العائلة الكبير، وتُبقي الأمر سرًا.

وخطرت أمامه في ثوبٍ أبيض بسيط، بالغ الرقة، وبخمارٍ شفاف انسدل على وجهها فأكسبها جمالًا يخطف الأفئدة. انداحت مشاعره فرنا إليها بشوقٍ صادق نطقت به أعطافه، وحدَّجها بنظراتٍ لو كانت ملموسة لجسَّت كل ثنية فيها، ودفعتها للنظر تجاهه، لكنَّ وردًا كانت تكابد بإرادة حديدية

أن ترفع طرفها إليه أو حتى يلمح في وجهها أدنى اهتمام. من الخلف مالت (سمراء) على أذنها تهمس:

- إنه يتبعنا يا مولاتي.

فقالت محذِّرة:

- ولا إشارة أنك انتبهتِ له.

لوهلة في البدء مكث حائرًا، يسأل نفسه عما يصحُّ عمله: أتراه يتبعها أم يلوذ بوقفته حتى تعود؟ ماذا إن انتبهت إليه يتقفّى أثرها؟ ودهمه خاطر أن يطول بها الغياب، وقد لا تتكرر الفرصة، فصرع تردده، وتحركت ساقاه من تلقائها وراء المرأة التي أحاطت عنقه بخيطٍ ساحر غير مرئي.

كانت وجهتها غير محددة، تقف عند بائع ما في السوق، فتجيل البصر في معروضاته مليًّا، قبل أن تتحرك من جديد وجاريتها تتبعها. تعطف لآخر فتقلِّب في سلعه، قبل أن تهزَّ رأسها في غير رضى، وتستئنف جولتها.

من بين كل هذا كان يفكر إلام ينتهي به اليوم؟ أيمضي الوقت فتعود كما جاءت؟ أم تراه يجسر على الدنو منها لينطق بشيء؟

لحظتئذٍ ابتسم في سخرية وقد رنَّت الكلمة في عقله: يجسر!. القائد الشاب الذى ما هاب مخلوقًا ولا أحدًا غير ربه، تعجزه اليوم إرادة واهنة، تتحاشى الأقدام بحركة أو كلمة، نحو امرأةٍ في رقة الفراشة!. ألا لعنة الله على الحب الذي يُبدل الرجال!

يتقدم.. يحجم.. فيتراجع.. يتنهد ويقرر أن يعاود من جديد والعرق يغمره.

عند حانوت عطارة توقفت تبتاع تمرًا وتوابل لا توجد في (ألمرية) إلا عنده. كانت تلك محطتها الأخيرة، وفي أعماقها قدَّرت أنها سترجع بعدها ولو خائبة.

همس مؤنبًا نفسه:

- ألا خبتِ إن عجزتِ هذه المرة أيضًا.

أنسامٌ بحرية من الشمال هبَّت على وجهه أنعشته، ونفثت الأرض من تحت قدميه شذى البتلات التي بدأت في التفتُّح مع مقدم الربيع.

ملأ صدره بالهواء والأمل، وتحرك ناحيتها.

كان هذا حين اقتحم المشهد جندي أرمني أحمر البشرة من جنود الملك!

(١١)

قبل عقدٍ من الزمن، لم يخلِف الملك (المعتز بن فضل) وراءه على فراش الموت، سوى اثنين من الأبناء. بطبيعة الحال وحسب العُرف المفترض، كان العرش سيؤول في النهاية لأكبرهما. لولا أن ثَمِلَ الشاب الأصغر بالسلطة التي شَرَعَ أخوه يعبُّ منها، ولعبت خمرها بعقله فأردته جحيمًا من الأحلام والشهوات.

وتهامست الألسن الخبيثة في أذن الأمير الشاب، الذي لم يُعرف عنه قبل اليوم إلا ولعه بالغناء والموسيقى وأبدان الجواري، وإعراضٌ غير منكور عن السياسة ومشاغل الحكم، ولبثت حينًا تُقلِّبه على أخيه، وتستثير فيه رغبة حارقة أخذت في التعاظم، فأعمته إلا عن العرش المذهَّب.

واستبدَّت جمرة المُلك بقلبه، فسرى في جوف الليل اتفاقٌ مروِّع بينه وبين زوج أخيه، استيقظت بعده (ألمرية) في أحد الصباحات على وفاة مليكها، وتناقل الناس عن جواري القصر وخدمه إشاعة مفادها أن زوجته قد دسَّت سُمًّا زعَّافًا في زجاجة عطره الخاصة، فقتلته من فوره. لكنَّ أحدًا لم يعرف الحقيقة.

بعد شهور، سيجدونها مذبوحة العنق في مغطسها، وستُدفن بنت الأكرمين بليلٍ في مقابر الصدقة، في لحدٍ مجهول الهوية. لكنَّ مخدع

الملك العاشق الذي ضمَّها طويلًا حية، ما كان ليكشف لها شيئًا من حجب المستقبل!

وكرَّت الأحداث سريعًا، فآل الحكم إلى الشقيق الذي أسرَّ في نفسه ميل قائد جيشه إلى أخيه الكبير إبان وفاة الأب، رغم أنه كان صديقه هو، وإعلان ولائه له صادقًا في كل مقامٍ ومناسبة، حتى إنه حين عرض عليه مشاركته الانقلاب، وخطة تصفية الملك، رفض الخيانة مستنكرًا وأقسم ليُبلِّغنه، لولا أن سبقته يد القدر، فحتم القضاء قبل أن يُنقل للأخ ما يدبِّره أخوه. لم ينس الملك الجديد هذا قطّ، وعدَّها جريمة لا تُغتفر.

تولى (ابن المعتز) مقاليد البلاد، وصمتَ قائد الجيش عن الخيانة التي لم تجفُّ دمائها بعد. وكانت تلك هي زلّته العظمى التي أهلكته!

هكذا أرسل (ابن المعتز) يومًا لصديق الصبا يأمره بالاستعداد لبعثة غزوٍ في بلادٍ نائية وفقيرة، بحجة الاستيلاء على ثرواتها والانتفاع بها في (ألمرية). في تلك اللحظة لم يكن من سبيلٍ لقائده إلا أن يسمع ويطيع صاغرًا، وإلا حوكم بالخيانة أمام آلافٍ من الشعب الغافل.

لكنَّ البلاد البعيدة تجسَّدت لهم جحيمًا حقيقيًا، وقاتلهم شعبها صدًّا للغزو كالشياطين. لم يعد القائد من رحلته قط، وقيل أنه رجع خيمته في زخم القتال، مطعونًا بخنجرٍ مسموم في ظهره، لكنها كانت أقاويل لم يتبين صحتها من كذبها، المهم أن الجيش قد عاد بعدها في شراذم، مهلهلًا ومبعثر القوَّات.

وعزل الملك قادته بضربة سريعة، وقدَّمهم لمحاكمة علنية بحجة التخاذل وإلحاق الضرر بجيش البلاد، ثم سرَّح أغلب الجيش نفسه، واستقدم بدلًا منهم، لأول مرة في تاريخ (ألمرية)، فِرَقًا كاملة من الأتراك والفُرس والأرمن والجراكسة، في خليطٍ فجٍّ صنع منه جيشًا نظاميًا ولاؤه الأول والأخير له لا للبلاد. جيشًا لم يجد حروبًا كثيرة يخوضها، ولا بعثاتٍ وسرايا ينغمس فيها، فصوَّب سنان رجاله المُغرقين في الفراغ والسأم، وجشع سنوات فقر الصبا، إلى البلد وشعبها.

وغضَّ الملك الطرف على مضض، وانعقدت اتفاقية سرية بينه وبين قادة جيشه الأغراب أن يطلق يد رجالهم بحريَّة، مع تحاشي التطرُّف الزائد عن الحد ما استطاعوا، في مقابل أن يضمنوا بقاءه وبقاء نسله على العرش إلى أبد الآبدين!

هكذا، وواقفًا يرمق المشهد من بعيد بعينين قلقتين، قدَّر (صليل) إنه على وشك أن يشهد ضريبة جديدة يدفعها الأبرياء عن مليكهم (ابن المعتز)، وعن عرشٍ خُضِّبَ بالدم!

(١٢)

حين برز الجندي من العدم توقف (صليل) مكانه. انعقد حاجباه في اهتمامٍ غاضب، وسرت في بدنه رجفة مترقِّبة. عن بُعد وقفت فرقة من أربعة جنود تتابع قائدها بابتسامة جشعة. لم يلحظهم. لم يعرف ما يحدث بالضبط. اشرأب بعنقه محاولا الفهم والجندي يدنو من (ورد) قائلًا شيئا لم يتناهى إلى مسمعه، غير أنها لم تلتفت إليه. لم يبد على وجهها حتى أن سمعته أو أعطته اهتمامًا، كانت تتصرف كملكة تتسامى عن تلك التفاهات. حين تكررت محاولته وازدادت لزوجة، صاحت (سمراء) بشيءٍ تنهره. لم يرتدع. تعاظمت ابتسامته وكأن ما يحدث استثاره.

كان (صليل) من الغضب في غاية. مرقت في عروقه الغيرة والنخوة فنهشت قلبه. تعلقت أصابعه بغمد سيفه (العاقب) مُستعدًا للتدخُّل، لولا أن تمهّل مذكِّرًا نفسه بما لا يجب أن ينساه. ألجمت عقاله بقايا عقلٍ أنبأته بضرورة الستر الذي اصطنعه لنفسه طيلة تلك الأعوام في (ألمرية). لا يجب أن يخرقه الآن. عضَّ شفتيه في غيظٍ مكبوت. وبين غضبٍ وتردد كان يتمزق.

لبث مترقبًا يدعو الله أن يرحل الرجل بسلام، لكنه لم يرحل. في غفلة من (سمراء) مال على (ورد) يهمس في أذنها بكلمة. عندها تجمَّدت!

كانت طعنة لا كلمة. طعنة مسمومة من نصلٍ صدىء رشقت قلبها وروحها، ومنبع الشرف الذي لا تملك الحرة سواه. استدارت مصعوقة إلى الوراء. عيناها تبرقان غضبًا عاتيًا رغم الدمعات التي احتشدت متحجِّرةً على حدقتيها، وكأنها تأبى السقوط.

وتحت عيني (صليل) طوَّحت بكفِّها تلطمه لطمة قوية، كانت من العنف أن أسقطت الثور أرضًا في بقعة من الوحل والماء على جانب الطريق، وسحقت ابتسامته اللزجة على شفتيه، غير مصدِّق ما حدث له في ثانية واحدة.

تحفَّز الجنود. ارتقت أيديهم دون وعي إلى الأسلحة. تسمَّر المارة. رنّت الصفعة حد أن جعلتهم ينتبهون رغم الزحام والضوضاء. تحرك الجند تتقدمهم نذر الشر.

أغلبهم في هذا الجيش كانوا ضباعًا لا يتركون غنيمة أو فريسة ولو جيفةً دون أن ينهشوها، لكن فيما بينهم كانت بقايا من وحدة القطيع تسوقهم، وتدفعهم لحماية واحدهم إن اعترضه مكروه.

تحسس الجندي وجنته الملتهبة بأثر الصفعة. فحَّ من بين أسنانه:

- أيتها العاهرة!

ونهض يغشاه الجنون حد أن تجاهل المارة الذين بهتوا في وقفتهم يرمقون ما يحدث بارتياع، متوقعين كارثة تلوح في الأفق. أسرعت (سمراء) تحول بينه وبين مخدومتها فدفعها بعيدًا قبل أن ينقضَّ على (ورد). وبدون وعي، وبيدين تقاطرتا طينًا وماءً آسنًا، شقَّ ثوبها بجذبة

عنيفة تمزَّق على إثرها من أطراف العنق حتى الصدر، فبدا نحرها وقطاعٌ من نهديها عاريين يبرقان تحت نور الشمس.

صرخت (سمراء):

- مولاتي!.. أغيثونا يا أهل الله!

واندفعت تستر وردًا بشالها، بينما تجمَّد الناس في مكانهم كالموتى. أحاط الجند بقائدهم الواقف يلهث وعيناه تبرقان باللحم العاري الذي انكشف أمامه للحظة. برغم هذا شعر أنه تجاوز المدى بفِعلته، ودهس حاجزًا لم يكن ينبغي المساس به عند أولئك القوم.

وغريزيًا تراجع بظهره مُحتميًا بفرقته الصغيرة التى أشهرت السيوف في وجه المحيطين وقد خطر لهم ذات ما جال بذهنه. صاح أحدهم بعربية اختلطت بلكنةٍ رومية:

- إياكم أن تتحركوا.

- هذا جزاءُ البغايا.

وهتف ثالث مُحذِّرًا:

- لا يقربنَّ أحدكم وإلا حلَّ عليه غضب الملك.

لم يكن في حاجة لينبِّههم، فمن أسفٍ أنهم رغم الغضبة الصادقة في الأعماق، عرفوا ألا حيلة بيدهم أمام قوة غاشمة مدعومة بسلطانٍ لا قبل بمجابهته. تناقلت الأعين نظرة ذلٍ وحيرة. وأطرق الرجال يدارون عارًا تجلّى في الوجوه.

ألقى الأرمني نظرة أخيرة على (ورد) بين امرأتين يهدئانها و(سمراء)، مستترة بالشال الثقيل، غائبة في عالمٍ آخر، وبعينين اغرورقتا بدمعٍ صامت لا تريان مما حولها شيئًا.

تحركت الفرقة بحذر بين الناس، وفي أعماقهم سرى إحساسٌ تعاظم أن أحدًا لن يعترض. كان محض خطأً غير مقصود لن يدفع أحدهم ثمنه كالمعتاد.

كانوا يتحسسون سبيلًا للخروج من السوق، حين شدَّ أحد الجنود القائد من طرف زيه العسكري فانتبه. تبع إشارته إلى حيث وقف عن غير مبعدة منهم رجل طويل القامة، مفتول رغم رشاقة قدِّه، مُرخيًا سيفًا من يده إلى جانبه على الأرض، صامتًا يرمقهم بعينين حادتين كالصقرِ من وراء عمامته التي تلثَّم بطرفها.

قال جندي:

- ابتعد عن الطريق يا هذا. لا نبغي إيذاء أحدٍ اليوم.

لم يرد. صمته كان أحدَّ من ألف سيفٍ مصقول.

هتف ثانٍ في عصبية:

- أأنت أصم؟ قلنا ابتعد.

لم تطرف عيناه. لم يختلج. لم يحِدْ ناظره عنهم، مُجيلًا إياه بين وجوههم المحتنقة بالدماء العجمية. كان سيفه منسدلًا بتراخ لا يوحي بالحمم التي تمور في أعماقه بنار الكرامة الجريحة. بهزة بسيطة من كفّه

احتك طرف السيف بالأرض مُطلقًا شرارة صغيرة كلمعة برق. تابعوه بأعينٍ قلقة والسيف يتحرك في يده جيئةً ورواحًا، في إصرارٍ هادىء ومنذر، مُتابعًا الشرارة بمثيلتها، ومُصدرًا صوتًا خافت الحدة أثار رجفتهم.

في ظروفٍ أخرى، كان لابد من عقاب لتصرفٍ كهذا يُشجِّع العامة عليهم، ويقدح هيبتهم أمام الناس. لكن اليوم، وبعد الذي جرى، لم يكن الموقف بأكمله ليحتمل شرارة أخرى تأجج ناره أكثر.

وحَسِبَ الأرمني أن الرجل واحدٌ من القوم يبغي تعويضًا، فأخرج من طيات صدره صرّة صغيرة من عملاتٍ ذهبية ألقاها عند قدميه، فاستدارت نحوها العيون. رفع عقيرته يُسمع الجميع:

- لقد اعتَدَت هذه المرأة عليَّ أنا (فارتان بن آرام) ثاني كبار ضباط مولانا الملك، وحقَّ لي أن أعاقبها بما أراه الأمثل كيلا تتجرأ ثانيةً على فِعلٍ كهذا. إن من يعتدي على رجال الملك، فإنما يعتدي على الملك ذاته!. لكننا الفرسان تربينا على الشرف واحترام النساء، لذا سأكتفي بتأديبي البسيط ولن أزيد، وأُعلِمكم أني أعفو عنها الآن، لا أمسَّها أو أمسَّ حيِّكم بعقاب.

ثم أشار للصرة الملقاة أرضًا:

- هذه أعطية ملكية لا يجدر بكم رفضها. نحن هنا لحمايتكم لا معاداتكم. اقتسموها بعدلٍ فيما بينكم واشتروا لأبنائكم ما يشتهون.

كانت كلماته تتوالى رغم هدوئها الظاهري، كالسياط على وجوه القوم وأبدانهم، ولم يكن ليخطىء ذو عقلٍ في مدى قُبحها وجرحها لكبريائهم.

وتبادلوا النظرات فيما بينهم دون أن ينبس أحدٌ أو يتحرَّك. أما وقد ارتضوا على كُرهٍ الاهانة في شرف بناتهم، فلم يكن أحدهم ليجرؤ على التفكير حتى في إهانة مضاعفة بقبول «الأعطية». علامة الغفران.

لم تبد على الجميع أقل ارتجافة. حتى النسمات سكنت خجلًا. وترامت من بعيد أصوات النوارس على رصيف الميناء شاقة الصمت الذي عمَّ المكان، مُعلنة العلامة الوحيدة على أن المشهد ينطق بالحياة لا لوحة مرسومة بدقة. وإذ اطمئن الجنود لاستكانة الجميع، شرعوا في التحرك من جديد.

«أتعرف ما الأسوأ من إهانة امرأة عربية؟».

غمغم (صليل) من وراء لثامه، فانقسمت الأعين بينه وبين الأرمني الذي تلقّى السؤال بوجل. كان عِرقٌ من الدم ينبض بارزًا على جبين الأول، وقطراتٌ حامية من عَرَقٍ كالمُهل تشوي وجهه.

(ورد) التي انسحبت الصدمة ببطءٍ من أعماقها مُخلِّفة وراءها إحساسا عارم بالتيه والبرد، رفعت طرفها إليه تحدِّجه بنظرة من عينيها اللتين تحولتا لجمرتين حمراوين. تمنّى في تلك اللحظة أن يخلع لثامه فترى ملامحه. أن يضمها فيسترها بين ذراعيه. اخترقته نظرتها فأدمته. شعر أن انكسارها وعُريها قد نالاه هو، فأضحى مثلها عاريًا، مُهانًا.

كانت قد تعرَّفت عليه من عينيه، وتبيَّنته (سمراء) من ثيابه. لم تفهم الأخيرة سر تلثُّمِه. لكنَّ وردًا قدَّرت أنه لابد متورطٌ معها في إهانتها، حرٌّ مثله لم يكن ليقف مُشاهدًا وهي تُهان. لكنها لم تعرف إلام ستؤول غضبته،

وأي تصرفٍ قد يدفعه إليه الكبرياء النازف. ورمقته بعينين حزينتين. دمعاتها قبل لسانها تستصرخه. تستنجده!

«أتعرف ما الأسوأ من إهانة امرأة عربية يا (فارتان بن آرام)؟».

خفق قلب الرجل. توتر الجند وأيديهم تشتد على مقابض السيوف. كانت لهجة (صليل) تجمِّد الدم في العروق وهو يهمس كلماته مُطرقًا برأسه. حتى القوم الذين وقفوا يتابعون، أصابتهم قشعريرة باردة. زفرات صدره تتعاقب. يسمعونها واضحة كلهاث وحشٍ أسطوري. سيفه يخمش الأرض المرصوفة مرة بعد أخرى، وكأنه يلهو بهدوءٍ قاتل، وسكونٍ يقذف الرعب في القلوب.

توقف السيف بغتة.

انقطعت الزفرات. تقبَّضت العروق على ظهر يده المُمسكة بالسيف. انسابت قطرة عرق على جبينه، قبل أن تتراقص لحظة على الحافة ثم تسقط أرضًا.

«الأسوأ شيئان: أن تهينها فتحسب أنك ستفلت دون عقاب...».

ورفع عينيه إليه.

«وأن تفعل هذا أمام عربي مثلها!».

وانقضَّ.

(١٣)

حين تلقَّوا تدريبات القتال في ساحات القلعة البحرية، كان أهم دروسهم: ابقْ جاهزًا دومًا. في أي وقت وتحت أي ظرف، كن مستعدًا لكل طارىء. لكن المثير أن الملثَّم في ذلك اليوم كان أسرع من ردة فعلهم جميعًا. في لحظة كان يقف أمامهم هادئًا، رغم كلماته الصارمة، موحيًا بالخمول، وفي اللحظة التالية كان ينقضُّ عليهم كصاعقة.

انتصب السيف فجأة في يده. التمع الحديد تحت نور الشمس ببريقٍ مخيف، ووثب صاحبه نحوهم كليث. قبل أن يرتد طرفهم، كان أمامهم.

بضربة خاطفة كالمخلب، مزَّق بسيفه حزام أقرب الجنود. انفرط عقد ثيابه. تشتت لحظة كانت كافية أن يضربه (صليل) بمقبض السيف فيهشِّم أنفه. تحرك جندي عن يساره فأسرع يطعنه بذبابة سيفه في خاصرته، طعنة لم تكن غائرة، لكنها أحدثت جرحًا آلمه، قبل أن يهوي على وجهه بلكمة قاسية قذفته أرضًا.

كانت تلك ضربة البداية بالنسبة إليه. وثب للوراء مبتعدًا، في اللحظة التي أدرك أن وقع المفاجأة قد زال، وحان وقت الجنود للرد. بلى، كانوا في عينيه ستة أبدانٍ متثاقلة، نست الحركة إلا على الموائد والأسرَّة، لكنه كان يعرف أنهم بعدُ محاربون محترفون، بدروعٍ ثقيلة وسيوفٍ تعرف كيف النزال.

لم يتأخروا في تدارك موقفهم، بتشكيلٍ بسيط هجم عليه ثلاثة جنود دفعة واحدة، يسترون خلفهم الأرمني والجندي الرابع الذي أخذ يلملم زيّه المنفرط عن جسده.

هوى سيفٌ عليه من اليمين، يشق الهواء بفرقعة مسموعة، لكن صليلًا رفع سيفه يذبُّ عن جسده الضربة. أتت الثانية من اليسار فتحاشاها بمَيْلة سريعة لتضرب الفراغ بدلًا منه، لكن ركلة عنيفة باغتته في بطنه، من الجندي الأوسط الضخم كالغيلان بحذائه الثقيل، فتقهقر للوراء شاعرًا بالهواء يفرغ من معدته وألمٌ حارق يشقُّها كالسهم.

صرخ أحدهم واثبًا عليه، غير أن تفادى ضربته برشاقة رغم ألمه، قبل أن يهوى على أحد كتفيه بباطن السيف فيقعى الرجل صارخًا، وقبل أن يغلب نفسه طوَّح (صليل) بقدمه بقوة في وجهه فألقاه أرضًا فاقدًا الوعي.

في طفولته وحتى صدر شبابه كان يكره الدم كراهية التحريم. اجتهد معلموه أن يزرعوا فيه رغبة الانتصار في المعارك بأي ثمن ووسيلة، لكنه لم يستشعرها أبدًا إلا حين كان يهزم أعدائه بشرف، دون قطرة دم واحدة تُراق.

ظلت نفسه تعاف الدماء، وظل تفسير هذا عصيًا عن الفهم، حتى بالنسبة إليه.

اندفع جندي أشقر الشعر واللحية ناحيته، فتلقَّاه بسيفه يمتص ضربته، قبل أن يلكمه لكمة خاطفة في أسفل ذقنه فيرتد الرجل مُرتجّ الرأس. طوَّح الآخر الضخم ببلطته، فانحنى (صليل) للوراء ثانيًا ركبتيه ومُبعدًا رأسه

بسرعة لتمر الضربة من أمام صدره شاقة الهواء كالسوط. مدَّ الأشقر سيفه طاعنًا إياه، لكنه قرع السيف بمثيله بحركة بارعة ردَّه بها، قبل أن يثب بقوة ناحيته ليهوي على وجهه برأسه، فيتلقى الرجل ضربة من جبينٍ كالفولاذ كانت كمطرقة رمته إلى الوراء وقد غامت الدنيا أمام عينيه.

هرع العملاق من ورائه، فهتف واحدٌ من الجَمْع:

- احذر!

حاول أن يميل بجذعه بعيدًا، لكن الجندي كان أسرع، هوى على ظهره بقبضتيه المضمومتين، فأطلق الشاب آهة حارقة وهو ينهار أرضًا. شهقت (ورد) في ارتياع، وكادت تصرخ بإسمه لولا أن تداركت نفسها في اللحظة الأخيرة.

رفع العملاق قدمه ليهوي عليه بها، لكنه تدحرج متفلِّتًا لتدبَّ قدم الرجل على الأرض فتزلزلها. وتحامل (صليل) على قدميه فنهض واقفًا. بحث بعينيه عن سيفه المُلقى أرضًا، فوجده بعيدًا عن متناوله وراء الجندي. مكث الإثنان يترامقان وأنفاسهما تتلاحق. كلٌ يفكر في خطوته التالية.

شعر الجندي الأخير وقد لملم ثيابه، أن المعركة برغم وجود العملاق طرفًا فيها، تميل ناحية العربي الذي تغلّب وحده على رفاقه، وألهبه كبرياؤه المُهان فقرر التدخُّل بنفسه. اقتحم المشهد هاجمًا على (صليل) بسيفه. زمجر الضخم وهو يرى زميله يُفسد قتاله الخاص، بَيْد أنه أمام الرتبة الأعلى تراجع سامحًا في خضوعٍ صامت.

أسرع (صليل) لإحدى العربات المحمّلة بالفاكهة فالتقط من عليها حبلًا قصيرًا. هجم الجندي بسيفه، فتنحّى الشاب متفاديًا الضربة الأولى، لكن أعقبتها أخرى، وأخرى. كان سريعًا وضرباته مُحكمة، وقدّر (صليل) أنه رغم مباغتته في البدء لكن هذا لا يعني أنه أدنى كفاءة أو مهارة.

وكان أن وثب عليه الجندي طاعنًا إياه بقوة، لولا أن مال (صليل) لأسفل، وبحركة بارعة أدار الحبل حول يده، ثم استدار حول نفسه والجندي في آن فصار خلفه. أحاط عنقه بالحبل. طوّح الجندي بسيفه للوراء محاولًا طعنه، لكنه تفاداه من جديد ليضيف عقدة ثالثة للحبل حول خصره. عقدة تلو أخرى، بدأ الجندي يشعر بالاختناق و(صليل) يتفادى ضرباته كالزئبق، غازلًا الحبل حول جسده.

وقفز (صليل) وطرف الحبل في يده، ثم هوى به بكل قوته على الأرض، فتوتر الحبل بأكمله واشتد بعنف طارحًا الجندي معه أرضًا. من العدم برز الجندي العملاق ليحيط بذراعيه خصر (صليل) ويرفعه عن الأرض. كان يخور وهو يطوِّح بالشاب يمنة ويسرة. شعر الأخير بالدنيا تدور تحت بصره. وضغط العملاق على خصره مُحاولًا تهشيم عظامه، فأحس (صليل) بالهواء ينفد من صدره والرؤية تغيم من أمام عينيه. أخذت مقاومته تنهار. بحركة يائسة مال بجسده مُلقيا بكل ثقله للأمام فمال معه الجندي. ارتكز بقدميه المضمومتين على الأرض قبل أن يدفعهما بقوة مباغتة، ليتراجع الجندي بحمله للوراء فيختل توازنه ويسقط أرضًا.

وأثقله جسده الضخم أن ينهض بالسرعة التى هبَّ بها (صليل) واقفًا على قدميه. كانت المعركة توشك على الحسم، وشعر (صليل) أن الأسرع

الآن هو من سينتصر. اندفع نحوه كالقذيفة. ودون أن يتمهل لحظة انحنى بجذعه وهو يجري مُلتقطًا حجرين متوسطي الحجم، ومُلقيين كيفما اتفق على الأرض، قبل أن يثب طائرًا ناحية العملاق فيلطمه على صدغيه بهما بقوة ساحقة. ارتجَّ رأس الرجل وترنَّح هنيهة. بيده اليمنى التي اعتصرت الحجر هوى (صليل) على وجهه بلكمة قاسية أعقبها بأخرى بيسراه أسفل فكه. تخبَّط الجندي بوقْع الضربات، وتهالك على ركبته وقد سال الدم من شدقيه. لم يمهله (صليل) ليستجمع قواه. انثنى على نفسه برشاقة ضاربًا بالحجر ركبته الأخرى فقرقعت بصوتٍ مسموع، وتهاوى صاحبها يعوي ألمًا.

انهال عليه بلكماتٍ متلاحقة في وجهه وأنفه وفكّه، فبلغ الإعياء بالجندي مبلغه، وتورَّمت عيناه وتمزَّقت شفته السفلى. عندئذٍ وثب (صليل) يعتلي أكتافه، ويكلِّب عنقه بساقيه، ثم يدور حول نفسه وهو يميل للأمام بكل ثقله، فيهوي معه الجندي الفاقد للمقاومة، ليدكَّ رأسه الأرض بدويٍ هائل ويسكن عندها تمامًا.

وعمَّ الصمت المكان!

تناقل الناس النظرات غير مصدقين ما جرى أمامهم في دقائق معدودة. كانت أرواحهم مبهورة الأنفاس. وأمام أعينهم وقف (صليل) بصعوبة وهو يكابد إعياءً غير عادي. شعر بخيطٍ من الدم يجري وراء لثامه، لكنه لم يبال.

واقفًا مُنتفضًا في ذعر، كان هدفه الأوحد (ابن آرام) يتخايل أمام عينيه اللتين تنضحان بُغضًا.

تحرك نحوه بخطىً حثيثة وهادئة ألقت الرعب في قلب الرجل أكثر. كانت فكرة القتال حمايةً لعنقه قد انهارت في أعماقه تمامًا. حاول التراجع فارًا بنفسه، لكنه اصطدم بحاجز من الناس تجمَّع أمامه يسدُّ عليه المنفذ. ارتبك. تعثَّرت أنفاسه تحت أطنانٍ من الدهن. استدار على عقبيه. كان هذا حين وجد حد السيف على جانب عنقه، وخلفه عينان تلمعان ببريقٍ مخيف.

«اركع!».

بدا وكأنه لم يسمع جيدًا. غمغم زائغ البصر:

- ما.. ماذا؟

قال بصرامة:

- لا أكرر كلماتي مرتين. على ركبتيك.. الآن!

نقل الأرمني بصره بين الجموع المحتشدة. كانت مئات الأزواج من الأعين تخترق جسده. تنهشه في تشفٍ واضح. مُرغمًا وشاعرًا بالمهانة ركع. ثبّت عينيه على (صليل) وكأنه يستغيث به ألا يُغالي في انتقامه.

- احنِ رأسك واعتذر لمن أخطأتَ بحقها.

- ولكن...

صاح بصوتٍ كالرعد:

- اعتذر.

هتف مفزوعًا وعيناه لا تُبصران (ورد):

- أنا آسف.. آسف.. اغفري لي.

تراجع (صليل) خطوة. ثبّت السيف على شفا حَلَقه، حتى شعر الأرمني وكأنه سيُذبح إن ازدرد ريقه.

- الاعتذار للمرأتين.

كان وجه الجندي يغرق بعرقٍ بارد كالسيل. ضم كفيه أمام صدره مُستعطفًا:

- أرجوك أيها السيد النبيل، كيف أعتذر لخادمة؟ إنني...

انغرست ذبابة السيف في جانب عنقه، فتسللت قطرة دم من تحتها تجري على اللحم الأبيض المرتع بالشحم. صرخ الرجل:

- حسنًا، حسنًا. تمهّل أرجوك.

ثم باكيًا:

- غفرانك سيدتي.. غفرانك.. أعتذر لكِ ولخادمتك.

وراء اللثام الذي مازجه الدم، ابتسم (صليل) في رضى. رفع عينيه إليها فوجدها تحدِّق فيه ذاهلة. وأمام الجميع سألها بصوتٍ عالٍ:

- هل رضيتِ؟

استدارت إليها العيون مترقبة الردَّ، وفي أعماق كل امرأة تسللت حسرة مازجها حسدٌ وغيرة. لم تنطق. أثقلها الردُّ وكأنه حجرٌ قُيِّد لسانها. أمام أنظار الناس التي أخجلتها، أومأت برأسها علامة الإيجاب.

في هذه اللحظة كانت تنازعها كافة مشاعر الأرض: الخوف، والغضب، والانكسار، والفرح، وفخرٌ عميق حد التيه.

كان قلبها يخفق مشحونًا بدفقات المشاعر المختلطة. تتصارع في بدنها الغضّ آلاف الانفعالات كصواعق البرق، سارية في دمها تدغدغه. وتوارى ما جرى لها قبل قليل خلف صورة هائلة لبطلٍ أسطوري ردَّ إليها شرفها على ملأٍ من الناس. كانت فَرِحَة، من عجبٍ أنها كانت فَرِحَة، وكأن كل آلامها قد تبدَّلت بضربة عصا سحرية، أو بكلمة اعتذار توَّجت الدنيا من حولها.

وهمست بشيءٍ دون صوت، فرفعت (سمراء) طرفها إليها مدهوشة. غمغمت:

- مولاتي، لا يصح...

قاطعتها بأن رفعت صوتها هاتفة من جديد بذات الكلمة، فازداد ارتباك (سمراء).

لكنَّ (صليل) سمعها، كما سمعها كل الحاضرين.

كان الوقت قد أزف، وقدَّر (صليل) أن من الخطورة بمكان أن يظل هنا بما ارتكب مع رجال الملك. كان عليه أن يرحل فورًا.

تراجع بظهره مُنسحبًا، قبل أن يُلقي بسيف الجندي من يده، ويلتقط سيفه عن الأرض. ولبث الأرمني يتابعه وقد غزا الغضب العارم ملامحه التي كانت تنطق قبل قليل بالفزع. ومن بين دموع الغيظ أقسم بأجداده لينزعنَّ عينيه نزعًا أمام الملأ جزاء فِعلته تلك.

وكأنه قرأ ما يعتمل بقلبه. تراقصت ابتسامة ساخرة في عيني (صليل) السوداوين، قبل أن ينحني نصف انحناءة باستهتار، ثم يستدير على عقبيه، وينطلق يجري مُخترقًا السوق.

الناس الذين كانوا مُسمَّرين يتابعون ما يجرى وكأن على رؤوسهم الطير، تدفقت في عروقهم أحاسيس الظفر المفاجىء، وكأنهم عائدين من حربٍ ضروس انتصروا فيها. واحدًا تلو الآخر غادروا وهم يلهجون بالحديث في انتشاء، ولم يمض وقتٌ حتى كان الجَمْع قد انفض وخلا السوق. وسط الزحام اختفت (سمراء) بمخدومتها عن الأعين. وكان آخر ما تناقله الناس، كلمة الفتاة الشابة التى صكَّت أسماعهم قبل الرحيل:

- هل فهمتَ ما كانت تعني؟

- كانت تقصد الاعتذار حتمًا.

- أرأيتم ما رأيتُ؟ كان مذهلًا!.. من أين أتى هذا الغريب؟

- سقاه الله، ردَّ كرامتنا.

وأسرَّت امرأة لصاحبتها وهي تنتقي خُضَرًا:

- تُرى، ماذا كانت تقصد تلك الفتاة بكلمتها؟

- لابد أن في الأمر سرًا!

وتنهدت إحداهن بحسرة:

- يا ليت بعولنا بنصف رجولته.

(صليل) الذي كان يجري بقوة الريح عبر الطرقات الضيقة، كانت روحه تضجُّ بضحكة صاخبة كالرنين. ملامحه المخفية تصرخ منتشية رغم الألم، وطوفانٌ من الفرح يُغدق أنفاسه.

يجري.. يتجاوز.. يثب.. وينعطف، وعند طرف الميدان الواسع وقف يلهث مبتسمًا. عطف ببصره إلى الساحة التى كان يشغلها قبل قليل. أمعن في الابتسام. ورددت أعطافه كلمتها المعبَّقة بشذى الورد، التي صرخت بها على رؤوس الأشهاد: «موافقة».

أجابته عن سؤالٍ لم يسأله، فهل قصدت حقًا ما فَهِم؟ رباه!

وتهامس المارة باستغراب عن المجنون الذي أطلق ضحكة جذبت أسماع من حوله، قبل أن يختفي صاحبها عن الأعين وكأنه لم يُوجد!

(١٤)

دارت أقداح القهوة قبل أن ينزل أهل البيت. استقبلهما خادمٌ فقادهما لديوانٍ فخم مفروشٍ بعناية لاستقبال الضيوف، ثم مضى يستدعي مخدوميه. قبل أن يأتي أحد كانت القهوة قد وُضِعت أمامهما، لكنها لم تُمسّ، كانت الرهبة تُخيِّم على قلبيهما.

همس (عابد) لنفسه:

- هذا جنون وربُ الحسين!

* * *

حين أتاه تلك الليلة كان يرتجف. ينشج ويضحك في وقتٍ واحد كالمخبول. ولبث مليًّا حتى استعاد رشده في النهاية مُسيطرًا على انفعالاته. حكى له ما دار في الظهيرة بينه وبين جنود الملك. شهق (عابد) فزعًا، وكاد ينفجر في وجهه تأنيبًا على هتك الستر بفِعلة حمقاء، لكنَّ الشاب أنبأه أنه كان متلثِّمًا فلم يتعرَّف عليه أحد، ثم أنه استدرك شارحًا ما كان منهم في حق (ورد) فألجم لسانه عن التقريع، تناوبته الحيرة بين ما كان يجب على (صليل) فعله لصالح نفسه، وبين شرفٍ تربّوا عليه ونخوة تحرق العروق. في الأخير فضّل الصمت تاركًا له المجال ليكمل روايته.

حين انتهى ختم بكلمتها العجيبة التي أثارت دهشته:

«موافقة؟». سأل مستنكرًا. «الفتاة مجنونة!».

- صنْ لسانك يا هذا!

لوَّح بيده:

- عشرات الأعين ترقبها، ومعركة كاملة دارت تحت بصرها، ومن أجلها، وتنطق بهذا الرد دون أن تملك لسانها؟ أتراها كانت تعرف بأمرك؟

- لا أدري. لقد فكرتُ طويلًا في هذا، ولم يُرحني جواب. ربما رأتني مرة أو مرتين أمام بيتها دون أن أنتبه فتعرَّفت علي.

- ألم تكن ملثَّمًا؟

- آه، بلى، قد نسيتُ.

وزفر حائرًا:

- لا أعرف حقًا يا (عابد). لا يصعب على من مثلها أن تدرك مشاعر الرجال من نظراتهم. ربما فضحتني عيناي. ربما أي شيء. لا أعرف صدقًا.

وهز رأسه مُستدركًا بحماس:

- المهم أنها أجابتني، ففيم الانتظار؟ لم يبقْ إلا أن نطلب يدها.

قال برصانة:

- على قدر الأمور يكون التأني.

- إن كنت تضيقَ بصُحبتي يمكنني أن أذهب وحدي.

ردَّ مُشفقًا:

- أكره أن أردَّ طلبك، وإني لمستعد أن أتقدمك إليها ألف مرة، لكني أخشى عليك.

- ما اعتدتُ أن يعيقني الخوف.

فقال (عابد) بأسى:

- قلبك يسوقك لرفضٍ قاطع.

- سأجرب حظي، وقلبها يدعمني.

ثم مُنهيًا بتصميم:

- إن ردوني خائبًا، فما نفعي بالخوف وصون الكرامة؟

فسكت (عابد) برهة مُفكِّرًا، ثم قال بتسليم:

- لله الأمر إذن. لا يدفعنَّك الطيش لقولٍ يُحسب علينا. هناك، أمام الرجال، لا أريدك أن تنطق بحرف.

تهلل وجه (صليل)، فأضاف (عابد) ساهمًا:

- إن كان الله يريد أمرًا، فمن أنا لأمنعه؟

* * *

وقال الشيخ (نعيم):

- تفضّلوا القهوة. أمركم مُجابٌ بإذن الله.

استبشر الضيفان خيرًا، وتململ (صليل) في جلسته ورغبته تحرق أحشائه.

قال (عابد):

- أكرمك الله وأدام فضلك يا شيخنا. أنت سيدنا وابن سيدنا.

- عفوك يا (عابد). كان أبي رحمه الله يحبك كثيرًا.

- رحمة الله عليه، خير الرجال وأفضلهم.

ثم مُضيفًا:

- ولم يخلف وراءه إلا من يشابهه خُلُقًا وكرمًا.

هز الشيخ رأسه راضيًا، وبدا مُستحسنًا القول الذي أطربه. أتبع (عابد) بتهذيب:

- الحق أننا طمعنا في شيء عندكم أردنا أن نزين به بيتنا الفقير.

- سل ما تريد يا (عابد). والله لو كانت زينتكم في أغلى درَّةٍ لدي ما عززتها عنكم.

ترامق الضيفان بنظرة. قال (عابد):

- صدقتَ يا شيخنا، إنها أغلى درَّة حقًا.

وتنحنح مُفضيًا بقوله قبل أن يتخاذل:

- نطمع في طلب يد ابنتكم (ورد) لربيبنا (صليل) قائد (سيف البحار) ومالكها.

بُهتَ الرجل وانحبس صوته، وبدا وكأن المفاجأة قد أعجزته عن التعقيب. قال بعد برهة بصوتٍ مبحوح:

- يعني.. ومن في أرجاء (ألمرية) لا يعرف رجُلنا، ويشهد له بعظيم الأخلاق؟

ثم أطرق متحرِّجًا:

- والله يا (عابد) لو طلبتَ غيرها ما كنتُ لأردَّك خائبًا، لكنك تعرف عائلتنا والتقاليد.

هوى قلب (صليل). قال (عابد) منتقيًا كلماته:

- نعرف يا شيخ، ووالله ما قصدنا بالطلب إهانة شرعكم. لولا ثقتنا في جُودِك ما سمحنا لأنفسنا بالقدوم لنطلب أغلى ما تملكون.

ثم أشار لـ(صليل) قائلًا بحرارة:

- إن صليلًا قد لا يكون ولدي حقًا، لكني عاشرته سنينًا حين قَدِمَ (ألمرية) لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد. ليس مثلي من يشهد له بحُسن الطباع وكرم الأخلاق والمروءة. إنه سليل بيتٍ كريم يعرف الأصول ويجلُّ القوارير و....

«إنى لأتساءل عن كنه هذا البيت يا (عابد)!».

استداروا جميعًا للباب المُشرع فطالعهم (جارح). كانت المرة الخامسة التى يراه فيها (صليل) طوال إقامته بالمدينة، لكن هذه المرة لم يمنع جسده عن رجفة غريبة سرت فيه حين رآه. واقفًا بالباب يسدُّ فتحته بقامته

المديدة، وعباءته السوداء الفضفاضة، وبنيانه المفتول رغم كهولته. عيناه اللتان تكحَّلتا بالسواد كانتا تنبجس منهما نظراتٌ كالسهام تنخز بدن الشاب، لكنه تجلد مُخفيًا قلقه خلف وجهٍ علّمه البحر كيف البأس ومجابهة الخوف.

بخطواتٍ هادئة تثير الأعصاب، تقدّم ناحية مقعده تحفَّه المهابة، وتسبقه عصاه المزيَّنة بنقوشٍ عربية دقيقة، وتستقر على قمتها رأس ذئب مجوَّفة. جلس مرتكزًا عليها ببطءٍ متعمَّد وكأنه يتلذذ بالصمت الذي عمَّ المجلس حين وصوله. قال بابتسامة ثقيلة:

- من الحق القول أني لم أقابل بالمدينة من يعرف قصة قائدك، أو أصله، أو حتى من أي بيتٍ هو يا (عابد).

- لا أحسبك تعرف كل رجال (بَلَنْسِيَة)يا شيخ (جارح)!. لقد غادر الفتى صغيرًا فلا يعرفه أحد هناك. على أية حال أعطونا كلمتكم، ويمكنني أن أصطحبك بنفسي إلى هناك لتسأل عن سلساله فيها.

غمغم (نعيم):

- لا حاجة بنا لهذا يا (عابد)، الشاب زينة (ألمرية)، فلابد أنه من بيتٍ طيب.

قال (جارح):

- منذ اليوم المشؤوم والبيت لا ينقطع من طالبي القُرب. أتُرى ربّاننا الشاب قد سمع بما جرى لابنتنا، فأراد مواساتنا كغيره؟

هتف (عابد) باستنكار:

- ماذا تقول يا شيخ!. إن وردًا لا تنتظر شفقةً من أحد مهما لمع نجمه أو علا شأنه. ما حدث لها قد يحدث لأيٍ من بناتنا في كل يوم، وما رغبتنا إلا في فتاةٍ هي أجمل الفتيات، ومصاهرة بيتٍ هو أنبل البيوت.

تراجع (جارح) في جلسته بغير رضى، وتمتم (نعيم) بتواضع:

- غفر الله لك يا (عابد). والله إنك لتنطق بما تعجز الألسن عن ردِّه.

فبادر (عابد) يزيد الحديد طرْقًا:

- إذن يمكننا اعتبار هذا قبولًا حسنًا؟

تبادل الشقيقان النظر. تحاشى الشيخ عين مُحدِّثه وقال:

- والله يا (عابد)...

قاطعه (جارح) بقولٍ حاد كالنصل:

- طلبكم مرفوض مع أسفي.

انسحق قلب (صليل)، واتسعت عيناه بارتياع تجلّى في ملامحه. لم تصفعه مهانة الرد بقدر أن طعنته الكلمة بغدرٍ. وذكر أملًا خفق في صدره هذا الصباح أن القبول حليفه اليوم، فكيف انقلبت الأحوال بقسوة؟

ترددت الكلمة بإصرارٍ خبيث في ذهنه، فحاول دفعها ما استطاع وكأنه يلفظ روحه. أخَسِرَ وردًا بكلمة؟ وهمس بصوتٍ لا يُسمع:

- ولكن.. لماذا؟

عقد (عابد) حاجبيه باستياء وقال:

- لم نسمع قول أبيها.

انقبضت يد (جارح) على رأس عصاه، وقال من بين أسنانه:

- (نعيم) أخي الأكبر وأمره نافذٌ لا مراء، لكني ربُّ هذا البيت ومن فيه، فلا راد لكلمتي.

- لن يضيركم التفكير والمشاورة.

قال باستنكار:

- في ماذا؟ في خرق التقاليد وإهانة أعرافنا؟ والله ما كنتُ ولا كان رجلٌ من الزيدانية إن نسينا شرعنا وأهملناه، ولو طال بنا التفكير دهرًا.

ردد (صليل) بأملٍ شاحب وكأنه لم يعِ ما سمع:

- يمكننا أن نمهلكم وقتًا.

- تمهلنا؟!

وحدجَّه بنظرة قصيرة متعجرفة قبل أن يقول في تأفف لـ(عابد):

- علّم ولدك أن يسأل عن الرجال قبل أن يأتي إلى بيتهم مُهينًا إياهم.

ثم أدار رأسه إليه بازدراء:

- الزيدانية يا فتى لا يُفكّرون مرتين، قولهم سيفٌ، وأمرهم على قلب رجلٍ واحد.

ولوَّح بيده بفخر:

- قد نكون تجَّارًا اليوم، لكننا لم ننس أصولنا يومًا. نحن بدو أحفاد الصحارى والريح. نساؤنا كالدرِّ لا نمنحها إلا لمن يستحقها، ولا يستحقها إلا من كان زيدانيًا أبًا عن جد.

- ولكني أعرف كيف أصون...

رفع (جارح) عقيرته للباب المفتوح:

- الطعام يا أهل الدار.

ثم عاد إليه بوجهه:

- ماذا كنتَ تقول؟

قطع (صليل) حديثه مصدومًا. غاص الشيخ (نعيم) في مقعده أكثر، وشرد في السماء البادية وراء النافذة مُحتقنًا وجهه الأبيض بالدم. قبل أن ينطق الفتى أسرع (عابد):

- كان يقول أن ابنتكم تاج بنات (ألمرية). عسى الله يرزقها بمن يصونها ويستحقها بإذنه جل وعلا.

ثم نهض بتهذيب:

- والآن اسمحوا لنا بالانصراف.

لم يردّ أحدٌ من آل البيت كلمتهم. مضى (عابد) يتبعه الشاب بخطىً تتشبث بكبرياءٍ مُهدر. حين انصفق الباب من خلفهم، انهارت مقاومة

(صليل)، تسللت عبرة مختنقة من عينه إلى وجنته تذيبها، وزفر (عابد) بحرارة هامسًا:

- تعِسَ من بات ليلته حارقًا القلوب بظُلمه!

(١٥)

انقضت الأيام على الشاب في سكونٍ حزين، وغرقت القُمرة الزاهية في صمتٍ جنائزي يكتم الأنفاس: لا صخب، لا كلمة، ولا أدنى بادرة تُشعر الآخرين بحركة تدبُّ في أوصال الشاب الذي لطالما ضجَّ بالحياة.

(عابد) الذي كان يحرقه كل نَفَسٍ في صدر ربيبه، كان يتألم مثله صامتًا، بَيْد أن مكانته كقائد السفينة الثاني، ألزمته أن يدير شؤونها، وشؤون عشرات العاملين عليها، دون أن يُبدي تغيُّرًا كمولاه.

واجتهد الرجال في تقصِّي أحوال ربّانهم الذي انطفأ قنديل روحه، فباءت مساعيهم بالفشل، غير أن مدينة صغيرة كـ(ألمرية) لم يكن الخبر ليُكتم فيها أكثر من يومٍ وليلة، سُرعان ما تناقلت الألسن سرًا قصة البحّار الذي رفضه آل الزيدانية بقسوة، لوضاعة نسبه واعتزازهم بدمهم النبيل. ولأيامٍ تحاكى الرجال محزونين، ولاكت النسوة الخبر حتى قتلته حكيًا وتقليبًا، قبل أن تطوي الصدور القصة، وتُنسى في خضم الحياة كعادة الناس في كل زمان.

أما على الناحية الأخرى، فكان صراعٌ يتولَّد في بيت الزيدانية مُنذرًا بالشقاق.

قال الشيخ (نعيم):

- قد ارتضينا بكَ كبيرًا لعائلتنا، وآمرًا في شؤونها، لكن القيادة رحمة يا أخي!

- والوهن خيانة للأجداد.

- لقد تربَّينا على عاداتٍ لم نخترها ولم تعد تناسبنا.

صاح غاضبًا:

- العادات هي الأسرة، وشرعها قانونٌ لا يقبل التهاون.

- لو كانت ابنتك ما كنتَ لتفعل بها هذا!

- لو كانت ابنتي لقتلتها إن عصت أمري.

تدخَّلت (رحيمة) بجزع:

- حنانيك يا (جارح). ارفق بزهرة عشيرتنا.

- ويلك يا امرأة، مالكِ وحديث الرجال؟

ثم بحنق:

- لولا تدليلكِ ما تمردت على كبرائها.

- الفتاة لم تنطق!

هدَرَ (جارح):

- ولم يغمض لها جفن، ولم تأكل أو تشرب لثلاث ليالٍ. أعلم ما يدور خلف كل بابٍ مغلق في هذا البيت. أتروم عقابنا؟ أتظن أنها بهذا ستدفعنا لما لا نطيق؟ هذا والله مُحال!

ردد (نعيم) بأسى:

- لو كانت ابنتك ما كنتَ لتفعل بها هذا.

تنازعت (رحيمة) بين الخوف والاشفاق، وطافت صورة ابنتها في خاطرها المُحتقن، فألقت حملها على الله:

- وما ضيرنا إن زوجناه وردًا؟ الشاب قرَّة عين (ألمرية)، وما شَهِدَ عليه أحدٌ قط بسوءٍ كأقرانه. البنت تريده. أنا أدرى الناس بهذا.

صرخ في وجهها فأفزعها:

- تريده؟! يا لبؤسك أنتِ وابنتكِ! متى رأته؟ وكيف؟ أدار بينهما شيء؟

غاض وجهها رعبًا:

- لا وربٌّ البيت. الشاب ذو سمعة، وثرثرة البنات في المخادع لا تنتهي.

- إذن يشاغلها بمحاسنه!. والله لأشكونَّه عند الملك.

فقال (نعيم) مُشفقًا:

- رُحماك يا أخي. يكفيه ما فيه ورأيته بعينك يوم زيارته. دعه لشأنه وعسى الله أن يُلهم الجميع النسيان.

- إن اقترب مترًا من بيت الزيدانية فهو ميت.

وشدَّ قبضته:

- لن أسمح بخرقٍ في أسرتنا قطُّ ولو أحرقتُ الدنيا ومن فيها.

وفي المساء أنهى صلاته وقبض بقوة على مسبحته داعيًا الله بوجلٍ:

- اللهم ألهمني القوة لأقود سفينتي بأمان. وامنحني قدرتك على ما ليس منه بد.

لكنَّ صليلًا كان يتخبَّط بسفينته!

حاول كثيرًا أن يغادر قُمرته ليتفاعل مع رجاله، أو يتسامر معهم ليلًا كما اعتادوا قديمًا، لكنه كُلِّلَ بالفشل. ووجد نفسه يغرق في وحدته يومًا بعد آخر، حتى ملَّ الخروج وكفَّ البحّارة عن طلبه.

وبمرور الأيام أهمل عنايته، وتكاثف شعر لحيته، وتراءى سرًا عدة مرات يبكي وحده عند مؤخرة السفينة الناعسة، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على ذِكر الأمر أمامه.

أما (عابد) فبقدر وسعه سيَّر العمل كما المعهود على ظهر (سيف البحار)، موزِّعًا المهام، ومقسِّمًا نصيب الرجال من الأرباح كل يوم، كأن قائده حاضرٌ لم يغبْ لحظة.

وحدث يومًا أن وَفِدَ السفينة رسولٌ من القصر يطلب صليلًا لأمرٍ عاجل، فمضى (عابد) بدلًا منه مُعتذرًا عن غياب قائده للمرض. وحين أنبأه الوزير

أن يبدأوا الاستعداد لرحلةٍ إلى (خراسان) سيتم تكليفهم بها، شعر (عابد) أن تلك فرصة مولاه للخروج من محنته والانشغال بما سواها.

ولم تمض أيامٌ إلا وكانت السفينة ترفع مراسيها مُغادرة الميناء، مُطلقة بوقها العاجي بشوقٍ للبحر المترامي حتى الأفق، وبفرحٍ لم يُنبىء عمّا يدور في قمراتها.

غاب (صليل) شهرًا ونيف، وحين عاد كانت أحواله تؤول إلى التحسُّن رويدًا، لكن جرح قلبه لم يكن قد اندمل بعدُ، وفي أعماقه لم يحسبه يومًا سيفعل.

مُنشغلًا ببعض شأنه، عصر اليوم الذي عادوا فيه، فاجأته دقاتٌ هادئة على باب حجرته، فخفق قلبه دونما سبب. أذِنَ لصاحبها بالدخول، فدلفت (سمراء) متسترّةً بخمارٍ ثقيل. توجسَّ شرًا. من دون كلمة دسَّت يدها في طيَّات صدرها وأخرجت بطاقة دقيقة الحجم أعطته إياها. التقطها من يدها سريعًا وفضَّ غلافها بلهفة.

بخطٍ أنيقٍ ومهذَّب، وكلماتٍ على اختصارها رقيقة، كانت (ورد) تُعلمه أين ومتى يلتقيان لأول مرة!

قرأ الرسالة مرتين دون تصديق. لم يحتج الثالثة ليحفظها. أشرق وجهه بابتسامة نسيها منذ زمن. وطاف خاطرٌ بذهنه، فأدار البطاقة ليتأكد. طالعته كلماتٌ قديمة ابتسم لها شجنًا:

«عسى وسادتُكِ تختزنُ عَبَقًا، يُذكِّرُكِ في كلِ ليلةٍ أن بتِلكَ المدينةِ رجُلًا يتمنَّاكِ».

(١٦)

وأتته تخفق خطواتها على الرمال باستحياء.

مع أول خيوط الليل كان يقف عند سفح جبل (اليمامة) المُطلِّ على (ألمرية)، يفركُّ كفيه قلقًا وانتظارًا ورهبة. بَيْد أنها، رحمةً من الله، لم تتأخر كثيرًا. بعد دقائق من وصوله، تهادت من بعيد يلفَّها الشفق في أول الدرب المؤدي إلى الجبل.

انتابته رعدة، وهمست نفسه:

- إنه يومك الذي انتظرته طويلًا يا (صليل) فإياك أن تُفسده.

وأمسكت عن الاقتراب أكثر، حياءً منه. وفطن لخجلها فأثنى عليه، قال في أعماقه إن تدنو منه أقرب فسيحرق عينيه ضياؤها كما الشمس. ورفعت خمارها عن وجهها مسبلةً إياه على شعرها الفاحم، فاتسعت عيناه إجلالًا لجمالها إذ يراه لأول مرة بهذا القُرب. تراءى له القمر بدرًا في تمامه، حتى تضاءل مع فتنتها في نظره قمرُ السماوات. ردد :

- تالله ما أجملك!

أطرقت أرضًا في خفر، بينما تعلَّقت جوارحه بها كالمشدوه، ولبثا صامتين لبرهة. أحس أن الدقائق تمرق من بين يديه دون حديث، وخشي أن يداهمها الوقت، فترحل دون أن يستقي منها ما يُطفىء لهيب قلبه.

استغاث بكل ما حفظه قبل ليلته من أشعار وكلماتٍ معسولة أو حتى أسئلة أراد أن يطرحها، فوجد نفسه لا يذكر منها حرفًا!. وتعجَّب كيف يهرب الكلام في أشد لحظات الإنسان احتياجًا له؟

غير أنه تنحنح متشجِّعًا، وقرر أن يُرغم الكلمات على الاذعان، فقال كيفما اتفق:

- كيف حالكِ؟

وعقد حاجبيه في ضيق لغبائه وفقر سؤاله. «كيف حالكِ؟!». استشعر سخفًا من نفسه أحنقه، لكنها أحسَّت ارتباكه فردَّت مبتسمة:

- بخير والحمد لله، وأنت؟

كاد يجيبها بردٍّ مماثل، لولا أن أثار السؤال أشجانه، فقال بأسى:

- قلبي يحترق!

أدهشها ردَّه المفاجئ لكنها قدَّرت ثورة مشاعره المحتقنة لزمنٍ، فقالت:

- إن كان يواسيك هذا فنيرانك تحرق قلبين.

وندمت فورًا على كلماتها. وتساءلت كيف واتتها الجرأة على البوح الصريح بتلك السرعة!. لكنَّ هاتفًا همس في أذنها أن مجيئها وحده، وبطلبها، يقول الكثير، فما ضير بضع كلماتٍ أخرى؟ أما هو فرفع عينيه ملهوفًا:

- أحقًا يا (ورد)؟

رنت إلى الجبل المتألق تحت نور القمر، وقالت تُغيِّر الحديث:

- ليل (ألمرية) ما أعذبه!، لا يضاهيه ليل.

دنا منها أكثر، وكرر سؤاله بتصميم:

- أبقلبك حقًا ما أحسُّه؟

اكتفت بابتسامة شفافة طرحت حيرته أرضًا، فأشرق وجهه وقال:

- رباه، ما أسعدني!

وسَهِمَ مليًّا فيما كان فاكفهر مُستدركًا:

- وما أشقاني أيضًا!

قالت بلهجة ذات معنى:

- وحده البحار الماهر من لا تُعجزه عواصفٌ عن غايته.

- طريقي إلى غايتي مسدودٌ بقسوة!

- فحاول ثانيةً. لا يُسلِّم المحارب لهزيمته الأولى.

أجال بصره في ملامحها فطالعه تصميمٌ وإرادة، خَجِلَ أن يتخاذل أمامهما، فقال بحرارة:

- والله لو رفضوني ألف مرة ما أعجزني هذا عنكِ يا (ورد).

- قلبي معك.

- يكفيني إلى حين.

فابتسمت برضى وهي تغمز إليه:

- من فعل كل ما فعل مع رجال الملك وحده، لا يثنيه شيءٌ.

أطربته كلماتها، وغزاه إحساسٌ بالزهو، فقال بفخر طفولي:

- لقد كنتُ رائعًا!

فضحكت حتى ردد الجبل ضحكاتها:

- لا ينقُص ربّاننا الشهير الغرور!

وانقضت ساعتهما في سمرٍ لا ينقطع. وظلل عليهما الجبل فاحتوى حديثًا ونجوى وضحكًا، وأشواقًا متبادلة تطلُّ برأسها بين جملةٍ وأخرى.

أفضيا لبعضهما بكل شيء كانت عليه الحكاية منذ بدايتها: بشتاته ولهفته منذ المرة الأولى التى رآها فيها، ومشاعرها وما كان يعتمل في قلبها منذ وردتها الأولى .

وتكشَّفت أكثر لـ(ورد) صفاته، بجمال حديثه وهدوئه ورزانته. وتملّت بغريزتها كافة التناقضات في شخصيته، فوجدتها تُضفِّر الجنون والرصانة والمرح والهدوء، واندفاعة المشاعر الحرَّى حين تلتهب بين الضلوع. كل هذا كان في إنسانٍ واحد هو لها.

ومع تمادي الحديث تعاظم شعورها بالسعادة أن اختارها هي دون سواها، لكنها أجادت إخفاء هذا بكبرياءٍ أنيق كديدن النساء. وساءلت نفسها كيف كانت لتمضي حياتها بدونه وبدون حبه؟

هكذا الحب إذا اقتحم حياة أحدٍ، يقلب حياته، ويعيد تشكيل مفردات الدنيا لأجله. يبتسم وجه الحياة، تُمحى الآلام، وتتضاءل الهموم، وتنهمر النغمات على أسماعه في كل لحظة. يكتشف فجأة أنه جائع جدًا، للطعام والضحك والسمر والدندنة.. جائع للحياة بأسرها. فقط الحب، والحب وحده، ما لديه القدرة على جعل العالم يُولد في عين صاحبه من جديد.

ودنت الليلة من نهايتها، فتهيأت (ورد) للرحيل. سألها:

- أما بوسعك البقاء قليلًا بعد؟

- وددتُ لو أني أقدر، لكن أخشى أن يطالني الشك، فيتعذر عليَّ الخروج ثانيةً.

وفطن لما تحمله جملتها من معنى فتبسَّم راضيًا.

نهضت تهذِّب هيئتها من طول جلستها على الصخرة، وطول سمرها معه. في تلك اللحظة كان بعيدًا عنها، مُنطلقًا بخياله إلى الأقاصي كمُهرٍ جموح، وشعرت هي بحيرته فقالت:

- عيناك حزينتان.

- مَن يذكر الحزن في حضرة البهاء؟ لكن...

وسكتَ، ففهمت ما يُكابده. قالت برقَّة:

- سنحاول من جديد، ويقيني بالله عظيم.

أطربته أن جمعت بينهما في جملة وإرادة واحدة. قال:

- أخشى المستقبل وفراقكِ يا (ورد).

- لا تخش شيئًا لا تملك له أمرًا. إن كان المستقبل بيدي الله، فعلام تحزن؟

- ليتني أملك نصف يقينك!

ابتسمت فتلألأ وجهها:

- أنت تملك اليقين، لكن خوفك يُعميك عنه.

ثم ربَّتت على يده:

- السعادة نصيب المجتهدين.

انتابته رعدة لذيذة بربتة يدها، فاجتاحه الخدر والسرور، وألحَّ عليه شعورٌ كان يطوِّف به منذ قدومها، لكنه كان يَئِده. الآن ما لبث أن تنامى في صدره حتى غلبه. وبرغم أنه قاوم نفسه طويلًا خشية أن تظن به الظنون، لكن سُرعان ما حاصره الشوق، فأرخى لروحه عقالها، تاركًا للمشاعر الصادقة أن تقوده دون خوف.

همس:

- أريد أن.. أتسمحين لي..!

لم تسمعه جيدًا، فضيَّقت عينيها تستوضحه، لكنه وجد الكلام عبثيًا أمام ما يحسُّ.

تنحنح حياءً، ثم أمام عينيها المذهولتين ركع على ركبته اليمنى قبالتها، ومال يرفع بيدٍ رقيقة قدمها التى استوت بضَّةً في صندلها ذي الأربطة.. وطبع قبلةً عليها!

شهقت وبحرٌ من الحياء يُغرقها في لجّته. أراح قدمها، قبل أن يكرر ما فعل مع القدم الأخرى، ثم ينهض واقفًا بهدوء، ويعتدل كأنه لم يفعل شيئًا يُذكر.

لم تكن قد تمالكت أنفاسها المتلاحقة بعدُ حين هتفت:

- أنت.. أنا.. هذا.. هذا ضربٌ من الخيال!

واستدارت تحيد عن عينيه اللتين أخذتا تحدِّجانها. كانت تزفر بقوة، وقلبها تتلاحق دقَّاته. غمغمت:

- لِمَ فعلتَ هذا؟

قال ببساطة:

- كذا يعلموننا في وطني.

ثم استدرك:

- أتيتُ من بلادٍ علمتني أن العربي لا يملك شيئًا أغلى من شرفه وعِرضه، وأن المُهرة ابنة، والمرأة زوجة أو أم، فلا ينبغي أن يُجلَّ في حياته إلا إحدى الاثنتين.

وابتسم برفق، ودار يواجهها. لم يجرؤ على الدنو منها أكثر كيلا يزيد ارتجافة بدنها:

- أردتُ أن أقول أن هامتي ملككِ يا (ورد)، لكنَّ الكلمات تخون، فهل فِعلي يكفي؟

تمتمت بخفوت:

- لم يعد بي ما تملكه أكثر بأفعالك!

وقهرها الخجل فأطرقت بعينيها. قال:

- الحُرُّ لا يركع إلا أمام من يُحب.

عبثت بقدمها في رمال الأرض، ولم ترفع رأسها. كانت تلوك الكلمة متلذذة وإن لم تجسر على سؤاله عنها.. أمام من يحب؟.. يا الله!.. أجمل بها من كلمة!

وارتسمت على شفتيها ابتسامة سعادة واسعة لم تنجح إرادتها القوية أن تملكها أو تطمس معالمها. لكن وككل أنثى تتفرد عند معشوقها بفِعلٍ ما، نحَّت أفكارها الخاصة واضطرابها جانبًا، ليطلق فضولها سؤالًا أرادته في غير اكتراث:

- تُرى هل...؟

قاطعها بابتسام:

- لم أنحنِ أمام أحدٍ إلا مرتين في حياتي، أولاهما أمي، والثانية أنتِ.

ثم رفع ذقنها بإصبعين في رقة:

- ووالله ما أعيدها بعدكِ لأحدٍ قط.

ترقرق دمعٌ صافٍ في عينيها، حبورًا وانبهارًا.

ملأت ناظريها بملامحه تتشرَّبها، كانت تودُّ لو تحفظها فلا يهرب انطباعها عن صفحة عينيها أبدًا. حارت في الرد. رفعت كفَّها مترددة وهيَّابة، كأن أثقالًا تعوقها، وأخيرًا وجدت طريقها لوجنته فربتت عليها بحنوٍ. انسابت مشاعرها كتيار نهرٍ من الجنة، رائقٍ وصافٍ. مسدت جانب لحيته الناعمة وهمست:

- والحُرَّة لا تختار لنفسها إلا خير الرجال يا (صليل).

ثم أسبلت خمارها مُنسحبة بهدوء، دون وداعٍ ودون كلمة، وعيناه تتبعان أثرها.

كانت الكلمات تتضاءل أمام ما يجيش بصدرها في تلك اللحظة. اكتفيا بالسكوت مهربًا، لكن القلوب شَدَت بخفقاتها رغم الصمت.

(١٧)

في الأيام التالية للقائهما، أخذ (صليل) يعتصر ذهنه مُحاولًا تدبُّر وسيلة جديدة ينسلُّ بها إلى بيت الزيدانية ليعيد كرَّته، دون أن يُضرم القلوب بالاحتقان فيخسر أكثر مما خسر.

قال له (عابد):

- أنت تزيد الأمر اشتعالًا. تمهَّل واتئد!

- أريد أن أرتاح لقرار.

- تعجُّلك قد يؤكد القرار الذي تكرهه.

صاح:

- وقد يُغيِّر الله الحال.

جلس على حافة فراشه قائلًا بأقصى ما استطاع من صبر:

- القرار هو ما سمعتَ، فلماذا تُزيد؟

هز رأسه باستياء:

- لإن ما بي لن يحسَّه أحد. أنت لم تُحب يا (عابد) ولا أملى عليك قلبك أمرًا.

صاح بإنكار:

- من قال هذا؟ لقد خسرتُ كل ما أملك في شبابي بسبب حُبي!

رفع عينه إليه مدهوشًا فأتبع:

- لا تحسبن صبري وإصراري على صدَّك نكرانًا لما يعتمل بأعماقك يا فتى، ولا استهزاءً به. حاشاي أن أفعل بك هذا، وقد مررتُ بعين ما تمر به اليوم.

وقلب كفيه مستسلمًا:

- لا أحد يدري بك مثلي، إن لم يكن لأنك ولدي فلإني شهدت مثيلًا لنيران صدرك يومًا.

سأل (صليل) بحذر:

- ماذا... ؟

قاطعه بحزم:

- لقد نسيتُ.

ثم متنهدًا:

- كلنا ننسى، فلماذا تأبى ما فيه راحتك أيها الأحمق؟

وحملتِ الأيام لقاءاتٍ متكررة عند سفح جبل (اليمامة)، في ظل من صخوره الشاهقة بعيدًا عن الأعين. كانت لقاءات بعيدة وخافتة لم تُشبع نهمًا ولا روَت شوقًا. بَيْد أن صليلًا كان يستسلم لها صاغرًا، إن كان يشقُّ

عليه المرور حتى من أمام بيتها، أو يُرى عن مقربة منه، فما أرضاه باللقاء ولو كان بعد دهور.

وواتته الفرصة يومًا بعد لقاءٍ بالملك (ابن المعتز) أن يختلي بوزيره، وكانت بينهما مودة مستدامة، فأفضى إليه بما كان، وما لقِيَ من آل حبيبته فقال الرجل ببساطة:

- ومن في (ألمرية) لا يعرف الأمر يا (صليل)؟ من حسن طالعك أن الجميع يحبك، لذا فالمتعاطفون كُثُر.

وكان يختم أوراقًا ملكية بخاتمه، فقال مُعتذرًا بلباقة دون أن يرفع عينه:

- سامحني، والله لو كان الأمر بيدي ما أقعدني شيءٌ عن مساندتك قط، لكن ما بيني وبين الزيدانية تاريخٌ طويل من الشقاق لم تشفع تجارةُ مشتركة أن تكسر حدته أو تُذيب ثلوجه.

- إذن ما من سبيل؟

- أعرف (جارح) منذ سنواتٍ طويلة. لا يتبدَّل. إن قضى أمرًا فلا سبيل لتغيير قراره. تمسُّك رجال الزيدانية بأعراف عشيرتهم أسطوري، ولا تحسبنّ نعيمًا إلا استثناء.

ثم ناصحًا:

- إن حتم الأمر فعليك بالشيخ (زيدون). الكل يحبه، ولعل الله يُجري على يديه الخير.

غام وجه الشاب بقنوطٍ سافر، وخرج من عنده لاعنًا المصالح التي غلبت رجلًا شديدًا مثله فأعجزته عن نصرته وقت الحاجة، على كثرة ما أغدق عليه من هدايا ودرر عجيبة من مقتنيات رحلاته. وقال لنفسه إن الحياة ليست فقط تبادل منفعة، ولكن تُقاس العلاقات بالمنفعة الأقوى والمنفعة الأقل.

وكان الوقت عصرًا والشمس حانية، فلم يُرد أن يتمهل ليوم غدٍ. مضى من فوره إلى الشيخ (زيدون) إمام المسجد الكبير. وكان لم يزره في بيته قط، فاستثقل الأمر على نفسه واستشعر حرجًا، وقرر أن يعطف على المسجد لعلَّه يلقاه هنالك وسط تلاميذه في هذا الوقت بعد الصلاة. وكان أن وجده فعلًا في صحن المسجد تحفَّه لجّة من طلاب العلم، فمكث عن مقربة منتظرًا على صبر فروغه من حلقة درسه ليُحادثه منفردًا.

ولمحه الرجل فلم يُبد حراكًا، وإن لاح الترحاب على وجهه. كانا قد تقابلا مرة أو مرتين في قصر الملك لكن لم يدر بينهما حديثٍ يُذكر، بَيْد أن الشيخ يذكر الفتى مواظبًا على الصف الأول للصلاة ما كان في رحلة خارج أراضي (ألمرية).

وانشغل فِكره وسط الدرس بالزيارة المفاجئة، لكنه تمهّل حتى ينتهي قبل أن ينهض لضيفه مُستطلعًا الأمر. وإن كان، بعدما نقلت زوجه إليه الأخبار والحكايا، قد خمَّن ما دفعه للمجيء.

مضى الوقت متثاقلًا على الشاب العجول، لكن أخيرًا انتهى الدرس وانفض الجمع، ونهض الرجل مُستغفرًا الله، ويداه تمرّان على سبحته مبسملًا ومحوقلًا.

لاقاه الشيخ ببشاشة وترحاب، وأجلسه بجواره على دكة من رُخام عريض سائلًا إياه عن أحواله وأحوال رجاله. أجاب بصبرٍ أسئلته، لكنَّ الشيخ فطن للهفته الحارقة، فعرج مُشفقًا بالحديث مباشرة على سبب قدومه:

- خيرًا يا ولدي؟ ما أرى في وجهك إلا الخطب الجلل.

لم يكن يحتاج (صليل) إلا السؤال ليندفع قاصًا على مسامعه الأمر منذ البداية، غافلًا عن قصدٍ ما كان بينه وبين (ورد)، خشية أن يترامى الحديث في بلدةٍ لا تعرف إلا الثرثرة. واستمع إليه الشيخ مُنصتًا بتركيزٍ وانتباه دون كلمة حتى فرغ. ثم أنه تبسَّم بحنو قائلًا:

- أتحبها؟

- لم يعرف فؤادي الحب قبلها قط.

فقال وابتسامته تزداد حنانًا:

- إذن لا تخف، يجمع الله المحبين إن عفّوا وصبروا.

ثم بثقة:

- اصبر حتى الجمعة القادمة، ولعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا.

سأله بفرح:

- هل تعني أن أنام ملء جفني؟

فربَّت على كفه مُطمئنًا:

- كلمتي مُهابة، وشفاعتي مقبولة، فلا تحمل للأمر همًّا.

عندئذٍ تألق وجه (صليل)، وانفرجت أساريره المعقودة. وغادر ساحة المسجد بقلبٍ يفعمه الأمل. وحَمَله التمنّي على أجنحته واعدًا إياه بغدٍ تبتسم فيه السماء المكفهرة.

(١٨)

عقب صلاة الجمعة غادر الشيخ المسجد متمهِّلًا. في يدٍ سِبْحته ذات حجارة الكهرمان، والأخرى تطبق على كفٍّ (صليل) السائر بجواره مُطرقًا والأفكار تصطرع في عقله.

عند الباب تردد الرجل مليًّا. فكَّر هنيهة، قبل أن يحسم أمره ويطلب من (صليل) أن يعود لسفينته بمفرده، كان يخشى أن يحتدم الأمر، أو تتراشق كلماتٌ تصعِّب الحديث، وقدَّر أنه وحده ربما تكون فرصته أفضل في الإقناع.

أذعن (صليل) على كرهٍ، وعاد لقمرته دون أن يحدِّث أحدًا بكلمة. (عابد) وحده من كان على عِلمٍ بالأمر، فلم ينبس وأمهله تلك الساعات لنفسه تمامًا، بَيْد أنه لم يكن أقل منه قلقًا.

وكان يومًا طويلًا وقاسيًا!

مضى نهاره كله في ألم الانتظار والترقب، والحيرة التي تخطَّفت قلبه فلم تُسلمه للراحة ولو للحظة. حين غابت الشمس وحلَّ المساء، أتاه الليل ببرقية حملها إليه خادم الشيخ العجوز. تهلل وجهه بالبشرى وهو يفضُّ الرسالة، وتمتم في سرِّه:

- هل آن للقلب أن يسعد أخيرًا؟

قرأ السطور البسيطة. كلماتٌ قليلة كانت، رشقت قلبه كنصل خنجر.

«عَلِمَ الله أني لم أبخل بجهدٍ، لكنَّ أمره تعالى نافذ ولا راد له. سامحني يا ولدي».

سقطت الورقة أرضًا، وتهالك وراءها قلب الشاب المكلوم.

(١٩)

ما بين الغضب والانكسار كان قلب (ورد) يضطرم.

في اللحظة التي خطا فيها الشيخ (زيدون) إلى بيتهم، تفجَّرت في أعماقها فرحة غير عادية، وكأن عمها قد أحسن استقباله وقَبِلَ الشفاعة بالفعل!. لم تكن تعرف أن صليلًا وراء الأمر، لكنها أيقنت هذا فأكبرت فيه سعة حيلته واستبساله لأجلها.

الشيخ (زيدون) الذي دلف المنزل بعمامته الخضراء العريضة، ووجهه الأبيض المشوَّب بالحُمرة، وعينيه الجاحظتين قليلًا، كانت تعرفه إماما للمسجد الكبير، وواحدًا من كبار أهل الرأي والمشورة فيه. لجأت إليه وأمها عدة مرات لإستشارة دينية أو فتوى تبيح أمرًا أو تنهي عن آخر. والحق أن ترحيب الرجل وكرمه كانا غامرين في كل مرة، إذ كان ذا طيبة آسرة ورحابة صدر، ورقّة ندر أن تتواجد برجلٍ في (ألمرية) بأسرها.

من فرجة الباب المفضي للديوان أنصتت (ورد) لحديث الشيخ الذي توسَّط الجلسة بين عمها وأبيها. كان قلبها منذ اللحظة الأولى مندفعًا يكاد يخرج من صدرها لينحشر معهم، لكن، ومع كل جملة تسمعها، كانت الدقات تتخافت، النبض يهدأ، والأمل المتلهف يصرعه اليأس والقنوط.

كان قلبها يموت ببطء، بينما دمها يغلي بالغيظ المكتوم، ويأججه حَطَب الكلمات المتدفق دون توقف!

كما المرة السابقة، كان أبوها أقل كلامًا وأكثر إنصاتًا. حتى حين تدخَّل في الحديث كانت كلماته عاجزة واهنة، لم تستطع مقارعة حديث الرجلين الدائر، فلاذ أغلب فترات الحوار بصمتٍ متابع.

أما (جارح) فكان باترًا في صدِّه للشيخ!

كان يعرفه قبل أعوام. يوقِّره ويُجلَّه. ولطالما واظب بدأبٍ على حضور دروسه بعد الصلوات، لكن الأمر هذى المرة لم يكن في عُرفه يحتمل أقل تراجع أو أن يقبل فيه شفاعة.

خذلها أبوها كما لم يفعل أحدٌ من قبل. تمنَّت لو ينتصر لها لكنه لم يفعل. ابتهلت لله وهي تتصنَّت الحديث لو يحارب لأجلها، أو يُبدي اعتراضًا جديًّا حتى. أي شيء لا يقدح هيبته أمامها، ويصون صورته لديها من التشويه. لكنَّ شيئًا من كل هذا لم يحدث!

وكما دلف الشيخ، غادر. في جوفه بقايا قهوة ارتشفها مجاملةً، وفي خاطره تطنُّ كلمات ربِّ الأسرة الوحيد والحقيقي:

- عفوك يا شيخنا، وددتُ والله لو لا أرد شفاعتك ولا طلبك، لكنك لا تقبل أن أقبلهما في هوان عائلتي. الأمر مقضيٌ والله لا يحب المجادلين.

وأفضت (ورد) لأمها بستر القلب وهي تبكي بين يديها، فتشاركتا البكاء بحرقة. مسَّدت شعرها وهى تتمتم بأدعيةٍ وآيات تحفظ الوردة التي

أذبلها الحب قبل أوانها. وبغضب المقهور المكبَّل بالصمت دمدمت في أعماقها:

- ويلٌ لإمرأتين ليس لهما من بعد الله إلا رجلًا قليل الحيلة.

وأنَّت متشكّية :

- كيف يضيع القلب المفطور يا ربي بين عاجزٍ وظالم؟

واستحكمت الحلقة حول (ورد) أكثر فأكثر.

لم يكن لأبيها من مكانٍ يلجأ إليه كل ليلة، كما تقضي عادات السادة في (ألمرية)، إلا خان (موسى) أو التكية المعروشة في بيت تاجرٍ أو صديق. حين يجنّ الليل يمضي (جارح) بفرَسَه مسربلًا بالعباءة والخنجر اللامع، مُغرقًا بالعطر الثقيل. يتبعه على المحفَّة الشيخ (نعيم)، تتواثب أصابعه على مسبحته ذاكرًا الله، ويده الأخرى تتسلى وراء أستار الحرير بالتقاط حبات اللوز والفستق إلى فمه!

يقضيان ما شاء الله أن يقضيا من وقتٍ، قبل أن يعودا معًا في جوف الليل إلى البيت الكبير، فيندسُّ الشيخ في سريره الوثير حتى الصباح، بينما ينقطع (جارح) لصلاة القيام إلى الفجر كعهده الصارم الذي ما أهمله ليلةً قط.

غير أنه ليلة مجيء الشيخ (زيدون) إلى دارهما، اعتزل الأب في حجرته مُعتذرًا عن الخروج بعدما أصلته عينا (رحيمة) في نهاره نارًا من نظرات

الانكسار والعتاب. ووجدته في ميعاد خروجه فوق سجادة الصلاة بحجرته، فسألته عن الأمر وهي عند الباب لا تتقدم. أجاب:

- لا أريد أن ألقى أحدًا ولا لأحدٍ أن يلقاني.

سألت بنبرة محايدة:

- أبِكَ خطبٌ؟

همس وهو يطرق أرضًا بصوتٍ لم تسمعه:

- أوبَعْدُ ما بي ثمّ خطبٌ يُشكى؟

ثم رفع عقيرته:

- دعيني وشأني يا (رحيمة) رحمك الله. لا تقطعي خلوتي أبدًا، واذهبي لتنامي مع ابنتك.

رمقته بنظرة طويلة وغادرت لا تلوي علي شيءٍ. ترك دموعه تنساب حتى بللت لحيته البيضاء. غمغم متضرعًا:

- ربي، يا رب المستضعفين. كيف سوّلت لي نفسي أن أتخاذل عن ابنتي بهذا الشكل؟ كيف وطأتُ حلمها ورغبتها؟ ألم أعرف بما فيها؟ ألم يأتني خبر قلبها؟ فكيف وعزتك وجلالك لم أنصرها حين استنجدتني؟.. ليتني متُ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيا!

(جارح) الذي لم يختلف الأمر كثيرًا عنده، أو يخلّف بأعماقه أثرًا يُذكر، أرسل من يبلّغ أخاه بالاستعداد للخروج، غير أن الخادم عاد يُنبئه

باعتذار مولاه، فهز رأسه في غير مبالاة وتجاوزه بعد لحظة. وأنبأته غريزته بما يدور في نفس أخيه، فقرر أن يترك الأمر للأيام حتى تبرأ الجراح.

«لا أطيب من قلب الشيخ، ولا أسرع منه للإذعان». قال لنفسه هو يتطيَّب.

تأنَّق كعادته. تمنطق بحزامه المعلَّق به خنجره الأثير، قبل أن يأخذ عصاه ويغادر بهدوء، مُخلِّفًا دارًا تموج خلف ظهره بالاضطراب.

لم يكن يحيا بالبيت الكبير إلاه، وشقيقه بعائلته الصغيرة. أما هو، ومنذ وفاة زوجته قبل سنوات، فكان يقضي أغلب يومه وحيدًا ما بين المنزل والخان، أو مُشرفًا بنفسه على التجارة العريضة التي ورثها رجال الزيدانية الحاليين. ذلك أن أبناءه الثلاث انسلّوا واحدًا تلو آخر من (ألمرية)، وساحوا في أرض الله الواسعة.

تزوج الأكبر وأنجب في (اليمن)، فاستقر هناك بتجارته وأسرته. والأصغر رحل بعيدًا إلى بلاد ما وراء النهر قبل أن يغادر إخوته، وسمعوا أنه انخرط في جيشٍ بأحد الممالك فيها وصار ضابطًا ذا شأن. أما الثالث فكان أوسطهم سنًا وأشدهم طموحًا، وأحبهم لقلب أبيه، وكان رجل علمٍ وقلم، ركب البحر متنقلًا من بلدٍ لآخر ساعيًا خلف مخطوطة عكف على كتابتها لسنوات، وانداح في البلاد يجمع مادتها ومتنها حتى شارف إنهائها.

وكان (جارح) أشد حرصًا على تماسك عائلة أخيه منه. ولطالما سُمِعَ يُصرِّح أن أقل ثغرة ينفذ منها أحدهم إلى البيت وآله، قادرة على هدم كل ما بناه لسنوات وحده، لذا لا مجال للأخطاء والأنانية. كذا كان يقول.

وكما استأثر بالتجارة ورئاسة آل الزيدانية، وَرِثَ معها أيضًا المسؤولية الواطئة التي أرغمته على الانتباه لكل كبير وصغيرة. هكذا وبعد الأحداث الأخيرة أصبحت لعينيه اللتين يرقب بهما نفسه و(نعيم) والبيت الكبير، عينًا ثالثة مُسلطة على الصغيرة التى أراد الغريب أن يتخطفها من بين يديه.

استغلقت الأمور، وتصعبَّت على (ورد) ساعات حياتها، حتى غدا الخروج من البيت يتطلب معجزة، ولو كان يصحبها حارسٌ أو جارية، غير (سمراء)، تعلم هي كما يعلم أنها عينه عليها.

لم يكن يدري بما يمور في قلب ابنة أخيه، وحسِبَ فقط أن الفتاة إنما تعلقَّت بعريسٍ يدق الأبواب من أجلها، فأسَرَتها سمعته الطيبة. لم يشعر بشيءٍ مما يعتمل بالمسكينة من ألمٍ ولوعة. وفي أعماقه قدَّر من جديد أن بضعة أسابيع، أو حتى شهور، ستكون كافية لتنسى الأمر برمته، وتبرأ من آلامها.

غير أنه كي يتأكد من تملُّكه كل الخيوط في يده، واستتباب الأمر له تمامًا، كانت ثمّة مهمة واحدة وأخيرة تحتَّم عليه فِعلها لينهي تلك القصة إلى الأبد.

في الوقت الذي غادرت برقيته أرض (ألمرية) إلى وجهة مجهولة، كانت أيام (صليل) تزداد بؤسًا، وحياته تُمعن في الشقاء. يقضي جل وقته مستغرقًا في التفكير، حتى خَشِيَ رجاله عليه الجنون الذي جعل يسير إليه بخطىً حثيثة.

في إحدى لقاءاتهما التي خفَّت حتى كادت حلقاتها أن تنفصم، قالت له:

- لك قلبي حتى أموت، لكني أطلب منك الرحيل.

سأل بجزع:

- أتبغين فراقي يا (ورد)!

- والله للموت أحب إليَّ منه، لكني لن أحتمل أن تمضي بك الحياة على أمل أقرب للمستحيل.

- سأخبرهم أني من أنقذتك في اليوم المشؤوم. سيشفع لي هذا.

صاحت باستنكار:

- أوجُننتَ؟ كيف تفشي سرًا إن عَلِم به أحدٌ في المدينة فأنت ميت لا محالة؟

- لن يخرج الأمر عن بيتك.

- وماذا لو قوبِلَت شهامتك بالرفض؟ هل تضمن أن يحفظ عمي سرَّك؟ أتدري ما وضعه الملك مكافأةً على رأسك؟ لقد أهنتَ رجاله على ملأٍ من الناس، وأمام مهابته ومهابة فرسانه كل الرجال يتضاءلون مهما بلغت مكانتهم.

عصر جبينه حانقًا وهو يزفر العجز. مسَّدت على ظاهر يده وقالت:

- ليس لنا من بدّ يا (صليل) إلا الـ....

هتف:

- إياكِ أن تنطقيها ثانيةً!

وتعلَّق بكفيها مُردفًا:

- لن أتركك يا (ورد). سنجد حلًا بإذن الله، لكن ما تطلبينه مني هو عين المستحيل.

أرادت أن تعترض، فضغط بحنوٍ على كفَّها وقال صادقًا:

- لن أبتعد مهما جرت بي السنون، كيف أحيا دون قلبٍ تركته لديكِ؟

واستكان العاشقان لحياتهما الجديدة: شوق متوارٍ، ولقاءات شبه معدومة، وآمالٌ تطغى وتتعاظم، وتستعذبها الأحلام الهانئة، قبل أن تتهاوى في كل ليلة متكسِّرة بصحوة الواقع الأليم.

وكرَّت الأيام متعجِّلة، وبدأت الإستعدادات كما في كل عامٍ تمهيدًا للرحلة البحرية السنوية التي يتجمَّع فيها كبار تجَّار (ألمرية) وساداتها. وجرى قلقٌ لم يخفيه (نعيم) فطرحه على أخيه يومًا:

- الرحلة تدنو، والأيام تمضي، ونحن لم نتدبر أمرنا بعد يا أخي.

- أي أمرٍ تعني!

لم يفهم إن كان أخاه أغفل قصده متعمدًا أم نَسِيَ فعلًا. قال شارحًا:

- أتحدث عن (سيف البحار) وقائدها.

لوَّح بكفِّه:

- وما شأنهما؟ أفصح عن مقصدك يا رجل.

بلهجةٍ ذات مغزى قال:

- كيف تضمّنا السفينة اليوم بعدما جرى منا لقائدها؟

- مازلتُ لم أفهمك يا أخي الأكبر!

زفر (نعيم) في استياء. كان (جارح) يقطف بأسنانه عنبًا أحمر من عنقودٍ استراح على كفه المبسوطة، فأطلق ضحكة مجلجلة وأضاف وهو يلوك الحبات:

- الرجل ليس أكثر من عامل مجتهد وذي أمانة، تحمل سفينته سادات البلدة إلى مقصدهم ثم تعيدهم سالمين، ليس أكثر ولا أقل، فلا تجهد رأسك.

ثم وضع العنقود في الصحن الفضي الكبير أمامه وتابع بجدية:

- تعامل معه على أنه مكّاري. مجرد مكّاري حذق. هو لا يُقدِّم لنا صنيعًا لنستشعر معه حرجًا. هذا عملٌ مقابل أجر، وأجرٍ طيبٍ كذلك. رزقه ورزق رجاله، فلا يسعه أبدًا أن يرفضه.

ورفع ساقًا يريحها على التكية التي استنام جسده عليها:

- أنصحك ألا تتعامل معه، ولا تنظر إليه حتى. وإياك والشفقة، إنه من أولئك الرجال الذين تدفعهم الشفقة والتعاطف في عيون الآخرين للطمع فيهم. سنغادر في جماعة ونعود في جماعة، ولدينا عملٌ لننجزه، فاشغل نفسك به عن الترهات.

- أتحسبه يفاتحنا في الأمر ثالثةً؟

تراقص شبح ابتسامة على شفتيه سُرعان ما توارى وهو يتمتم بغموض:

- يفاتحنا أو لا. لا يهم. أرتِّب لعزيزنا (صليل) مفاجأة صغيرة ستقطع دابر جشعه عن أسرتنا.

وهتف (صليل) في لقائهما الأخير قبل الرحلة بأيام:

- أنتِ؟ ولكن.. لكن لماذا؟ أنا لا أفهم!

فركت كفيها بتوتر وقالت:

- لا أعلم شيئًا. منذ اللحظة التي أنبأني بأمره فيها وأنا لا أفكر إلا في مراده.

- وراء الرجل شيءٌ خطير يا (ورد).

زفرت بقوة:

- هذا ما جال بخاطري. أنا أدرى الناس بعمي، قد لا تعرف ما يفكر فيه أو خطوته التالية، لكن ثق إنه لا يسير خطوة إلا ووراءها منفعة هائلة. هو لا يرتكب شيئًا عبثًا.

- ما يرومه يتعارض وطباعه، ولا يتناسب حتى مع عادات عشيرتكم!

وقلَّب كفيه متعجبًا:

- لقد ارتحلتُ مع رجالٍ من (الزيدانية) لثلاثة أعوام، وما رأيت أحدًا منهم يصطحب نساءه معه قط...

ثم رفع عينيه إليها:

- فلماذا يريد اصطحابكِ هذا العام إذن؟ ولماذا في تلك الرحلة بالذات؟!

لكنَّ وردًا لم تُجبه، لم تعرف بِمَ ترد على سؤالٍ أحرقه وأحرقها معه. مكثا صامتين يغذّان البحث عن إجابة تروي الفضول الثائر.

على أن الأيام حملت إليهما تلك الإجابة بأسرع مما ظنّا!

بعد ثلاثة أسابيع من بدء الرحلة، ومن أحد الموانىء على خط السير، انضم لسفينته وافدٌ جديد من (سَرَقُسطَة)، عرَّف (جارح) أقرانه عليه باسم (صفي الدين الزيداني)، أحد شباب عشيرتهم المتفرعة في البلدان القريبة.

وفي الأسبوع الرابع، وفي ليلة رائقة من بدايات الربيع، استدعى (جارح) ربّان (سيف البحار) بنفسه، ليشهد احتفالًا صغيرًا دارت فيه أقداح النبيذ والرمّان، تبارك للزيداني الشاب خِطبته على (ورد)!

(٢٠)

أسند (عابد) راحتيه على حافة السور، مُطلقًا بصره إلى البحر الحالك الممتد حتى الأفق. قال وهو يتنهَّد:

- كم أعشق ليل (ألمرية)!

انتظر ردًا فلم يتلقَّ. لم يكن أحدٌ بجواره ليرد. استدار مدهوشًا. من بعيد، على السلم النازل إلى رصيف الميناء، لمح طرف عباءة تخفق في الهواء مغادرة بـ(صليل) السفينة الراسية. غمغم بانزعاج:

- قاتل الله قلوب العاشقين!

(٢١)

حين يتخايل حُلمك في ثوبٍ وردي أمام عينيك. .

يتلألأ بزهر ربيع عمره، يجاوب الكون نغمة أنفاسه الساحرة، وترتشف الأرض رحيق خطواته وهي تقع عليها..

حين يتبدَّى حُلمك مزهوًّا بجماله، بعذوبته، بتفرُّده الذي يعلمه عن آلاف الأحلام التي حلم بها يومًا رجال الأرض..

يتجسَّد أمامك خَلقًا من نور، يزفر عبيرًا وينضح شهدًا..

يبتسم فيتبسَّم الكون لمرآه.. يتنهد فيخلع الزمن عباءاته ويُسلِّم بعجزه عن مجاراته.. يبكي فترتجُّ الأرض لدمعاته وتهبُّ لنجدته..

يضحك فتشهد الأرحام أنها ما أنجبت مخلوقًا قبله بهذا الجمال.

حين يتراءى حُلمك أمام عينيك، على بُعد خطوة، لمسة، ارتدادة نَفَسٍ خارجٍ من صدره لصدرك، فقل لي بربِّك يا (عابد): أي ثمنٍ تدفعه لتحظى به، ولو في آخر لحظة بعمرك، قبل أن تُسبل جفنيك للأبد؟

(٢٢)

بعدما غادر اختفى عن الأنظار ليلته كاملة. لم يلمحه أحدٌ في مكان.

حين تأخر عن العودة للسفينة انتاب (عابد) قلقٌ عليه. دهمه حسٌّ أنه قد يؤذي نفسه بحماقةٍ ما. وأثقله إعياء السفر عن السعي بنفسه وراءه، فبحثَ فيمن حوله فألفى ثلثي رجاله قد عادوا لبيوتهم حيث أزواجهم وعائلاتهم، والثلث الأخير أنهكه الإعياء فآوى كلٌ إلى قمراته. هكذا خَلَت السفينة من البشر، ومكث الشيخ وحده ينتظر وقد أعياه الجزع.

لكنه لم يعرف أن صليلًا، وحين تجاوز الليل منتصفه، ظهر في (ألمرية) أخيرًا!

سار في الطريق مُتنقلًا بين الظلمات. كانت المدينة تموج بصخب الأنوار احتفالًا بعودة سادتها، لكنه كان يعرف السكك المُهمَلة قليلة الإضاءة والحركة، فمضي لوجهته عبرها. لم يكن يريد لأحدٍ أن يراه. ليس الآن. ليس في ليلته الأخيرة.

فيما عدا الأضواء، لم يكن هنالك سوى حركة خافتة تسري بين حينٍ وآخر، فعقب وصول الركاب سالمين كان كلٌ يمضي إلى حاله، تُغلق الحوانيت ويخفُّ البيع وينقطع تيار السابلة، وتُسكَّر البيوت على أصحابها ما بين زوجٍ طال الشوق إليه، وأبٍ افتقدته أسرته طيلة شهور. كان يسير بين

بيوتٍ يعرف أنها الآن تغصُّ بهدايا تُفضُّ، وبضاعةٍ تُجرد، وأجسادٍ منهكة تخدع للراحة بعد عناء. لهذا لم يكن اختياره الليلة بالذات عبثيًا!

لسبع ليالٍ متتالية ستظل (ألمرية) مُتوهِّجةً مثل الكوكب الدرِّي، قبل أن تُطفأ القناديل في النهاية، وتُسدل الرايات عن البيوت والدكاكين، وتخفت الأهازيج رويدًا. ثم سرعان ما تعود الحياة لسيرتها الأولى في انتظار العام القادم.

حين وصل إلى منعطف قرب البيت المنشود برز له شبحٌ من الظلمة. دونما كلمة مدَّ يده فالتقط (صليل) منها لجامًا جلديا انتهى برأس جواده الخاص، قبل أن يغيب الشبح كما ظهر بغتة. لم تدرْ بينهما كلمة واحدة وكأنما ينفِّذان مخططًا مرسومًا.

قطع الطريق ساحبًا الجواد وراءه، الذي بدا وكأنه أذعن لإرادة صاحبه فلم يطلق أقل صهيلٍ يلفت الأنظار. نظر يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا يمر. عبَرَ الشارع بسرعة حتى انتهى إلى نقطة محددة سلفًا من وراء البيت. ومكثَ في زاوية مستترًا يسدد طرفه بين الطريق الغافي والباب الخلفي الموصد إلى الآن.

غير أن انتظاره لم يَدُمْ، بعد دقائق من وصوله انفتح الباب بصريرٍ هامس، وبدا من خلفه ظلٌ شاحب لا يبين. خفق قلبه بقوة، وتوجَّس شرًا. انغلق الباب برفق ومضى الظل يدنو منه. قبل أن يصل إليه هدأت ثائرته، وتناهت إلى روحه وأنفه رائحة عطر (ورد).

* * *

حين أرهقه انتظار ربيبه، وتكاثف عليه القلق والتوتر وشقاء رحلة استمرت شهورًا، تثاقل جفناه ووهنت إرادته. لا يعرف متى نام بالضبط، وكم مضى من وقتٍ عليه، لكن حين استيقظ فجأة كان قرآن الفجر يترامى إليه مهيبًا من الزاوية القريبة. أيقظته يدٌ حاولت قدر الإمكان أن تكون رفيقة، غير أنه هبَّ مذعورًا رغم ذاك. «صليل!». هتف.

طالعه وجهٌ غير الوجه. كان أحد رجاله يرمقه تحت ضوء الفجر المتسلل من كوَّة الجدار. رغم الابتسامة الرقيقة والأدب الجمِّ، قال الرجل باقتضاب:

- القائد (صليل) يطلبك يا سيدي.

* * *

كانت تحمل صندوقًا متوسط الحجم ضمَّ مقتنياتها البسيطة، وحُليٍ لم تشأ التخلِّي عنه. قيَّده بُعقدة سريعة إلى سرج حصانه، قبل أن يحيط خصرها بيديه ويرفعها على متن الجواد لتستوي فوقه.

بوثبة رشيقة قفز مُستقرًا خلفها، ثم لكز بطن الحصان الأشهب مُوجهًا لجامه إلى الشرق. ودون إبطاء انطلق الجواد بحمله ينهب الأرض. كانت صامتة وعقلها في غياب. بعد برهة بدأ يلحظ شرودها. تمتم بهدوء:

- لا تفكِّري كثيرًا يا (ورد). وعدتُكِ ألا يُصيبُكِ همٌّ بعد اليوم.

- ليت كان أمامنا حلٌ آخر.

- هذا قضاء الله، ويكفينا من أمي (رحيمة) مباركة ودعوة من القلب.

كان الجواد مُنطلقًا يكاد يطير عن الرمال، وصفعتها موجات الهواء البارد فارتجفت. مالت بظهرها للوراء حتى اختبأت في جسده، ودفنت رأسها في صدره وهي تغمغم:

- لم يعد لي أحدٌ سواك يا (صليل). عدني ألا تتركني وحدي.

ورفعت عينيها إليه فخفق قلبه. في كل مرة تلاطمت عيناها به، كانتا تأسرانه وتكبِّلان روحه. قال غارقًا في نقائهما:

- الموت أقرب إليَّ من الغياب عنكِ.

وتنهَّد باسمًا:

- ألا ما أبعد الحزن عنا هذه الليلة.

* * *

اقتاده رَجُله (أكرم) من طريقٍ إلى طريق، ومن شارع أفضى إلى آخر.

تعلقت كفّه بيد مُقتاده سائرًا معه دون كلمة. في بداية الرحلة الليلية حاول أن يستعلم منه عما هنالك، لكن لم يتحصَّل على حرفٍ واحد يريح فضوله. بعد عدة محاولات فاشلة قرر أن يصمت لعلَّه يفهم في النهاية.

بعد مسافة طويلة أسلمه (أكرم) لرجلٍ آخر، ومال عليه يهمس بكلماتٍ لم يتبينها، قبل أن يستدير مغادرًا. صاح (عابد) في الرجل الجديد:

- (عامر)!. ألم تغادرنا قبل ساعات لأسرتك؟ ماذا جاء بك إلى هنا؟

توسل إليه الرجل:

- اخفض صوتك سيدي أرجوك. ستعرف كل شيء لاحقًا.

وشرعا يمضيان في صمتٍ ثقيل وكلٌ يغرق بأفكاره.

بعد نحو ساعة كانا قد صارا عند أطراف المدينة. وراءه أن رأى بعد برهة راحلتين يقفان في صبر بجوار أحد الأعراب وفي يده لجامهما. قال (عامر) باقتضاب:

- سنحتاجهما للطريق.

مُسلِّمًا نفسه لإرادة رجاله استقل (عابد) الناقة، وسار و(عامر) على دربٍ مهجور يغوص إلى قلب الصحراء المفتوحة أمام بصريهما. كان يعرف هذا الطريق جيدًا فغمغم بعجب:

- هل نذهب إلى بيت (علي)؟

لم ينبس الرجل فاستاء الشيخ، لكنه أطبق شفتيه متبرِّمًا. «أمَرَهم ألا ينطقوا بكلمة إذن!». قال لنفسه في ضيق. يحبه رجاله ويحترمونه كثيرًا، لكن أما وقد أمَرَ (صليل) فيعرف جيدًا أن رجاله يحبون الموت ولا يخالفون أوامره.

قطعا الأمتار الطويلة في صمتٍ تام، حتى انتهيا عند المنزل الساكن. دق الرجل الباب بهدوء وانتظر. هنيهة وانفتح ليظهر من خلفه (صليل) بنفسه. خرج إليهم مُغلقًا الباب من خلفه بهدوء، قبل أن يقول:

- اذهب أنت يا (عامر) وشارك الرجال.

أحنى الرجل رأسه في إجلال واستدار على عقبيه مغادرًا. سأل (عابد) باستياء:

- هل قررتَ بعد أن تشرح لي ما يجري؟

تبسَّم (صليل) بوداعة وقال:

- تعال معي يا (عابد).

والتقط كفه بهدوء ليسير معه إلى ما وراء البيت الكبير ذي الطابقين الذي بناه (علي) بنفسه قبل زفافه، ومنه دلفا إلى حزام النخيل الكثيف الممتد تحت سفح الجبل. سار (عابد) وراءه في حذر غير هيَّاب وغير مطمئن في آن. عند نهاية البستان الصغير تقدَّم (صليل) يتبعه الشيخ ليفضيا إلى ساحة رملية مستوية وواسعة أشرف عليها جبل (اليمامة) المهيب. كان ذات الموضع الذي اعتاد فيه العاشقان التلاقي. أبهرت الأنوار وألوان الرايات عيني (عابد) فجفل لثانية قبل أن تعتادا ببطءٍ المشهد. اتسعت عيناه لما رأى!

من جواره قال (صليل) بخفوت:

- إنه زفافي يا شيخي.

(٢٣)

تبدَّى المكان لعيني (عابد) من وراء الخيال!

كان النخيل الباسق يحجب الأضواء التي توهجَّت في الساحة بألف لون، وكأن قوس قزح تفجَّر في المكان، لكنه حين أصبح في غمارها شهق في انبهار.

كانت القناديل تطير في الهواء، تشع ألوانًا مبهجة من الأصفر والأبيض والأحمر والأزرق، مُحلِّقةً وحدها، وبلمسة من السحر، من موضعٍ لآخر، لتنير لما أسفلها. وبين حينٍ وآخر كانت تنخفض رويدًا لتسري بين أجساد المدعوين، دون أن تصطدم بأحدهم، وكأن لها عقلًا وإرادة.

الرايات والأعلام الكبيرة التى أحاطت في دائرة عريضة بالساحة، كانت مشرقة الألوان، منقوشة بزخارف عربية تمازجت بخطوطٍ وكلماتٍ فارسية قديمة تدعو للزوجين رب الأكوان بالحماية والحب والهناء.

وفي وسط الساحة كانت كومة متراصة بعناية من الحطب المشتعل، تبعث دفئًا محببًا للنفس وسط برودة البيداء في ذلك الوقت من السَحَر.

كان الرجال يرقصون بسيوفهم على أنغامٍ ترامت إليهم من مكانٍ مجهول. أنغام رقيقة حالمة وذات إيقاعٍ، أسكرت آذانهم بنشوة خلّابة، وبعثت في أثير الليل سعادة خفاقة وأبدانهم تتمايل معها بانسجام.

وثّمِلَ (عابد) بما رآه. همس مبهور الأنفاس:

- متى فعلت كل هذا؟ وكيف؟

أجاب وهو يرمق ما حوله في رضى:

- الحق أني لم أفعل شيئًا من كل ذاك، كنتُ معك طيلة أشهر، لكنَّ (سمراء) خادمة (ورد) كانت على عِلم. هي وزوجها من أتمّا الأمر، وساعدهما...

- (زيد) و(شاهين)!

واستدار إليه مُردفًا:

- لهذا أذنتَ لهما في (حَلَب) ليغادرانا. لا هذا ولا ذاك كان لديهما عذرٌ حقيقي، غير أني لم أشأ معارضتك وقتها.

أومأ برأسه مؤمِّنًا:

- إنهما من أخلص الرجال، وثقتي بهما مُطلقة.

- وماذا عن (ورد)؟ كيف رتَّبت معها الأمر دون أن ينتبه أحد؟

تنهد (صليل):

- بعد إعلان الخِطبة جُنَّت ثائرتي، وأقسمت لأقتلنَّ (جارح) ولو كان بيني وبينه ألف مانع. حين هدأت روحي، ذهبتُ إلى أنه ليس مُرادي، إني لا أريد سوى (ورد)، ولا شيء في الدنيا، ولا حتى هو، قادرٌ على أخذها مني. لم أصبر حتى عرفتُ كيف أدسُّ لها رسالتي. كنت أتحرك بقوة

الجنون، وشعرتُ أني أسرقها منهم فزادني الإحساس بالغضب والخزي، لكني حين تلقيتُ موافقتها في نفس الليلة سكن كل شيءٍ بداخلي، وأدركت أن هذا قدرنا، أما وقد أتيتُ البيوت من أبوابها كما أمَرَ الله، فما ذنبي إن دُفِعتُ للأبواب الخلفية؟

ثم التقط نَفَسًا يهدِّىء به قلبه المضطرب وأتبع:

- لا جُرم على من يسرق حقه في الظُلمة، بعدما طلبه علانية في وضح النهار.

عَقدَ (عابد) حاجبيه وغمغم:

- لقد ارتكبتَ خطأً هائلًا يا (صليل).

- بل اتبعتُ قلبي، ولو عاد بي الزمن لكررته ألف مرة.

- لا أجد سبيلًا لموافقتك هذه المرة.

- تكفيني مباركتك يا أبي.

ثم في رجاء:

- هل ستبخل بها عليَّ اليوم؟ في هذه الليلة بالذات؟

ازداد انعقاد حاجبيه ولم يحر جوابًا. كان الأمر أكبر من قدرته على الموافقة أو الرفض. يعرفُ يقينًا أن فِعلته تلك ستجلب وبالًا على رأسهم جميعًا. قال له بصراحة:

- تعرفُ أن (ألمرية) لن تسعكما فيها بعد اليوم.

- أعرف، ولهذا رتَّبتُ بعض الأمور.

لاح في وجهه تساؤل، فأردف (صليل):

- لقد تنازلتُ لك عن (سيف البحار).

انتفض كالملدوغ:

- ماذا؟ أي جنونٍ!

- إنه الشيء الذي رغبتُ فيه كثيرًا ولم تحن لي الفرصة لتنفيذه.

وأخرج من صدر قميصه لفافة من الورق موشَّاة بخيطٍ ملفوف. فضَّها قائلًا:

- إنها وثيقة بيعٍ للسفينة. كتبتها وزيَّلتها بخاتمي. حين عدنا اليوم ذهبتُ إلى القاضي وطلبتُ منه خاتمه عليها بدوره. الآن فقط قد صارت شرعية.

واستدرك ضاحكًا:

- وضعتُ بالعقد قدرًا من المال لا يُستهان به مقابلها. أنت الآن فعليًا قد أفلست.

حين لم تجد دعابته أثرًا، زفر بحرارة وقال برفقٍ جاد:

- اسمعني جيدًا يا (عابد)، أنت تعلم أنه لا أحد لي اليوم سواك، ولا أجدر منك ليحافظ على مسيرتنا. لقد صارت (سيف البحار) مِلكك، لإني لن أحتاجها بعد اليوم، فضلًا أن هذا هو الشيء الوحيد الذي سيؤمِّنك عند

الملك، (جارح) لن يسكت، وسيحيل (ألمرية) جحيمًا عليكم، وعليك أولًا قبل الجميع. كان عليَّ أن أجد وسيلة تقيكم شرِّه.

- كيف ستحمينا منه بورقة؟ الملك يعرف قَدر الزيدانية ولا يُمكنه إغضابهم.

أشار بيده:

- لكنه يحتاجكم كذلك، على مدى ثلاث سنواتٍ عرفنا أسرار الملك ورحلاته الخاصة، ووثقّنا علاقته بالملوك والسلاطين. حتى تجار البلدان الأخرى لا يأمنون نقل بضاعتهم إلا معنا. (ابن المعتز) رجلٌ أريب، ولن يقوِّض تجارة أمته ومصدر رزقها، لأن فتاةً مهما كانت تزوجت رغم إرادة عشيرتها.

ثم مُنهيًا:

- لن يجد شيئًا ضدكم، وإن كان مُعاقِبًا فليبحث عني أولًا.

خيَّم الصمت على نفس (عابد) فأثقلها. كان يزن كلمات (صليل) ويرى وقعها، ورغم إنكاره لكل ما حدث كانت خبرته تؤمِّن على ما يقوله فتؤيده. بعد كل شيء كان يبدو أن الشاب قد دبَّر أمره جيدًا وعَرِفَ ما يفعل. وتنهَّد (عابد) من أعماق قلبه ووجد نفسه يسأل حائرًا:

- لماذا فعلتَ ذلك يا (صليل)؟ أتترك كل ما صنعته طيلة سنوات لأجل فتاة؟

أجابه بهدوء:

- ليست مجرد فتاة يا (عابد)، تلك (ورد)، أول من خفق له قلبي، والمرأة الوحيدة التي تمنيتها صادقًا. دونها لن أشعر أبدًا أني بأمانٍ وأني سعيد...

ثم تبسَّم مُردفًا:

- هل تريد لي السعادة ما بقيَ من عُمرٍ يا شيخي؟

- يعلم الله أني لم أطلبها في حياتي لأحدٍ، ولا حتى أنا، بقدرك.

رفع أحد الرجال هتافه إلى مولاه (صليل) يدعوه للانضمام إليهم، واتحدت الأصوات تنادي العريس المنتظر أن يدلف الساحة ويبهرهم بمهارته المعتادة. أشار إليهم بكفِّه يستمهلهم، قبل أن يربِّت منكب (عابد) قائلًا:

- إذن تمنَّ لي السعادة ولا تفكِّر في سواها.

ثم بجدية:

- لقد اشترى لي الرجال بيتًا في (عكا)سنستقر فيه. ما معي من مالٍ يكفي لبدء حياتي و(ورد) في مكانٍ لا يعرفنا ولا نعرف فيه أحد.

- لن أراك مجددًا يا (صليل)!

- بل سأكون دومًا بالجوار، وسأرسل في طلبك لتزورني حين تستقر بي الحياة. فقط بعض الوقت حتى تهدأ الأمور، وبعدها لن ينقطع وجودك بيننا أبدًا بإذن الله. هذا وعد.

- وماذا ستعمل لحياتك؟

هز رأسه قائلًا بعبث:

- وهل كنتُ بحَّارًا قبل أن ألقاك؟ هل نسيت من أنا يا رجل وما هو أصْلي؟ لا أحتاج إلا أن أرى الدرب المناسب وسترى حينها عجبًا.

وغمز بعينه:

- أنا قادرٌ على إبهارك دومًا.

برغمه أفلتت من (عابد) ضحكة صافية وسأله:

- وأين عروسك الآن أيها المُبهر؟

أشار إلى النخيل القريب:

- تزينها النساء في بيت (علي). في أيّة لحظة ستكون بيننا.

- هل أبلغت (دريد)؟

- لم أجد وقتًا للأسف، لكني حتمًا سأراسله.

هزَّ (عابد) رأسه ثم قال هو يملأ عينيه به:

- لن تعود (ألمرية) أبدًا كما كانت حين تغيب.

ثم مداعبًا:

- وستتركها مستباحة لـ(جارح)؟ ألا سامحك الله.

قال باستهانة:

- فليفعل ما بدا له. والله لولا خشيتي على (ورد) ما تركتُ من أجله البلدة أبدًا، وليُرني ما كان قادرًا عليه، لكني أريد العيش في سلام، وإن كانت (ألمرية) لا تَسَعنا فإني تاركها له. لن يجدنا أبدًا ثانيةً.

عمَّ الصمت بعدها لبرهة. كانت الكلمات تحتبس في صدر (عابد) دون أن يجد لها منفذًا تتسلل عبره. وبدت أمارات الفكر على وجهه، لكنه في النهاية لام نفسه أن يغلبه الهمُّ على ربيبه في ليلة عمره، فيُفسد فرحته. وأقنع قلبه ككل أبٍ أن الرحيل قدرٌ واللقاء نصيب، وأن الفتى إذا اختار طريقًا لعمره القادم وعزمَ عليه فلن يُجدي الاعتراض. وردد من جديد جملته:

- إن كان الله قدَّر أمرًا، فمن أنا لأمنعه؟

وبدت في ملامحه انفراجة لم تلبث أن غزت وجهه، حتى انقلبت ابتسامة عريضة غمرت محيَّاه وأضاءت أساريره. وجذب الشاب المفتول إلى صدره قائلًا:

- مبارك لك يا (صليل). الحمدلله أني بقيتَ حيًا لأكون بجوارك في ليلةٍ كتلك.

ثم ربّت كتفه:

- والآن اذهب لرجالك، لا يصح أن تتأخر عنهم أكثر.

أشرق (صليل) بابتهاج، ثم كان أن أشهر سيفه (العاقب)، ودلف بخطواتٍ واثقة إلى ساحة الرقص، لتندلع حينئذٍ صيحات الرجال مُحيية،

وتدوّي زغاريد النساء اللواتي وقفن عند طرف الحلقة يصفقنْ للرجال المتواثبين بالسيوف.

كان الصخب عاليًا يعجُّ بالفرح والرضى، القلوب منشرحة تتشارك الضحك والرقص والأهازيج، والأبدان تلهث يغمرها العرق من وطيس النزال المُستعرض أمام المتفرجين، وفي الأفق بدأت أوشاج الفجر تتبدد بسنا الشمس التي تبزغ على استحياء.

وعلى حين فجأة، تناهت إليهم نغمة عذبة من العدم، بدأت منخفضة وهادئة، ثم ما لبثت أن تصاعد إيقاعها، وإن بقيت على شجنها الرقيق. استدارت الأعين تبحث عن مصدرها، قبل أن تشير امرأة وهي تهتف:

- العروس!

انصبَّت الأعين على حزام النخيل الذي برزت منه آية من آيات الله، شهقت لها الأفواه، ولهجت بالتسبيح الألسن. من بين الجذوع انسلَّت غيمة رقيقة ذهبية اللون كالتبر، كثيفة ولامعة، لتُقبل طائرة في الهواء بحِملها الذي استقر على سطحها واقفًا في خيلاء.

وهمس أكثر من رجل:

- سبحانك اللهم!

ورددت النسوة:

- الله ما أبهاها!

كانت (ورد) مستوية في وقفتها على الغيمة الذهبية، تحفَّها جنياتٌ صغيرة ضئيلة البدن، هشة الأجنحة، في لون الزهر الأخضر. تمثَّلت في ثوبٍ من قطعة واحدة في لون ندف الثلج، شاهق البياض، موشًّى بخيوطٍ من الذهب طويلة ورفيعة أكسبته بريقًا فائق السحر، وعلى رأسها لمع تاجٌ من مادة عجيبة كالبللور، شعّت ألقًا فريدًا، وصفاءً جذب أنظار الناس.

ومضت الغيمة طافية فوق الرمال، و(ورد) تقف فوقها يغلبها حياءٌ طاغٍ أحنت به طرفها، فلم تستطع أن ترفع رأسها لأحد، كانت الأعين المحدِّقة إليها في انبهار تذيبها خجلًا.

حين دنت من الجمع ارتفعت الأنغام، وتدفقت معها الزغاريد تغمر العروس الشابة، احتفاءً بها وبهيئتها التى لم يبصروا مثلها، ولا سمعوا عنها إلا في أساطير العرب. واقترب منها (صليل) بإشارةٍ من الجنيات، فالتقط كفها ليساعدها على النزول حتى استقرَّت على الأرض. همس إليها:

- أخيرًا يا (ورد)!

تخضَّب وجهها، فأطرقت في خفر ولم تنبس.

مضى بها على الرمال المفروشة بأوراق الورد، إلى ذات السجادة الدمشقية التى زُفَّ عليها سائر رجاله منذ أن شرعوا في العمل معًا. كان يبادلهم كما يحملون له، وقارًا وحبًا، لهذا أبى إلا أن يجلس على ذات المقعد الذي جلسوا عليه واحدًا تلو الآخر في ليالٍ مماثلة. كانوا قبل سنوات قد اشتروها معًا في إحدى رحلاتهم، وبمالٍ اقتطعوه من مغانمهم. انبهروا بجمال نقوشها وفخامة نسيجها، فتعاهدوا أن يكون مجلسهم عليها

في أحلى ليالي العمر حين يكون كلٌ في صدر الجلسة يوم زفافه. وما كان ربّانهم ليخرق عاداتهم قط.

حين استقرا جالسين، وشرع الرجال يكملون رقصاتهم، مالت على أذنه قائلة:

- الآن عرفتُ كيف كنتَ تدسُّ وردتي كل ليلة في جناحي!

لاح على وجهه تساؤل، لكنَّ إشارة منها إلى الجنيَّات المُحلِّقات حول الساحة يُحطنها بالحماية، جعلته يفهم فيبتسم.

- إنهن جنيَّات جبل (اليمامة)، صويحباتي الصغيرات، ولولاهن ما استطعتُ إكمال الحفل بتلك السرعة.

- لكنك رغم هذا تسللت لحجرتي بنفسك.

هز كتفيه:

- لم أطق صبرًا، أردتُ رؤيتكِ بنفسي فاستمهلتهم ليلة.

ثم أردف ضاحكًا:

- لكنَّ البحّار الشجاع فرَّ هاربًا حين فاجأته الأميرة الجميلة!

تشاركا ضحكة رنّت في الخيمة التي انتصبت خلفهم، تظللهما من البرد وقرصة الليل. وانفجرت الألعاب النارية في السماء بألوانٍ بديعة، لتتراقص شعلاتها المتوهجة على أعين الجمع، فابتهجت كالأطفال. وسألته وعيناها تجولان الساحة التي انقلبت قطعة من جنة الله:

- كل هذا فعلته لأجلي؟

- أي شيءٍ في الدنيا لأجل خاطر عينيكِ.

همست بكلمة لم يتبينها في الأنغام فسأل:

- ماذا؟

فرفعت إليه صوتًا ينطق بالصدق:

- أحبك يا (صليل). أحبك. وسأظل طوال حياتي حتى أموت.

أسرته حرارة نبراتها، فحكَّ جبينه بارتباك وهو من الحياء في غاية.

ما أرق كلمة الحب على أسماعك، لكن ما أصعبها على الرد!. وتساءل هل في الحياة شيءٌ يصعب على العاشق فِعله مقابل كلمة (أحبك) تلك؟

وانقضت ساعة على الجمع في ضحكٍ وغناء ورقص لم تُفصم عُراهم. وعُقِدَ قرانهما، وتحلَّقت من حولهم دوائر الرجال والنساء يصفقن ويغنين بأهازيج عربية أترعت الأسماع ونثرت عليها نشوة طروب.

ثم كان أن أزف الوقت وحتم الرحيل.

من وسط حلقة النار التي وهَجَت فجأة تناثرت حبيبات التبر متصاعدة في الهواء، وجعلت تتجمع وتتضافر مع بعضها حتى تشكلَّت غيمةٌ جديدة أكثر كثافة ووهجًا من الأولى. نهض العروسان، ومضيا تصحبهما الجنيَّات حتى ارتقيا الغيمة، ومن حولهما على الرمال احتشد الرجال والنساء مودِّعين .

قالت (ورد) وهي ترمق الجمع بطرفٍ حزين:

- ليت أمي كانت هنا اليوم.

مسَّد كفَّها برقة وقال:

- أعلم أنكِ تفتقدينها يا (ورد) لكن هذا قَدَرُ الله. حين تهدأ الأمور وتسير بنا الأيام سأرسل من يُطمئنها عليكِ، ولعل الله يُقدِّر يومًا أن تتلاقيا دون خوف.

ابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تومئ برأسها دون أن تنطق. ومن بين الوجوه المحيطة لمحت (سمراء) تقف بجوار زوجها، فبعث مرآها في نفسها اطمئنانًا جعل الابتسامة تزداد يقينًا وبشاشة.

رفع (صليل) عقيرته هاتفًا:

- رجالي، وأخوتي.

هدأت الأصوات وخفتت منصتة.

- والله ما أدري ما أقول في حيني هذا وأنا أفارقكم، إلا أنه لو شاء الله ألا يكتب لنا اللقيا من جديد، وأن تمضي بنا الحياة في دروبٍ مختلفة، فإني سأذكركم دومًا بكل الخير، وسأذكر أني عملتُ جنبًا إلى جنب مع أشجع الرجال وأنبلهم، وما أحسب أن يُبدلني الله رجالًا خيرًا منكم. إني والله لا أتزوَّد على الفراق إلا بذكرى أيامٍ وشدائد لا تُنسى، ومواقف سأرويها لأولادي وأحفادي. انظروا لما حولكم يا أخوتي وسترون أجلَّ هدية حظيتُ بها يومًا. لقد أتممتم لي كل هذا حقًا، لكنَّ العطية الأعظم

في عيني أنكم كنتم هنا، بأنفسكم لأجلي، وأنكم جعلتم مني رجلًا سعيدًا اليوم، وهذا ما لا يمكنني شكركم عليه بما تستحقون. أوصيكم بقَسَم البحّارة الذي عاهدتكم عليها، وبالشرف والشجاعة والدين الذي ما رأيت منكم إلا كمالهم.

وابتسم ملتفتًا إليه:

- وأوصيكم بشيخكم (عابد)، قائدكم الجديد من بعدي.

ثم ختم حديثه:

- إذا ذكرني أحدكم فليذكرني بخيرٍ، وليَدعُ لقائده القديم أن يحميه الله ويشمله برعايته، وأن يكتب له الخير حيثما كان.

ورفع يده مودِّعًا:

- سلام الله عليكم يا رجالي.

وببطءٍ، تكاثفت الغيمة مُتصاعدة من حوله و(ورد)، حتى غمرتهما معًا في غلالة من الذهب الداكن، الذي ما عتم أن تألق مرة بوهجٍ خاطف، ثم أخرى، فأخرى. وتراءت لهم يد الزوجين تلوِّحان لهم من وراء الغمام، فأسرع (عابد) صائحًا:

- احفظ الله يحفظك يا ولدي، وليسعدكما الله حتى الممات.

ثم كانت الوهجة الأخيرة أشد بريقًا، لمع ضوؤها على الأعين، قبل أن يندَّ عنها فرقعة متناهية الخفوت كخفقة قلبٍ، ثم اختفت الغيمة ومن فيها. لحظتها فقط انسدلت دمعة من عين (عابد) أرهقه منعها طويلًا.

(٢٤)

لم تذق (رحيمة) طعمًا للنوم، ولا غمَضْ جفنها لحظة طوال الليل. كانت الهدايا التي فضَّها (نعيم) بنفسه ما تزال أمام عينيها تملأ أركان الجناح. تعرف أنه يحاول استرضائها طيلة أشهر دون جدوى، وحين فشل في انتزاع كلمة واحدة منها في ليلته نام حانقًا.

عقب وصولهم إلى البيت الكبير، غادر (جارح) إلى سهرته مع أصدقاءٍ تخلَّفوا عن السفر، وقُرب منتصف الليل شعرت به يدلف البيت ثم يوصد حجرته عليه. أما (ورد) فلم تنبس بكلمة منذ عودتها. اتجهت صوب جناحها وأغلقته على نفسها بحجة الإرهاق والحاجة للنوم.

هكذا جلست (رحيمة) بنصف وعي، ترمق الشيخ وهو يستعرض الهدايا أمامها وقلبه يأمل في ابتسامةٍ منها، لكنَّ عقلها وكيانها كله كان في عالمٍ آخر. حين آوى إلى الفراش تسللت إلى حجرة ابنتها لتلقاها لآخر مرة.

كانت (سمراء) قد أخبرتها بما نقله إليها رجلا (صليل) من أنباء الخِطبة المفاجئة، والاتفاق الذي سرى بليلٍ بين الشابين. تنازعتها مشاعر الخوف والاشفاق على ابنتها، والغضب والرغبة في الانتقام من رجال بيتها. لم تنس لحظة في حياتها أنها تزوجت على كرهٍ منها لرجلٍ ضعفي عمرها، لمجرد أن كليهما من آل الزيدانية الأشراف!. وبرغم القلب الذي

تمزَّق في صدرها لفراق الصبيّة المتوقع، أقسمت لتساعدنّها بأيّة طريقة لتنجو من مصيرٍ ملعون خاضته وحدها طيلة الشباب وحتى الكهولة.

وفي جناح (ورد) القصي في أطراف البيت، غمرتهما موجة البكاء الحارة وهما تتعانقان لآخر مرة، غير أن المرأة كانت الأقدر على مَلكْ عواطفها، إذ لم يكن في وسعها أن تُفسد الخطة لأجل بعض مشاعر لن تُجدي ولن تُغيِّر المكتوب. كانت تتجالد لتؤدي دورها كأمٍ حتى الرمق الأخير.

بنظرة واحدة شاملة اطمئنت أن صندوق ابنتها قد ضمَّ مقتنياتها الصغيرة، وجواهر ستعينها وزوجها على نوائب الدهر. ضمتها بقوة إلى صدرها، وللحظة فكَّرت أنها قد تقبل لابنتها أي شيء في الدنيا ولا تفارق حُضنها، بَيْد أنها استعاذت بالله، وعادت تترنح إلى حجرتها، قبل أن تندسَّ في الفراش وتلبثْ في الظلام تنتظر.

مع بشائر الفجر هالتها حركة خفيفة في البهو، فرأت بعين الخيال ابنتها تتسلل إلى الباب الخلفي. «تمهلي يا (رحيمة)». قالت لنفسها وقلبها ينفطر. «بالله لا تُدمِّري حياة الصبيّة. لا تسمحي لأنانية جوفاء أن تُفسد عليها عُمرها القادم».

تسللت دمعة ثقيلة من عينيها كوَت وجنتها، وهوى ذراع الشيخ في تلك اللحظة على بدنها النحيل فانتفضت باشمئزاز. وجاهدت بإرادة فولاذية ألا تنهض، وأن تصرف عن ذهنها زفاف الصبيّة الذي سيدور الليلة في مكانٍ مجهول.

مع أول خيوط الشمس تناهت إلى أسماعها حركة خافتة في الحديقة أسفل النافذة. اختلج قلبها. هل عادت (سمراء)؟ لم يتبق إلا شيء واحدٌ إذن!. تململت في الفراش، وانقلبت على جنبها تسرح إلى النافذة المفتوحة، والستائر التي تطير بنعومة مع دفقة الهواء الـ.....

كان هذا حين دوّت صرخة (سمراء) ترجُّ البيت ومن فيه!

(٢٥)

تقف بالباب لا تتحرك والصمت يلفُّها. في الداخل تولول (سمراء):

- من لي بعدكِ يا مولاتي؟ أين أرضكِ؟ ماذا جرى لكِ؟

الشيخ يدور على أرض الحجرة كديكٍ مذبوح، و(جارح) يقف أمام النافذة تتقبَّض على حافتها أصابعه. ينظر إلى الفراغ الممتد دونما كلمة. وجهه جامد وتعبيراته مسطَّحة. عيناه تبرقان بشكلٍ أثار رجفة المرأتين.

تبكي الجارية. تهتز أطرافها وهي تنشج، وتتمخط في طرف كمِّها، حتى حسبت (رحيمة) أن مكروهًا حقًا قد حصل. لكنَّ الجارية الأمينة كان يُحرِّكها فراق مخدومتها الذي حطم قلبها.

«هربت؟ كيف فعلتها دون أن نشعر؟ كيف انسلَّت من بين يدي وأنا غافل؟». يقول (نعيم) وهو يدور حول نفسه. «كسرتني الفاجرة!.. كسرتني».

لم يعرف إن كان ينطق بها حرقةً على نفسه، أم سدًّا للعيون التي تُصليه. عيون تنتظر ردة فعل الأب المغدور. هل يشعر فعلًا بغضبٍ لفرار وردته؟

يُنهكه الدوران والإنفعال. ينيخ ركبتيه ويجلس على الأرض وعيناه تسهمان.

«لماذا فعلتِ هذا يا (ورد)؟ أهان عندكِ أبوكِ؟!».

يتعلَّق بصره بظهر (جارح). يستغيثه. أصابته الطعنة في مقتل. شطرت هامته أمام شقيقه الأصغر. يعود ليطرق من جديد متخاذلًا ومُنهارًا. جثمَ الصمت ثقيلًا على القلوب. لم يتحرك (جارح) ولم ينطق. يدير رأسه ببطءٍ شديد وكأنه يبذل مجهودًا خارقًا. حين يرفع الشيخ وجهه يجده يحدِّج فيه بعينين ناريتين.

يرتبك. تحيِّره الكلمات ويُعييه تركيبها. ماذا يقول؟ كيف يرفع طرفه في وجهه بعد اليوم؟. ألا ما أبشع الخيانة!. عينا (جارح) لا تستمهلانه. تنهشان روحه بنظراتها. إنه لا يستأذن. إنه يقرر. يقضي ويفصل ويُطلق الحكم دون تلفُّظ.

يُطرق الشيخ مجددًا ويهمس بوهن:

- افعل يا أخي ما تأمر وستجدني من الصابرين.

يظل ثابتًا يرمقه حتى حسبه لن يتحرك. لكنه في النهاية يغادر مكانه. يتزحزح كلوح خشبٍ مُصمَت. تغصُّ المرأتان رعبًا وينفلق قلب (رحيمة). يمضي (جارح) من الحجرة في صمت، لكن على إطار النافذة الخشبية كانت ثمّت آثار أصابع، تركت علامات محفورة تفيضُ بالغليان!

(٢٦)

كل يومٍ مع (ورد) كان أشبه بحُلم!

إنه ذلك الشعور حين ينبض قلبك دون سبب لمجرد رؤية من تحب. حتى لو رأيته مئات المرات، وصرتَ تحفظ كل خلجة فيه. حتى لو كنتَ تعرف أنه في حجرة مجاورة، أو قريبٌ منك هنا أو هناك، لكن ورغمًا عنك حين يظهر، تجتاحك قشعريرة لذيذة، وتهتف روحك: رباه! أيجمعك بذاك المخلوق مكان؟

لم يكن (صليل) عاشقًا مُتيمًّا، يتيه بمحبوبه ويراه إلهًا كاملًا يتنزَّه عن العيب والنقصان. لا. ما كان هذا خليقًا برجلٍ خبير، جابَ البحار وعرِفَ البشر. رجل حكيم رغم نوبات طيشه، يعرف بنظرةٍ واحدة كيف يقيِّم مَن أمامه، ويزن مميزاته وعيوبه، فيزداد له على هذا قُربًا أو بعُدًا. لذا ما كان أحدٌ أقدر من (صليل) على معرفة (ورد) والدراية بمثالبها. لكنه رغم ذاك، وفي كل يوم يمرُّ عليه معها، كان يزداد لها حبًا!

كان رجاله قد انتقوا له بيتًا في قلب المدينة، ذا باحة فسيحة وبستانٍ خلّاب. منذ الليلة الأولى لهما طارا فرَحًا بالبيت، بأناقته وبساطته المحببة، والشمس حين تضرب في جوانبه فتُفعمه بالإشراق. ولأول مرة منذ فترة طويلة كانت (ورد) تشعر بالهناء والأمان، بيتٌ جميل هي سيدته، وزوجٌ عاشق أحبُّ إليها من أنفاس صدرها. حتى نوبات الحنين التي كانت

تعصف بها من حينٍ لآخر حين تذكر بيتها القديم و(ألمرية) وصديقاتها، وفوق كل ذاك فراق أبويها، كانت رغما عنها تجنح للتفكير في الحاضر والمستقبل الذي يتراءى أمامها. تكفيها نظرة في سَحَر الليل لزوجها الوادع بجوارها مُطمئنًا، لتتجاوز آلامها وتطوي الأفكار الخبيثة التي تُعكِّر الصفو. كانت سعيدة، والإنسان متى سَعِدَ يسرقه اليوم الراهن، ويدفعه ليعبَّ من رحيق البهجة في جشع خشية النفاد.

بعد أيامٍ من الزفاف تلقيا مفاجأةً سعيدة. سمعا في أحد الصباحات صهيلًا، فخرجا يستكشفان الأمر، فما راعهما إلا وجواد (صليل) الأشهب مربوطٌ إلى شجيرة ناتئة يرعى، وبجواره وقفت ساكنة مُهرة بيضاء باهرة الجمال، بعينين لوزيتين أطربت قلب (ورد).

وتلألأت عند البوابة طاقة من نورٍ صافٍ، في حجم قبضة اليد، دارت حول نفسها للحظة قبل أن تختفي برنّةٍ عذبة كصوت بللورٍ يتناثر على الأرض الصخرية. عندها ابتسم (صليل) في امتنان وتمتم:

- شكرًا لكنَّ يا صديقاتي.

وكرَّت الأيام تجري كفرس (ورد) الشاهقة حين تمتطيها لتنهب بها المروج والتلال عند أطراف المدينة. اشترى (صليل) ببقية ما كان معه من مال حانوتًا متوسط الحجم في إحدى الضواحي، وشرع يُجهِّزه ويغذّيه بالبضائع. كانت خبرته لا بأس بها في البيع والشراء، وفي معرفته بأنواع الغلال والحبوب والبخور والتوابل، فكان أقدر على ملأ حانوته بما ينفعه،

والاستعانة بخبرته في تأسيس تجارة وليدة يقتات منها وزوجه حين تنفد مدخراته.

لم يكن اختياره (عكا) منذ البداية عشوائيًا. كانت مدينة قصية عن مدينتهم. لم يسمع عن أحدٍ من (ألمرية) مرَّ بها أو زارها أو حتى جاء منها إليهم، حتى أنها كانت بعيدة عن الموانىء التي خرجت منها وإليها قوافلهم البحرية. كانت جديدة بأهلها وعاداتها وتجّارها وحُماتها، فتيقَّن (صليل) أنها ستكون المكان الذي يلوذ و(ورد) به، ويستقرا فيه بعيدًا عن الخطر: خطر (جارح)، وخطرٌ قديم يتوارى في الظلمات!

يومٌ بعد يوم كانت علاقة (صليل) تتوطد بالتجَّار وأصحاب الحوانيت والدكاكين المجاورة، حتى من قبل أن يفتتح تجارته فعليًا، كان لسانه حُلوًا وأمانته كالسيف. ومن بيته ترامت سمعة طيبة عنه و(ورد)، ملأت الناس حبًا لهما لما وجدوه فيهما من رقة شمائل وحسن طباع وطيب مجاورة. فالتمسهما الناس في كل حين، وبادلوهما الزيارات، وأقيمت لهما في كل بيتٍ ولائم تباينت في الفخامة والذوق، لكنها تماثلت في الدفء، وفي مودة أطلَّت جلية من العيون.

وعاد (صليل) يومًا من قصر الأمير مستبشرًا، إذ خرج في جمعٍ من الصَحْب والتجّار حديثي العهد بـ(عكا)، وكما يجري العُرف مع الوافدين الجدد، كي يبذلوا فروض الطاعة وأواصر العلاقات الطيبة لأميرهم، فيُقدِّموا له الهدايا ويُلقي هو بسدل رضاه عليهم. لكن صليلًا وحده ناله إعجاب الأمير من الزيارة الأولى بحُسن حديثه ولباقته، وذكائه الذي بدا

واضحًا في اختيار كلماته، فأولى له الرجل في جلستهم القصيرة جلّ اهتمامه. وقالت له (ورد) بزهوٍ لم تُخفيه:

- يبدو أن الأمير قد انتخب صديقًا جديدًا.

ردَّ ضاحكًا:

- أولئك القوم لا صديق لهم إلا فيما ندر.

ثم أردف باهتمام:

- يحيط بالملوك ليل نهار جماعة من المنافقين أصحاب المصالح والغايات، وغالبًا ما يكونوا بلداء الذهن، ليسوا من أهل الفصاحة أو بلاغة اللسان. لهذا يفرح الملوك بالوجوه الجديدة لإنها عادةً ما تكون تسليتهم القادمة.

قالت وهي تضع صحفة الطعام أمامه:

- وهل تنوي أن تكون كذلك؟

هز كتفيه:

- تعرفين أني لا أطيق جلسات السلاطين، ودومًا ما أهرب منها قدر وسعي. من اعتاد مصاحبة البحر الساكن في جوف الليل، لا يطيق صخب الأنوار وزحام الاحتفالات.

غمزت بعينها:

- وبرغم ذلك فمن عجبٍ أن لك في كل مدينة صديقًا من ملكٍ أو أمير!

أطلق ضحكته الصاخبة من جديد وقال:

- لإنه للأسف لا أحد أقدر مني على معرفة طبائع الملوك وما يرضيهم.

ثم ذكر شيئًا فلاحَ التفكير على وجهه وأتبع:

- ولكن الحق يا (ورد) أنه عليَّ الحذر من هذا الأمير حقًا، إنه ليس أريبًا واسع المعرفة بالرجال كـ(ابن المعتز)، بل فتىً مدللًا رقيق الخِلقة والخُلُق، ويبدو من حديث الناس عنه أنه أميرٌ فاسد يشترون رضاه بالهدايا، ولا مزية له إلا أنه وارث الحكم الأخير على البلد. ثم إن زوجته....

وازداد وجهه كَدَرًا:

- نظراتها إليَّ لم تُرحني أبدًا!

واعتاد الناس في ليالٍ متفرقات أن يروا الزوجين الشابين في قاربٍ خشبي صغير ينسدل بهما على صفحة البحر بين المراكب والسفن، تظلله السماء الممتدة كبساطٍ هائل مُغرق بملايين النجمات، وينير الماء من حولهما سنا القمر الفضي.

وكانت أحلى ما تحبه (ورد) في أمسياتهما وتختاره بدلال كطفلة، حين تخرج معه في ذاك القارب، فتحملهما المياه الحالكة، ويتنقلان بين السفن الكبيرة المضاءة بالمشاعل والقناديل، فتغمرهما التحيات، ثم يدوران حول الفنارة الحجرية عند طرف المدينة، قبل أن يرجعا مع خيوط منتصف الليل.

وفي طريق العودة يتمشيَّان في الطرقات متشابكي الأيدي، يوزعان الابتسامات على الجيران، وتغمرهما مقابلها الدعوات الحارة بالسعادة والحماية.

مرَّت عليهما خمسة شهورٌ، كانوا أشبه بالأحلام، وداعبتهما فيها أنامل النشوة الحانية. غرق (صليل) و(ورد) في بعضهما حتى الثمالة. نسيا الماضي والحاضر، نسيا الخطر الجاثم، ولاذ كلاهما بحضن الآخر يرتشف منه دلال الهوى وهيام العاشقين. وكثيرًا ما سمعته يهمس في أذنيها قبل أن تغرق في النوم:

- سلامٌ على الدنيا إذا ما القلب بالنشوة ارتوى!

(٢٧)

وحدث يومًا أن عزمَ الأمير على السفر لجزيرة قريبة كان قد اتخذ فيها قصرًا يُبنى، وأتمَّ البنائون تشييده فبعثوا إليه رسولًا يبشِّره. وكان في جلسته بعضٌ من الندماء لم يتجاوزوا السبعة، فقرر بنشوة جنونية طارئة، وبباعث من الملل وحده، أن يسافر من توِّه، مُصطحبًا كل الحاضرين بجلسته، شيخا أو شابا، وأعلن أن لا يأتينَّ عليهم المساء إلا وهم يحتفلون في القصر الجديد!

انقسم الجمْعُ حول القرار العجيب، وعبثًا حاول بعضهم ثنيه أو تأجيل الأمر:

- حنانيك يا أميرنا، لم نستعد للرحلة الطارئة. أمهلنا وقتًا!

- لدي صفقةٌ مع تجّارٍ عليَّ مقابلتهم بعد صلاة العشاء.

- الأهل والأولاد يا أمير. لسنا مِلك أنفسنا.

لكنَّ الرجل كان قد ثمِلَ بأمره القاطع الذي ما اعتاد يومًا أن يردَّه عليه أحد. وغادر بالفعل جلسته ليتجهَّز، مُمهلًا إياهم ساعة حتى آذان العصر يبلِّغون فيها عائلاتهم! هل كان أحدٌ منهم ليجسر على الرفض؟

جالسًا يُحدِّق في العرش الخالي، والناس من حوله يضربون كفًّا بكفّ، كان (صليل) يغمغم في نفسه:

- ما كان ينقص حياتي غير أميرٍ مجنون!

(٢٨)

في مخاضة العشق وسَكْرته غاب الزوجان عن الأخبار. لكنَّ دقّاتٍ على الباب في أحد الأيام أعادتهم إلى الحياة وإلى (ألمرية). فتحت (ورد) الباب فألفت وجهًا يلوح بالبِشر قبالتها. هتفت بفرح:

- (عابد)!

قال بخجلٍ شابه الابتسام:

- لم أطقْ صبرًا على فراقكما.

وخطا الشيخ دالفًا وهي ترحِّب به. جلس يستريح على مقعده فيما تغمره بالترحاب والأسئلة عن الأحوال والأهل وشؤون المدينة الحبيبة. وأجاب جميع أسئلتها مترفِّقًا قبل أن يسألها هو عن (صليل). قالت:

- في الحانوت الجديد. لم تبق إلا أيام ويصير جاهزًا. لاتقلق، لن يطول غيابه.

ثم ذكرت شيئًا فسألت في دهشة:

- ولكن، كيف اهتديت إلينا؟

- كان الشوق يقتلني لأطمئن عليكما وأرى صليلًا، لكني تجالدتُ قدر استطاعتي. حين أعياني الصبر، أقسمتُ على رجليَّ اللذين اشتريا لكما البيت إلا أن يرشداني إليه.

ثم ضحكَ:

- صرختُ فيهما لئن لم يُخبراني السبيل، لأطوفنَّ بسائر (عكا) وحدي حتى أهتدي. وفي النهاية خشيا نوبة جنوني فأذعنا.

تبسَّمت قائلة:

- شدّ ما سيفرح (صليل) بلقائك! والله ما خلا يومٌ عليه من ذِكرك. حتى في تجارته الجديدة كان يحزنه ألا تكون معه فيها، أو تمدَّه بنصحك. كلانا افتقدك حقًا يا (عابد).

قال بتأثر:

- بارك الله لكما يا بنيّة، وأسدل عليكما ستره بالرزق الحلال.

نطقت عيناها بسؤالٍ قرأه يسيرًا، فقال برفق:

- أبواكِ بخيرٍ، فلا تجزعي.

لاح في وجهها طمعٌ للمزيد. أردف شارحًا:

- قابلتُ زوج (سمراء) مراتٍ عديدة بعد صلاة الجمعة. وفي كل مرة كنتُ أطمئن على صحة أبويكِ وسلامتهما. لا تقلقي، إنهما بخير حال، والحياة تمضي.

وشرع يحكي:

- يوم رحيلكما استدعاني (ابن المعتز) لقصره كما توقعنا. سألني عن حقيقة الأمر أمام الجميع، وكان على رأسهم (جارح)، فأقسمتُ أني لم أعرف شيئًا عن مخطط (صليل) حتى تم تنفيذه، وأنه تعمّد ألا يسرَّ لأحد عن وجهته ولو من باب المشورة.

- وماذا قال؟

- في البداية لم ينطق بشيء، كانت نظراته تتفحصني مُحاولًا تبيُّن الصدق في كلامي. ألحقتُ شهادتي بوثيقة بيع (سيف البحار)، وأخبرته أن صليلًا باعني إياها لإنه كان بحاجة للمال دون أن يخبرني السبب. قُلتُ أني أحسست برغبته في الرحيل عن (ألمرية) قريبًا، بعدما ضاقت به وبكل ما جرى له فيها، لكني لم أعرف أنه وقتها كان يخطط للهرب مع ابنة الزيدانية.

وازدرد ريقه خاتمًا:

- وحين انتهت شهادتي غادرتُ القصر بسلام دون أن يمسسني أحد.

- هكذا فحسب؟

لوَّح بيده مجيبًا:

- برغم حيرة الملك العارمة، لكنه لم يجد شيئًا عليَّ، فخلَّى سبيلي. رغم كل شيء فـ(ابن المعتز) رجلٌ حريص، يزن العواقب ويعرف ما يُمكن أن يضرَّ بمصلحته ومصلحة جيشه إن خَسِرَ أكفأ بحارة في مدينته. ثم إنه لا

يكترث بشابين عاشقين إن يتزوجا أو يفرّا. ما يهمّه هو مصالحه، وهي، بعكس وزيره، معنا أكثر مما هي مع الزيدانية، لذا كانت الأسئلة لترفع حرجًا من عليه، أمام الناس وأمام (جارح) على الأخص.

وحين عطفت بالسؤال على عمها تنهَّد قائلًا:

- (جارح)؟ طيلة شهور لم يني عن البحث لحظة، ولولا أني أعرف أنه لا يبغي إلا شرًا لأشفقتُ عليه. نشرَ عيونًا في كل مكان ليتقصَّى الأخبار. كان يأمل أن يأتي مكتوبٌ إلى (ألمرية) أو يخرج منها فيقوده إليكما. بل إنه سعى لشراء رجلٍ وراء آخر من رجالي لكنهم صدّوه بحزم. ثم قبل أسابيع سرت أقاويلٌ في المدينة أن بعض الخبثاء قادوه إلى أبواب العرَّافين والسحرة لعلّ أحدهم يهديه إليكِ.

قالت والدماء تنبض في صدغيها:

- والله يا (عابد) إني لأبات ليلتي أرتجف فَرَقًا أن تطولنا يداه!

- لا تخشي شيئًا يا (ورد)، إنه أبعد ما يكون عنكما.

ثم بثقة:

- قد يبحث طويلًا، لكنَّ أرض الله الواسعة ستبتلع آثاركما، وسرعان ما تندثر القصة ويطويها النسيان. أين أنتِ الآن؟ وأين هو؟ ما بينكما أراضٍ وبحور، فعلام الخوف؟

أومأت برأسها في غير معنى، ومكثت تُقلِّب ما قال في ذهنها. بيد أن شاعت في وجهه ابتسامة مُطمئنة، وقال مُنهيًا وهو يربِّت على يدها:

- انعمي بحياتك يا (ورد) ودَعي الماضى وشأنه. فكّري في إسعاد زوجك، وفي بيتك وأسرتك التي تتكون، كل هذا أحق بالإنشغال الآن.

وغزَتها أصداء ابتسامته، ومسَّت عباراته قلبها الباحث عن أقل كلمة تُطمئنه. فوجدت وجهها يتألق رويدًا، وجاوبته في النهاية بابتسامة مثيلة.

وانقضت عليهما ساعةٌ أخرى في حديثٍ وسؤال، قبل أن يقطع السمر وصول (صليل)، الذي ما راعه إلا أن وجد عابدًا يخرج من وراء زوجه، فانفجر بالفرح، ووثب يحتضنه بقوة لاثمًا جبينه ويديه.

وانسحبت (ورد) تاركةً إياهما يتحدثان دون مقاطعة، ومضت لتُعدَّ طعامًا للضيف. غير أن خاطرًا كان يخترق ذهنها بين لحظةٍ وأخرى يقضُّ صفوها.

«إنه أبعد ما يكون عنكِ. لا تخشي شيئًا. لن تطولكما يداه».

كانت الكلمات تنساب في أذنيها دافئة، لكنها برغم ذاك لم تمنعها عن الارتجاف.

«هل أهنأ بحياتي الباقية دون خوف؟».

ولم تحتملها ساقاها أكثر، فاستكانت على مقعدٍ قريب. رفعت ناظريها إلى السماء المتبدِّية في صفاء من النافذة القريبة، والتمعت في عينيها دمعة.

«أتعدُني أن تحميني؟».

(٢٩)

انصرمت أيامٌ بعد زيارة (عابد) التي أشاعت جوًّا من البهجة في البيت. ولأول مرة مذ شهورٍ طويلة كانا يشعران أن لهما أهلًا يستدفئان بزياتهم ولو كل حين. واظبت (ورد) على ترديد كلمات الشيخ في كل وقت حتى حفظتها واطمئنَّت لها. هنأت بها الحياة، واستظل (صليل) بحضن زوجه الدافئ وعشرتها الطيبة.

ولم تمض أيامٌ قليلة حتى كان الشاب يفتتح حانوته الجديد على مشهد من الناس، الذين تجمهروا في الطريق المار به، يتصدَّرهم القاضي وشيوخ المذاهب الأربعة وبعض كبار شيوخ الطريقة.

كان احتفالًا مبهجًا سهرت له (عكا) حتى بشائر الفجر الأولى، وذبح فيه (صليل) كبشين عظيمين، ووزَّع على الفقراء وعامة الناس أنصبةً من اللحم والبقول والزيوتٍ والخل. وحتى البخور الشرقية كان يُفرِّق على الواقفين لفائف صغيرة منها، رغم أنها لم تكن ذات ثمنٍ يسير.

قُرب الفجر زاره الأمير بنفسه، وأهداه مصحفًا كوفيًا موشّى بالذهب، كان قد تلقَّاه هديةً في الأيام الأولى من ولايته، فسرَّ (صليل) بالهدية الكريمة رغم شخص هاديها، وزيَّن بها صدر بضاعته.

واستيقظت (ورد) يومًا في أحد الصباحات دون أن يكون زوجها بجانبها كما العادة. كان قد اعتاد بعد صلاة الفجر أن يرجع للبيت فيندسُّ جوارها على الفراش حتى تُشرق الشمس، قبل أن يغادر إلى رزقه، لكنه اليوم اضطر للمغادرة باكرًا لينتظر بضاعةً ستصل مع أولى قوافل الصباح، وكان عليه استقبالها بنفسه.

ولأول مرة منذ شهورٍ طويلة شعرت (ورد) بالغربة حين تحسست جانبه من الرقاد فلم تجده دافئًا كما عهدته. لبثت برهة متكاسلة عن النهوض، قبل أن تستجمع قوتها وتغادر الفراش.

قرب الظهيرة مرَّت بها عروسٌ شابة، كانت قد سكنت جوارها قبل أسبوعين أو أقل. وكانت المرأتان اتفقتا على زيارة حمّام المدينة لتغتسلا وتضمّخا جسديهما بالطيب والحناء، لكنَّ وردًا نسيت الاتفاق ففاجأها مَقدم المرأة. حاولت ما وسعها من القول أن تعتذر عن الذهاب، لكنَّ العروس ألحَّت، خاصةً وهي كما رفيقتها حديثة عهدٍ بالمدينة، لا تعرف فيها أحدًا ولا طرقت سبيلًا وحدها، فما كان من (ورد) إلا أن أذعنت بابتسامة رفيقة وغادرت إلى حجرتها لتتجهَّز.

ومَضَت المرأتان للحمّام، وكانت المرة الأولى التي ترتاده فيها (ورد)، فأثار إعجابها حجمه الذي كان ضعفي أكبر حمّامات (ألمرية)!

كان نظيف البلاط، أبيض الأرضية والحيطان. من قاعته البرَّانية فاحت روائح عطرية مميزة لصابونٍ عربي، وعن يمينه ويساره كان ثمَّ بابان أحدهما يقود إلى القاعة الوسطى التي انتصف فيها مغطسٌ واسع، بنوافير

دقيقة مزخرفة حفَّت بجدرانه المندِّية ببخار الماء، ومن ورائه دهليز يقود إلى حجرة التدليك، أما الباب الآخر فكان يُفضي إلى الحمّام الحار الذي انبعثت من تحت بابه أبخرة تنسَّمت منها أنفا المرأتين رائحة العود والمسك فلعبت بروحيهما.

ومضى زمنٌ عليهما ما بين التحمم والتكييس والتدليك، شعرت فيه (ورد) براحة لا نظير لها، وانتشاء واضح جعلها تزيح همومها عنها مع الصابون والماء المنسابين على الأرض. لكنَّ حديثًا بين امرأتين بالجوار جذب انتباهها فتابعته بعفوية في البداية، قبل أن تتحول إلى الإنصات بتركيز. كانت إحداهما تقول للأخرى:

- يقولون أنها عشقته عشقًا.

- يا مغيث!، وماذا عن زوجها؟

- هذا الديّوث؟ يعرف بمغامراتها ولا يُمكنه حتى أن يؤدبها.

- لعنهما الله!.. أتُراها تكرر ما فعلته العام الفائت؟

لوَّحت رفيقتها بكفِّها:

- بل أخطر، قالت لي جارية من القصر أنه لم يسبق لها رؤية مولاتها بهذا الشكل من قبل. أتعرفين ماذا جرى؟ لقد ذهبت إلى جناحه بنفسها!

- أأنتِ واثقة؟

كانت المرأتان تتحدثان وهما في الحجرة اللصيقة، وساعد صوتهما العالي والجدران العارية على نقل الحديث، فسرعان ما انتشر الكلام بين

النسوة. اعتدلت (ورد) عن المنضدة التي رقدت عليها، ولفَّت المنشفة الواسعة حول جسدها، قبل أن تتخذ ركنًا قصيًا، تاركةً إحدى العاملات تُحنِّي قدميها. لم يكن الأمر أكثر من مجرد ثرثرة نسائية معتادة، وتمقتها منذ الصغر، لكنَّ شيئًا في الحديث لم يُرحها. توثبْ قلبها للإنصات، وشعرت بالدماء تنبض في عروق رقبتها.

وكانت أن لمحتها امرأة صهباء بطرف عينيها فتعرفتها على الفور. ارتسمت ابتسامة ثقيلة على شفتيها وهي تتدخل في الحوار بصوتٍ مسموع:

- أنا أيضًا سمعت هذا الكلام. البلدة بأسرها صارت تتحدث عن مغامرات التاجر الجديد مع (جهِان) الشركسية.

قالت إحداهن وهي تتمدد على بطنها وتشبك ذراعيها تحت ذقنها:

- العيب عيب زوجها الذي يعرف ولا ينطق، ولا يجسر حتى على تطليقها. ويقولون عليه أميرنا!

- إنه يهيم بها، ولئن فارقته ففي ذلك موته.

- حسرةٌ على الرجال، ذهب زمانهم.

قالت امرأة وهي تعقد شعرها الأشيب:

- ويحكن، كفاكنَّ خوضًا في الأعراض.

وقالت أخرى وهي تدهن ساقيها:

- ما أبأسكنَّ بهاتيك الألسنة!

رفعت امرأة فجأة عقيرتها بالسؤال:

- ما كان اسمه ذاك التاجر؟

كانت المرأة التي تعرَّفت (ورد) بالركن تجفف جسدها. قالت وهي ترمق الأخيرة بطرفٍ خفي:

- يقولون أن اسمه (صهيب). لا لا، بل (صليل). بلى. ذاك اسمه.

انخلع قلب (ورد)، وتوترت رفيقتها التي لم يجذبها الحديث قبل أن تسمع اسم العاشق المزعوم. قالت فتاة بصوتٍ أجش:

- أعرف (صليل) ذاك، قال أبي أنه بات من رفاق الأمير المعروفين.

وصاحت أخرى:

- تذكرتُ شيئًا سمعتُ زوجي يتسامر مع ندمائه به قبل أيام. قبَّحه الله يسهر كل ليلة في عقر دارنا يثمل ويسكر، ويااليته حتى يرعى شؤون أهله أو حاجة امرأته. آه. كنت أقول أني سمعته يتندَّر مع أصدقائه حول ما فعلوه في قصر الأمير يوم دعاهم للسفر قبل فترة. باتوا ليلتهم هناك في أجنحة فخيمة وأسرَّة وثيرة، لكنَّ أحدهم وكان ساهرًا، رأى الشركسية تتسلل إلى حجرة نوم عشيقها، قبل أن تدخل وتوصد الباب من خلفها.

ترنحت (ورد). ولحظت رفيقتها ما بها فأسرعت إليها. انتاب الشابة دوارٌ مروِّع ومادت بها الأرض، بيد أن شيئًا من هذا لم يتبدّ واضحًا وسط الأبخرة المتصاعدة.

برغم ألمها حاولت (ورد) أن تتماسك ما استطاعت، قالت لنفسها أن المرأة إذا طُعِنَت من أخرى في قلبها، فالموت أحبُّ إليها من أن تُبدي أدنى شعور بالانكسار أو الضعف.

هتفت عجوزٌ طاعنة:

- يا للفاسقة!

- خيّبها الله، ألا تتئد؟

قالت إحداهن وهي تنمصُّ حواجبها:

- العام الفائت كانت تشاغل أحد قادة مولانا الخليفة حين حلَّ ضيفًا على قصر زوجها. حين ضبطهما معًا على ضفاف النهر ليلًا قتله شر قتلة.

هزَّت أخرى كتفيها:

- ويااليته مسها بسوء، غَفَر لها ما كان حين بكت في أحضانه واستعطفته أن يصفح. آهٍ من دمعات النساء ومَسْكنتهنَّ.

ضحكت امرأة:

- بل قولي آهٍ من الرجال حين يستبد بهم العشق.

- والشهوة!. سليني عن حالهم معها. إذا اتقدت نيران امرأة في عروق رجلٍ فرحمة الله عليه.

ضجَّت القاعة بالضحكات الماجنة حتى بدت الحيطان وكأنها تردد رَجْع ضحكة واحدة مقززة وطويلة. (ورد) التي انسحبت بسرعة كانت

تتخبطها الضحكات فتلهث من وقعها على روحها. لم تجد وقتًا حتى لتلتقط أنفاسها. كان قلبها يقارع ضربات الطبول. (صليل)؟ أيفعل بي (صليل) هذا؟ ألا ما أقسى اللطمة الغادرة!

وكَسَت جسمها بالملابس التي نزعتها حين أتت، بينما عقلها غادر الجسم والمكان والأرض بسائرها. مضت معها رفيقتها تقودها بيدٍ شاردة ولسانٍ معقود. كانت لا تعرف ماذا تقول، أو بمَ تواسي!. أي الكلمات تطيِّب جرحِ المرأة التي طُعنت في أحب الناس إليها؟ ولاذت بالصمت لتهرب من فداحة الموقف وحرجه. في الداخل وبعد رحيل المرأتين، قالت لهنَّ الصهباء:

- أتعرفن من تلك التي غادرتنا الآن؟

تبادلن النظرات في حيرة. لم يبد أن واحدة منهنَّ قد عرفتها سواها. قالت بخبث:

- إنها زوجة العاشق الجديد!

وبينما بُهِتتَ بعض النسوة وقد آلمهن ما قيل أمام امرأة الرجل، وشعرن بتعاطف أصاب قلوبهن، انفجرت الباقيات في الحمام بضحكاتٍ رنانة وقد بلغ انتشاؤهن مبلغه بهذه الصدفة غير المأمولة!

لم تعرف (ورد) كيف وصلت دارها، ولا ما قالته رفيقتها. كل ما عرفته أنها في لحظة خاطفة استردت فيها وعيها، ألفت نفسها في ركن الحجرة، تجلس كالمنوَّمة تنتظر. لا تعرف ماذا ولا لِم؟ لكنها فقط تنتظر. تترقب.

ومرت الساعات ثقيلة وقاسية حتى جنَّ الليل، وقبل أن يتعالى آذان العشاء من المسجد القريب كانت تسمع صوت قدميه تعبران به عتبات المنزل. عند الباب الذي فتحه بضجيج كعادته هتف مناديًا:

- (ورد)، يا (ورد)، أين أنتِ؟

لم يجدها في استقباله كعهدها، عقد حاجبيه باستغراب. رفع صوته مُناديًا من جديد، لكنه وقبل أن يُكمل ألفاها واقفةً عند بابها ووجها كظيم. تلقّى قلبه نُذر الشر فاستغاث بالله الرحيم.

- (ورد)!، لماذا لم تُجيبي ندائي؟

لم تنطق. ظلت تُحدِّق في وجهه تفتش بعينيها عن شيءٍ مبهم بلا هدى: وَسْم خيانة، اعتذار، ندم، أو دليل على عكارة نفسٍ اعتادت النقاء.

كانت تفتش عن ملامح (صليل) الذي عشقته.

- كفاكِ مزاحًا يا (ورد)، ما بكِ؟

تبخر الهدوء، وحلَّ القلق بجهامته. تحرك ناحيتها باضطراب، فانتفضت مذعورة وتراجعت للخلف. توقف مدهوشًا.

- بالله لا تتركيني هكذا. أجيبي، ما بكِ؟ ماذا جرى؟

كانت قبضتاها متحجرتين بجوار جسدها النحيل. أعصابها كالوتر المشدود، ودموعٌ متحجِّرةٌ في عينيها تكابد ألا تسيل، لا تريد أن تُكسر. لن يكون الآن. ليس أمامه.

- كيف سوَّلت نفسك أن تفعل بي هذا؟

جفَّ ريقه في لحظة.

- أفعل ماذا بالضبط؟ أنا لا أفهم شيئًا!

تمتمت بغلٍ:

- وضعتُ دنياي تحت قدميك، فلماذا اخترتَ أن تكسرني؟ لماذا يا (صليل)؟

تشبثت يداه بذراعيها. صاح في وجهها:

- كفِّي عن الإلغاز وأجيبيني: ماذا حدث؟

نزعت يديه عنها باشمئزاز، وتراجعت أكثر حتى التصقت بالحائط. قالت بمقتٍ تقاطر من لسانها:

- لقد عرفتُ كل شيء عنك وعن فاجرتك!

بُهتَ (صليل). شحب وجهه حتى ابيضت ملامحه. قال بصوتٍ جفَّت من أوتاره الحياة:

- فاجرتي! أي هراءٍ يا امرأة!

صرخت في وجهه:

- هراء؟ ما بينك وبين الفاجرة الشركسية هراء؟ رحلة الأمير وأنت معه، وزيارتها الليلية لجناحك هراء؟

لفظ جبينه عرقًا باردًا غمر وجهه.

- تمهَّلي يا (ورد). لقد فهمتِ كل شيء خطأً.

- إياك أن تنطق اسمي من جديد، لا أريدك أن تدنسني حتى بندائك.

أطرق أرضًا هنيهة. حين رفع رأسه كان يحدِّق فيها بعينين محتنقتين. قال:

- كيف عرفتِ؟

أطلقت ضحكة عصبية:

- بل السؤال كيف لم أعرف؟ البلدة بأسرها تتحدث عنك والعاهرة اللعينة.

تعلَّق بمعصميها. هتف والكلمات تثب عن لسانه:

- ورب الأكوان ما خُنتكِ قط. أنا.. أنا لا أعرف. الحقيقة عكس ما جرى تمامًا، صدقيني.

حاولت التفلُّت منه مجددًا، لكنه كان يطبق بأصابعه على يديها فهتفت في غضب:

- كفَّ عن نطق اسمي وابتعد. لا تلمسني أبدًا.

صرخ في وجهها يُسمعها:

- بالله توقفي للحظة واسمعيني. لقد أخبرتكِ أني لم أرتح لتلك المرأة يوم ضمها مجلسي الأول بالقصر. كنت أفهم. لكني ظننتها أعجز من أن ترتكب شيئًا، طالما لا أجاريها ولا أبادلها حتى النظر.

ثم ازدرد ريقه وهو يلهث:

- ليلة وصولنا للقصر الجديد زارتني في جناحي فهالني مرآها. كنتُ نائمًا واستيقظتُ بلمس أناملها تجوس وجهي، فهببتُ مذعورًا.

- تلقيتَ هدية الأقدار!

- بل لعنة الأقدار. أنا لم أمسّ منها شعرة واحدة وحق الله. طردتها. قلتُ قاطعًا أنه لن يجري بيننا شيءٌ ولو كنا بمعزلٍ عن العالمين، لا فائدة تُرجى مني، فلتذهب عني بسلام.

- أنت كاذب!

هتف وقد أثارته الكلمة:

- أنا لا أكذب قط يا (ورد). لا أخافكِ، ولا أخشى أحدًا إلا الله وحده، حتى أجبَر على الكذب. لئن قلتُ ما قُلته الآن فالله يعلم أني صادقٌ فيه. لم ألمسها أبدًا، ولم يجرِ بيننا شيء، والله شاهدي.

تمتمت بنفور:

- لا تُقرن الله بكلماتك.

أشعله إصرارها. دار حول نفسه باحثًا بعينيه، قبل أن يعثر على مبتغاه. هرع إلى المصحف المفتوح على محمله، وأقبل به هاتفًا وهو يبسطً يده على غُلافه الجلدي:

- والله الذي لا إله إلا هو، ما كذبتُ عليكِ في حرفٍ مما ذكرت.

ودمعت عيناه متابعًا بمرارة:

- لقد كدتُ أركن إليها. وعصفت بي وقتذاك رغبة مضنية. قلتُ لنفسي لا يراني أحد والله رؤوفٌ بعباده الخطّائين. غير أني، والله، لم أسلِّم إليها، ولا تجاوزت معها بحرفٍ، حدًا أقامه الله. أقسم لكِ على هذا.

وانسابت دموعه قائلًا بألم:

- قسمًا بالله يا (ورد). قسمًا الله.

شيءٌ في صوته وحديثه مسَّ قلبها، وأنبأتها غريزتها أنه صادق، لكنَّ ثورتها لم تهدأ، إن كان مظلومًا، فكيف صمتَ كل تلك الفترة؟ كيف طاوعته إراداته ألا يصارحها؟ شهرٌ ونيف انقضى دون أن يذكر الأمر، ولو مرة واحدة. من كان يحمي؟ هي؟ نفسه؟. وذكرت ما كان من النساء نهارًا فارتعشت. لماذا عرَّضها لتلك الإهانة؟

غمغمت بجمود:

- عدم خيانتك لا يعني أنك دون ذنب، لقد صمتَّ. لم تتخذ معها تصرفًا صارمًا. لو كنت قائلًا لزوجها لكان أشرف لك ولي.

- لو كنت قائلًا لزوجها لكنتُ الآن ميتًا!. لقد عرفته وعرفتُ طباعه أسرع ممن سواي، إنه رمَّةٌ بالية. لا نخوة له ولا كرامة، وعشقه لامرأته غير سويّ. لو كنتُ أخبرته بما جرى لصدَّق روايتها وكذَّبني، حتى لو علم صدقي في قلبه. لكنها سكتت فسكتُّ. أنا اليوم حيٌّ لأني كتمتُ سرها وإلا لأصلتنا جحيمًا.

قالت في مرارة:

- وأين جنّتنا اليوم يا (صليل)؟ ذهبت السعادة بغير رجعة.

- أنا لم أفعل مُنكرًا!

- لقد سكتَّ عن الحق، وهذا عين المنكر.

هتف حانقًا:

- أنا لم أعد صليلًا القديم يا (ورد)، البحّار الجريء الشاب. لم أعد مسئولًا عن نفسي وحياتي فألقيها في قلب البحر، أو الجحيم حتى، ليتناقل الناس خبري. أنا اليوم زوج. زوج امرأة هي كل ما أملك من الحياة، ولا معين لها بعد الله سواي، وربما في الغد قد أصير أبًا. لم تعد حياتي رخيصة الثمن ولا من حقي وحدي فأخاطر بها. إنها ملكك الآن، وملك أبنائي يومًا. ماذا كنتِ تنتظرين مني فِعله؟ أخبر ذلك المجنون فيقتلني كما قتل مَن قبلي؟ أم يُلقي بي في السجن بقية عمري؟ أنا لم أخطىء في قراري.

- قد أخطأت بصمتك.

- لم أشأ أن أعكر صفو حياتنا بشيءٍ قد انتهى. هذا كل ما جال بخاطري. وجرت بنا الحياة فنسيتُ ما كان حتى اليوم.

فتحت فمها لتنطق، غير أنها أطبقته من جديد واستكانت للصمت. كانت الحمم تتلظّى في قلبها. تغلي كالحديد المصهور بنيران الغيرة والحزن والكبرياء النازف.

«أهدرت النسوة كرامتي اليوم». قالت لنفسها وهي تحدِّجه بقوة. «وبسببك يا (صليل). لقد خدعتني، فوالله لا أغفرها لك أبدًا».

كان يحدق في عينيها باحثًا عن إنفراجة أمل، أو أقل بادرةٍ لتصديق، حين نحَّت يديه عنها بهدوءٍ بارد، وتراجعت للخلف خطوتين قائلة بصوتٍ لا شعور فيه:

- عهدتك رجلًا حرًا، والحر لا يقبل أن يُجبر امرأة على العيش معه يا (صليل).

اتسعت عيناه بجزعٍ. أتبعت بقولٍ باتر:

- سأعود إلى أبي، وليفعل الله بي ما يشاء.

تسمَّر مبهوتًا. أعيته الكلمات حتى عن ترتيبها في ذهنه. همس بغير تصديق:

- ماذا تقولين؟

ورنا إليها بقلبٍ يتمزق:

- بالله يا (ورد)، لا تحكمي عليَّ بتلك القسوة. أنصتِي بقلبك.

- ما كان قلبي أشد تعقلًا قبل اليوم. أتظن الحياة تستقيم بيننا والألسنة تلوك سمعتنا؟ العاشق المغامر وزوجته الحمقاء الغرّة؟

- سنرحل عن البلد. لا حاجة لنا فيها.

هتفت:

- أنا لا يعنيني البلد ومن فيه. تعنيني خديعتك، وسترك الذي أسدلته على نفسك وحدك كأني لستَ زوجتك.

- لا تزيدي في ظلمك يا (ورد)!

قالت ممعنة في القسوة:

- الظلم ما فعلته في حقي وحق نفسك، فلا تلومنَّ سواك.

فقال بحرارة:

- أنتِ حبيبتي وزوجتي. والله لا أتركك أبدًا.

- إذن تملكني جسدًا، لا قلبًا ولا روحًا.

وأجبرت رأسها على الانحناء أمامه:

- وثق أنك ستجد جاريتك طوع بنانك.

ودون كلمة أخرى، انسحبت بهدوءٍ قاتل إلى حجرتهما، تاركةً إياه يقف مذهولًا، عاجزًا عن الحراك أو النطق، عاجزًا حتى عن التصديق. وتساءل كيف تنهدم الحياة بين ليلة وضحاها بهذا الشكل؟

لكنَّ جسده هو ما انهار، تهالك على أقرب مقعد، وتراخت ذراعاه بجواره مستسلمًا لضربة القدر القاصمة.

لم يعرف من الزمن كم انقضى، وكيف انقضى. مرت الساعة تلو الأخرى وهو بعد في مكانه، صامتًا يحدِّق في الفراغ. ورويدًا خفَّ الضجيج المتناهي إليه من الشارع، تباطأت الحركة، وهدأت الأصوات حتى انقطعت تمامًا.

كان الثلث الأخير من الليل قد أسبل أستاره على (عكا). وشعر أن أحدًا لن يلجأ إليه فيرحمه سوى الله، ببطءٍ نهض من مجلسه، فتوضأ وصلى ركعتين في جوف الليل، بث فيهما شكواه وجزعه حتى سكن قلبه قليلًا.

وانساب بقدميه إلى حجرة نومه، فألفى الصمت والظلام يغشيانها. دسَّ جسده في الفراش فشعر بحركة خافتة تنسحب إلى طرفه. اعتصر الألم قلبه أكثر. رقد على ظهره شابكًا كفّيه على صدره، ولهج بالاستغفار. ردد جوفه ما حَفِظَ من آيات، ودعا ربه أن يمنٌّ على بيته بالستر، ويعيد فرحًا اغتالته الشرور.

ودون أن يعي تسللت يده على الفراش، تبحث في الظلام عن يد محبوبته، حتى وجدها. كانت كفّها الدافئة التي تفيض رقة، قد انقلبت باردةً متحجِّرة، حتى أن قشعريرة اجتاحته حين مسَّها. فيما لم تكد هي تستشعر لمسته، حتى أبعدت يدها على الفور وكأنما قد مسَّت حيّة.

وفي اللحظة التي انسابت من عينه دمعة، انحدرت فبللت لحيته، كانت دمعة مشابهة من عينها، تسقط بدورها في صمتٍ وفي هدوء.

لم يعرف أنه نام إلا حين غاب الضوء الواهن الذي يأتى من الخارج كاشفًا بعض حلكة الحجرة. وامتد الظلام أمام عينيه واسعًا ومديدًا بلا نهاية، حتى انقطعت عنه في الأخير الأفكار والنُذُر.

نام (صليل) إلى ما شاء الله أن ينام، لكنه حين هوت على فمه تلك اليد المتصلِّبة ككلابة حديد، فتح عينيه مذعورًا!

كانت لحظة واحدة، مجرد لحظة، رأى فيها عينًا تلمع تحت ضوء القمر المتسلل من النافذة. عينٌ قاسية وباردة، خالطها شيبٌ ودم، وغضبٌ طال كتمانه. سمع صوت (ورد) عن يمينه تتلفظ باسمه، وحشرجة مخيفة تجتاح صوتها. لم يستطع النظر إليها. لم يجد وقتًا. في لحظة رأى عين مُهاجمه، وسمع زوجته تشهق ألمًا..

وفي اللحظة التالية جزَّ النصل البارد عنقه فنحرها!

(٣٠)

كان العسس يجوبون الطرقات بتراخي مَن عَهِدَ أعوامًا من السلام تظلل (عكا)، فما عاد بهم تحفّز أو يقظة كما السابق. وكان أحدهم يمرُّ بجوار بيت التاجر الجديد حين سمع جلبة فتوقف مستغربًا. كانت القناديل تنير الطريق، لكنَّ الظُلمة على بيت التاجر كانت غريبة تبعث الرهبة، وكأنها غيمة من السواد أحاطت به بالكامل. رفع قنديله فبددت شعلته بعض الظلام السادر. مدَّ بصره مستطلعًا، حين انفتح الباب أمامه فجأة، ليبرز ظلٌ طويل القامة مفتول البنيان. تراجع العسّاس للوراء وهو يبسمل ويحوقل. كان الرجل الذي بدأت ملامحه تتكشّف مع كل خطوة يغمره الضياء فيها، يُمسك رقبته بكلا كفّيه مُطلقًا حشرجة مروّعة من بين شفتيه. وثب قلب العسّاس في صدره. وأمام عينيه اللتين اتسعتا في رعب، كان الرجل يكتم بكفّيه خيوطًا من الدم، جرت من عنقه إلى ثيابه لتغرقها. ومدَّ ذراعه مستنجدًا، فتعلقت أصابعه الملوثة بالدم بحلّته. همس للكهل:

- و... ردا!

ثم تهاوى أرضًا دون حراك.

(٣١)

ظلامٌ مُقبض، عميقٌ وثقيل كنهرٍ من الحبر، يسمع فيه أصواتًا متداخلة وهمساتٍ من الأشباح. أيادٍ تجوس بعنقه وأيادٍ تتناقل جسده. ترفعه، تزحزحه، ثم تُرقده. يحاول أن ينطق، فلا يخرج الصوت من أوتاره المقطوعة. يُصدر فمه خوارًا طويلًا ومؤلمًا. يشهق لكنَّ الهواء يعجز أن يصل إلى صدره.

يفتح عينًا تغطِّيها غبشة، وتتمتم شفتاه بأشياءٍ لا يسمعها أحدٌ من حوله. يميل عليه وجهٌ ليسمع ما يقول، لكنه أسرع منه يغيب في الظلام من جديد.

من الممر الخارجي الشاحب، يخترق الجمع المحتشد أمام غرفة نومه، رجلٌ أشيب بسيط الملبس يدلف على عجل. يتناقل الرجال نظرة استغراب:

- من هو؟

- الطبيب (إسحق)؟

يهمس رجلٌ:

- لا، إنه أشد نحولًا وهرمًا من ذاك.

بنظرة واحدة من عينيه المكتحلتين ينحفر المشهد كله في ذهنه. الرجل المُسجى على الفراش، يحيط به رجالٌ ينزعون عنه ثيابًا أغرقتها الدماء،

وآخرون يبدِّلون اللفائف حول عنقه، محاولين وقف الدم المنثال دون جدوى.

في زاوية الحجرة كان جسدٌ آخر أرقَّ عظامًا وأنحل بدنًا، يعلوه غطاءٌ واسع يغطي أعطافه، وإن لم يمنع بركة قانية كانت تتجمَّع ببطءٍ من أسفله.

يزيح المحتشدين حول (صليل) بحركة من يده، قبل أن يميل عليه ويفحصه. كانت لمساته وهيئته العامة توحي أن له باعًا في الطب ودروبه، فلزم الجميع الصمت في انتظار ما قد يفعله لإنقاذه. فجأة يصدمهم بقوله:

- اخرجوا جميعًا. لا أريد لأحدٍ أن يبقى هنا.

يتبادلون النظر في دهش. وبرغم أن أحدًا منهم لا يعرفه، إلا أن طريقته الحازمة تبعث الرهبة في أوصالهم فتنضارب حركتهم.

كانت هيئته موحية بالهيبة والجلال، ولهجته باترة دلَّت على رجلٍ اعتاد اطلاق الأوامر، والعامة في كل زمانٍ يخضعون بغريزتهم لقوي الشخصية عميق النبرات، ولو أمرهم بما يخالف هواهم!

بين مترددٍ ومن شرع يغادر بالفعل، يهتف في الواقفين بصرامة أشد:

- قُلتُ اخرجوا الآن!

يفزَّ البقية وقد أرجفتهم الصيحة. يتدافعون إلى الخارج، مُهمهمين في استهجانٍ وتأفف. أعينهم تنطق بفضولٍ لمعرفة مصير الجريح. لكنَّ أمره ينفذ فيهم فيخضعون. يقول العسّاس الكهل باستياء:

- من تكون يا هذا لتأمر في حضرتي؟ جنود مولانا الأمير في الطريق ومعهم طبيبنا (إسحق). هو طبيب المدينة، ولا يُسمح لأحدٍ بمعالجة مريضٍ دون قدومه، فمن تكون أنت؟

- أنا أبوه!

ثم يصرخ فيهم:

- والآن اغربوا عن وجهي.. هيا.

يتدافع الناس أكثر إزاء ثورته، فما تلبث الحجرة دقيقة واحدة إلا وتخلو منهم جميعًا.

لم يكن أمامه كثير وقت.

يسرع الكهل فيفضّ اللفافة الجلدية التي كانت بحوزته. يُخرج علبة صغيرة. يفتحها ويميل على (صليل) ليلعق بإصبعيه مادة دهنية كثيفة، يشرع في تغطية الجرح الغائر بها، حتى تتكاثف عليه تمامًا.

كان الدم ينبثق من أسفلها، ويجد طريقًا ليسري على عنق الشاب وصدره. ولوهلة يبدو وكأن فارقًا لن يحدث، لولا أن يأخذ سريان الدم في الإبطاء رويدًا، حتى يتوقف. تغوص المادة الأرجوانية القاتمة برفقٍ في مسام عنقه. تمتزج بالجلد المقطوع كأنما يتشرَّبها. بعد لحظات تختفي تمامًا مُخلِّفة ورائها جرحًا قطعيًا طويلًا بشع الهيئة، لكنه نظيف ومُطهَّر كأن جرَّاحًا بشريًا قطَّبه بنفسه.

في تلك اللحظات يتجلّى وجه (صليل) مخيفًا، ابيضت بشرته، وشحبت ملامحه فصار أقرب للموتى. رغم براءة الجرح، كانت علامات وجهه تُنذر بالموت القادم في تؤدة.

بين الخوف والإشفاق، يحدِّق الكهل فيه مدركًا أن توقُّف النزيف ليس نهاية المطاف. يعي جيدًا أنه تصرف مؤقت إلى حين. ليشفى الجرح يحتاج وسيلة أشدَّ أثرًا. ودون أن يضيّع لحظة أخرى. يلتقط الإبريق النحاسي المزخرف، المستقر عند حافة النافذة على صحنٍ عريض وجواره قدحٌ من نفس اللون. يصبّ في القدح قليلًا من الماء، ثم يُخرج ريشته من جيبه، ويشرع في الكتابة على صفحة الماء الشفاف!

الأحرف غير مرئية، والمداد عدم، لكنه يكتب، ولسانه يدمدم بتعاويذٍ مهموسة بلغة مردة الجن. ينتهي فيحمل القدح ويقف قبالة النافذة مُتطلعًا منها إلى السماء الحالكة، باحثًا عن نقطة محددة فيها.

أخيرًا يلمح ذلك الصقر العظيم طائرًا، على عكس عادات جنسه، في السماء السوداء، يحلق في دوائر وعيناه تبرقان. يناديه همسًا بكلمة واحدة، فيقطع الصقر دورته الواسعة في الفضاء، ويخفق بجناحيه برشاقة منطلقًا صوب النافذة المُشرعة.

على حافتها يهبط ليمدَّ بصره الحاد إلى داخل الحجرة. تستقرَّ عيناه على (صليل) الراقد في سكونٍ مخيف، فيطلق صرخة غاضبة وكأنه يعي ما جرى. «لا تقلق يا صديقي». يغمغم الكهل. «سيكون بخيرٍ بإذن الله، لكن علينا فقط أن نُسرع».

يمدّ ناحيته القدح الموسوم بالتعاويذ:

- يجب أن تصل هذه الرسالة لمُساعدي (زين) فورًا، هو سيعرف كيف التصرف.

مع الحروف الأولى لجملته، وقبل حتى أن يتمَّ، يطلق الصقر منقاره المدبب إلى القدح، يعبُّ منه الماء دون إبطاء، كأنه اعتاد هذا ألف مرة. يتابع الكهل:

- لا يرينَّك أحدٌ في الأجواء. إلزم الظلام ما استطعت.

يفرغ الصقر، فيُبعد القدح جانبًا:

- طِرْ يا صديقي، وليحفظك الله.

يستدير الصقر على عقبيه. يُطلق صرخته من جديد، قبل أن يضرب بمخالبه الحافة ليثب عنها مخترقًا الفضاء الواسع بجناحيه، تتبعه عين الكهل. حين يغيب أثره في الأفق بسرعته الخارقة للمألوف، يلتفت إلى (صليل) الراقد في فراشه كجثة بلا روح. يتمتم بخفوت:

- ليرحمنا الله إن تأخرنا!

(٣٢)

كانت أنسام الفجر تهفو على الوجوه المترقبة. الصبح يدنو والناس بعدُ لم تنم.

تناهى للجمع المحتشد خارج البيت صوت جياد تقترب. حَسَبها أكثر من رجل رُسل الأمير قد جاءت أخيرًا، غير أن تراءت لهم عربة لا تحمل شعار الملكية المألوف. عربة سوداء صغيرة يقودها جواد أشقر بارع الجمال.

توقفت أمام البوابة، وترجَّل منها فتى حديث السن مليح القسمات، بدا لهم وكأنه تلميذٌ من تلامذة حلقات العلم بالمسجد أو الديوان. وثب الفتى عن العربة وأسرع يُخرج من قلبها صندوقًا عاجيًا داكن اللون، مُصمت لا زخرفة فيه ولا علامة. كان ثقيلًا، لكن الفتى بقوة مذهلة احتمله ليغذَّ السير ناحية دار (صليل).

لم يسأله أحدٌ أو يعترضه، قدَّروا أنه بكل تلك الثقة والعجلة هو مساعدٌ حتمًا للكهل بالداخل.

في صحن الدار كان بعض الجيران الرجال قد جلسوا يتسامرون في انتظار أخبارٍ جديدة، حين انفتح الباب فجأة عليهم ليدلف الفتى حاملًا

صندوقه. تبادلوا النظرات مدهوشين، وقبل أن يفتح أحدهم فمه، قال بحزم دون أن يهتم بأصول اللياقة:

- فليُرني أحدكم الطريق.

نهض واحدٌ مشيرًا إلى السلم القريب:

- الطابق العلوي. الحجرة الثانية على اليسار. ولكن من....

لم يهتم الفتى بانتظار بقية جملته أو حتى سؤاله. ارتقى السلم بسرعة متجهًا صوب الحجرة. وأمام أعينهم فتح الباب بثقة دون طَرْقٍ، ودلف قبل أن يغلق الباب من خلفه جيدًا. عادوا يتبادلون النظر، ودارت الهمسات بينهم تتساءل عن كنه الجنون الذين يكتنفهم في جنبات هذا البيت. لكنَّ أحدًا لم يجد في نفسه الجرأة على طرح السؤال الأهم بصوتٍ مسموع: إلام تنتهي تلك الليلة العصيبة؟

(٣٣)

مع آذان الفجر، وفي اللحظة التي وصل فيها أخيرًا الطبيب (إسحق) ذو الأعوام الثمانين، متأففًا ينفض عن عينيه آثار النوم، انفتح الباب العلوي فاشرأبت الأعناق إليه بقلق. كان الكهل يجفف عينيه، والفتى يتماثل من ورائه شاردًا ومصدومًا. بعد دقيقة خرج واحدٌ من الجيران إلى المحتشدين بالخارجِ ناعيًا.

لحِقَ (صليل) بزوجته الشابة عند خالقهما.

(٣٤)

وأشرع الصباح على (عكا) بجنازة مهيبة أثارت أحزان الجميع. أغلب من عرفوا الزوجين الشابين حضروا ليصلوا عليهما في المسجد الجامع، قبل أن يشيعوهما لمقبرة حديثة تطوَّع أحد التجّار الأعيان من رفقاء (صليل) أن يهبها لهما، إذ كانا لا يُعرف لهما أرضٌ ولا نسب، وبغير عِشرتهما الطيبة لم يبحث أحدٌ عن أصلهما أو يتساءل حتى عنه. وتحت أنظار عينين ثاقبتين أخذتا تراقبان الجنازة من بعيد، ومع انقضاء الضحى، كان الجسدان قد واراهما التراب. وعاد الناس لبيوتهم بين داعٍ ومبتهل بالرحمة. حتى الشامتون الذين تناقلت ألسنتهم قصة الشاب وعشيقته الشركسية، أمام فظاعة الموت عدّوها زلّة من زلات البشر، وقال أكثر من واحد:

- خطيئة، ومن منا كامل الطُهر؟

وترحَّم عليه الفقراء بقلبٍ صادق:

- لم نرَ نظيره في الجود والكرم!

- غفر الله له، ما عطف علينا أحدٌ مثله.

- بغير رحمته وسخاء يده لن تكتمل (عكا) أبدًا.

ولم يعرف أحدٌ أصل القصة ولا كيف انتهت تلك النهاية المفجعة. بإيعازٍ من زوجته، كلَّف أمير (عكا) قائد شرطته بالتحقيق والتقصي. وسرعان ما خرجت عشرات القصص المتناقضة تحكي ما حدث، وتؤكد أنها الحقيقة وما دونها قولٌ بغير علم.

قالوا إن لصًا أراد نهب البيت فقتل الزوجين أثناء النوم. قالوا إن غريمًا مجهولًا أراد الانتقام من التاجر الشاب الذي لمع نجمه بسرعة في المدينة واكتسب حظوة ومكانة لم يحققها كبار السادة من قبله. قالوا حتى إنهم سمعوا شجارًا ليلتها بين الزوجين، وجنحوا للإعتقاد سرًا أنه ضبطها بجُرم الخيانة فقتلها، ولم يحتمل البقاء دونها فقتل نفسه من فرط عشقه!. قالوا كثيرًا، وامتلأت البيوت والحانات ومجالس القهوة بتفاصيل الحكاية ودقائقها، تلوكها الألسنة ما بين عليمٍ ومتسائل. لكن وكحال سائر حكايات العرب سرعان ما غمرتها أمواج الحياة وغابت في طيّات الزمن.

وانتهي التحقيق العبثي بجملة أراحت الضمائر الواهنة، وأطلقت العنان للخيال:

عِلمُ الفاعل عند خالقه!

(٣٥)

حين انقبضت اليد المعروقة على فمه وهبَّ فزعًا، كان أول ما رآه العين الشهباء والحاجب الكثيف الخليق بشيطان.

حزَّت السكين عنقه بضربة واحدة، وصاحبها يفحُّ بمقت:

- لأجل الفاجرة!

حاول التشبث بصدره فلم تطاوعه يداه التي انقطعت الدماء بغتة عن عروقها، وتراخت الأوصال فيها بسرعة فائقة. اختفى (جارح) من الحجرة في جنح الظلام، بينما هو يتطاوح ويداه تكممان عنقه الجريح.

كانت (ورد) جواره تشحط في دمها ويداها متراخية باستسلام أفزعه. عيناها جفَّت الحياة منهما، وثمة استكانة رقيقة كانت تتشرَّب بها ملامحها التي لم يخطف الموت منها جمالها الأثير.

كان يترنح. يتمايل محاولًا التماسك. يتعلق بأستار الحجرة فلا تحتمله. يسقط وتسقط معه فتغمر جسده. ينهض شاعرًا بآلاف الخناجر تمزق بدنه. الروح تخفق بجناحيها في صدره، تتململ باغية الفرار.

يهبط الدرج يلاحق خطواته خيطٌ من الدم رفيع.

(ورد) لم تَمُت. (ورد) لم تَمُت. انقذوها. بحق الله فلينقذها أحد!

تميد الأرض به وتتشرَّب الرؤية بلونٍ قانٍ. يفتح الباب ويخرج إلى الطريق. من أين تأتي النجدة في تلك الساعة؟

تسيل الدماء على صدره مخلوطة بدمعٍ ثخين.

حين تخايل له من بعيد شبحٌ يقترب، ندَّت عنه بدلًا من الاستغاثة حشرجة مكتومة. كان الشبح جسدًا بدينًا مترهلًا، يحمل على كتفيه وجهًا يوحي بالأمان. مدَّ ذراعه إليه وقد فنيت إرادته للحياة. كان يريده أن يصعد لأعلى. أن يرى وردًا فيخبره أنها بعد حية. لم يكن قلبه يدق في تلك اللحظات. قلبه ذهب معها لبارئها.

شحب وجه العسّاس وهتف:

- يا إلهي!، أي هولٍ هذا؟

كان المنظر بشعًا، لكنَّ المسكين أمامه كانت عيناه تفيضان بالخوف. كان أشد رعبًا منه. همس بزفرة لم تخرج من حلقه:

- و... رد!

وسقط على الأرض. غمر التراب أنفه وحلقه. اخترقته صورة (جارح) يلعق الدم الذي بلل شفتيه بنهم... «لأجل الفاجرة».

الفاجرة!!. لا. ليست (ورد). إلا (ورد)... لااااااا.

وشهق فاتحًا عينيه.

(٣٦)

كانت خيوط الشمس تتسلل عبر النافذة من ثنايا الستائر الرقيقة إلى قلب الحجرة. في صدارتها كان مُستقرًّا على الفراش الواسع مائلًا بظهره إلى الوراء في نصف جلسة، ومن خلفه وسائد استراح عليها، بينما القدح في يده قد ذهبت أبخرته وضاع دفؤه من طول شروده.

كان الكهل جالسًا على مقعدٍ بجوار النافذة يرقبه في صمت. بينما وقف عند الباب تلميذه (زين) مُتهيِّبًا لا يتحرك من مكانه. قال الأول بابتسامة حانية:

- اشرب الدواء يا ولدي. لا تدعه يبرد.

أعادته الجملة من غيابه فانتبه. رفع القدح إلى فمه مُرتشفًا رشفة سريعة أراد بها تطييب خاطره لا أكثر.

«أعلم». قال الكهل وابتسامته تتسع، فرفع بصره إليه. «إنه كريه الطعم، لكنه سيساعد جُرحك كثيرًا».

ثم من طيّات صدره أخرج رقعة من الجلد، وريشة، وضعهما على المنضدة فانتصبت الريشة فجأة وتوقَّف سنُّها الرفيع فوق حافة الرقعة. ثم إنها شرعت تتحرك وحدها، فتابعها (صليل) بعينيه. كانت تخطُّ شيئًا قرأه الكهل ثم قال:

- هذه؟ إنها وسيلة بدائية للحديث. يمكنك التفكير بحرية، سأقرأ ما تريد قوله.

عاودت الريشة الكتابة من جديد فقرأ الكهل:

- «هل تكتب أفكاري؟».

لوَّح بكفِّه:

- أجل. لقد استخدمتُ قطرة من دمك في هذا. كنتُ أعرف أنك ستستغرق وقتًا حتى تعاود الحديث بصورة طبيعية من جديد.

لاح في وجه (صليل) الفهم. تضاربت الأفكار في رأسه فلبث ساكنًا.

- افصح عمّا بداخلك يا ولدي. يمكنك أن تطرح ما عنَّ لك من سؤال. في الأيام الماضية كنتُ لا أريدك أن تُرهق نفسك، لكني أرى عقلك اليوم مُزدحمًا بالأسئلة.

كان (زين) يتابع الحديث المتبادل من الجمل المنطوقة على لسان مُعلِّمه فحسب. بعد قولته الأخيرة أطلق تركيزه في وجه (صليل)، مُشفقًا عليه من عذابٍ يعلم أن أسئلة الشاب ستجلبه على رأسه.

حين ساد الصمت طويلًا ولم ينطق المُعلم، تيقَّن الفتى أن صليلًا مازال بعدُ حائرًا شديد التوهان، فازداد له ألمًا.

كان (صليل) أمامه يجاهد بقوة ويعتصر ذهنه، محاولًا التشبث بفكرة واحدة. تتعاقب على وجهه اختلاجات توحي بأية معاناة يكابدها. في عقله كانت الأفكار تصطرع كوحوش البرية. تفترس بعضها. لا يكاد يتعلق

بسؤالٍ حتى يطرحه سؤالٌ آخر. ما تاق لمعرفته بشدة كان يخشى السؤال عنه. كان يخشى اليقين. إن ذهبت (ورد) فماذا يهمه بعدُ أن يعرفه؟ لكنَّ عقله طرح سؤالًا آخر. أجاب الساحر بلسانٍ ثقيل:

- دفناها في مقبرةٍ وُهبت لكما من أحد سادات (عكا).

بدا صارمًا جامد الملامح. عيناه تطفران، لكنَّ أعطافه تتجلّد بقوة غير عادية حتى لا يهرب من مقلتيه الدمع. في تلك اللحظة فقط تيقَّن أن قلبه قد ولَّى للأبد.

تحرَّك سن الريشة ببطءٍ شديد. قرأ الكهل وقال:

- كل ما كنتُ أفكر فيه وقتها أنك يجب أن تختفي عن الأنظار، كان لابد من هذا لحمايتك، وحين أنجاك الله تيقنت أني اتخذت القرار الصحيح. من فعل بك هذا لم يكن يريد إلا موتكما، وما كان شيءٌ بقادر على ردعه. ربما لو كنت ظللتَ في (عكا) بعد ما جرى، لكرر محاولته في غفلةٍ منك.

ثم أشار لتلميذه فاعتدل بحركة سريعة إثر نظرة (صليل) إليه:

- مساعدي (زين) كان متأهبًا وقت مغادرتي. حين وصلته الرسالة حضر ومعه الأدوات اللازمة لخطتي.

وأشار بيديه شارحًا:

- لقد صنعنا لك يومها جسدًا. مجرد قشرة خارجية لها وزن وثِقَل الجسد الحي. كان جسدك مُخدَّرًا فوارايناك في حجرة جانبية لم يمسَّها أحد. وبعد الدفن غادرنا بك في الخفاء.

ثم التقط نَفَسًا من الهواء وعيناه لا تغادران الرقعة. بعد لحظات قال:

- لا تقلق، أنت في مكانٍ أمين. أنا وأنت ضيفان على عشيرة (زين) في قريته إلى أن يشاء الله.

وربَّت على ساقه الممددة بابتسامة رقيقة:

- احمد الله يا ولدي، لقد كُتِبَ لك عمرٌ جديد.

هزَّ (صليل) رأسه في أسى، ورنَّت الكلمة في ذهنه فألهبت أعصابه بسخرية مريرة. عمر جديد؟ ما قيمته؟ وماذا أفعل به؟ لقد ماتت فلا طابت حياةٌ بعدها!

«خطأ يا (صليل)».

قال الساحر بحزم.

«هذا خطأ وكفر بالله وقَدَره. لقد اختارك أن تحيا، كما اختار لزوجك أن ينقضي أجلها عند هذا الحد، فلا تستهن أبدًا برحمة الله، ولا تكفر بحكمته».

ثم إنه تنهَّد، ودنا منه فلثم جبينه:

- فلتسترح الآن، أنت مُنهك، ومازال جسدك لم يسترد عافيته ولا الدماء التي فقدها بعد. لا تُرهق نفسك بالتفكير اليوم، فأمامك عمرٌ تفنيه في الأفكار.

وتحرَّك ضامًا عباءته حول جسده، لولا أن اهتزت الريشة بسؤالٍ أخير. ابتسم مُشيرًا إلى النافذة المفتوحة:

- الفضل لـ(صدى). لقد نسيته تمامًا في غمار حياتك، لكنه لم يكف يومًا عن اتباعك كظلك مذ غادرت (رأس الحكمة). حين أبلغني بما أصابك هرعتُ من فوري. والآن استرح قليلًا وسأمر عليك في المساء بإذن الله.

وصمت لحظة ثم أردف:

- أريد أن أعرف حقيقة ما وقع.

وغادر الحجرة. عندئذٍ انبعث من الرقعة صوتٌ خافت كأنه شرارة تُقدح، قبل أن يتصاعد منها لهبٌ محدود أتى عليها في لحظات دون أن يترك أثرًا!

لم يتبع الفتى أستاذه كما اعتاد منه، ظل عند الباب واقفًا لا يتحرك ولسانه مُثقل بالكلام. حين انقضت دقائق دون حديثٍ كسر الفتى الصمت قائلًا بابتسامة مرتبكة:

- مُعلمي لا يكفُّ عن ذِكرك. يقول أنه ما علَّم تلميذًا أفضل منك.

(صليل) الذي كانت الأجوبة قد أثقلته وأثارت حيرته أكثر لم يعرف سبيلًا إلى الرد عليه، خاصة مع غياب صوته. اكتفى بأن هزَّ رأسه مبتسمًا في شحوب قبل أن يعود لشروده. أسند رأسه على الوسادة من خلفه مُرسلًا عينيه إلى الفضاء المفتوح أمامه من النافذة القريبة. أمام بصره بالضبط كان (صدى) يطوف بالسماء فاردًا جناحيه وهو يطلق صيحاته تترى. كان وكأنه يقول أنه مازال هنا لأجله.

«ابكِ يا سيد (صليل)». وخزته الكلمة، فالتفتَ. على بساطتها مسَّت أشد أوجاعه. «حين مات أبي بكيته طويلًا وبحرقة. ومازلتُ أبكيه لليوم ولا أخجل. لا تفعل بنفسك هذا يا سيدي. الدمع منحة الله لعباده ليخفف أوجاعهم، كما منحهم الضحكات لتنطق بأفراحهم. أطلق دموعك يا سيد (صليل)، حتى لا تندم يومًا لأنك قهرتَ عينًا كانت تتحرَّق لرثاء حبيبها!».

وفتح الباب مُغادرًا في صمت.

(٣٧)

في الأيام التالية بدأ (صليل) يسترد عافيته رويدًا وبخطواتٍ ثابتة. كان جُرح عنقه قد اندمل تمامًا، ولم يترك إلا خيطًا رفيعًا على امتداد الجلد، لكنَّ جرح قلبه لم يكف لحظة عن تمزيقه.

وتعاقبت عليه الزيارات من الكهل، يقدم له دواءً أو يطمئن على حالته ثم يمضي لشأنه تاركًا إياه وحده. كان يعلم أن تلك الفترات هي أشد أوقات (صليل) طلبًا للصمت والهدوء، فما كان يزعجه بأكثر من السؤال عليه، والاطمئنان على براءة جرحه. وسأله يومًا وهو يجلس في ركنه المعتاد بزاوية الحجرة:

- ألديك فكرة كيف اهتدى إليكما؟

كان يصلي. حين انتهى طوى سجادته واعتلى سريره قائلًا بهدوء:

- (عابد).

صوته بدا واهنًا وخشنًا، لكنه كان أكثر وضوحًا بكثير من الأيام الفائتة. حتى دواؤه برغم تركيبته السحرية كان يحتاج وقتًا ليزيل آثار ما حدث. اعتدل الرجل على مقعده سائلًا بجزع:

- (عابد)؟ أهو...؟

- لا، ما كان ليغدر بي هو أو أحد رجالي. أنا أعلم الناس بهم.

ثم استفاض:

- زارني قبل فترة في بيتي، وكان الوحيد الذي قَدِمَ علينا من (ألمرية). لابد أن (جارح) وجد طريقة ليتتبعه إليَّ.

أطرق كلاهما مفكرًا، ومكثا صامتين لفترة حتى سمع الكهل يقول:

- (يامن).

رفع رأسه باسمًا في شجن. أردف الكهل:

- اشتقت لاسمك القديم، أليس كذلك؟

أومأ برأسه في ايجاب، وقد مسَّ الاسم الذي لم يسمعه منذ سنوات روحه.

- فيم تفكر يا (يامن)؟

- كيف حال أخي؟

استاء لهروبه من الحديث لكنه لم يُرد أن يُلحَّ عليه. أجاب:

- هو بخير، لا تقلق.

ثم أشار بسبّابته:

- في الواقع فإن ما حدث سيفيدنا كثيرًا.

تبدَّى في وجهه الاهتمام، فأردف الكهل بنبرة ذات مغزى:

- من المفيد لك أن تكون ميتًا، ليس فقط في عِلم قاتلك، بل وعِلم أخيك أيضًا.

قال بسخرية:

- قائمة من يبغون قتلي تزداد لا تنقص!

ثم بلهجة قاسية:

- إن أعياني القتل مرة فلن يُعييني في الثانية.

كرر الكهل سؤاله بلهجة أكثر حزمًا:

- فيم تفكر بالضبط يا (يامن)؟

زفر بحرارة مُفرغًا جوفه من سحابة سوداء كبطن القبر، مدادها الأفكار والرؤى والخيالات المروِّعة. قال دون أن ينظر إليه:

- أفكر في الحساب!

(٣٨)

وكان الكهل نائمًا في ليلة حين تسلل شبحٌ إليه في الظلام السابل عباءاته على القرية بأكملها. مدَّ يدًا وهزه مرة فأخرى. استفاق الرجل فزعًا فطالعه وجه (صليل).

- أحتاج واحدة من عرباتك يا (دُريد). سأغادر الليلة وأعود مع الفجر.

فرك الرجل عينيه متسائلًا:

- لِمَ؟ ماذا تنوي؟

بلهجة جمَّدت الدم في عروقه قال:

- أمامي مهمة أخيرها لأقضيها في (عكا)، وقبل ليل الغد سأكون في (ألمرية)!

(٣٩)

في بستانٍ فسيح تماوج الهواء بنعومة، وشقَّ الفراغ بين شجرتي بلوط لسانٌ مباغت من البرق، قبل أن ينزاح الظلام بغتة عن العربة السوداء وهي تبرز من العدم بجوادها الأشقر.

وجعلت تنهب الأرض متجاوزة الطرقات المقفرة في ذلك الوقت من الليل، حتى وصلت إلى بيت (صليل)، فتوقفت عند بابه الخلفي وترجَّل عنها قائدها.

تسلل الشاب بخفة إلى بيته الذي لم يمسَّ أسواره أحدٌ منذ الليلة المشئومة. كان الناس قد صاروا يخشونه كالنذير، وكثيرًا ما بسملت امرأة أو أخرى وهى تمر جوار جدرانه الخارجية، تتطلع إليه غارقًا في السواد والوحشة.

عند باب حجرة نومه توقف وقلبه يلهث. وأخذته الرغبة في الهتاف باسمها لكنه كتم صوته في أحشائه. دلف إلى الداخل مُجيلًا النظر فيما حوله. كان قدومه لشيءٍ، لكن عبقها المُفعم في المكان خطفه. أخذ يتنسم رائحتها في الحجرة. على كثرة من كانوا فيه ليلتها، وعلى طيلة هجران البيت، لكنَّ رائحتها كانت باقية وغالبة على ما سواها. وتساءل: ألا يرى لها طيفًا؟

بَيْد أنه بإرادة من حديد تمالك نفسه وأرغمها على التركيز فيما جاء لأجله.

بين طيّات حاجياته الخاصة أخرج صندوقًا موصدًا صغير الحجم. كان مفتاحه في ركنٍ سري بالخوان. دسه في الثقب وأداره فانفتح الصندوق كاشفًا عن بعض المقتنيات. لم يعبأ بأحدها. كان يعنيه شيءٌ واحد اطمئن لوجوده.

من قلب الصندوق أخرج خنجره الصقيل لينزع عنه غمده فيُلقي على نصله نظرة سريعة فاحصة، قبل أن يتمنطق به في حزامه ويعيد غلق الصندوق من جديد ثم ينهض واقفًا.

حين استدار مُغادرًا الحجرة، لمح شيئًا جوار الفراش خطف قلبه. تجمَّد في مكانه لحظة، قبل أن يسير ببطءٍ ناحيته ويميل فيلتقطه.

التمعت عيناه.

حين غادر البيت عائدًا تحت ستار الظلام لعربته، كانت يسراه تحتضن الصندوق الصغير، الخنجر يتعلق بخاصرته، فيما يده اليمنى تلتفُّ بوشاحٍ حريري امتزجت فيه رائحة (ورد) بآثار دمائها!

(٤٠)

في نفس الليلة.

مُهتديًا بإرشاد (دريد) أستاذه القديم، سار في طريقٍ مقفر صعد به إلى المقابر. كانت الدماء تطنُّ في أذنيه وهو يسير بين الشواهد طائفًا بأسمائها. وجالت صورتها أمام ناظريه فارتعد. بالأمس كانت بين ذراعيَّ واليوم أبحث عن رفاتها!. والله ما هنأتُ بحياتي إن بقيَ قاتلك حيًا على وجه الأرض يا (ورد)!

فجأة رآه...

قبضة من فولاذٍ قاسٍ استحكمت حول قلبه، وقذفت به في بردٍ شديد ارتجف له بدنه الذي لم يبرأ بالكامل. كان القبر على بعد خطواتٍ منه. لم يلمح مما خُطَّ عليه إلا اسمها.

تحت آيات الله المُعظَّمة كتب الخطاطون بيتين لأبي العتاهية يقول فيهما:

لعَمْرُكَ ما الدّنيا بدارِ بَقَاءِ.. كَفَاكَ بدارِ المَوْتِ دارَ فَنَاءِ

فلا تَعشَقِ الدّنْيا، أُخيَّ.. فإنّما يُرَى عاشِقُ الدُّنيَا بجُهْدِ بَلاَءِ

كان من نقش الشاهد قد استعلم عما يكتبه فلم يجد، لا أهل للزوجين ولا لقب. لم يُعرف لهما أصلًا ولا نسبًا يُسجَّل. استعاض باسميهما فقط على شاهد المقبرة وتاريخ الموت بحروفٍ مقتضبة بدا فقرها وسط زخم الآيات والأشعار.

وركع (صليل) على ركبتيه أمام القبر. وضع صندوقه جواره، واعتصرت أصابعه الوشاح وكأنه يخشى أن يُسرق منه!

«(ورد) زوج (صليل) الألميري».

أطلق ضحكة مريرة.

ما نفعك يا (ورد) بزوجك!. ما استطاع أن يحميكِ من الموت ولا فدتكِ روحه!

وبلغت قدرته على المقاومة وكتمان دموعه مبلغها، وكان قد احتمل فوق طاقة البشر طيلة الأيام الماضية، لكن مرآى القبر فجَّر طوفان الحزن المكبوت في أعماقه. وبدون أن يعي مال جبينه فوق ذراعه المتكئة على القبر، وانفجر في بكاءٍ طويل.

(٤١)

«منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها وقعتُ في حبكِ، وعرفتُ أنكِ لي ولو بعد حين. سافرتُ كثيرًا. بحارٌ عدة خُضتها. حققتُ لنفسي أمجادًا عظيمة، لكنَّ اللحظة التي رأيتكِ فيها يا (ورد) عرفتُ أني لن أكون عظيمًا يومًا إلا إن كنتِ معي. أدركتُ أني إن فقدتكِ فلن أسعد بأي شيء في الدنيا مهما كان حُلمًا لغيري.

كنتِ مُستقري ومستودعي. الدرب الذي أبدأه وأنتهي إليه. أدبُّ اليوم فوقه وغدًا أدفن تحته. أنا لم أختر شيئًا في حياتي إلاكِ. حلمتُ أن أشيخ جوارك، ولا أغيب عن الحياة إلا وأنا متعلقٌ بيدك. كنتُ أعرف أني لم أكن لأنجح قط في حياتي إلا وأنتِ معي تشاركينني الفرح.

لماذا يرحل عنا الطيبون يا (ورد)؟ ما نفع الأرض بطغاةٍ يرتعون فيها؟ أستتزين بحقراء الناس وأشرارهم؟ أتضنُّ على المساكين ببقاء المحبوبين بينهم؟

كنتِ زادي وريّ جوفي، فمن يقيم أوَدي اليوم غيركِ؟ أتذكرين يوم انكسر قدح مائي فسقيتني بكفِّك؟ يومها عرفتُ أني لن أظمأ في حياتي مجددًا أبدًا. لكني الآن ظمآنٌ يا (ورد)، وأشتاقك. إني خائف. طفلكِ خائف، فمن لي اليوم بذراعيكِ لتضمّاني؟».

وجفف عينيه بطرف كمِّه.

«أنا لا أبكي يا حبيبتي. لا أبكي. أنا بخير فلا تجزعي. أعلم أنكِ تكرهين دموعي لكني لا أبكي والله. إني فقط أشتاقكِ. أنتِ لن ترحلي عني يا (ورد)، أليس كذلك؟. لن ترحلي عني. عاهدتني أن تكوني دومًا بجواري. فكيف تنسين عهدكِ لي؟».

وأتاه من القريب آذان الفجر يرفرف في السماوات كأجنحة الطير فازدادت شجونه. كان يجلس على التراب ساندًا ظهره إلى القبر المصمت من خلفه. وتلاحم الآذان مع صوت كروانٍ بعيد فاستشعر رهبة. لأول مرة في حياته وجد نفسه وحيدًا بقسوة.

«لن تكوني ماضيًا أبدًا يا (ورد). ستكونين دومًا بجواري. سنرتحل سويًا وسنجوب الأرض معًا. ألم يكن هذا حُلمكِ؟ أن تصحبيني في كل رحلاتي؟. ستكونين معي يا أميرتي. لن نستقر لحظة بمكان. سأريكِ الدنيا وما فيها. لكن لا تتركيني وحدي. سألتكِ بالله يا (ورد) لا تتركيني».

قالها ثم نهض حاملًا الصندوق الصغير. وقبل أن يغيِّبه الدرب تمتم بآخر كلماته:

- لقد حرمني الله منكِ وأنتِ غير راضيةً عني، لكني أُقسم أمام قبرك ولآخر مرة...

كان الدمع يسيل على وجنتيه فيُخضِّب لحيته الكثيفة.

- أني ما خُنتكِ ولا مسستُ امرأةً سواك!

(٤٢)

حين أنهى (دريد) وضوءه، مضى إلى حجرته ليُصلي، فمرَّ بباب (صليل). انتابه شيءٌ من القلق، وتردد هنيهة، قبل أن يفتح الباب ببطءٍ شديد ودون صوت.

«حمدًا لله!». قال لنفسه متنهِّدًا في راحة.

في قلب الحجرة كان (صليل) على فراشه راقدًا، يضم ساقيه إلى صدره، وينام بعمق كأنه ركض أميالًا حتى أُنهك. قبل أن يعيد إغلاق الباب، كان آخر ما لمحه قطعة من حريرٍ بلون الزهر، التفَّت حول يده، يعلوها صدأ الدم.

مع غسق اليوم التالي كانت العربة السوداء تشقُّ طريقها إلى الطريق المُفضي لخارج القرية. وقبل أن تتجاوز حافته كانت تتوهج بضياءٍ فيروزي مُبهر للأعين، ثم تخترق براكبها الوحيد معبرًا غير مرئي، أوله هنا ونهايته بقعة عند أطراف (ألمرية)!

(٤٣)

ماذا بقِيَ لديه ليخسره؟ لا أهل يبحثون عنه ولا زوجة تنتظره. صار الوقت سيِّده والليل حاكمه. كان يقبع في الظلام فوق سطح بيتٍ واطىء ينتظر.. وينتظر.. وينتظر..

سيظهر الآن. لن يبقَى طوال الليل خارجًا. ما انقطع يومًا عن الخروج والسهر. انعم بحياتك يا أبغض خَلْق الله. انعم بحياتك فلم يعد باقٍ منها الكثير.

واستل خنجره من غمده ليتيقن للمرة الألف من صلابة نصله وحدة شفرته. كان صبره عظيمًا، وعزيمته تمدُّه بالاحتمال. جرى خلف رغبة انتقامه بجرأة جنونية وطوَّح بخوفه ورهبته إلى بحر (آرال) الثائر.

بينما هو غارقٌ في أفكاره لمح ظلًا يقترب، فاعتدل وقد اشتعل جسده بغتة. كان المساء شديد الظلمة، والقمر غائبًا، فحمد لنفسه حُسن اختياره الليلة دون سواها. لم يتبين ملامح القادم ناحية بيت الزيدانية، فدهمه القلق. كان لا يريد أن يخاطر بأقل بادرة للخطأ، فيكشف نفسه لغير مُراده و...

لكنه فجأة تبيَّن العباءة السوداء المميزة، والتمعت رأس الذئب الفضية على مقدمة العصا، فانطفأ تردده، وجرت الدماء الحرَّى في عروقه.

تمتم من بين أسنانه:

- أخيرًا!

لم يستعن بلثامٍ ولا لجأ لحيلة. لا مكان اليوم للحيل والدهاء. اليوم مقارعة رجلٍ لرجل. حين مرَّ الرجل بأسفل البيت الراقد فوق سطحه وثب وثبة عظيمة إلى الأسفل فاستقر خلفه. اضطرب الأخير وقد استشعر حركة من خلفه، لكنَّ صليلًا لم يُمهله. طوّق عنقه من الخلف بذراعٍ كالكلّاب، وبيده الأخرى أشرع خنجره هامسًا في أذنه بذات الفحيح البشع الذي لازم أذنيه ليالٍ طويلة:

- لأجل (ورد) أيها الحقير!

وطعنه في ظهره طعنة قاصمة، اخترق الخنجر فيها لحمه حتى غاب إلى المقبض!

بعد شهورٍ طويلة سيتذكر (صليل) تلك الليلة، وسيبقى على مقته لما فعله لحظتها. سيقول لنفسه أما وسعني أن أُحسن القتلة؟ أي شيطانٍ ركبني يومذاك؟ لكنه اليوم، الآن وهو يتشبث بالجسد المفتول، كان الغضب الأعمى وقوده، وشهوة الانتقام تغلي في عروقه، تزيد الجنون جنونًا.
طعنة من جديد. ثم طعنة أخرى. وأخرى. وأخرى...

شعر بالدماء الساخنة تغمر يده، حينها استفاق لنفسه. ترك الجسد يهوي على الأرض متكوِّمًا، قبل أن يدسَّ الخنجر في طيّات ملابسه، وينطلق راكضًا قبل أن يُقبل أحد.

بعد ساعة انقطع فيها الطريق من أدنى حركة تخدش سكونه، ظهر على أوله من بعيد شحاذٌ كريه الخلقة، نتن الرائحة، عبَّق الجو بكيره ورائحة فمه المُترعة بالخمر الرخيص.

توقف بغتة إزاء الجسد المسجى أرضًا. كانت الدماء تُغرق المكان فارتعش فزعًا. في لحظة واحدة طارت الخمر من رأسه. تراجع خطوتين ليكرَّ على عقبيه، غير أنه توقف واستدار مفكِّرًا.

بين الخوف والإقدام خطى بقدمين مرتعشتين ناحية الجسد. مال عليه ففتش ثيابه، قبل أن يستولي على صرّة أمواله وحزامه الجلدي ونعليه الثمينين. كانت عيناه تبرقان ناحية الملابس غالية الثمن، لكن منظر الدم الذي أغرقها أرعبه، فاكتفي بحملته المفاجئة التي ضمنت له العشاء لأيام.

وقبل أن يظهر أحدٌ آخر على قارعة الطريق، كان يضمَّ غنيمته إلى صدره، ويطلق ساقيه للريح حتى غاب عن الأنظار.

مع أول خيوط الشمس كان بيت الزيدانية يرتجُّ بالبكاء والعويل. عَرِفَ الشحاذ أي بيتٍ سرق أهله، لكنه لم يكترث. باع مقتنياته لأول رحالة يمرُّ بـ(ألمرية) فنَقَده عليها مبلغًا لا بأس به، أنفقه في بضعة أيام على الخمر أكثر مما اشترى لنفسه خبزًا!

هكذا وبفِعلته تلك، كان الشحاذ أجهل ما يكون بالخدمة التي قدَّمها لرجلٍ لم يقابله قط في حياته!

(٤٤)

قال له (دريد) وهو يقف بالباب والشمس تغمرهما:

- هل ارتاحت روحك الآن؟

أجاب بوجهٍ جامد:

- لا مكان في حياتي للراحة بعد اليوم.

- قد قتلت نفسًا!

- العين بالعين والبادىء أظلم. لو كنتُ شاكيًا لما استطاع أحدٌ أن يُثبت شيئًا عليه. كانوا ليطالبونني طبقًا للشرع بشاهدٍ ودليل، ولعَرَف كيف يقلب الأمر ضدي. ربما بعدها وجدتُ نفسي في السجن بأية تهمة، إن لم يقتلني أولًا.

- كان حساب الله ليردَّ حقك. أن تُظلم خير من أن تزهق روحًا.

- هو البادىء بحربٍ حقّ عليَّ ردُّها. لقد اعتدى، والله أمر بدفع المعتدين.

ربَّت منكبه:

- أتمنى فقط أن تكون راضيًا عن فِعلتك.

- كل الرضى يا شيخي، مادامت تحت الثرى راضية، لقد أعدتُ لها حقها.

وأطلق بصره بعيدًا، فرأى (زين) يوضِّب أمتعته وأدوات أستاذه على العربة. كان الجو صحوًا والشمس مشرقة لا توحي بما يخيِّم على القلوب. تنهَّد (دريد) قائلًا:

- وددتُ لو تعود معنا.

- لا مكان لي في المملكة منذ زمنٍ يا مُعلمي. لقد وُسم طريقي بألم.

- وعلام استقر عزمك؟

لوَّح بيده:

- لا فارق عندي، كل البلاد سواءٌ في عيني الآن. ستحملني قدماي كما تشاءان، وأينما توقفتا سأقف.

سأله بحذر:

- ألن تُخبر (عابد)؟

ذِكر الاسم بعث قشعريرة مفاجئة في أوصاله. قال برنّة حزن:

- لا خير في هذا. يومًا ما قد يتفقَّدني فيُقدم إلى (عكا)، حينها لن يعدم أحدًا يُبلغه الخبر. أريد له أن يتيقن كما الجميع أني ميت.

- حسبتكما صديقين.

- بل أكثر، كان قريبك بالنسبة إليَّ بمثابة أبٍ. لقد فعل من أجلي الكثير. يومًا ما قد أردُّ جزءًا من دينه عليَّ، لكن...

وزفر متابعًا بمرارة:

- سأحتاج لزمنٍ طويل قبل أن أتطلع في عينيه مجددًا فلا أرى دماء (ورد) تغرقهما.

- ليس ذنبه يا (يامن).

- أعرف، لكنَّ قلبي ليس بيدي.

- قَدَرُ الله يا ولدي. لسنا أكثر من أسبابٍ لمشئيته.

- إذن أحتاج زمنًا أنسى فيه أنه، ولو عن غير قصد، كان السبب الوحيد فيما أصابني.

ثم أشار إليه مُنهيًا الجدل:

- دعنا من هذا وانصت إليَّ جيدًا. كل ما أريده ألا يتناقل إليه خبرٌ عني من طريقك. حين يعلم بما جرى سيراسلك. حتمًا سيفعل. أريد أن تكون ردة فعلك طبيعية تمامًا، وأن تبكيني بُحرقة، مفهومٌ يا شيخي؟

- كما تشاء يا ولدي. ثق أن كل ما تريد سأنفذه بدقة.

أشعرته لهجته الطائعة، بالضيق من نفسه لصرامته وجفائه، لكنَّ شيئًا في أعماقه لم يدعه يتخاذل أو يُبدي رقة. كان حانقًا عليه، وعلى نفسه، على الناس جميعًا. وودَّ لو امتلك القدرة ليحرق العالم بمن فيه!

كانت عروقه تشتعل ألمًا ولوعة، لكن وجهه لم يزل ساكنًا. وسأل نفسه إذا كان الألم قدره ونصيبه فكيف يحتمل معه الغضب الحارق؟

غمغم كالمحدِّث نفسه:

- لنبدأ ثانيةً رحلة هروب أخرى، أرضٌ بعيدة واسمٌ جديد.

قلب الرجل كفيه حائرًا ولم يجد حرفًا ليقوله. كان يستشعر سخف الكلام في تلك اللحظة. وشعر بسخرية القدر وهو يمرُّ بذات اللحظات التي مرَّ بها معه قبل سنواتٍ طويلة. كيف يُمكن أن يتكرر الزمن حرفيًا بين حينٍ وآخر؟

وطغى على عقله سؤالٌ أخير: هل كُتب على الشاب المسكين أن يقضي عمره سائحًا في الأرض؟

قال له:

- يمكنك أن ترحل إلى...

قاطعه بلهجة حاسمة:

- كلا!. هذه المرة لن يُجدي النصح. في المرة السابقة أرشدتني إلى (ألمرية) وإلى (عابد). لكن اليوم لن يكون كما الأمس. سأرتحل وحدي، وأينما انتهى طريقي سأنزل. ربما في أحد الأيام قد أستقر بمكانٍ لا يعرفني ولا أعرفه، ولا يجمعني به إنسان.

كان الفتى قد أنهى إعداد العربة للرحيل، فدنا منهما بحذرٍ خشية افساد الحديث، قبل أن يُخبر أستاذه على عجالة باتمام المهمة. وانحنى باحترامٍ

أمام (صليل) ثم غادر ليتخذ مكانه في العربة. قال (دريد) وهو يشدّ على يده:

- صُنْ نفسك يا (يامن). أعلم أن مصابك جلل لكن لا تلقِ للهلاك روحك والألم يعميك. يومًا سيبرأ الجرح، وعندها سينتابك الندم إن ألحقت بنفسك السوء.

انسحب جانب فمه في ابتسامة باهتة، سرعان ما توارت وهو يقول:

- لا تقلق يا شيخي. سأحفظ نفسي جيدًا.

ثم بخفوت:

- لا أريد أن أؤذيها فيَّ.

أعاد (دريد) ربتته على منكبه من جديد، قبل أن يميل فيحتضنه بقوة ثم يتراجع منسحبًا إلى العربة، فيستقلها وينطلق بها مع تلميذه.

شيَّعهما (صليل) بنظراته حتى اختفت بهما العربة بعد لحظاتٍ من مُضيّها. رفع عينيه فرمق السماء بنظرة سريعة. تمتم هامسًا:

- آن لنا أن نرحل يا (صدى).

بغير أن يراه، ترامت إليه صيحة حادة من الصقر، وظهر بعد لحظة رافًّا بجناحيه في الأجواء. حمل متاعه البسيط مُتخذًا طريقه على الدرب الخارج من القرية.

غادر، ولم يُرَ فيها ثانيةً.

كانت تلك بداية رحلة (صليل) الثانية، بعد برهة عرف فيها الاستقرار لأول مرة منذ سنواتٍ طويلة. برهة مرَّت كغيمة عابرة، ذاق فيها الحب والراحة وبيتًا كلله الرضى.

ومَضَت على تلك القصة سبع سنين كاملة، أذكر الرقم جيدًا، لإنه، وقبل أن تنقضي السنة السابعة، تقابل (صليل) و(سلام) لأول مرة.

خاتمة الحكاية الأولى

تحت أسوار المملكة

(١)

توقفتُ عن المواصلة، واجتاحتني غصَّة لم أعرف مصدرها.

قصصتُ تلك الحكاية عشرات المرات من قبل. طفتُ بالبلدان، وخضتُ بحارًا وأراضٍ، حتى صار كل حجر يعرف القصة بأدق تفاصيلها، لكني أبدًا لم أتوقف عن الشعور بالألم كلما وصلت إلى هذه النقطة بالذات!

هتف بي طفلٌ وعينيه تلمعان بوهج النار:

- هلم يا جَد، لماذا صمتَّ فجأة؟

هززتُ رأسي أداري دمعة خرقت إرادتي:

- سامحني يا ولدي، أنا بعدُ شيخٌ عجوز، ألا يحق لي أن أستريح لشربة ماء؟

تنحنح رجلٌ في أدب وقال:

- عفوك يا جد، سامحنا، سأحضر لك الماء فورًا.

نهض مسرعًا تاركًا بعض الصمت يتسلل أخيرًا إلى الغابة التي انتصف الليل عليها أو كاد، لم تنعم فيه لحظة بالهدوء منذ بدأتُ حكايتي.

أفرد البعض سيقانًا تيبَّست من الجلوس، وأحكمت أكثر من امرأة الشال حول كتفيها رغم حلقة النار التي تمنح دفئًا غير قليل لأجسادنا، أما بعض الرجال فانهمكوا في حديثٍ خافت حول صدق ما سمعوه مني حتى الآن.

أخذتُ أرقبهم مشفقًا. رأيتُ كل هذا من قبل في أعين العشرات، المئات، حتى اعتدته، وصار الإنكار وعدم التصديق رفيقيّ. لم أعد أغضب. عليَّ الحكي وعلى الناس القبول أو الرفض، لكن، وبعد كل شيء، من يمكنه لومهم على عدم التصديق، إن كنتُ نفسي حتى اليوم لا أصدِّق؟

عاد الرجل بعد هنيهة. بيدٍ مرتعشة ارتشفتُ بضع قطراتٍ من قدح الماء، كانت كافية لتجعلني أتمالك نفسي، وأُمعِن في الابتسامة التى حافظت عليها طوال حكيي. وللحظات، شردتُ مستعيدًا ذات الصور والأحداث، وذات الذكريات البعيدة التى تأبى عن مفارقتي. ثم كان أن أطلقتُ تنهيدة حرَّى، ابتسمتُ بعدها في هدوء، وتمتمتُ:

- حسنٌ يا أبنائي، تذكرون أين توقفنا؟

(٢)

«يومًا ما سأعود يا مملكتي الحبيبة، وحينها، أعدُكِ، سأرد لكِ أمنك واستقرارك، والملك الذي تستحقين!».

(٣)

كان البرد قارسًا، والظلام تتكاثف طبقاته في جشع، حاجبة كل شيء عن الرؤية. بين حينٍ وآخر كانت الغيوم تنسحب ببطء من على صفحة القمر، تسمح ببعض الضوء الواهن بالانسكاب على التلال الخضراء المحيطة بالمملكة، قبل أن تعود من جديد لحجبه وراءها. أما من بعيد فتناهى خافتًا هدير النهر، وموجاته تضرب الضفاف الصخرية.

كان للصمت تلك الليلة ملمسٌ ووجودٌ يثيران الرهبة!

من بين الغيوم الثقيلة، تسلل شعاع من نور القمر، انثال على حجارة الأسوار. شعاعٌ بدا وكأنه نورٌ إلهي، أضاء لها الظلمات.

وشلالٌ من العرق البارد يغمرها، تمسَّكت بالحبل بقبضتيها، وقدماها تستندان على الجدار، تتابع الوثب بهما عن الحائط إلى أسفل، دون أن تسمح لنفسها بالتفكير في آلام يديها أو إنهاك بدنها.

أخيرًا لمست الأرض العشبية، بعد زمنٍ حسبته لا ينتهي. حررت نفسها من الأنشوطة المحكمة، وجعلت تدلك ساقيها وكفيها المتشنِّجين. اطمئنت على سلاحها المتعلق بحزام خاصرتها و....

- لقد تأخرتِ طويلًا!

استدارت بسرعة في تحفز، قبل أن تزفر:

- اللعنة يا (إيكيل)!

عادت لتعديل هندامها، وهي تعقد حاجبيها في ضيق. تمتم بحنجرة مبحوحة طال صمتها قرونًا:

- سامحيني يا صغيرة، لقد انتظرتك كثيرًا فقط.

- ألم تكن هناك وسيلة توفر عليَّ تلك المشقة!

رد عابثًا:

- أنا من الجن ولست ساحرًا، يمكنني أن أخرج بنفسي عبر الجدران، لكن كيف سأخرجُك أنتِ؟

كان يجلس على صخرة عالية مقابلة للأسوار، بملامحٍ وهيئة بشرية، وقد تخلّى عن عباءته، مرتديًا ملابس عادية تشبه ما يرتديه عامة (أنطاكيا). بدا مختلفًا تمامًا عما اعتادت رؤيته عليه، ملامحه ازدادت شحوبًا، وانطفأت في عينيه جذوتهما اللاهبة، غير أنهما ورغم الإرهاق، ظلّتا محتفظتين بحماسٍ غير محدود، وكأن خروجه الذي أفقده قواه، عجز أن يفقده معها روحه المتوثبة.

غمغمت:

- أقطع الأسوار في ليلة كاملة، وأنت تعبر في لحظة!

هز كتفيه:

- الآن بتنا متعادلين، لم يعد لي حولٌ ولا قوة إلا بعض الحيل والعقاقير. بل إنك خارج تلك الأسوار أقوى وأكثر احتمالًا مني.

قالت بقلق:

- (إيكيل)، أعلم أنك تريد مساعدتي، لكن وأنت في تلك الحالة...

قاطعها في حزم:

- حتى لو كنت ركامًا، لم أكن لأتركك وحدك في هذه الرحلة. هذا أمرٌ محسوم.

ثم أردف وكأنه يحدِّث نفسه:

- لا أنكر إن مجرد وصولي لمجلسي هنا أضناني بمشقة غير عادية، كأني كنت أركض أميالًا، لكن مهما يكن الأمر، أعدكِ أني لن أصير عبئًا عليكِ في تلك الرحلة. سأفعل المستحيل حتى أعيدكِ بخير.

ابتسمت في امتنانٍ ولم تنبس. ككل أنثى، كان يتملكها ذلك الخجل من الاعتراف بأبسط الأشياء التي قد تسعد قلوب من حولها. وإن لم تقلْ ذلك، كانت بجواره تشعر بأمانٍ جارف، حتى لو كان حطام مخلوق. غير أنها سرعان ما غالبت مشاعرها قائلة:

- حسن، ما الخطوة التالية؟

ابتسم بحنان متفهمًا. مد لها يدًا، استندت عليها، وبرشاقة ارتقت لتجلس جانبه.

- سنعتمد على ما توصلنا إليه. هو قليلٌ لكنه يكفي للبدء. كان مستحيلًا أن نسأل (جسّاس)، ولو لم يعلم ما نرتب له، الرجل داهية، وكان

سيكشف كل شيء من أبسط الأسئلة. حتى حيلتنا لإخفائك لم تكن لتنجح طويلًا إن ارتاب.

- أتظنه قد يفعل يومًا؟

هز رأسه:

- ليس إن ظل مشغولًا بتدبير أمر (نذير)، وليس حتمًا إن التزم الباقون بالخطة.. في تلك الحالة فقط أثق أن لن يُريبه شيء.

- قد تدوم رحلتنا شهورًا.

- لا بديل أمامنا. وعلى أية حال أنتِ معتادة على الغياب لفترات معنا، فلن يلفت الأمر انتباهه كثيرًا. ببعض الحرص...

أضافت:

- وكثيرٍ من الحظ.

- سننجو.

وابتسم مُشجِّعًا:

- بإذن الله سننجو يا أميرتي.

أطلقت زفرة حارة، وشردت ببصرها. لبثت تفكر بعمق.

- لشدَّ ما يبدو النهر مُفعمًا بالرهبة!

التفتت إليه برأسها، رأته يسدد طرفه إلى الأفق الأسود. قالت:

- أنت تهاب شيئًا؟! هذه أول مرة ألمس من أحدكم شعورًا كهذا!

- ولم يكن أحدٌ في الدنيا ليشعر به قطّ، لقد جاهدنا لإخفائه طويلًا، لكن ليس معنى ذلك أنه ليس متواريًا في أعماقنا. إن الجان كالبشر، يشعرون بالخوف والفرح والألم، غير أن هيئتنا كانت تُحسن مداراة هذا، فضلًا عن مكانتنا كحراس للمملكة، لكنّ الحقيقة أننا نخاف مثلكم تمامًا!

واستدار إليها مُلقّنًا درسًا جديدًا:

- الخوف في ذاته لا يضير يا صغيرة. لقد تكشّفت لنا قلوب ملوك الدنيا وأشجع فرسانها، فوجدناها ترتجف فَرَقًا في كثيرٍ من اللحظات، دون أن يُعجز هذا قوتهم، أو حتى يتجلّى أثره على ملامحهم. دائمًا رأيت أن من لا يخاف مثير للشفقة أكثر منه للإعجاب، وأن ليس الشجاع من لا يمسّه خوف، لكن من يجعله خوفه أقوى وأقدر على الإقدام.

- إذن، أنت تخاف النهر وما فيه؟

- بل أخاف نفسي، خطتنا البسيطة تعتمد على ضربة حظ، إما أن تُصيب وإما لا، لذا أخاف أن تفشل، وأخاف عليكِ.

وبدا كأنه سيستطرد في مقالته، لولا أن تراجع مطبقًا على ما في جوفه. مكثا صامتين لفترة، قبل أن ينهض بهدوء من مجلسه، ويترجل أرضًا بوثبة واحدة، حينئذ تجمّد مكانه كاتمًا أنّة كادت تنفلت من شفتيه. كانت ساقاه مازالتا واهنتين بعد، وللحظة شعر بألمٍ لا يكاد يتمالكه، بَيد أنه تماسك، أبت كرامته أن يُبدي ضعفًا أمامها.

وأحسَّت بما أصابه، غير أنها لم تتدخل أو تعرض المساعدة، كيلا تُمعن في نكأ كبريائه، لكن في أعماقها امتلأت إشفاقًا عليه. تنحنح قاهرًا ألمه، وبدا أقدر بعد قليلٍ على الحراك. وثبت بدورها جواره بحركة سريعة. قال:

- سنتحرك الآن. مازال أمامنا وقتٌ حتى الفجر، لكني أريد استكشاف ضفاف النهر قبل التنفيذ.

وتحركا في خطٍ مرسومٍ سلفًا، بين الأجمات والأشجار، مستغلين الظلمة السادرة وانحجاب القمر. كان النهر يقترب أكثر فأكثر، وكل خطوة تدنيهما منه توجف قلبيهما معًا، لكنَّ أحدهما لم ينطق بكلمة. كلاهما كان يدفن في الصمت انفعال أعماقه.

وتسللت (سلام) من وراء شجرة، إلى أخرى على بعد أمتار، يتبعها (إيكيل) بوهنٍ، يكابد في مغالبته. دارت حول جذعٍ ضخم أخفى جسدها، وغذَّ خطواته ليلحقها، لولا أن برز فجأة من خلفه ظلٌّ قاتم، وبحركة خاطفة أحاطت برقبته ذراعٌ قوية أطبقت عليها، بينما انغرز طرف نصلٍ حاد في عنقه، وفي أذنه فحَّ صوتٌ:

- لقد بعثك لتقتلني إذن! والله لأرسلنَّ له رأسك.

(٤)

وضع (سامر) صفحة طعام صغيرة أمامها، وسكب لنفسه أخرى من قدرٍ نحاسي قرب النار، قبل أن يجلس قبالتها. أحاطت بكفيها الطبق الفخّاري، تستجلب منه دفئًا لأناملها المتجمدة. أخذت تتأمل المكان من حولها: كان الكوخ الفقير في ركنٍ منزوٍ من الحزام الأخضر المحيط بالمملكة، تستر مؤخرته ربوة متوسطة الارتفاع، وتتقاطع شجرتان كثيفتا الأفرع والغصون غير بعيدتين عن بابه، حتى احتجب الكوخ الصغير تمامًا بين كل ذلك.

دسَّ ملعقة أو اثنتين في فمه شاردًا، قبل أن يضع الصفحة أمامه، ويتنهد. ضم عباءته المتآكلة حول جسده، وطفق يتأمل النار المتأججة في كومة الحطب أمام باب الكوخ. قال بعد برهة دون أن ينظر إليها:

- لم تخبريني يومها بما نويتِ، أخفيتِ عني خطتك!

- لم تكن قد صارت خطة واضحة وقتها يا عمي، كانت مجرد رؤية تطاردني بين الفينة والأخرى، غير أنه طرأت أمور دفعتني لتنفيذها دون إبطاء.

سأل في اهتمام:

- أية أمور؟

ترددت. لم تكن تريد مفاتحته بما جرى في المملكة. ردت باقتضاب:

- هذه قصة طويلة سأحكيها لك حين أعود إن قدَّر الله.

- الآن صرتُ آخر من يعلم!. تغادرين المملكة لأول مرة في تاريخها، ولسببٍ مجهول، ثم تصير تلك قصة تُحكي إليَّ مع الآخرين.. يا للسخرية!

وأطرق أرضًا في حزنٍ غاضب، قبل أن يستطرد:

- وهل كان في مخططك أيضًا أن ترتحلي دون المرور بي؟

- لم أكن لأقدر، لا أطيق الفراق، كما أنني...

وسكتت لحظة، قبل أن تردف بصوتٍ مختنق:

- أنا لا أعرف إن كنت سأعود حية أم لا. لم أكن أريد أن أثقل قلبك بالخوف والانتظار.

رفع عينيه وقال عازمًا:

- ومن قال أني تاركُكِ؟

- ماذا؟! أنا لن أقبل بالطبع يا عماه، أنت تتحرك بدافع خوفك وإشفاقك عليَّ، لكني لن أعرضك قطًّ لهذا الخطر.

- أنا حارسك!

لوحت بكفها:

- أنت أبي، ولا يمكن أن أضعك في خضم أمرٍ خطيرٍ كهذا كي تحميني فحسب. مستحيل!

سدد إصبعه بعيدًا:

- وهل هو من سيفعل؟

رفعت طرفها إلى حيث أشار. كان (إيكيل) يسير مترنحًا على مبعدة منهم، جيئة ورواحًا، بحركة عصبية. قالت شارحة:

- (إيكيل) لم يعتدْ بعدُ هيئته البشرية، ولا أن يتحرك فاقدًا كل قواه. قد يستغرق الأمر منه وقتًا، لكنه سيكون ذا فائدة عظيمة لي، إنه واسع العلم، وعقله مليء بالأفكار والحيل، فضلًا أنه يعلم الكثير عن العالم الخارجي. أما أنت...

غمغم:

- أنا سأكون عبئًا لا أكثر.

- بل قصدت أنك مثلي: كلانا يجهل ما بالخارج، وما هو مُقبل عليه، فليس معقولًا أن أجرَّك لمخاطرة كتلك.

لم يعقّب، فخيَّم الصمت عليهما، وخلا إلا من قرقعة خافتة للنيران، وهي تلتهم الحطب ببطء. أطبقت عينيها في صفحة الطعام، وجعلت تأكل بشرود، وعقلها يغوص في عشرات الأفكار.

- هل زُرتِ المظفر؟

رفعت عينيها إليه. أومأت برأسها، وأجابت:

- لم أكن لأقدر ألا أراه قبل الغياب. قضيتُ معه شطرًا من الليل، حتى حتم الرحيل. كان مهيبًا كعهده حتى وهو يرقد بين يدي الله مريضًا. كان...

واختنقت بالكلمات. بدت وكأنها ستكتفي بهذا القول، بَيد أنها أردفت بصوتٍ متهدج:

- أنا لم أخبرك بكل شيء يا عمي. لقد خرجتُ و(إيكيل) للبحث عن الأمير الأشرف واستعادته. قلتَ كثيرًا إن هناك أمل في عودته، لكن لم يعد بوسعنا الانتظار طويلًا، إن المملكة تحتاجه اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى.

لاح في وجهه تساؤل، وحثها بنظراته على المواصلة. سيطرت على أنفاسها المتلاحقة، وألقت القنبلة في وجهه:

- إن المظفر يموت.. بيدِ ابنه.

شهق وهو يهبّ من مجلسه كالملدوغ. عاجلته بالتتمة:

- (نذير) و(جسّاس) يتشاركان مؤامرة للسيطرة على المملكة، وقد دبرا خطة لقتل أبي دون إثارة للشبهات. منذ فترة وإلى اليوم، وهما يدسّان له سُمًّا خاصًا، أوهن جسده وعقله، وليس أمامنا زمن حتى يبلغ السم أثره الأخير. إن لم أحضر لأبي الترياق في أسرع وقت، فسيموت، وحينها تعلم ما سيحدث بالمملكة.

كانت المفاجأة أقسى من قدرته على الرد، لقد انتظر من ذلك الفتى المدلل الكثير، لكن أن يبلغ هذا المدى المروع، فذلك كان شيئًا من وراء العقل. ومكث يحدق في الفراغ، محاولًا استيعاب ما سمع. ردد مصعوقًا:

- (نذير) يقتل أباه؟! مليكي؟! وحق الله لأذبحنَه بيدي!

وتجلَّى الغضب في ملامحه كاسحًا، وتعاظم جنونه فأفعمه حيرةً وارتباكًا. وقف مبلبل الأفكار، وجهه يحتقن بالدم المخنوق، يتلفت حوله باحثًا بعينيه عن شيءٍ غامض، غير عالمٍ بما يتحتم عليه فعله أولًا.

- (نذير)!.. ذلك الـ... إنني.. والله.. والله لأقتلنَّه.

«كفَّ عن هذا يا (سامر).. لن تجد وقتًا!».

استدار الاثنان لمصدر الصوت. كان (إيكيل) يقف على مقربة منهما.

- حاول أن تهدأ. أنت غير مُتهم في صدقك وإخلاصك، لكنك دومًا تتحرك بعواطفك لا عقلك، لهذا لم تنجح على مدار السنين الماضية في جمع الناس من حولك، إلا لبرهة سرعان ما تنقضي. اهدأ وحاول التفكير برويّة قليلًا.

وتقدم بهدوءٍ مُتخذًا مجلسه حول النار. كانت حركته قد صارت أكثر مرونة نوعًا ما، بعد مُضي ساعة في تدريب ساقيه. استطرد شارحًا:

- لن يسمح لك أحدٌ بالاقتراب من الأسوار، فما بالك بالدخول إلى القصر ذاته؟ إن بينك وبين القاهر عشرات الحواجز التي تعجز أمامها فرقة كاملة من الجند، فدَعْ عنك تلك الثورة العمياء، وفكر فيما يُمكن أن يفيد أكثر.

دمدم ذاهلًا:

- أتريدني أن أفكر بينما هو يشرع في التنفيذ بالفعل؟!

- وماذا في رأيك نفعل نحن بالخارج؟ هه؟ إننا نحاول منع هذا، لكن بطريقة أنجح وأقل سفحًا للدم. نحن لا نحارب رجلًا واحدًا يسهل قتله أو سجنه، إننا نحارب مملكة بأسرها، فإما أن تساعدنا أو تصمت رجاءً.

أشاح بوجهه، وقال من بين أسنانه:

- حاولت أن أساعد، لكنَّ أحدًا لا يريدني.

وجلس مسددًا لها نظرة لومٍ أصلت قلبها، فغاص رأسها بين كتفيها، وانزوت بعينيها بعيدًا في الليل الذي أسدل ستاره على كل شيء من حولهم. قال (إيكيل) بنبرة أهدأ وقد فهم:

- اسمعني جيدًا أيها القائد، لا أحد يتثاقل بوجودك قط، غير أننا نخوض غمار شيءٍ مبهم وغير مألوف، وكلما كنا أقل عددًا، كنا أخف ثقلًا وأسرع حركة. إن وجودك هنا بمأمنٍ سيكون خير ساعد لنا في الخارج، صدقني.

واستدار موجهًا حديثه لـ(سلام) قبل أن يرد:

- دون الفجر سويعات قليلة مولاتي. حاولي أن تغتنميها في الراحة قبل أن نتحرك.

أومأت برأسها في طاعة، وسألته:

- ماذا عنك؟

- كما أخبرتُكِ قبلًا: أحتاج لدراسة المكان أولًا، فلربما...

قاطعه صوت نهيقٍ آتٍ من مقربة، فنهض (سامر) مستغلًا الفرصة:

- ذاك حماري. يبدو أنه جائع. سأذهب لأطعمه.

ثم استدرك في ضيقٍ لم ينجح في إخفائه:

- أكملا أنتما الخطة العبقرية!

ومضى تشيِّعه نظرات (إيكيل) المندهشة، قبل أن يهز رأسه، ويكمل شارحًا:

- كنتُ أقول أنه ربما أمامنا فرصة قبل أن تشرق الشمس، أن نتسلل عبر الطريق الذي...

لكنه تجمَّد فجأة قاطعًا كلماته، وطفق يفكر في عمق.

سألته مستغربة:

- ماذا هناك؟

لم ينطق. ظل على جلسته ساهمًا. عيناه تشعان ألقًا، وتدوران في محجريهما، وكأنه يتتبع مسارًا مرسومًا في ذهنه، صورًا وأحداثا يراها فقط في خياله. أخيرًا تخايلت ابتسامة رضى على شفتيه، وقال بغموض:

- أتدرين؟ ربما علينا أن نغير خطتنا كاملةً، لدي فكرة، مجنونة ربما، لكن لا بأس بها.. لا بأس بها أبدًا.

(٥)

حين تناهى إليهما من بعيد صوت المؤذن يصدح بآذان الفجر، قادمًا من وراء أسوار (أنطاكيا)، كان الجنّي والعجوز قد شارفا بالفعل الانتهاء من مهمتهما. عدَّل (إيكيل) وضعية كومة من الشجيرات المقطوعة، قبل أن يتراجع قليلًا ليرمق ما حوله بنظرة شاملة، محاولًا تبيّن أي خطأ لم ينتبه إليه. وإذ تأكد للمرة العاشرة من سير الخطة كما رسمها خياله، نادى (سامر) همسًا:

- لنذهب الآن. لقد انتهينا.

انتزع (سامر) نفسه بصعوبة من شروده على ضفة النهر الأسود، الذي أخذ تياره يتلاحق في شدة من تحته. هدير أمواجه، وحلكته، والرعب الذي يقطن فيه، اختلطوا معًا في مزيج مخيف، أحاط بالواقف على ضفته.

وقفَلَ الاثنان عائدين دونما كلمة، وكأن رَهَق الساعات الماضية استنزف منهما كل طاقة أو قدرة. غير أن (سامر) كان الأسبق للحديث، حين شعر أنه بحاجة أكثر للفهم. سأل (إيكيل):

- لماذا أبدلتَ خطتك؟

- لأن هدفي تجاوز الوحش، لا مجرد النجاة منه. الخطة السابقة كانت أكثر اتزانًا وتعقلًا، وفرصة بقائنا فيها أحياء ليست قليلة، لكن نجاحنا بها في تجاوز النهر كان أقرب للعدم. الأمر يستلزم مزيدًا من المخاطرة.

- ألهذا عدتَ للمملكة الليلة؟

لوَّح بيده:

- كان لابد أن أشرح لأخوتي الخطة الجديدة. إني أحتاجك هناك أكثر يا (سامر)، وجودك خارج المملكة يبسط الطريق أسرع لـ(نذير) نحو العرش. كان مُحتَّمًا ألا نترك الناس دون خط دفاع ثان.

تمتم:

- أتقصد كخطة بديلة إن... أعني، فشلتَ و(سلام) في العودة لا قدر الله؟

تقبَّض قلبه. أومأ برأسه بهدوء:

- بالضبط.

ساد الصمت لحظة، قبل أن يسأل من جديد:

- ماذا تظن سيحدث لكما اليوم؟

رد باقتضاب:

- في أسعد الأحوال؟ سيموت أحدنا وينجو الآخر.

- رباه!

- خطتي تقتضي ببساطة أن يكون الناجي (سلام) لا أنا.

صاح مستنكرًا:

- أهذه خطتك أيها الحارس؟ مجرد ضربة حظ؟

رد متبرِّمًا:

- قد أجبتُ هذا السؤال حتى ضاق صدري. بلى يا (سامر)، إنها ضربة حظ، بل هي للمعجزة أقرب، لكن هل ثمّ بديلٌ عندك أم تفضِّل التذمر أكثر؟

- أنت تجازف بكل شيء.

- كل خطة مهما كانت ساذجة، يمكنها النجاح إن أحسنتَ تدبيرها.

- أرى أن تتمهلا قليلًا حتى نرى أمرنا.

- سمعتُ و(سلام) هذه الجملة كثيرًا في اليومين الماضيين.

- ولا تظن أن سبب ذلك كونها صائبة مثلًا؟

- لا وقت لدينا لترف الانتظار.

- أنا أخاف على (سلام).

صاح ساخطًا:

- وأنا أخاف عليها أكثر منك!

بُهِتَ (سامر) للحدّة المفاجئة، وغمرته دهشة لمرأى الجنّي الهادىء ينفجر غضبًا بهذا الشكل، وعزى الأمر للانفعال الذي يُزكّيه القلق والترقب. أشاح بوجهه، وقرَّ في نفسه أن يتجاوز عن حدته، غير أن (إيكيل) واصل وقد اشتعلت النيران حرفيًا في عينيه:

- لا تحسبنَّ أني راضٍ عمّا توشك الأميرة على خوضه، أو أني لا أريد أخذها قسرًا لأعيدها إلى المملكة. إن كنتَ صاحبت أباها في صدر شبابه، ورافقت أبناءه صغارًا، فأنا كنتُ معلمها وأباها الروحي. لقد شبَّت على يدي، وعلمتها كل ما خَبُرته في الحياة. إنها ابنتي يا (سامر)!

كان يلهث بعنف، وكأن الانفعال يستنزف طاقته لأقصى درجة.

- أتحسبني جاهلًا بما ينتظرنا في العالم الخارجي؟ لا أحد أفضل مني يمكنه إخبارك أي هولٍ ينتظرنا هناك، لكني أعرف أنها برفقتي أو بدوني، ستسعى خلف ما تريد، ولو كان في آخر الأرض. لحماقتي، أنا من علمها ذلك، وها أنا أدفع ثمن دروسي: إن لم أقدر على منعها، فسأكون جوارها، نموت معًا أو نعود معًا.

تلجَّم (سامر) تمامًا، وتجمَّد كلوحٍ في وقفته محدِّقًا فيه.

كأجيالٍ مديدة من أهل (أنطاكيا)، كان يعرفه منذ ولادته وحتى اليوم، ولطالما دارت بينهما أحاديث ونقاشات طويلة في القصر الملكي. وذَكَر يوم زفافه، حين كان (إيكيل) يشرف بنفسه على مراسم الاحتفال، ويصنع بحيله الأعاجيب ليبهر المدعوين. اليوم، وفي تلك اللحظة بالذات، كان (إيكيل) أبعد ما يكون عن ذلك المخلوق الذي عرفه.

وأحسّ الجنّي بما يدور في أعماق (سامر)، فرقّ له. عَهِدَ في نفسه منذ قرون الصبر والحكمة، حتى فاق أخويه، وتصدَّر قيادتهما. فكيف سمح للانفعال أن يعمي عينيه، ويطيح باتزانه؟. ولعن في نفسه الساحرة التي

أفقدته قواه، وأسلمته لعجزٍ مطبقٍ كتم أنفاسه، حتى انفجرت غضبته فيمن لا ذنب له.

ترامقا لثوانٍ بدت كدهر، قبل أن يحيد (إيكيل) بعينيه عنه. وجعل يسيطر على نفسه، حتى أخذت أنفاسه تهدأ، وجذوة الغضب في عينيه تخبو إلى أن ماتت تمامًا. لحظتها فوجىء بيد (سامر) تربت على كتفه في هدوء:

- أعي جيدًا ما تشعر به أيها الحارس. ولربما لو كنتُ مكانك ما انتظرتُ كل هذا قبل أن أبوح بما يتقد في داخلي. لكن، أتعلم شيئًا؟ أظن أنكما ستنجوان.. ذلك يقيني بإذن الله.

أعجزه عن الرد بتلك الكلمات، وأضاف لخجله إحساسًا بالخزي، جعله يزداد شحوبًا، ويتمتم منحنيًا في تهذيب:

- سامحني أيها القائد، وأشكرك.

ربَّت على كتفه مجددًا، وابتسم للحظة، قبل أن تتحول ابتسامته لقهقهة هادئة:

- عجيب!.. لم أختبر هذا الشعور من قبل.

رفع عينيه إليه مستغربًا.

- إنها المرة الأولى التي ألمس فيها أحدكم. أخشى أن أعتاد هيئتك البشرية مثلنا فيختلط عليَّ الأمر حين عودتك.

تبسَّم (إيكيل)، فأتبع (سامر) بسؤالٍ جدّي:

- ماذا ستفعل بالضبط إن كتب الله لكما النجاة اليوم؟ ما خطوتك التالية؟

عاودا السير من جديد. أجاب وهو يُمعن في التفكير:

- ليس أمامنا الكثير من المعلومات. أعلم فقط أين يُمكن أن نجد من يساعدنا في تحضير الترياق، لكن بشأن (بِشر)...

وتنهد مردفًا:

- فرصة ايجاده بالغة الصعوبة، الغجر ليسوا أهل استقرار، ولا يلبثون طويلًا في مكان. سيكون من المستحيل أن نجوب الأرض كلها بحثًا عنهم. حتى المظفر أجاد (عدنان) محو عقله ببراعة. حين تسللتُ إلى ذاكرته لم أجد شيئًا ملموسًا قد يفيدنا. كل ما وجدته بمعجزة اسمًا توارد على لسان (إيليانا) مرة أو اثنتين. قرية نائية أقام فيها قريبٌ لها قبل أمد، وقدَّم لها يد المساعدة عدة مرات. قد تكون بداية الطريق، أو قد يكون رحل عنها منذ زمن، لا أعرف، لكن لا مناص أن نمر بها لعلّنا نجد خيطًا يقود إلى المشعوذة والأمير الأشرف.

- أو تحسبها بعدُ حية؟

- ينتابني شعور أنها مازالت في مكانٍ ما بالخارج تنتظرنا. لا أفهم كنه هذا الإحساس أو مدى صدقه، لكني على يقينٍ منه.

ورنا إلى السماء هنيهة، قبل أن يقول عاقدًا حاجبيه:

- يا إلهي، لقد باغتنا الوقت!

وتسارعت خطواته قدر المستطاع، يلحقه (سامر) متكئًا على عصاه.

حين اقتربا من كوخ الأخير، سأله بتوتر:

- هل سأتحرك الآن؟

- دون إبطاء. ستأخذ معك بعض الطعام وقربة ماء، وفي البقعة التي حددتها لك ستبقى متواريًا اليوم كله، حتى يأتيك (يوناس). تذكَّر أنك ستكون قريبًا جدًا من ثكنات المراقبة للجند، فلا تبدرنّ منك أدنى حركة حتى يحين الوقت. هذا هو كل ما يجب أن تعرفه الآن.

- سيكشف (جسّاس) الأمر حتمًا!

- لا تقلق، فقط التزم بالخطة، وستسير الأمور على خير ما رسمنا، ثق بي.

ووصلا إلى الكوخ، فانعطف (سامر) إلى زاوية مظلمة، ليخلو بنفسه فيها دقائق، قبل أن يخرج مُبدلًا ملابسه، بيده لفافة، وبالأخرى يحمل ما كان يرتديه. التقط (إيكيل) منه الملابس، وأشار إليه حتى يمضي، لكنَّ الأخير وقف ينظر في تردد إلى (سلام) النائمة على حشيته. كان القلق ينهشه. وشعر (إيكيل) باشفاقٍ نحوه، لكنَّ الوقت كان يتسرب بسرعة من بين يديه. قبل أن ينطق، استدرك (سامر) نفسه، مال يطبع قُبلة حانية على جبين الأميرة، قبل أن يعدّل وضع اللفافة على كتفه، ودون كلمة غادر الكوخ، عائدًا إلى المملكة التي لفظته قبل أيام.

(٦)

بددت شمس الضحى كثيرًا من برد الليلة الماضية، وأطلقت سلاسل من الذهب على الأرض العشبية، بينما تألقت الأشجار بوهجٍ دافىء أكسبها منظرًا رائعًا. حتى النهر الذي غلبته الوحشة والظلام بالأمس، كان يتلألأ تحت ضوء الصباح آيةً في الرقة، ومياهه تجري بانسيابٍ ناعم، غير عابئة بما يدور في جوفها حالًا!

متحفزةً للحراك، كانت (سلام) خلف شجرة قريبة من النهر، تخفيها عن الأنظار، وتتطلع بترقب بالغ لصفحته في انتظار معجزة على وشك الحدوث.

* * *

حين أتمَّ (إيكيل) إحكام عباءته السوداء حول نفسه، ووشت رقتها وهيئته العامة التي ازدادت نحافة، بأنه تخلَّص من كل ملابسه، مكتفيًا بتلك العباءة تستر جسده عن الأعين، سألته في قلق:

- أما من سبيل غير ذلك؟

هز كتفيه وهو يطوي ملابسه المخلوعة:

- الوقت ضيق، لن يسمح بمزيد تدبير.

واستدار إليها مبتسمًا:

- ثم أن كل ما طرحتيه من أفكار، في الواقع، كان شديد السذاجة. كيف حسبتِ أننا سننجو بها؟

قالت في عناد:

- على الأقل كانت أفكارًا آمنة!

اتسعت ابتسامته ولم ينطق. مال على الأرض ليُتمَّ وضع ملابسه وحاجياتهما معًا في الخُرج الجلدي، قبل أن يحكم أربطته جيدًا، ويساعدها في ارتدائه. تأملت من جديد المنطقة حولهما. كانا يقفان في بقعة نائية، كثيفة الأشجار، مظلمة وكئيبة، أثارت هواجس قلبها.

- لماذا اخترت هذا المكان تحديدًا؟

رد مقتضبًا:

- من تلك الزاوية بالضبط سيرون ما أريد لهم أن يروه.

وصمت لحظة ثم أردف:

- لا ترهقي نفسك الآن بالتفاصيل. تذكّري فقط يا (سلام): الأمر لا يحتمل أدنى تردد أو تفكير. هي فرصة واحدة أمامنا، وعلينا أن نحسن استغلالها.

شدَّت وثاق الأربطة على صدرها، وتأكدت من ثبات الخرِج جيدًا. تابع:

- لحظة أن أعطيكِ الأمر لا تتمهلي لحظة، ولا تتوقفي أو تنظري إلى الخلف حتى تَصِلي إلى الضفة الأخرى. هل فهمتِ؟

منحته إيماءة من رأسها غير مقنعة، غير أنه اكتفى بها دون كلمة. لبث الصمت سائدًا لدقائق وكلاهما لا يجد ما يُقال. ثم أنها تشجعت أخيرًا:

- ستحفظ نفسك لأجلي، أليس كذلك؟ لن تُخاطر بحياتك وتتركني أخوض تلك الرحلة وحدي.

ربَّت على وجنتها مُشجِّعًا:

- لا تقلقي يا صغيرة، لن أبالغ في تهوري.

وأطلق من أعماق قلبه زفرة قوية أفرغ بها توتره، مشيرًا لها بالتراجع نحو الشجرة المحددة. كان قد اختار تلك النقطة بعناية، بعدما درس المكان جيدًا، ووجد لها أكثر المواطن بُعدًا عن الخطر وقُربًا من النهر في آنٍ. وبينما انسحبت إلى مكمنها، مضى (إيكيل) في ثبات لضفاف النهر، مُخفيًا وراء ملامحه الجامدة قدرًا غير هين من الانفعال. ارتقى صخرة عالية، ووقف على حافتها يرمق الماء المنساب من تحته.

لم يعد يراها، لكنه سدد الطرف إلى الشجرة التي تتوارى خلفها، ففهمت مراده. في اللحظة التي أدارت عينيها بعيدًا، ألقى عن كاهله عباءته فسقطت أرضًا، وتبدَّى من تحتها عاريًا لا يستره إلا الله. في يده استقرَّت قنينتان صغيرتان، لاح من وراء زجاجهما سائلٌ ثقيل وأحمر كالدم. فتح إحداهما، وفي حركة واحدة جرع محتواها قبل أن يُلقي بها بعيدًا ويتمتم:

- بسم الله نبدأ.

للحظة، بدا وكأن شيئًا لن يحدث، قبل أن تندَّ عنه فجأة آهة خافتة، ويضم ساعديه حول جسده، كإنما انتابه ألمٌ خفي. ومن مسام جلده انبعث دخانٌ قاتم اللون، بدأ شفافًا كطيفٍ غير ملحوظ، ثم ما لبث أن تكاثف، حتى أضحى غلالة من السواد أحاطت بجسده النحيل، وشملته تمامًا حتى حجبته عن عينيها.

من بين الظلال، لم يبد منه إلا حدود جسده الخارجية وهي تتبدل في غرابة، كان يتضاءل قليلًا، وأطرافه تمتد، تتحور إلى زعانف عريضة. بينما انبثقت من ظهره زعنفة واحدة كبيرة، وامتد فمه مدببًا أمامه، واختفت أجفانه ورموشه مُبدِلة عينيه إلى أخرى زجاجيتين كعيون الأسماك.

ودون تمهُّل، وقبل حتى أن يتبدد الدخان الأسود، كان المخلوق الجديد قد شقَّ بوثبة واحدة طريقه إلى الماء.

* * *

لا تدري كم طال غيابه.

لمن يراقب ما يحدث، كانت محض دقائق لا أكثر، لكنها في وقفتها المرتعبة تلك، حسبتها دهورًا. وقسرًا جعلت تشيح بطرفها بعيدًا عن النهر. تجول بناظريها في الضفة الأخرى. يختلق خيالها صورة لنفسها بعد قليل تسبح بقوة إليها. تعود فتتثبت من إحكام الرباط المشدود حول خاصرتها وصدرها. تتنهد. تضم قبضتيها لتضخَّ الدم إلى عروقها. لا فائدة!، تأبى أعماقها التفكير إلا في... بغتة، ودون مقدمات، ارتجت الأرض بعواءٍ

رهيب، انفتأت عنه المياه الجارية. هرعت بعينيها تمسح النهر باحثةً عن أثر، وتشبثت أظفارها دون وعي بجذع الشجرة الذي تتوارى خلفه.

اضطرمت صفحة الماء. أخذت تفور أمواجها وكأنها تغلي فوق لهبٍ خفي. لاحت أخيلة تتحرك بعنف تحت السطح الشفاف. كانت تقترب سريعة. فجأة خرجت رأس (إيكيل) من قلب الماء، يتبعها بقية جسده، وفي وثبتين سريعتين كان قد وصل إلى الضفة الحصباء.

من خلفه، انفجر الماء بقوة عاتية، وبرز الوحش الأسطورى بفكيه العملاقين عموديًا، قبل أن يعتدل على قائمتيه مُطلقًا صرخة فائقة العنف، شعرت بها تكاد تقتلع جسدها عن الأرض. بوثبة قصيرة قطع المسافة الفاصلة، ليدبَّ على الشاطىء بدويٍ هائل، ليبدأ من جديد مطاردته للمخلوق الذي جرؤ على ارتياد سلطانه.

أطلق (إيكيل) صيحة قوية بفمه المدبب:

- الآن!

كانت لحظة واحدة سيطر فيها التردد، وفي اللحظة التالية قفزت (سلام) إلى النهر. غاصت في المياه الباردة قليلًا، قبل أن تصعد إلى السطح برشاقة، وتندفع تطوِّح بذراعيها تضرب الأمواج في قوة. كانت تسبح وهي تلهث، ودون أن تنظر خلفها كما أُمِرَت، صكَّت أسماعها صوت الصرخات الوحشية، فأذابت قلبها هلعًا. أرادت أن تتوقف، أن تطمئن عليه بنظرة قبل أن تواصل، لكنَّ أمر حارسها كان صارمًا، شعرت في أعماقها

أنها ستدمر خطته إن خالفته، فكان عليها لأول مرة أن تتخلَّى عن عنادها المعهود.

على الأرض، كانت ساقا (إيكيل) اللتين تحولتا إلى زعانف سميكة وعريضة، تمنحانه قدرة ملحوظة على قطع مسافاتٍ لا بأس بها، أسرع حتى من ساقيه البشريتين، بيد أن سرعته الجديدة تلك كانت لا تزال هباءً إذا ما قورنت مع خطوة واحدة من قوائم الوحش. بنظرة واحدة من بعيد، تأكد أنها فرَّت مطيعةً أمره.

الآن لم يبق إلا دوره هو.

مال الوحش بفكيه ليقبض عليه من الخلف. رأى ظله يدنو منه على الأرض الممتدة أمامه، فأطبق أسنانه على القنينة الثانية التي احتجزها في فمه قبل أن يلج النهر. انكسرت ليجري السائل إلى جوفه. كانت تلزمه عشر ثوانٍ فحسب!

مال بحركة مباغتة إلى حزام الأشجار الكثيف الذي يحدوه يمينًا، ناجيًا من الفكين اللذين انطبقا بقرقعة عالية. أخذ يتواثب في خطٍ معلوم مخترقًا الدرب بين الأشجار، في حين انقض وراءه المخلوق ليسدد لطمة عاتية بذيله إلى الجذوع العريضة، فنثرها يمينًا ويسارًا.

سبع ثوانٍ..!

دار حول سنديانة ضخمة، وبضربة واحدة مزق العقدة التي ربطت طرف حبلٍ حول جذعها، بينما الطرف الآخر أحاط بعنق الحمار العجوز الذي كان يقف في تلك اللحظة حائرًا، تنذره غريزته الحيوانية بقرب الخطر.

غمغم (إيكيل) متأسيًّا:

- اغفرها لي عند ربِّك.

ثم ضربه ضربة باغتة على كِفله، ففزع المسكين، وهرع راكضًا وهو ينهق في ذعر.

أربع ثوانٍ..!

في اللحظة التي دسَّ فيها الوحش وجهه بين الأشجار، مُستطلعًا أدنى حركة بعينيه ضعيفتي الرؤية، باغته خروج الحمار من أمامه مُسرعًا، فتراجع لحظة للوراء مرتبكًا، قبل أن تجذبه غريزته فيندفع مُطاردًا الفريسة الجديدة.

ومن ظلمة حاجز الأشجار، انبعث الدخان الأسود كثيفًا.

ثانية واحدة..!

تشتت فيها الوحش، وانشغل بالمطاردة الجديدة التي حسمها بوثبة قوية قطع فيها المسافة بينه وبين الحمار، الذي توقف لحظة خائفًا، ثم اندفع يركض في اتجاهٍ آخر، لولا أن سد المخلوق عليه المنفذ، وانقض بفكيه ليطبق عليه بهما مُلتهمًا إياه.

وإثر ذلك رفع عقيرته إلى السماء زائرًا بوحشية ظافرة، وقد انتشى ككل حيوانٍ أعجمي بهذا الانتصار المحدود على طريدته. رددت الجنبات صرخاته، وفرَّت الطيور المحلقة تنأى بروحها عن هذا الجحيم. لكنَّ طائرًا واحدًا اخترق السماء كالقذيفة من بين الأشجار، فاردًا جناحيه العريضين كنسرٍ عظيم.

عكست الشمس ظل الطائر على وجه الوحش، فتراجع خطوة يرمق العدو الجديد دارسًا إياه بحذر، قبل أن يطلق بعنفوان من حلقه صرخة جديدة متحدية، ويندفع ناحيته بخطواتٍ ترجُّ الأرض.

وأمام عيني (سلام) التي وقفت تقطر ماءً على الضفة الأخرى، تراقب ما يجرى بعينين مرتعبتين، انطلق (إيكيل) بهيئته الجديدة، وببسالة حقيقية، طائرًا صوب الوحش.

وبدأت جولة جديدة!

(٧)

بخطواتٍ متلهفة قطع (جسّاس) الممر المفضي لشرفات القصر، لم ينجح في الاستمرار طويلًا مُحافظًا على وقاره المعهود، ومشيته الرصينة المعتادة أمام الخدم والحرس، وبقية الحاشية المنتشرة اليوم في فزع بالقصر.

ليس تلك المرة!

من بعيد كانت تتعاقب دقات جرس الأسوار، المُنذِرة بالخطر. دقة تلو أخرى بمهابة هادئة، لم تعكس الذعر الذي انتاب جنبات المملكة من صرخات الوحش المدويَّة في الأفق.

استقبله حاجب الملك بارتباك، غير أنه تجاوزه في حركة سريعة، ودون كلمة، دالفًا إلى الشرفة التى وقف عند سورها القاهر ينظر إلى بعيدٍ مترقبًا. أسرع مُخرجًا من عباءته عدسته المسحورة ليضعها على عينه، فتراءت له الصورة فائقة البعد، كأقرب ما يكون.

سأله (نذير) بلهفة:

- ماذا ترى؟

لم يرد (جسّاس) للوهلة الأولى، لبث يرقب وأصابع يديه تشدُّ على حافة السور بعصبية. عيناه تجوبان الساحة البعيدة، قبل أن تستقرا عند نقطة

محددة. عقد حاجبيه. كانت الأشجار تحجب الرؤية تمامًا من تلك الزاوية، لكنه لم يكن من سبيلٍ إلا من هنا تحديدًا. «ماذا تفعل أيها اللعين؟». هتف في أعماقه وعيناه تدوران. «أي شيء أخرجك من كهفك اليوم؟».

- ماذا ترى في الأفق أيها الحكيم؟

كرر القاهر سؤاله في عصبية. لم يستدر. ردَّ باقتضاب:

- الوحش يطارد فريسةٍ ما.

ردد الأمير البصر بينه وبين الأفق مرتبكًا، كانت الحجب تشلّه، وإجابة مستشاره لا تشبعه بشيء. سأل من جديد:

- ألا يُمكنك تبيُّنها؟

هز رأسه نافيًا دون كلمة، وواصل المتابعة.

أمام عينيه الكابيتين، كانت حراشف الوحش والحراب المسنونة البارزة من ظهره تتخايل من بعيد، تحجبها أشجار السرو والعرعر والياسمين التى ملأت تلك المنطقة. كان يبدو له أن ثمة مطاردة تجري في تلك اللحظات، لكنه لم يستطع تبيُّن ما، أو من، الفريسة. لم يمكنه استكشاف ما هو أكثر، فلعن في سره مُحنقًا.

ماذا أخرج الوحش اليوم؟ لم يره أحد أو يشعر بوجوده حتى، طوال ثماني عشرة سنة كاملة، حتى حَسِبَ هو، والناس من قبله، أن الوحش قد رحل للأبد، وأن اللعنة القديمة قد انفكَّت أوتارها عنهم، فماذا جرى اليوم؟ ما الذي جذب انتباهه خارج النهر كي....!

وأطرق مُقطبًا. «أتكون...؟!». حكَّ جبينه بيمناه في قوة. «ولكن.. هذا مستحيل. لا يُمكن أن يحدث هذا تحت بصري أنا!».

عاد يتابع من جديد، متلهفًا على أدنى إشارة، غير أن الأشجار وارت الوحش الذي أُطلق زمجرة قوية، رددت بيوت المملكة صداها.

لم ينتظر (جسّاس) إذنًا من القاهر، ولم يطلبه حتى، في تلك الظروف، لا وقت لديه ليتظاهر باتباع تقاليد الملكية وبروتوكولاتها. دون كلمة، أولى الأمير ظهره، وغادر كعاصفة.

(٨)

انقضَّ (إيكيل) طائرًا كالسهم ناحية المخلوق الوحشي، الذي هدَرَ صارخًا وهو يندفع نحوه بدوره. قبل أن يتلاقيا بلحظة، استدار الوحش مسددًا لطمة بذيله للمخلوق الطائر. تفادى (إيكيل) في الثانية الأخيرة، لينطلق ناحية اليمين لأسفل، متجاوزًا اللطمة التي فرقعت في الهواء كسوط. وارتفع بسرعة نحو السماء، قبل أن يعود مندفعًا ليلتف من حوله بحركة مباغتة وينشب مخالبه في مؤخرة رأسه. كان جلد المخلوق صلدًا شديد القسوة، لكنَّ المخالب التى نتأت للجنيّ في تبدُّله الأخير كانت من القوة أن أعملت جرحًا غائرًا ما بين عنقه وكتفه، قبل أن يحلِّق من جديد مبتعدًا أن تصيبه ضربة مفاجئة.

صرخ الوحش بعنفٍ مدوٍ. كان الجرح عميقًا. ضرب بذيله يمينًا ويسارًا بجنون، محاولًا اصطياد الطائر، لكنه كان قد فرَّ مبتعدًا. انطلق الوحش وراءه، غير أن (إيكيل) لم يكن يبغي الهرب. اندفع بين شجرتين عملاقتين، وتوارى لحظة في الحلكة بينهما، تاركًا الوحش يدسُّ نصفه العلوي قدر استطاعته خلفه وقد أعماه الغضب، لكنَّ الجني من قلب الأشجار برز بغتة، دائرًا دورةً رأسية واسعة، ليُكرَّ مجددًا على ظهر الوحش. قبل أن يستدير منتبهًا للقادم من خلفه، كان (إيكيل) الأسبق والأسرع، فلطم بجناحه قرن الوحش ليشجَّه. ارتجت رأسه وقد أصابته الضربة

الجديدة بدوارٍ. تراجع مترنحًا. لم يُمهله (إيكيل). عاود الهجوم بعنفٍ أشد مُستغلًا قوته الجديدة، والريح التي ساعدته على الاندفاع أسرع وأقوى. بضربة مفاجئة ثانية أصاب نفس الموضع من الوحش. تراجع بقوة للوراء وهو يعوي ألمًا، ومن جرح رأسه وعنقه تفجَّرت المزيد من الدماء.

دار (إيكيل) دورة واسعة في السماء، محاذرًا، رغم الخطر، أن يخرج عن النطاق الذي رسمه لنفسه قبل المعركة، كان عليه أن يظل محجوبًا مهما حدث. تمالك الوحش نفسه بسرعة ألهبتها آلامه وحنقه، وشعوره بتزلزل سلطانه على يد عدوه.

لم ينتظر (إيكيل)، عاود انقضاضته، لكنَّ الوحش كان مستعدًا تلك المرة.

(٩)

ارتقى (جسّاس) الدرجات البسيطة، ودلف إلى دهليزٍ طويل، يقود إلى الجانب الآخر من القصر، حيث جناح النوم الملكي. كان الوحيد المُصرَّح له بالمرور عبر أي مكانٍ في القصر دون استثناء. وكان عقله مشغولًا فلم ينتبه للجارية التى أخذت تلهث وراء خطواته العريضة، محاولةً اللحاق به. حين طالعه ظلٌ عكسته الشمس على جانبه، انتبه. أدار رأسه فوق كتفه، مُلقيًا نظرة خاطفة وهو يواصل سيره دون توقف.

- هل سيدتك في حجرتها؟

سأل بصرامة دون أن ينتظر ردًا، كان سيعرف بنفسه بعد لحظات.

- مولاتي مريضة، ترقد في الفراش منذ ليلتين.

تثبَّت مكانه للحظة. لم يستدر. أخفت ملامحه توترًا مفاجئًا. عاود السير بسرعة أكبر وهو يغمغم:

- كيف لم يُبلِّغني أحد؟!

ازدردت ريقًا بصوتٍ خافت، ولفظت الإجابة التى تدربت عليها طويلًا.

- الحرَّاس يعتنون بمولاتي الأميرة بأنفسهم.

عقد حاجبيه في صرامة وقد أغضبه الرد.

كانت حدود قدرته تتوقف عند أعتاب نفر الجن، يدرك جيدًا أنهم الأقوى والأقدر مهما أوتي من علم. ربما لم تجبره الظروف قبلًا على الاصطدام بهم، لكنه يعي أنه لو حتم هذا فلسوف يتراجع قسرًا، وينفض يديه تاركًا لهم التصرُّف. فضلًا أنه كان يهاب مواجهتهم في تلك الفترة الحرجة وقلوب الناس معهم، إذ لا تسعه أدنى بادرةٍ لثورة أو غضب يتفشَّى بين أفراد المملكة، ليس قبل حينٍ بسيط من إتمام خطته.

لسنواتٍ ترك لهم شؤون الأميرة التافهة، متواضعة العقل والخبرة، وخلّوا هم أيديهم عنه وعن (نذير). ومع علمه بعهد (الصارم) تأكد أنه طالما ظل بعيدًا عن طريقهم، فسيتحقق له مراده دون تدخُّلٍ منهم. هكذا عُقِدَت المساومة، بصورة ضمنية من جانبه، وارتضوا هم بنصيبهم منها على إكراه.

وصل إلى باب الحجرة، فتنحنح ووقف مترددًا. تراجع خطوتين سامحًا للجارية أن تدلف قبله تستأذن. لكن لحظة أن واراها الباب، اشتعلت هواجسه بغتة: الوحش الذي ظهر دون انذار، وتلك الفريسة المجهولة.

دفع الباب برفق، ومدَّ رأسه إلى الداخل ينظر دون حياء، فكان أن طالعه وجه الأميرة (سلام) ترقد نائمة على فراشها، متدثرة بغطاءٍ من الكتّان الثقيل، الموشّى بالورود. كانت شاحبة، يقطر جبينها عرقًا، وتعبق الحجرة برائحة المرض، لكن دون ذلك فكانت نائمة، وفي هذا كانت إجابة جزءٍ من سؤاله.

- كيف سوَّلت لك نفسك الدخول دون استئذان أيها الموقر؟

رفع عينيه وقد باغته السؤال الصارم. طالعه وجه (عامروان) الذي وقف عاقدًا ذراعيه من خلفه، منتصبًا في قلب الحجرة.

- عفوك أيها الحارس، ربما لفرط لهفتي على مولاتنا الأميرة لم أنتبه لقواعد اللياقة.. اغفرها لي.

كانت ابتسامته مدروسة، لكنَّ (عامروان) لم ينخدع بها فيبادله بأخرى، لم يكن بينه وبين (جسّاس) ودٌّ مقيم، فضلًا عن تعليمات أخيه المحذِّرة من التباسط معه، حتى لو أراد قتل ريبته. كانت الأوامر أن يظل كل شيء كما هو كائن: نفس الأسلوب، نفس الكلمات، ونفس الشعور الناطق بالازدراء، والذي لا يجهله الحكيم، وإن لم يشغله كثيرًا. سأل وابتسامته تزداد ثقلًا:

- هل الأميرة أفضل اليوم؟

رد ببرود:

- تتعافى بفضل الله.

ودنا منه طائفًا في الهواء، تسبقه نظرة محايدة لا أثر فيها للتوتر الهائل بأعماقه. قال (جسّاس) برنة ضيقٍ جليَّة لم تخفها ابتسامته:

- كان من المفترض أن ينبئني أحدٌ بما جرى لأميرتنا، أحسب أن شؤون المملكة وأربابها من اختصاصي.

- ليست كل الشؤون أيها الحكيم (جسّاس)، كل ما يتعلق بأمن وسلامة (أنطاكيا) هو مسئوليتنا المشتركة بالطبع.

وأمهله لحظة قبل أن يتم قاطعًا:

- أما الأميرة، فهي مسئوليتنا الخاصة وحدنا.

لوَّح بيده:

- لكنَّ هذا لا يمنع من مشاركتي حين يطرأ عارضٌ بها. الأميرة مريضة، ولم أكن لأتأخر عن إبرائها من آلامها.

- هذا نُبلٌ محمودٌ منك يا حكيمنا، لكننا إلى الآن قادرين على التصرف دون عون.

ثم بادره بالسؤال.

- والآن إذا أردتَ، يُمكنك أن تشرح لي سبب مجيئك إلى جناح الأميرة بنفسك!

شرد لحظة، وبدا وكأنه نسى ما دفعه إلى هنا، ثم أنه لوَّح من جديد بكفه مُتذكرًا:

- الوحش.. إنه الوحش الرابض في النهر. يبدو أنه قد عثر على صيدٍ جديد. ألم تصلك الأصوات من الخارج؟

- وصلتنا جميعًا أيها الحكيم، لكن ما ضيرنا والوحش بعيد عن الأسوار؟

- لا جدال، لكن أثار انتباهي خروجه اليوم بعد كل تلك السنوات، ألا يثير عجبك أيضًا؟

- الاحتمالات مفتوحة أيها الموقر: ربما كان يصطاد طعامه، وربما كان يجوب منطقة نفوذه مُصدرًا جلبة كأي حيوانٍ أعجمي. لا أحسب هذا يشغلني كثيرًا، المهم أن يبقى بعيدًا عن المملكة.

أومأ برأسه دون قناعة:

- نعم، نعم، أصبت أيها الحارس، المهم أن يبقى بعيدًا عن المملكة.

ثم سأله بغتة:

- لكن، أين أخوتك؟

ابتسم (عاموران):

- أخي (إيكيل) يلوذ بخلوته، و(يوناس) يجوب الأسواق مُطَمْئنًا الناس في هذا اليوم العصيب. ربما كان عليك أن تحذو حذوه أيها الموقر. أعتقد أن هذا وقتٌ مناسب لأن يخطب الأمير القاهر...

اختلج جانب فم (جسّاس) في لمحة خاطفة.

- ... لتهدئة الشعب الخائف، نحتاج في تلك اللحظات كل مجهودٍ ممكن.

- بالطبع أيها الحارس، إن الملك القاهر...

اضطربت عينا (عاموران) في لمحة خاطفة.

- ... تتجهز عربته للخروج حالًا إلى الجامع المنصور ليخطب بالناس، فلا تقلق.

ثم أشار إلى الأميرة:

- أبلغ سلامي وعميق أسفي لمولاتي حين تسترد عافيتها، وأخبرها أننا جميعًا ننتظر عودتها سالمة بكل خير.

- سأتأكد من هذا أيها الموقر.

مُلقيًا نظرة أخيرة على النائمة في وداعة، انسحب الساحر من الحجرة ببرود كما دلف إليها، ولم يقطع بضع خطواتٍ في الممر، حتى سمع الباب ينغلق من خلفه، كصفعة هادئة ومباغتة.

(١٠)

تجسَّد (يوناس) ببطء. همس قبل أن يكتمل ظهوره:

- حمدًا لله، كنتُ أخشى اللقاء الأول.

لم يردّ (عاموران). ظل ساهمًا في الباب المغلق للحظات، وأخيرًا تمتم:

- لن تمرّ عليه يسيرًا.

- أعلم، لكننا سنكون دائمًا حاضرين.

- لا أحد يعلم إلى متى سنحفظ الأمر سرًا. قد يطول غيابهما.

- وربما لا يعودان من الأساس.

التفتَ إليه خافق القلب. أردف (يوناس) في حزم:

- في رحلة كتلك قد لا يعودان. أنت تعلم هذا جيدًا، فلا تخادع نفسك.

ثم خطا نحوه وتعلَّق بعضديه. نظر مليًا في عينه وقال:

- نحن نفعل هذا لأجل (أنطاكيا) يا أخي، لا لأجل أشخاصٍ زائلين، لا للمظفر ولا الأميرة، ولا حتى لأجل (إيكيل) ذاته. هذا قَسَمُنا، وهذا ما

عشنا نفعله طوال تاريخ المملكة. إن عاد (جسّاس)، وإن وجد أية ثغرة، فستكون وبالًا على (أنطاكيا). يجب أن نكون دائمًا مستعدين له.

أطرق (عاموران) ولاذ بالصمت. في قرارة نفسه أدرك أنه مصيب في كل كلمة نطق بها. تنهدَّ بحرارة. ثم أنه رفع عينيه قائلًا:

- يمكنكِ الرحيل الآن.

بدا لمن يستمع إلى الحديث، ولغرابة الجملة، أنه يهذي. لولا أن نهضت من خلف ظهره بغتة الأميرة (سلام) من على فراشها. أزاحت الدثار الثقيل، ووثبت أرضًا في نشاط. فقط لتبدأ قسماتها في التشكّل، وجسدها يتحوَّر تدريجيًا وببطء: تتضاءل قامتها، وتنحف أطرافها، ويستطيل شعرها البني، وتستعيد ملامحها شكلها القديم!

كانت عينا (يوناس) في تلك اللحظات تشعان بريقًا. أمَرَ في جدية:

- يمكنك المغادرة يا (فيروزة). لستُ بحاجة للتأكيد عليكِ أن يسير كل شيء على ما هو معهود، ودَعي لنا مراقبة الحكيم.

رددت في وجل:

- هل قد يكرر الأمر؟

- يمكنكِ الرهان على ذلك. لكن لا تخشي شيئًا يا بنيّة، سنكون بجانبك في كل مرة.

نقلت ناظريها بينهما، قبل أن تنحي باستسلامٍ مهذب، وتجتاز الحجرة الفسيحة لترحل عبر الباب الخلفي، عائدة إلى جناح الجواري.

- الآن لم يبق إلا (إيكيل).

غمغم (يوناس)، فابتسم (عاموران) مُطمئنًا:

- باذن الله سينجح. لا تقلق لهذا. لقد أتممنا الأصعب.

كانت الشمس قد توغلت بضيائها، عبر الشق الضئيل بين ضلفتي الشرفة، لتنثر بريقًا محببًا غمر الحجرة بأكملها. برغم التوتر، وبرغم الصراع الوحشي الدائر على مسافة من مملكتهم، كان (عاموران) شديد الثقة.

«حين يتعلق الأمر بـ(إيكيل)، لا أقلق أبدًا». أتمَّ كلامه.

(١١)

عاد إلى الشرفة بوجهٍ غير الوجه، شاردًا، مكظومًا، يصارع قلقًا غير عادي. عند الباب، وقبل أن يدلف، أشار لأحد الجنود القريبين فهرع إليه. أسرَّ في أذنه ببضع كلماتٍ سريعة. التقط الجندي الأمر، وأحنى رأسه في طاعة، قبل أن يستدير على عقبيه ويرحل منفِّذًا دون كلمة.

استقبله القاهر بنظرة متسائلة. قال باقتضاب منهيًا النقاش قبل أن يبدأ:

- كنت أتحقق من أمرٍ ما.

وضع عدسته المسحورة من جديد، وعاود المتابعة بترقب أشدّ. كانت المطاردة الغامضة لم تأذن بالانتهاء بعد.

(١٢)

كانت اللطمة عاتية.

في اللحظة التي شقَّ فيها (إيكيل) الهواء منطلقًا، بمنقاره الحاد والمدبب، ومستغلًا تأثر الوحش بجراحه، لم يدرك مع اندفاعته المتهورة أن المخلوق قد أكسبه ألمه عنفًا مضاعفًا، وأن رغبة جنونية في التحطيم والتدمير قد تملكته حتى ثمل بها. كان الجنيّ ينطلق صوبه، والريح تدفعه دفعًا، لولا أن استدار الوحش بغتة، وهوى بذيله الهائل على (إيكيل) يقذفه أرضًا كالقنبلة.

كان الجسد الجديد للجنيّ أكثر صلابة وقدرة على تحمل المعارك من هيئته البشرية السابقة، لكن اللطمة، وارتطامه العنيف بالأرض بعث في أوصاله آلاف الآلام الحارقة كالإبر، وجعله يطلق آهة متوجعة، ربما لأول مرة في حياته.

لم يمهله الوحش، أسرع بخطوتين فحسب، يقطع الطريق إليه، ويهوى بقدمه ذات الحراشف ليثبته بين مخالبه العملاقة أرضًا قبل أن يستجمع قواه.

ثم أنه رفع عقيرته إلى السماء يعوي ظافرًا لأول مرة في تلك المعركة، قبل أن يميل على فريسته، ليترامقا وجهًا لوجه للمرة الأولى.

فى رقدته وسط حفرة واسعة المساحة، مقيَّدًا تحت وطأة قدمٍ تزن أطنانًا من اللحم والعظام، حدَّق (إيكيل) في عيني الوحش الصفراوين المشقوقتين طوليًا كالأفعوان.

كان وجهه بشع الخلقة بحق.

بملامحه التي تنفث غضبًا وجنونًا، مال عليه ليطلق تيارًا من الأنفاس الكريهة في وجهه، وهو يتأمله. تجمَّد الزمن بينهما، والتبست كل الأفكار في ذهن الجنيّ. رفع الوحش رأسه، يطلق عواءً مزلزلًا جديدًا، قبل أن يهوي بفكيه عليه وقد قرر إنهاء الأمر. وكانت تلك اللحظة التي ينتظرها (إيكيل).

من مجرى خفي في أعلى حلقه، وبحركة مباغتة سريعة، فتح فمه وأطلق دفقة من مادة كاوية تناثرت على وجه المخلوق، لينفجر الأخير لحظتها بصرخة ألم رهيبة، وهو يتراجع كالمصعوق إلى الوراء، مُحررًا إياه.

وأخذ الوحش يطوِّح برأسه يمينًا ويسارًا، وهو يدور حول نفسه صارخًا. وتثاقل جسده على ساقيه، فهوى على ركبته لحظة، بينما زئيره يرجُّ الأرض، قبل أن يعود ليقف ثانيةً وهو يترنَّح. كان الألم لا يُحتمل، والمادة الغامضة التي أطلقها (إيكيل) من القوة أن شوَّهت نصف وجهه، وأذابت عينه اليسرى تمامًا.

متفاديًا الذيل الذي أخذ يتطاوح قاطعًا الهواء في كل اتجاه، دفع (إيكيل) نفسه عن الأرض، مكابدًا ألم عظامه، وجرحه الذي يشخب دمًا، ليثب مشرعًا جناحيه بأقصى اتساعٍ لهما، ويحلق في الهواء مبتعدًا.

بالنسبة إليه، وعند تلك النقطة الحاسمة، كانت المعركة قد انتهت.

رغم الألم الطاغي، وهو يطير عبر النهر إلى الضفة الأخرى، اتخذ نفس السير الذي اتفق أن حدده لنفسه بالأمس، محاذرًا أن يحيد عنه ولو مقدار قبضة. وما أن استقرت مخالبه على أرض الضفة، حتى اخترق بآخر طاقته حاجز الأشجار الكثيفة، وقد خفتت تمامًا سرعته، ودبَّ الوهن في أجنحته.

كان يلهث نازفًا، لكنه تماسك حتى اللحظة الأخيرة التى توارى فيها خلف شجرة، مطمئنًا أنه صار محجوبًا عن الوحش، و...

وانهار تمامًا.

على أرض المملكة، كان العملاق يترنح على غير هدى، وهو يخمش وجهه بطرفيه الأماميين الضامرين، مُحاولًا التخلص من المادة الحارقة كنيران الجحيم.

كان الألم بشعًا، يدفعه مع جراحه السابقة، للتخبط بين الأشجار، ناثرًا الجذوع والأغصان كأوراقٍ جافة أصابتها دفقة ريحٍ عاتية. وتراءى له النهر على بعد أمتار. كان ملاذه ودائرة سلطانه، وفي تلك اللحظة بالذات تعاظم في أعماقه الحنين إليه، ككل حيوانٍ مفترس على الأرض هُزم، وحان وقت الانسحاب إلى وِجَاره مداريًا خزيه.

بوثبة هائلة، قفز من على أرض الشاطىء مخترقًا قلب الماء. وكان آخر عهد السماوات الفسيحة به، صرخة مدوية وأخيرة أطلقها من جوفه شديدة الألم، وبالغة الغضب، قبل أن يبتلعه النهر تمامًا.

(١٣)

كانت الأشجار الكثيفة تسد الأفق، لكنَّ الصاروخ المائي الذي شقَّ طريقه إلى السماء حتى بلغ عنانها، تخايل لسكان (أنطاكيا) رغم المسافة، كأنما تجمَّع ماء النهر كله في قذيفة واحدة، لتنفجر بغتة ودون إنذار. هتف القاهر:

- يا رب السماوات! ما كان هذا؟

من وراء عدسته، كانت عين (جسّاس) تدور في جنون. تمتم كالمشدوه:

- لقد عاد العملاق كما جاء!

- عاد؟ هكذا فحسب؟!

غسل الماء المنهمر كل شيء: الأشجار على جانبي النهر، الصخور، ضفة الشاطىء الحصباء. ولبرهة أخذت الموجودات في المشهد ترتج بفِعل المخلوق، قبل أن تعود كل الأشياء لطبيعتها، وتبدأ أمواج النهر في الانحسار، ثم الخفوت تدريجيًا، قبل أن تسكن في الأخير.

وعاد المشهد القديم الصامت يملأ جنبات الأفق كما كان الحال دومًا.

خلع (جسّاس) العدسة، وألقى بها إلى مساعده في غير اكتراث. فرك بأصابعه عينيه في إرهاقٍ وتوتر.«ما كان هذا؟». صرخت أعماقه. «بحق

الله، ما كان كل هذا؟ أي جنونٍ جرى تحت سمعي وبصري اليوم؟ أنا، (ابن زهير الرنديّ)، مالك خزائن المملكة وحاكمها الأوحد، تشتعل الأمور وتهدأ أمام ناظريَّ، ولا يزيد عِلمي عن أحقر خادم في (أنطاكيا)؟!».

بدا الارتباك على القاهر الذي لم يعتد عدم تلقي إجابة على أسئلته، خاصةً أمام الحاشية والحراس. تنحنح وهو يختلس النظرات لمن حوله. كان الجميع يرقبه. ضم عباءته حول جسده، يُكسب روحه هيبةً فُقِدت. صاح آمرًا:

- اسمع أيها الحكيم: أريد فرقة استطلاع حالًا. مُرهم أن يخرجوا لـ....

- لا حاجة لهذا، لقد خرجت الفرقة بالفعل.

رفع حاجبيه في استغراب:

- خرجوا؟ من أمرهم بهذا؟ وكيف...

قاطعه مجددًا في نفاذ صبر:

- أنا أمرتهم!

وكأنما شعر أنه قد تجاوز الحد، فقط أمام مَن حولهم، أردف كابتًا ضيقه، محاولًا التحكم في نبرات صوته:

- أنا أمرتهم يا مولاي. لا حاجة بك لإصدار الأوامر، طالما كان مستشارك الأمين يفهم ما يدور في ذهن جلالتك دون إشارة.

التقط (نذير) المحاولة منه. عقَّب مجاريًا رغم الغيظ المكتوم:

- آه، بالطبع. أحسنت أيها الحكيم، أحسنت. يمكنني دائمًا الاعتماد عليك وقت الشدائد.

أحنى رأسه مداهنًا:

- في خدمتكم دومًا يا مولاي.

ثم اعتدل مردفًا:

- والآن اسمح لي بالانصراف، أريد أن أكون في استقبال فرقة الاستطلاع بنفسي.

أشار له (نذير) بكفه:

- بالطبع، بالطبع. يمكنك الذهاب، واخبرني عما وجده رجالي فور علمك.

انحني له مجددًا في حركة سريعة، قبل أن يستدير مغادرًا دونما كلمة، وكأنه قد ملَّ هذا الموقف الفارغ، والحديث الذي يعرف كلاهما عبثه.

ومضى من فوره إلى الأسوار، يرفل في القلق، ويكاد يقتله الترقب. كان قلبه يتواثب في صدره غير متمهل، وفضوله يسابقه إلى البوابة. في الطريق، أخذ خياله يرسم رؤى غير مترابطة، ويتسائل عن كنه الآثار التي قد تعثر عليها الفرقة. تعاقبت الصور في ذهنه لعشرات الأشياء المتنافرة والمختلطة، دماء، حطام، أشلاء، أفرع وغصون مهشمة، و...

ودون وعي رفع بصره إلى القصر البادي من بعيد.

... وثياب الأميرة؟!

هز رأسه بقوة، كأنما ينفض عن نفسه الفكرة.

كان قد وصل مقصده. دنا منه قائد الحراس يدعوه للاستراحة في ثكنته حتى مقدم الفرقة. ناداه مرتين لكنه لم يرد. لم يسمعه حتى. كان يقطع الساحة الصغيرة أمام البوابة مجيئًا ورواحًا، شابكًا كفيه خلف ظهره.

كانت الفكرة الأولى التي استقرت في ذهنه، تأبى الخروج من عقله تمامًا، رغم رؤيته للأميرة راقدة بنفسه. لقد شاهدها بعين اليقين، فلماذا تهاجسه الأفكار بهذا الشكل؟ هل يعود ليتأكد مجددًا؟ هراء. في المرة الأولى كانت لديه الحجة والمهرب، فماذا قد يُقدِّم في محاولته الثانية؟ ثم بِمَ يتأكد بالضبط؟ وكيف؟

وداهمه السؤال الأهم: لماذا يريد التأكد من الأصل؟ ألأنها الوحيدة التي يتوقع منها فِعلًا كهذا؟ الوحيدة التى تجسر على العبور من الأسوار؟ أتراها خرجت بالفعل؟ وكيف لم يدرِ؟ من ساعدها؟ أخائنٌ في المملكة؟ لابد أنهم حراسها الأغبياء حتمًا.

وفَرَك جبينه في عنف. أتراها عرفت؟ ولكن من يُمكنه على وجه الأرض إعلامها بهذا؟ في كل لقاءٍ بـ(نذير) كان متأكدًا أنه لا ثالث لهما في المكان، فكيف سيتسرب إليها خبره؟

يا إله الكون!، رأسي يكاد ينفجر.

ثم أنه تذكر وجهًا طاف بمخيلته بغتة، فتجمَّد في مكانه مصعوقًا. ضرب على جبينه. كيف بحق الله نسيه؟

استدار ملهوفًا ناحية البوابة، في نفس اللحظة التي كانت الأصوات فيها تتناهى من الناحية الأخرى لتصل إليه. كان يتمنى أن يؤكدوا ظنه بأي دليل. أسرع ناحيتهم مهرولًا. قبل حتى أن يصل، كان يلوِّح للجنود أن يفتحوا فورًا، لكنَّ أحدًا لم يكن ينتظر الأمر. أسرع جنديان يفتحان البوابة الضئيلة، التي دلفت منها الفرقة الصغيرة ذات الخمسة جنود. كانوا واجمين. في أعين رجلين منهم لمح دموعًا حية، وفي أعين الباقين آثارًا لأخرى مُسِحَت.

هتف بهم في لهفة:

- ماذا وجدتم يا رجال؟

ترامقوا مليًّا في كآبة، ولم ينبس أحدهم.

- وَيْلكم، هل اخرسَّت أصواتكم الآن؟ فلينطق أحدكم وإلا ألقيت بكم جميعًا في السجن!

تنحنح واحدٌ منهم. نظر إلى آخر الرجال الواقفين في طابورهم الصغير. دنا هذا من الحكيم حاملًا لفافة كبيرة وضعها أرضًا تحت قدميه. خفق قلبه بقوة. عرف فحواها قبل حتى أن تُفتح أو ينطق أحدهم بكلمة. ركع الرجل على ركبتيه أمامه، وفضَّها بيدٍ متثاقلة.

- هذا كل ما وجدناه بالخارج.

قال أحدهم عن يمينه، لكنه لم يلتفت إليه.

- لقد أخبرتنا الآثار بما جرى: كانت مذبحة!

فُضَّت اللفافة، وتكشَّفت له بشاعة محتوياتها. أمام عينيه طالعته بقايا رأسٍ لحمارٍ عجوز قُضِم نصفها، وتجمَّدت الدماء السوداء على النصف الآخر. بينما استقرت بجوارها ملابس رثة ومتآكلة، أغرقتها الدماء الجافة، لشيخٍ طاعن كان يرفل في الصحة قبل أيام.

حتى رغم يقينه، شهق (جسّاس):

- يا إلهي الرحيم!

(١٤)

لم يعرف كم بَقِيَ فاقدًا وعيه، متأرجحًا بين الظلمة والنور.

في اللحظات التي كان يستفيق فيها قليلًا، كان يُبصر مظلة وافرة من الغصون المعقودة من فوقه كالعريش، ورائحة مُسكرة حلوة تسري عبر أنفه إلى أعماق روحه تهدهدها، فيُسلم نفسه للنوم من جديد مطمئنًا. بين الفينة وأخرى يفتح عينه متثاقلًا فلا يكاد يرى شيئًا، تشوُّش وربكة ومشاهد متضاربة تحيط به.. ثم لا شيء من جديد إلا السواد. فقط ليدرك قبل الرحيل أن آخر ما كان يراه وجه (سلام) يطلُّ عليه يغرقه العَرَق.

لأربع ليالٍ كاملة مكثت تعتني به كطفل، يستيقظ شاهقًا بقوة، وكأن روحه تُنتزع من بين ضلوعه. تهبُّ مُسرعةً إليه. تلفاه يهذي ببضع أحرفٍ متضاربة، وبلغة غير مفهومة، وغير بشرية، قبل أن يقهره الصمت، وتسحبه الخيالات مجددًا إلى الظلام.

كانت الحمَّى قوية، وجرح كتفه ملتهبًا ومتورمًا. من النظرة الأولى له قدَّرت أنه مسمومٌ كذلك. غسلته جيدًا، وطهَّرته من الدماء والقيح، قبل أن تضمِّده بقماشٍ نظيف، تفصله عن الجرح أعشابٌ جمعتها بعناية من الغابة. كانت خبيرة إلى حدٍ كبير بعلم الأعشاب وفوائدها، هو من علَّمها كل هذا، وفي أعماقها سخرت أن يكون أول تطبيقٍ لدروسها عليه!

لأربع ليالٍ كاملة كانت تقبع بجواره، تنتظره في كل لحظة أن يفيق، ويسترد بعضًا من وعيه. العرق البارد يغرق جسده، والعباءة الثقيلة التي تدثِّره لم تعد تصلح. تجمع أغصانًا وحطبًا جافًا، وتشعل فيهم النيران لتدفئه. ترقد آخر الليل ضامة ساقيها إلى صدرها، ترتعد خوفًا وتوجسًا وقلقًا، وترنو إليه بعينين حائرتين..

إلام يقودها المسير من دونه؟ من سواه قادر على إرشادها وحمايتها؟ هي التي تشعر الآن، أشد ما تشعر، بالعجز والحاجة للأمان!. أترى الرحلة تنتهي من قبل أن تبدأ؟ تهز رأسها بتصميم. تقول لنفسها إن يُصب بمكروهٍ فلن تضيع تضحيته هباء، ستكمل رحلتها للنهاية وحتى يتم الله أمره.

وأخيرًا تنام منهكة. تنتظر في الغد معجزةً قد تحدث وقد تغيب طويلًا.

غير أن المعجزة لرحمة الله لم تتأخر، في اليوم الخامس كان يشرع عينيه لأول مرة مستردًا أخيرًا وعيه.

لم تكن إفاقته كاملة، لكنه كان يبدو منتبهًا كثيرًا عن الأيام السابقة. ناداها بوهنٍ فهرعت إليه تسبقها دموعها، وابتسامة فرح طاغية. طمأنها بكلماتٍ بسيطة، لم ترح قلبها إلا بقدر ما رأت في عينيه من بريقٍ قديم. في هذه اللحظة فقط خلصت أنه أخيرًا قد جاوز المحنة.

وكشف عن جُرحه وهو يغتسل وحده في جدولٍ قريب، فوجده نظيفًا ومضمَّدًا بمهارة فائقة، عندها ابتسم برضى رغم الألم، مازالت تلك الصغيرة قادرة على إبهاره. ربما بعد كل شيء لا يحتاج للقلق عليها إلى هذا الحد.

ارتدى ثيابًا نظيفة، وأطعمته مكسراتٍ وتمرًا، وسقته ماءً مغليًا مع الأعشاب. كانت تلك الأشياء ذات مذاقٍ غريبٍ وغير مألوفٍ في فمه، لم يعتدها، ولم يحسب يومًا أن يحتاجها كما يفعل البشر، وتساءل بعجبٍ كيف يغترَّ الإنسان بنفسه أو يطغى، وفيه ما فيه من نقص؟ إن كان البشر يموتون دون كسرة خبزٍ أو شربة ماء، وتُسلمهم حشرة للمرض والموت، فعلام يتطاولون ويُجرمون؟ وكيف تُسكرهم الشهوات؟

وقالت له وهما يتحلقان حول النار ليلًا:

- كدتَ تقتلني قلقًا!

أحكم دثاره حول جسده. أراح رأسه على جذع الشجرة من ورائه، وقال مبتسمًا:

- ما زال بالعمر بعضٌ من بقية.

- الحق أن جسدك هو ما يزال يملك بعضًا من قدراته العجيبة، ذلك السم في دمائك كان يكفي لصرع فيل!

- أنتِ واهمة، لولا العقار السحري لتلقيتِني جثةً بين يديكِ.

- المهم أنك بخير الآن.

وأحاطت بكفيها الكوب الساخن تستجلب منه دفئًا. لم تملك نفسها إلا وهي تقول مبتسمة في عبث:

- من بين كل حراس الأرض، لا أنتخب لرحلتي إلا أشدهم جنونًا!

قهقه باستمتاع، وأمعن الاسترخاء في جلسته.

نام مرتاحًا تلك الليلة، ونامت قريرة العين لأول مرة، لقد استعادته أخيرًا.

بعد تلك الأحداث بيومين، وحينما استرد كامل قوته، أهالا التراب على كومة الحطب، وأزالا آثارهما جيدًا، قبل أن يتخذا طريقهما عبر الغابة المظلمة.

كانت في بداية الحمَّى قد سقته قطرة من السائل السحري المضاد للتحول، فاستعاد هيئته البشرية. حين شرعا في التحرك، كان آخر ما أخرجه من متاعهما قنينة جديدة مماثلة لسابقتيها.«لقد فكرتُ في الأمر». قال لها. «لا أعتقد أني سأكمل الطريق معكِ على تلك الهيئة».

سألته مستغربة:

- لماذا؟

- منذ ليلتنا الأولى خارج الأسوار وأنا أفكر في الأمر. لقد اختبرت جسدي هذا جيدًا، وأعرف أنه لن يحتمل الإرهاق ووهن الرحلة.

- أنت أكثر قوة مما تتخيل.

هز رأسه:

- أجساد البشر هي من صُنع الله يا (سلام). إنها قادرة بأقل طاقة على كل ما أعجز عنه الآن، أما هيئتى تلك فمجرد صدَفة مجوَّفة أتدثر بها، قشرة زائفة سرعان ما ستنهار. إن أردتُ المواصلة معكِ فعليَّ أن أكون بهيئة قادرة على التحمُّل أكثر.

ضحكت:

- وإلام ستتحول هذه المرة؟ عنقاء؟

غمز بعينه:

- ستروقكِ هيئتي الجديدة كثيرًا.

لاح في عينيها فضولٌ، فاستدرك بغموض:

- سترين لاحقًا.

ثم أردف في جدية المُعلِّم:

- ما كان قبل أيامٍ هو المرة الأولى التي تشهدين فيها تأثير السائل عمليًا. كما شرحت لكِ قبلًا، فإنه قادر على تحويل الجسد إلى أية صورة يرسمها صاحبه في خياله، المهم أن يظل قادرًا على الإبقاء عليها في ذهنه. إن فقد تركيزه عنها فسيضطرب تحوُّله ويتشوَّه جسده. أما ذلك السائل الآخر فتكفي قطرة واحدة منه لإزالة آثار التحول.

سألته باهتمام:

- ولماذا لم تدعني أجرِّبه؟ كان يمكننا التحول إلى سمكتين أو ما شابه تقطعان النهر في لحظات!

هزَّ رأسه نفيًا:

- لم يكن هذا ممكنًا، ذلك السائل صُنع بيدٍّ قومي، ولم تختبره أجساد البشر قط، خشيتُ أن تعرضك التجربة الأولى للأذى.

كان الحديث يشغلهما كثيرًا عن الطريق الشاق. وجعل (إيكيل) طوال الوقت يعيد عليها بعض الدروس القديمة والتعاليم، مُذكِّرًا إياها بها في أول اختبار حقيقي خارج أسوار المملكة.

كانا يقطعان الغابة في حذر متمهل، رغم حديثهما المغرق في الذكريات والدروس والدعابات. بالطبع، كان الانفعال يستعر في أعماق كليهما، لكنَّ أحدًا لم ينطق عنه بحرف، واكتفيا بثرثرتهما يُغرقان فيها كل التوتر والمشاعر المتقلِّبة.

واعتادا مراقبة الدرب بين الأشجار. حين لا يلوح شيءٌ في الأفق، يخرجان من مكمنهما ويسرعان الخطى، وفي الليل يشعلان النار لإبقاء المخلوقات العجيبة بعيداً.

لكن حدث يومًا أن تعرضا لهجمةٍ من ليثٍ هائل الحجم، مدبب الأنياب، أسود اللون كتمثالٍ من الأبنوس. لم يَهَب النار على غير العادة، وأقبل يتشمم الجو مُمنيًا نفسه بصيدٍ طيب. بيد أن القدر كان أرحم بهما حين صكَّت خطواته أذنيهما، وهي تقترب بوقعٍ مسموع حاول إخفاءه، فأسرعا يتسلقان الغصون الضخمة للأشجار، ويستتران قبل وصوله.

هكذا قرر (إيكيل) أن يرتحلا نهارًا، وفي الليل يلوذان بالأشجار للمبيت بمنأى عن الحيوانات المفترسة. لا نار، ولا حماية. فقط وحدهما، يقبعان بين شجرةٍ وأخرى في انتظار الصباح، يتعاقبان نوبات النوم، خشية خطرٍ جديدٍ يأتى من حيث لا يدريان.

وأخيرًا بعد يومٍ وليلته لاحت لهما في الأفق نهاية الغابة، وبدا الضياء أخيرًا من بعيد، متألِّقًا وباعثًا على الأمل، بعدما احتجب أغلبه طوال الأيام السابقة، وعجز عن تبديد الظلمة السادرة بين الأشجار.

في الصباح الأخير لوصولهما، تركها (إيكيل) تستريح ممددة ساقيها المنهكتين، ولاذ هو بخلوةٍ بعيدة وحده. حين تأكد أنه حُجب عن الأنظار بالكامل، تجرّد من ملابسه كلها زافرًا في انتشاء، وغاص في عينٍ ساخنة أغراه ماؤها.

كان يلعن في أعماقه ملابس البشر وهيئتهم الضعيفة، وذكر في تلك اللحظة قواه المسلوبة، وقدرته على الطواف والتحليق، وعباءته البيضاء القديمة، فابتسم في شجن، وتنهد هازًا رأسه.

أما (سلام)، وفيما عيناها توشكان على الانغلاق من فرط التعب، أحسَّت بحركة مفاجئة عن يمينها، فانتفضت واقفة.

وشهقت مبهورة!

تراءى لها على مسافة قصيرة فرسٌ فائق الجمال، أبيض الجلد كغيمة في نهارٍ ربيعي، رشيق، نظيف الجسد والعُرف والذيل، رغم الغابة الغارقة في الوحل والأوراق الجافة.

تأملته للحظاتٍ مشدوهة، وأدركت أنه مخلوقٌ سحري مما تعجُّ به الغابة، على أنه بدا وديعًا فتشجعت أن تدنو منه لتلمسه. هزَّ رأسه برشاقة، فتطايرت غُرَّته أمام عينيه وكأنه يرحب بمقدمها. تحسست وجهه ورأسه بكفيها. همست مبهورة الأنفاس:

- من أي ضياءٍ وُلدت أيها المخلوق البديع؟ أتراك جائعٌ؟

وتذكرت أن لديها في الخُرج الجلدي بعضًا من فاكهة، فمضت إليه، وركعت على الأرض تفتش عنه...

- (سلام)!

شهقت بقوة، واستدارت في حركة سريعة. كان الفرس يعبث بالأرض بطرف حافره، ومن بين شفتيه خرج صوت (إيكيل) قائلًا:

- رحِّبي أيتها الأميرة بجوادك الجديد!

(١٥)

مُتلفِّعًا بسواد الليل، تسلل (يوناس) عبر طرقات (أنطاكيا) الغافية في البرد والوحشة، قبل ساعاتٍ قليلة من صلاة الفجر.

كان اليوم مشحونًا، أشرع الصباح نوافذه عليهم بصرخاتٍ جهنمية لذلك الوحش القابع في النهر، وسرعان ما تناقلت الألسن قصصًا عن معارك مروِّعة، تدور في الأفق.

- لعلَّها طريدة.

- بل هو وحشٌ آخر.

- رحماك يارب!

- قال لي قريبٌ في القصر أن الحكيم (جسّاس) شهد معركة بين عملاقين.

- عملاقٌ ثانٍ؟ من أين أتى؟!

- ذهب الأمان إلى غير رجعة.

- لعن الله الغجرية.

- كان لابد للملك أن يتصرف!

همس واحدٌ:

- هذا الصبي؟ أنتم واهمون.

- سقى الله المظفر، لو كان هنا لافتدانا بنفسه.

- أتحسبون الوحش مُهاجمنا يومًا؟

- لو كان يبغي شرًا لما منعته أسوارنا.

- إذن هو لا يقصدنا.

- كان بعيدًا لسنواتٍ منصرمة!

- فماذا تغير؟

- قد بلغتني الحقيقة: كان قائد الشرطة القديم يسقي حماره من النهر فأزعج ذلك المخلوق.

- وهل جُنَّ ليقرب النهر وفيه ما فيه؟

- يقولون أنه كان يحضِّر تعويذة للسيطرة على الوحش، لكنه فشل فالتهمه!

- يا قوم اذكروا محاسن موتاكم.

- تعويذة؟ (سامر) لا علاقة له بالسحر ولا يفقه فيه حرفًا.

- ألم تروه قبل رحيله؟ الحق أن الرجل في أيامه الأخيرة كان...

ولوَّح بيده في استخفاف.

قال ثانٍ:

- لعن الله الكِبَر وخرف العمر الطاعن!

كان (يوناس) يدنو من الأسوار رويدًا. عباءته تدثِّره، وقلنسوته تغطي عينيه اللتين برقتا بالانفعال والتوتر رغم هدوئه الظاهري. برغم التسلل، وبرغم الحراسة المكثفة التي أطلقها (جسّاس) في المملكة بداعي الحماية، كان يسري متمهلًا وكأنه يتنزه. يتوقف عند تقاطع الطرقات، يرمق الاتجاهات من حوله، ثم يواصل من جديد ببطءٍ وقور.

بعد صلاة الظهر، خطب القاهر في الناس خطبة بليغة ومؤثرة. حثَّهم فيها على مواصلة الحياة، والعمل كما تسير الأيام المعهودة. طمأنهم على إجراءات الأمان، ومتانة الأسوار، والأهم، زوال الخطر تمامًا، وبُعده عنهم إن حدث وتكرر.

وقضى شطرًا من خطبته يعدد مآثر فقيدهم، صديق عمر أبيه وأحد مستشاريه هو، كذا قال، ويُذكِّر الناس بخير ما كان يفعل، وبيده العليا، وبشبابه وكهولته الفانيين لأجل المملكة والشعب.

كان يتحدث بحرارة تنضح صدقًا، وكأنما كان ما كان من رجلٍ آخر غيره، لم يخرج حكم النفي من شفتيه، ولا شهد الناس عليه عداوة مبيَّتة للراحل.

ثم أنه صلى معهم صلاة الجنازة وخرج، في تقليدٍ أُجبِر عليه بأمر مستشاره، ليدفنوا رفاته وملابسه في قبرٍ يليق بحارس المملكة القديم، وأحد رموزها.

وقفل عائدًا والحكيم (جسّاس) في موكبٍ خاص إلى القصر، تاركًا عامة مملكته يعودون على الدرب إلى بيوتهم وأعمالهم، تلوك ألسنتهم ما جرى اليوم من أحداثٍ ووقائع عجيبة.

وكان (يوناس) يقترب. يرنو بعينيه، اللتين بدأتا في التحوُّل، إلى الأسوار الشاهقة. تماوجت صفحتاهما، واتسعت الحدقتان حتى شمل السواد كل شيء فيهما. بهمسٍ غير مفهوم، وبلِغتهم العجيبة، بدأت شفتاه تلهجان بتعويذة سحرية.

وتحت الأسوار توقف.

كان الجنود جميعًا في تلك اللحظة مجمَّدين كتماثيلٍ من نحاس، أعينهم تنبض بالحياة، وبشرتهم تسري فيها الدماء، لكن دون ذلك كانوا متخشَّبين في وقفاتهم بلا أدنى خلجة.

لم يكن ثمّة وقت!

مع اقتراب الجنيّ، انفتحت البوابة الصغيرة، بصريرٍ هادىء وخافت، على مصراعيها. ارتقى عتبتها ووقف. مد يدًا مبسوطة الكف أمامه، وبرقة بالغة نفخ فوق صفحتها، عندها تألقت كفه، وتطايرت مع نفخته ذرات غبارٍ ذهبي، سبحت في الهواء متجاوزة البوابة المشرعة.

كانت المملكة هائمة في الهدوء، وأنبأته غريزته باقتراب نفرٍ من الجند من وراء ظهره على مبعدة قليلة، لكنهم مروا خلفه يتسامرون، حجبته تعويذته عنه، فلم يروه ولم يشعروا بأدنى ريبة تدفعهم لرمق الأسوار حتى.

لبث (يوناس) ينتظر لدقيقة.

ثم أخرى.

وأخرى.

وفي الرابعة ظهر خيالٌ من بعيد، تلفُّه غمامة ذهبية شفافة. ابتسم الجنيّ راضيًا. دلف القادم للمملكة، فعادت البوابة تنغلق تلقائيًا بذات الرفق. ومن بعيد سمعا نعيقًا لبومة تجوب السماء. فتح الجنيّ أحد طرفي عباءته، فامتدت على صفحة نسيجها حلكة قاتمة، بحرٌ من الظلام لا أول له ولا آخر.

- مرحبًا بك أيها القائد.

قالها مبتسمًا ليُسكن القلق الذي التمع في عينه.

- قد عدتَ إلى بيتك من جديد، والآن علينا أن نخفيك عن الأنظار حتى حين.

كان (سامر) يجيل بعينه في أرجاء المدينة. همس:

- ظننتُ الموت أقرب إليَّ من رؤيتك ثانيةً يا (أنطاكيا)!

اتسعت ابتسامة (يوناس) ولم يعقِّب. وبحركة سريعة غمره بالعباءة المفتوحة حتى أخفاه بشكلٍ مدهشٍ تحتها، وبخفوت فرقع بإصبعيه، فتألق الرجلان لجزءٍ من الثانية، قبل أن يختفيا تمامًا.

ودبَّت الحركة من جديد.

(٦)

عند أطراف الغابة توقفا. اجتازا حاجز الأشجار الأخير، ووقفا على ربوة عالية يرمقان الأرض الرحبة أمامهما، ترتع في الحقول الخضراء والألوان المبهجة.

خفق قلبها قويًا، بخوفٍ وتهيُّب، وبحماسة غير مسبوقة. تنهدت، وانسحبت شفتاها بابتسامة تبعث بها الشجاعة في روحها. من ورائها لكز (إيكيل) ظهرها برأسه وأطلق صهيلًا خافتًا. ضحكت:

- سيكون عليك أن تعتاد الصهيل طويلًا.

قال وهو يطوّح غرَّته عن عينيه:

- أريد أن أرى النظرة على وجه أحدهم حين يرى فتاةً تحدِّث جوادها.

- لن تكون أغرب من نظرته حين يسمعك ترد!

ترامقا للحظة، قبل أن يطلقا، رغم الخوف والتوتر، ضحكة عالية رددت الأشجار صداها طويلًا.

من بعيد، هبَّت نسائم متماوجة ومنعشة أفعمت صدريهما.

اتخذت (سلام) طريقها لأسفل، والجنيّ من ورائها يكلل ظهره متاعهما وسيفها القصير.

كانت رحلتهما الآن قد أذِنَت بالبدء.

نهاية الجزء الأول

كان اللقاء مُقدَّرًا، ولسوف تمرّ (سلام) و(إيكيل) بعقباتٍ وأخطار، إلى أن يتقاطع طريقهما مع (صليل)، ورفيقته الغامضة (سيران)، متنقلين من مملكة لأخرى، ومن أرضٍ إلى أرض، يخيِّم عليهم جميعًا شرٌ عظيم يحمل خاتم (الهاشمي).

من يكون ذلك ؟

هل تجد (سلام) الترياق؟ وهل (بشر) بعدُ حي؟

ما سر (صليل) الذي يُخفيه عن ماضيه؟

ما مصير (المظفر)؟ وماذا سيحدث في (أنطاكيا) التي خلفَّتها الأميرة ورائها تشتعل بالأحداث؟

في الكتابين التاليين من الملحمة، إن أراد الله، ستكون حكايتنا الثالثة والأخيرة، وفيها يسرد الراوي كل الإجابات، ويحكي سيرة ما جرى من

لقاء الرفاق الأربعة، ووقائع صراعهم ضد (الهاشمي)، والأهوال التي لاقوها في رحلتهم عبر أرضٍ تمزقت مُدنها، ووسم الشر ممالكها بالنار والدم.

إن حكايتنا لم تنتهِ بعد، قد بدأت الآن.

شكر وتقدير

- لأمي، أغلى ما في الحياة.. كل ما في الحياة.
- لأحمد إيهاب، صديق العمر، وليومٍ قال لي فيه: «سننشر معًا هذه الرواية ولو من مالي الخاص».
- لشريف متولي، هبة الله، عمرو حسن، أولئك الذين تحمَّلوني بصبرٍ طوال سنوات كتابة الرواية كاملةً حتى نهايتها، بكل تقلبات مزاجي، بكل يأسي ونزقي وكآباتي المتكررة. هذه الرواية ليست لي، بل لهم قبل الجميع.
- لمحمد إمبابي، هالة الشربيني، أماني أيمن، وشريف عبد الهادي، لاهتمامهم الغامر، ودعمهم المستمر حين سُدَّت الأبواب وضاقت السبل.
- لسلمى سامح شمس الدين، على ملاحظاتها الثاقبة، وعنايتها بالرواية منذ اللحظة الأولى، وحتى بلغ الحلم منتهاه.
- وأخيرًا إليك قارئي، وحتى نلتقي في الكتاب القادم إن شاء الله.

للتواصل مع الكاتب:

www.facebook.com/HossamAdelWriter

www.goodreads.com/HossamAdelWriter

www.twitter.com/H_AdelWriter